JOHN FULLERTON

رواية
NOVEL

جون فولرتون

منزل القِرَدة

ترجمة: جورج جحا

روايات

جون فولرتون

منزل القردة

ترجمة: جورج جحا

منزل القردة

منزل القردة/ رواية
تأليف جون فولرتون
ترجمة جورج جحا/ من لبنان
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي :موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس :٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali@jonet.com
تصميم الغلاف:
فؤاد سليمان وهبي / بيروت ، لبنان

لوحة الغلاف :
معالجة بالحاسوب / FM studio
الصفّ الضوئيّ والتنفيذ الطباعيّ :
رشاد برس / بيروت ، لبنان

ISBN 9953-36-059-6

اليوم الأول

الفصل الأول

«لا أحد يعرف ما الذي لا يستطيع القيام به قبل أن يحاول.»

آنون

كان روسو (Rosso) حياً ويشعر بالخجل والعار بسبب ذلك.

لم يكن في وسع هذا الشرطي أن يفعل شيئاً حيال الشعور بالابتهاج الذي تملكه لأنه لا يزال حياً. بينما مات الآخرون أو الشعور بالخجل الذي أعقب ذلك.

أنا أحيا ويموت الآخرون.

شعور بالابتهاج لا يماثله شيء آخر، إنه أفضل من (الأمفيتامين) بل أفضل من ممارسة الجنس.

وعندما كان ذلك يحدث له كان يشعر بحاجة إلى أن يضحك إلى أن يضم الناس إليه معانقاً، إلى أن يقيم حفلة ويسرف في الشرب ويضاجع. يبدو الأمر أشبه بالعيش بسرعة الضوء بينما يزحف الآخرون ببطء كأنهم تحت الماء.

لا أشعر بمدى كوني حياً قدر شعوري بذلك عندما يموت الآخرون، قال لنفسه. إلا أنه كان شعوراً سريع الزوال لم يستمر طويلاً. كان شيئاً من نوع الصدمة الكهربائية، لكن الخجل الذي جاء

في أعقابه لم يزل عنه بل بقي مقيماً مثل وصمة: لست أستحق الحياة أكثر مما يستحقونها، لكنهم ماتوا.

وحدث نفسه قائلاً إن الشعور بالابتهاج بالنجاة من الموت مرات عديدة هو أمر طبيعي تماماً. شيء حيواني، دفعة لا إرادية من الأدرينالين تنقذف في مجرى الدم، ضربة مخدرة ناجحة في مجال الانتصار الوهمي على الموت. إنه شعور دائم لا يغيب في هذه الأحوال شأنه شأن الذعر البارد واصطكاك الأسنان اللذين يسبقانه، والتقزز والقرف من الذات اللذين يأتيان في أعقابه.

وليس هناك سوى خطوة بين هذه الحال وبين التفظيع وارتكاب ما هو وحشي. فنتيجة الرغبة في قهر الخوف من الموت عمد بعض من كتبت لهم النجاة في المعارك إلى تشويه جثث أعدائهم. ولهذا السبب كان بعضهم يأخذ «غنائم» أو تذكارات حرب ـ طرف إصبع أو أذنا أو خصيتين.

وبدافع من ذلك كان قسم منهم أحياناً يأكل أجزاء من جثث الأعداء، أو يترك «بطاقة زيارة» مثل ورق «آص البستوني» في فم الضحية.

وقد شوهد أحياناً ناجون من القتال يتصرفون مع قتلى من أعدائهم تصرف المهرجين، يتمددون بينهم، أو يدفعون سكاير مولعة بين شفاههم الباردة، يسندونهم كي يقفوا ويصافحونهم شادّين على أيديهم المدماة المتخشبة، ويتحدثون إليهم، ووسط الصخب والضوضاء يجدون كل ذلك أمراً مضحكاً في شكل هستيري.

قال في نفسه إن الأمر ليس شأناً شخصياً.

ولم يكن في وسع روسو أن يجعل الأمر يتحول إلى شأن شخصي. فلو أعتقد أن كل قذيفة مدفعية وطلقة مدفع مضاد للطائرات، وكل

رصاصة قناص إنما هي موجهة إليه، لما استطاع القيام بأعباء العمل الذي يتولاه، بل لما استطاع النهوض من فراشه كل صباح.

وقال لنفسه وهو يخرج من «الباص» الصغير إلى الثلج من الأفضل بكثير أن تتصور أنك لست أكثر من ورقة عشب، وأن غبياً ما يرتدي قبعة سخيفة وبنطلوناً رسمت عليه مربعات، يسعى على امتداد الملعب إلى أن يدخل كرة صغيرة بيضاء في أحد الثقوب.

وقف المسافرون على أرض المطار الجليدية والريح تضرب الثلوج بسياطها فتذروها ناثرة بعضها على أرجلهم. كانوا يضربون الأرض بأقدامهم ويضربون أيديهم بعضها ببعض. عدهم روسو فوجدهم خمسة فضلاً عنه. وضعوا حقائبهم في صف مرتب تحت جناح الطائرة الضخمة التي ارتفعت فوقهم كالبرج، ثم عادوا فوقفوا في نصف دائرة وبدا كأن الواحد منهم يتفحص الآخر، وهم ينقلون ثقل أجسادهم من قدم إلى أخرى ملوحين بأذرعتهم إلى جهة ثم إلى ثانية كأنهم في طلبهم الحركة والدفء منشغلون بأداء طقس قبلي. وجوه ملتفعة بأوشحة وقبعات صوفية، أجسام تنتفخ بها سترات فتبدو كروية الشكل، وأيد داخل قفازات يصطفق بعضها ببعض. كانوا هناك، دون أسماء، ودون ما يشير إلى ما إذا كانوا رجالاً أو نساءً.

كاد روسو ينفجر ضاحكاً لهذا المنظر. لم تكن تصدر عنهم أية كلمة. وفي كل حال، لو تكلموا لانتزع عصف الريح الكلمات من أفواههم ومزقها وشتتها. رأى روسو أن جناحي الطائرة لا يزالان محميين بغطائين بلاستيكيين بلون برتقالي. ولم تكن هناك أية إشارة إلى وجود حياة على متنها. كانت الأبواب مغلقة. حتى قمرة الطيار بدا كأن هناك ما أسدل عليها. استدار ببطء ولم يستطع أن يميز برج المراقبة في المطار أو مبنى تجمع المسافرين إلا بصعوبة. كانت المباني محجوبة بشلالات من الثلوج تسقط مهسهسة على المدارج. ولم يكن هناك من

طائرات أخرى تهبط أو تقلع. الريح تعول حول الطائرة الروسية الوحيدة المنعزلة ويتحول عويلها إلى صراخ وهي تضرب في طريقها تلك المسامير البرشامية التي لا تحصى والتي تكسو جلد الطائرة المعدني. كان الثلج يهمس كالرمال التي تعصف بها الرياح، والملايين من حبيبات الجليد الكروية الصغيرة تطقطق مثرثرة وهي تصطدم بثيابهم وتلسع وجوههم وأيديهم.

ركل أحدهم بقدمه الباب في تلك الجهة من الطائرة التي تقع فوق رأس روسو ففتحه. وتحرك الشرطي متقهقراً إلى وراء ومد رقبته ناظراً إلى الأعلى. ودفع أحد أفراد الطاقم بسلم من الألومنيوم إلى الخارج وبدأ بالنزول. كان السلم المهلهل يهتز عند كل خطوة يخطوها الروسي في نزوله عليه. وعندما وصل إلى الارض الجليدية استدار ونظر إلى روسو كأنه يقيسه، و بعد ذلك هز رأسه وأشار إلى السلم. لم يتردد روسو. أمسك بحقيبته ورفعها على كتفه وبدأ يرتقي السلم.

بعد ثلاث وخمسين دقيقة كانت الطائرة الضخمة الشديدة الضجيج وغير المريحة التي تعرف باسم «اليوشن ٧٦» والتي استأجرتها اللجنة الدولية للصليب الأحمر من الروس، على وشك الهبوط من ارتفاع ١٤٠٠٠ قدم إلى ارتفاع بضع مئات من الأقدام في أربع دقائق في انخفاض لولبي حاد لتجنب النيران الأرضية. أحد أفراد الطاقم طلب من روسو، الذي كان يقف في قمرة قائد الطائرة وراء مساعد الطيار، أن يحني ركبتيه وأن يتمسك بجسم الطائرة الداخلي بينما كان مقدم الطائرة ينحدر ويدور دوراناً لولبياً حادا. بدا الأمر لروسو شبيها بركوب سكة الحديد الافعوانية في مدينة الملاهي. المركبة الأفعوانية تلك مخيفة بطريقة تنطوي على شعور باللذة لمعرفتك أنك في أمان على أرض مدينة الملاهي. لكنك هنا لا تشعر بذلك إطلاقاً. فقد بدا أن كل قطعة من الآلة المعدنية الطائرة تولول وتصرخ احتجاجاً. وبدا عجيباً ألا يتمزق الجناحان الضخمان اللذان شاهدهما يهتزان ويضطربان. وكانت حقائب

المسافرين تبذل جهدها للإفلات من الشباك التي تشدها إلى أماكنها في الطائرة. شعر روسو بأن معدته وصلت إلى حلقه، ووجد نفسه عوضا عن ان ينظر إلى أسفل يرفع نظره إلى أعلى، إلى سلسلة الجبال المكسوة بالثلج المحيطة بالمدينة، بينما كانت الطائرة تتجه بهم بتعرج نحو المدرج فتنقلب كأنها تقف على أحد جناحيها فينزلق الأفق ليصبح عمودياً قبل أن تعود الطائرة إلى وضعها السابق. وفي أية لحظة من الآن سيبدأ تخبط الأمعاء الذي يشعر معه المرء بأن قلبه يكاد يتوقف، وكذلك زعيق المكابح وهدير محركات الاندفاع العكسي، والصمت الفجائي بينما يحبس المسافرون أنفاسهم مرهفين السمع لما قد يأتي من خطوط نار الصرب.

إذا كانت الاحتمالات قليلة إلى أبعد حد فكيف اتفق أن أصيب هذا العدد الكبير من الناس. وقال لنفسه.. لا.. ليس هذا أوان طرح أسئلة من هذا النوع. ليس في هذا الكفن الطائر. كن ورقة عشب متواضعة عوضاً عن ذلك.

بعد أن دقق رجال شرطة الأمم المتحدة في أوراق البوسنيين الستة المرهقين المثبطي الهمة، وفي حقائبهم المثيرة للشفقة، اقتيد هؤلاء خارجاً إلى الباحة التي تقع خلف مبنى استقبال المسافرين لينتظروا في الوحل بصبر ركوب ناقلة جند فرنسية مدرعة تقلهم عبر نقطة تفتيش للصرب تبعد ٨٠٠ متر عن الموقع الفرنسي المحصن عند المطار. إنها خدمة نقل في رحلات مكوكية تستغرق الواحدة منها نصف ساعة. وكان المقاتلون الصرب الذين يرتدون ثياباً شبه عسكرية ويحملون أسلحة رشاشة، يطالبون دائماً بالتدقيق في الركاب لكن جنود الأمم المتحدة - حتى الآن على الأقل - حرموهم من هذه المتعة. وكان روسو يستطيع دائماً أن يسمع أصواتهم ترتفع عبر ذلك الإنش من الفولاذ الذي يحجب رأسه عنهم. إنها مسألة وقت قبل أن يقرر هؤلاء «التشيتنيك» حل المسألة بالقوة مستعملين عتلات حديدية يدخلونها في فتحات ناقلة الجند. هناك ألف طريقة وطريقة يستطيع بها الانفصاليون فتح الأبواب، وهم يعرفون

هذه الطرق كلها. وتمنى رجل الشرطة السرية ألا يكون بين المسافرين عندما يحدث ذلك.

جلس قرب القسم الخلفي لناقلة الجند وهي من نوع «بانهارد». استطاع بلمحة سريعة أن يرى حطام دبابة «ت ٥٥» البوسنية الوحيدة في المدينة قابعة في الخندق محمرة اللون من الصدأ ومدفعها وهو من عيار ١٠٥ ملليمترات بفوهته التي غصت بالثلج مصوب بعجز نحو سماء رمادية بدت صفحتها مليئة بالخدوش والكدمات.

لم تكن مضطراً إلى العودة، قال روسو في دخيلة نفسه. هذه الدبابة تجعل قلبه يغور كلما رآها. إنها تمثل كل ما سار في شكل غير صحيح. الآمال الكاذبة والتعلق بقشة، والسهولة التى استطاع بها الصرب حصرهم في هذه المدينة الشبيهة بغيتو.

أخذ روسو وهو يحدق بعينين نصف مغمضتين عبر ثقوب اختلاس النظر في البابين الخلفيين، يسجل في ذهنه كل مرحلة من رحلتهم. كانت هناك البيوت المحترقة التي تنتشر على الطريق، والنوافذ والأبواب التي تبدو مثل محاجر عيون فارغة في جماجم زال عنها اللحم، وكل واحدة منها نقطة إطلاق نار محتملة ربما كان قناص قابعاً فيها. المسلمون إلى اليسار والصربيون إلى اليمين. هنا المكان الأسوأ: سمع صوت ناقل التروس وهو يبدل السرعة وعواء المحرك إثر تغييرها بينما كانت ناقلة الجند ترتقي الجسر الفوقي عند المدخل الغربي للمدينة وهو مكان درجت العادة على أن يتعرض لقصف بمدافع الهاون حيث يلعب الطرفان لعبة ترويع مع دوريات قوات الأمم المتحدة فيطلقون القذائف الصاروخية عليها. أعصاب روسو مشدودة متوترة في انتظار الصدمة، الانفجار النهائي الذي قد يمزقهم إرباً. فكِر في أنك أوراق عشب، كان روسو يقول لنفسه. تخيل أنك كرة صغيرة بيضاء. اعتبر نفسك حسن الحظ.

شعر ضابط البوليس بالقلق على سيارته. كانت تلك هي المرحلة التالية والأخيرة منذ مغادرته زغرب ذلك الصباح. وكي يتغلب روسو على الصعوبات قام بتقسيم رحلتيه، ذهنياً، إلى مراحل، فيواجهها واحدة بعد واحدة. ليس من الحكمة أبداً أن يذهب الإنسان قدماً بفكره إلى أبعد مما يجب. كان قد ترك سيارته «اليوغو» الواطئة خارج مقر قيادة القوات الدولية في مكتب البريد والاتصالات في المدينة. إنها منطقة عازلة ولكنه أوقفها قريباً جداً من الأسلاك الشائكة الكثيفة ذات الشفر الحادة القاطعة التي أقيمت لتشكل رادعاً للصوص، أو أن هذا ما كان يأمل به. وهي كذلك تحمل «شعار النبالة» البوسني بالترس والمخصرة وزهرة الزنبق، على غطاء محركها، وتحمل فوق ذلك الرقم ٦٠٠ الذي كان في ما مضى رقم خدمات الطوارئ في المدينة. في ما مضى، لانه لم يعد هناك خدمات طوارئ تستحق حمل هذا الاسم، ولأن التليفونات، في أفضل أحوالها تعمل بشكل متقطع وفي معظم الأوقات لا تعمل أبداً. ولم يكن روسو أكيداً مما إذا كان هذا الشعار الرسمي الذي يزين السيارة يجذب إليها الأوغاد أو يبعدهم عنها.

لقد وصل إلى هناك، تقريبا، وهو لم يزل حيا. أول حاجز تفتيش للجيش البوسني يقع أمامه. يستطيع أن يراه بعيني عقله. أهلاً بك في سارايفو. أهلاً بك في ديارك.

ـ «هناك سيارة قادمة» قال محمود. كان المقاتل الضخم الجسم القوي البنية يرتدي قبعة بالية من اللباد، هي من فائض الحرب، وسترة حربية ألمانية غربية، وعدة طبقات من الثياب تحت ذلك.

لم يكن أمراً مفاجئاً أنه لم يبذل أي جهد للنهوض. كان يحمل كأساً تحتوي على مشروب «شنابس.» إنها كأس من تلك التي تتسع لجرعة واحدة، وقد امتلأت إلى حافتها وهو يراقب السائل الصافي بحذر خشية خسارته. سيارة أو لا سيارة. وكانت بندقيته التي تعمل

بطريقة الرتاج مسندة إلى منحدر سطح الكوخ المسقوف بألواح من الحديد المموج.

ـ «إنه دورك» قال رفيقه وهو شاب طويل ارتسم على وجهه تعبير من الضيق والذبول زادته بروزاً وجنتان غائرتان وذقن لم تحلق منذ أيام. عندما تكلم زوران بدا واضحاً أنه فقد أسنانه الأمامية. أما جلده المشدود فوق عظمتي خديه البارزتين فقد كان وردي اللون بشكل يلفت النظر.

ـ «عليك اللعنة.. ليس هذا دوري.»

ـ «إذن سيكلفك الأمر سيكارة.»

ـ «إليك بها أيها الأبله» قال محمود وهو يلقي إليه بعلبة العشرين لفافة. «خذ واحدة. انتبه. واحدة لا غير.»

قام الفتى الذي يرتدي بنطلون «جينز» وسترة عليها شارة عسكرية بوسنية خيطت إلى كتفه بطريقة بدائية بإشعال سيكارته ورمى بالعلبة إلى محمود، ثم وضع سلاحه على كتفه ومشى متثاقلاً إلى الخارج. كان زوران يرتدي قبعة صوفية سوداء تغطي أذنيه. شعر بخدر في قدميه فحاول تحريك أصابعهما لجعل الدم يتحرك داخل حذائه الرطب.

شاهد سيارة «يوغو» بلون بيج تقترب شاقة طريقها وسط جمهور من الناس الذين أجهدهم السير في الثلج. تفحص الحارس مسدسه الرشاش القديم التشيكي الصنع وتأكد من أن هناك طلقاً في بيت النار.

والتفت إلى رفيقه وقال «يبدو أنه كبير شرطيينا.»

هنا قذف رفيقه «الشنابس» في حلقه وحرك شفتيه متلمظاً ثم نهض متثاقلاً. أخذت يداه تبحثان في جيوبه، واحد بعد آخر، إلى أن عثر على ما كان يفتش عنه. وفتح قبضة إحدى يديه كاشفاً عن عقب قلم من الرصاص وقصاصة ورق. كانت تصرفاته تتسم بالاستعجال. استرق

نظرة سريعة إلى المدخل وكأنه يخشى أن يراه أحد. انحنى وأخذ يكتب شيئاً ما بعجلة. توقف مرة ليرطب طرف القلم بلعابه، ثم مال برأسه إلى جهة كأنه مستغرق في التفكير. أخيراً انتهى من الكتابة. كوَر الورقة فحوَلها إلى كرة صغيرة «ثم دفع بها وبالقلم إلى داخل أحد جيوب بنطلونه. وانضم إلى رفيقه حاملاً بين ذراعيه بندقيته وهي من نوع «مانليشر» الذي يستعمل للصيد.

- «لعله جاءنا ببعض البن» قال محمود.

- «يا له من شاذ محظوظ. لا أعلم ما الذي يجعله يعود إلى هنا.»

- «لا شك أن في الأمر امرأة.»

قاد روسو السيارة بعناية وحذر ضارباً بوقها بين فترة وأخرى ضربات خفيفة في شبه اعتذار ليشق طريقاً بين أفواج من الناس تفتش عن الطعام والماء والوقود. أفسح المشاة له في المجال بتردد مؤلم فانفصل بعضهم عن بعض مكرهين ليدعوه يمر. وكأن هؤلاء الناس لم يكونوا يرغبون في استهلاك أي قدر من الطاقة لا تفرضه الضرورة القصوى.

انحنى إلى الأمام مخترقاً ببصره زجاج السيارة الأمامي الملطخ ببقع من الجليد، وقد أطبق بيديه على المقود. لم تكن لديه سلاسل حديدية ليلفها حول اطارات عجلات السيارة التي شعر بأنها تنزلق على طبقة الثلج الجاف الذي سقط حديثاً.

الصمت يخيم على المدينة والضباب المنخفض يحجب الرؤية عن الرماة القابعين وراء مدافعهم الجاثمة على التلال المحيطة بها. وفي الأيام التي تشهد طقساً صافياً يصبح في الإمكان رؤية وميض أشعة الشمس منعكسة على مواسير مدافعهم، كما يصبحون قادرين من خلال مناظيرهم المكبرة على أن يروا حتى شاربي رجل يرتفعان فوق شفته العليا، بل إنهم يستطيعون تمييز لون عيني امرأة وهم في مواقعهم تلك.

درج الناس على العدو بسرعة أو على الهرولة بصورة تشبه العرج من زاوية إلى أخرى، وقد غصبوا أنفسهم على رسم ابتسامة على وجوههم ساعين إلى حجب الرعب الذي يشعرون به وإخفاء شعورهم بالمهانة لاضطرارهم إلى الركض. وأصبح ركض الناس للنجاة بأنفسهم مسألة روتينية يومية مثل الركض في مدن أخرى لإدراك حافلة بدأت بالانطلاق. استطاع معظمهم النجاة بجلده لكن قسما منهم لم يكتب له النجاح.

واليوم، وعلى رغم أن درجة الحرارة كانت أدنى من الصفر، بدا أن جميع الناس خرجوا من منازلهم منتهزين فرصة الهدوء الموقت. كان روسو يجد فترات الهدوء هذه مقلقة. كان الشعور بالخوف في نفسه يشبه حالة غثيان جسدية، أو كتلة صلبة من المعدن في معدته، تتمدد لتصل إلى صدره.

وانطلقت في داخله صرخة خوف صامتة.

يعرف أن هذا الهدوء خداع. كذبة. وأنه لا يستمر طويلاً، والثمن دائماً مرتفع جداً.. مزيد من القتلى، أناس يلقون مصرعهم واقفين في صفوف أمام أنبوب ماء أو مطعم خيري للفقراء. وكان «التشتنيك» في مراكزهم المحصنة في التلال يغرون الناس بالخروج من منازلهم الباردة قبل أن يطلقوا رشقة قذائف من عيار ١٥٢ ملليمترا على حشد من المدنيين. وهذا يحدث عادة في منتصف الفترة الصباحية. ويتوقف القصف المدفعي بعد ذلك. وعندما تصل سيارات الإسعاف كانوا يفتحون النار بمزيد من القذائف.

سلك روسو الشوارع الخلفية وبقي في محاذاة المنطقة الصناعية. كان كثير من السابلة يتوجه إلى منشرة للأخشاب يجري فيها توزيع الخبز مجاناً. وعلى رغم أن روسو كان صاحب واحدة من السيارات القليلة في المدينة ويتوفر له من البترول ما يكفي لجعلها تسير، فلم يحفل أحد منهم

بأن يلتفت إليه ولو بنظرة واحدة. كانوا يسيرون في الاتجاه نفسه الذي يسير فيه هذا الشرطي الكبير، لكن انكبابهم الشديد على إنجاز ما يقومون به، وحرصهم الشديد على ألا يقعوا فتنكسر عظامهم الهشة، كانا يمنعانهم من التحرك بسرعة مبتعدين عن طريقه. وإذا كان ثمة شعور بالامتعاض أو النقمة في أنفسهم فهم لم يكونوا يضيعون أي جهد في التعبير عما يخالجهم. حمل بعضهم أكياساً احتياطية كما كان قسم منهم يجر مزالج أطفال أملاً بالعثور على شيء، أي شيء، يمكن أن يخفف من الجوع والبرد.

كانت أجسامهم نحيلة هزيلة ووجوههم شاحبة خالية من التعبير أو الانفعال، وعيونهم ذات نظرات حائرة لا تركز على شيء. غادر روسو هذا المد البشري المرهق الرث المظهر واستدار إلى الشارع الرئيسي. إنه دائماً يعرف خطر مكان ما من عدد الناس الموجودين فيه. لم ير أحداً هناك إطلاقاً باستثناء رجل مسن يستخرج جذور شجرة في بقعة للمشاة وسط الشارع. لم يكن يظهر منه سوى رأسه يتحرك مرتفعاً ومنخفضاً فوق الأوتوستراد (الطريق السريع) الذي أصبح يعرف باسم «زقاق القناص.»

وبدا كأن روسو وجد نفسه فجأة في عالم من الفزاعات. «قريباً جداً سأبدو، من جديد، شبيهاً بهم» قال لنفسه. بضعة أشهر من العيش على الفتات والنفايات ودون استحمام، ومن حلاقة الذقن بماء بارد وبشفرة حلاقة مثلمة كليلة ومن ارتداء الثياب غير المغسولة نفسها. النظرة المستسلمة ذاتها، وجر القدمين بوهن فوق الثلج إلى سوق فارغة خاوية.

الوطنية لا تعني شيئاً لمن يموت جوعاً.

ربما كان هذا الأمر جزءاً من المشكلة، قال روسو في نفسه. لم يكن الناس في الواقع يموتون من الجوع. كل ما في الأمر أنهم يعانون

من سوء التغذية ويفقدون حيويتهم وصحتهم بطريقة أبطأ بكثير من أن تميتهم فوراً، طريقة ليست سريعة إلى درجة تدفعهم إلى القيام بتدبير يائس للتخفيف من محنتهم. استسلامهم واستكانتهم أقلقا روسو. فبينما كانت أسنانهم تتساقط، وجلودهم تصاب بطفح جلدي وقروح، ويصبح الاسهال شأناً يومياً روتينيا، فان قدرتهم على التكيف وقبولهم ما يصيبهم بما في ذلك تحويل المواد الغذائية التي تأتي من الأمم المتحدة على نطاق ضخم، إلى خطوط القتال الأمامية وإلى السوق السوداء، أصبحا السبب في بلواهم. ترى هل وقع هو نفسه في الفخ ذاته حالماً بنهاية لكل ذلك وما من نهاية؟

عندما فتح روسو باب سيارته كانت رائحة الجنديين في نقطة التفتيش تصل إلى منافسه ـ تلك الرائحة التي ليست كريهة تماماً، رائحة الثياب الرطبة والأجساد التي لم تغتسل ودخان السكائر والشنابس، التي اختلطت بأنفاسهما. كانا يرتجفان في صقيع الريح الجليدية مثل ثعلبين على وشك الموت جوعا، ينظران بمكر إلى دجاجة أمامهما ولعابهما يسيل.

وتساءل في دخيلة نفسه ترى هل تبدو عليه مظاهر من تتوفر له التغذية الحسنة، وهل يستطيعان أن يشتما رائحة صابون أمه الإنكليزي الذي لا يزال عالقاً بجلده بعد استحمامه بالماء الساخن في منزلها في زغرب هذا الصباح؟ وشعر بأنه يشبه مبشراً صوره رسام كاريكاتور وهو في حلة طهو لجماعة من أكلة لحوم البشر.

نظرا إلى أوراقه دون تركيز ثم سألاه باحترام عن بن وسكاير: عملة البقاء والاستمرار. وقد درج روسو على أن يجلب معه كميات إضافية من الصنفين من أجل نقاط التفتيش. لكنه أصر دائماً على أن يدفع المقاتلون ثمنها وفقاً للأسعار المعمول بها وذلك كي لا يدب الطمع فيهم ويعتبروه هدفاً سهلاً ويجردوه من كل شيء. ومن ناحية أخرى،

فإنه بتزويدهم بالكماليات يجعلهم مدينين له. وقد سهَل ذلك كثيراً مروره على نقاط التفتيش.

أبرز إيصالين بكيس البن الذي يزن ٥٠٠ غرام وبصندوق السكاير الكرواتية الصنع الرخيصة الثمن وأراهما للجنديين وانتظر بينما كانا يغمغمان متذمرين ويخرجان من جيوبهما، على مضض، الدنانير التي تكاد تكون دون قيمة.

فتشا سيارته دون عناية أو اهتمام. واستطاع محمود أن يدفع بنفسه إلى القسم الخلفي من السيارة الصغيرة وأخذ يفتش وراء مقاعدها وقد برز ردفاه الضخمان من بابها. توقف فجأة وبدا عليه للحظات شيء من التردد، ثم أخرج نفسه بجهد من السيارة وقد احمر وجهه وبدا صوت تنفسه حاداً كالصفير. وقف منتصب القامة. ناوله زوران بندقيته فتناولها منه وهو في حالة ذهول. حدَق كلاهما في القناني المعدنية البراقة الموضوعة في أرض السيارة وراء المقاعد ونظرا بتساؤل إلى رجل التحري ثم تبادلا نظرات عجلى.

- «أوكسيجين» قال روسو موضحاً كي لا يضطرا إلى خسارة ماء الوجه ويظهرا في مظهر جاهلين أو قليلي التهذيب إذا سألاه عما يحمله.

- «آه» قال زوران هازاً رأسه وكأنه يقول «طبعاً. دون شك. لا تأبه للأمر.» ثم عاد إلى ضرب قدميه المجلدتين بالأرض، والتفت إلى ناحية أخرى من الطريق. أراد العودة إلى الكوخ المنحدر السطح هربا من الريح. لقد حصل على سكايره الآن.

- «إنها للمستشفى» قال روسو لمحمود. قال ذلك بهدوء وبطريقة ناعمة، فهو يعرف أن الأمر قد يؤدي إلى أمور يكرهها.

- «ماذا؟»

- «من أجل الأطفال الذين يولدون قبل أوانهم، والأمهات اللواتي

يواجهن المخاض، وللجرحى»

كان ذلك كافياً بالنسبة إلى محمود. كفى كلاماً عن الأطفال والنساء. إنه شكاك بطبعه وله أسوأ الآراء في الناس حين يترك له أمر تقييمهم. ومع ذلك فكل حديث عن النساء والأطفال يربكه. لقد تكلم رجل البوليس بهدوء ورصانة بالغين، وأي مزيد من الاستفهام والأسئلة لن يكشف إلا عن جهله الشخصي بالامور الطبية وكل الأمور الأنثوية. وروسو ليس غريباً، فضلاً عن أنه ضابط بوليس كبير، مدير شرطة التحري، وله عليه حق الاحترام.

هكذا كانت الأمور. في الأيام السالفة كانت نظرة واحدة من روسو تكفي. كانوا في مثل هذا الوضع لوحوا له بأيديهم كي يكمل طريقه وما كانت لتخطر لهم فكرة تفتيش سيارته. لكنه الآن فقد سلطته، أو على الاقل لم تعد رتبته الرسمية ذات وزن كبير. كل ما بقي من ذلك هو أمائر السلطة التي ترتسم على وجهه، تبدو من طريقة تصرفه ونبرة صوته. كان روسو يعرف كيف يطيع الأوامر، ويتوقع أن يطاع. إن ذلك واضح. أما الشارة والرتبة ومكتب مدير البوليس، فلا بد من الاعتراف بأنها لم تعد كما كانت عليه.

تمتم محمود متذمراً وأغلق باب السيارة بعنف وقد بدا عليه الإحراج ثم بدأ يعتذر لإغلاق الباب بهذه الخشونة. السبب الرئيسي هو طريقة تصرفه الخرقاء. فتح الباب مرة أخرى، فهما، بعد كل ذلك، لم ينتهيا من التفتيش بعد، فما زالت هناك تلك الأشياء في القسم الأمامي من السيارة.

أما روسو فقد ظن أنه تكلم أكثر مما ينبغي له أن يفعل، وأنه كان متكلفاً في شرحه وبذل جهداً زاد فيه على ما هو ضروري، وأن الكلمات جرت متدافعة واحدة وراء أخرى لسرعتها فكأن هناك شيئاً أراد إخفاءه. والواقع هو أنه كان يخفي شيئاً.. إنه الشعور بالذنب..

على المستويين العام والخاص. على المستوى الخاص، لم يكن ذلك شعوراً بالذنب كذلك الذي يحس به المهرب، لكنه شعور رجل تنعَم لبضعة أيام على الأقل بحياة عادية تخلَص فيها من خطر دائم يرافقه هو خطر الموت بصورة عنيفة، كما خلَف وراءه ذلك الإذلال التدريجي الذي ينتج عن تناول وجبة طعام سيئة وانعدام وجود طريقة لتنظيف جسمه أو الثياب الرثة البالية التي لا تزال عليه. وعوضاً عن ذلك فقد عاش في قلب جو عابق بالترف (على رغم أنه كره كل لحظة فيه وكان على عكس ما يتوقع ينتظر موعد عودته بفارغ صبر) بينما كان الآخرون يرتجفون برداً ويعانون من الجوع ويشاهدون آمالهم تتلاشى، ويموتون. هو حي، ومن ذا الذي يستطيع أن يقول أنه يستحق أن يكون على قيد الحياة.

أما الشعور بالذنب، في شكله العام، فقد كان صليب روسو. إنه السبب الذي جعله يصبح شرطياً سرياً جيداً بهذا القدر والشكل، عرافاً يكشف أسرار الناس. شعر بأنه ممزق يعيش مثل إنسان يتوقع أن ينكشف أمره بين لحظة وأخرى. لم يكن روسو يؤمن بالخطيئة الأصلية. لقد عاشها طوال حياته فأعطته قدرة على أن يضع نفسه مكان الرجال والنساء الذين كان عليه أن يستجوبهم بين وقت وآخر، وعلى أن يعيش أجواء حالاتهم النفسية. إنه يفهمهم أكثر مما يفهمون أنفسهم. أما المجرمون العاديون فلم يعتقد ولو لمرة واحدة أنه أرفع منهم.

والحقيقة هي أنه كان في كثير من الأحيان يشعر نحوهم بعطف صادق.

نظر الجندي إلى حقيبة روسو الموضوعة على المقعد الأمامي. فتحها ضابط الشرطة لهما فهي لم تكن مقفلة. لم يصدر عنهما أي تعليق على زجاجة العطر ومواد التجميل النسائية التي كان قد اشتراها في زغرب. كان روسو قد وضع هذه السلع الكمالية فوق سائر محتويات الحقيبة آملاً بأن تكون سبباً يحول دون إجراء عملية تفتيش أكثر دقة. حدق محمود

ملياً في الزجاجة الفاخرة الضخمة والسائل الكهرماني اللون الذي حوته وبكيس مواد «الماكياج» البلاستيكي الوردي اللون، إلا أن زوران حدجه بقوة وكأنه يبلغه أن عليه ألا يتطفل ويدس أنفه في شؤون الآخرين.

كانت هناك زجاجة فودكا وبضع سجاير.

أحس روسو بمحمود قريباً منه. بدا الأمر كأن المسلم الضخم يدفعه دفعاً. شعر روسو للوهلة الأولى بانزعاج واستياء بسبب خشونة تصرف محمود. لكنه سرعان ما أحس بيد محمود تمسك بيده اليمنى وتقبض على رسغه بحزم. جرى وضع شيء في كفه، فالتفت أصابعه على ذلك الشيء دون أن يدرك ما هو. وفي لحظة كان محمود قد ابتعد عنه. ولم يبد على زوران أنه لحظ شيئاً.

صاح محمود في استغراب مصطنع وقد استعاد مرحه «ما من ويسكي سكوتلندي أيها الرئيس؟» وابتسم زوران ابتسامة عريضة ثم غطى فمه بقفازه. أناس بسطاء ولطفاء على طريقتهم، قال روسو في نفسه. ولكن هناك أيضاً رجال بسطاء ولطفاء في تلك التلال المشرفة على المدينة. في استطاعة الرجال البسطاء اللطفاء أن يرتكبوا أكثر الأعمال فظاعة، وقد حدث ذلك فعلاً.

انتشرت أجواء ضوضاء وهرج ومرج على الطريق التي أقبل منها روسو، أصوات أبواق السيارات تدوي بتتابع كأنها صفارات سيارات إسعاف. تراجع محمود وزوران خطوات إلى الوراء. وضع محمود يده على ذراع مدير البوليس وقال «انتبه.»

حدق الرجال الثلاثة في الموكب القادم.

كانت هناك ثلاث سيارات تنطلق بسرعة غريبة مخترقة جمهور المشاة من الجنوب الغربي ـ من حيث أقبل روسو ـ دون اهتمام كبير بذلك المد البشري الزري. أطلت في المقدمة سيارة مرسيدس فخمة صقيلة بلون

رمادي فضي وقد أضيئت مصابيحها الأمامية. ومن النافذتين الخلفيتين أطل رجلان برأسيهما وأكتافهما ومع كل منهما بندقية رشاشة من نوع كلاشنيكوف مصوبة إلى أعلى. وراء المرسيدس كانت هناك سيارتا مواكبة كل منهما تميل في سيرها قليلاً إلى جانب من جانبي الطريق. كانتا سوداوين من نوع أوبل وقد غصتا بالمسلحين. بدت حمولتهما ثقيلة إلى درجة أن أنبوب العادم في كل منهما يكاد يرتطم بصفحة الطريق الجليدية. كان المسلحون يمسكون بأبواب السيارة التي لم يغلقوها كلياً، وهم على استعداد للقفز منها لضرب المساكين السيئي الحظ إذا لم يستطع الواحد أو الواحدة منهم الابتعاد بسرعة كافية عن طريق الموكب. وكانوا يصرخون ويلوحون ببنادقهم.

أخجله أن تصل الأمور إلى حد إخضاع الناس إلى عروض الإذلال هذه، وأن يمارس هذا التباهي بالعجرفة في هذا المكان وفي هذا الوقت. وشعر بخجل شخصي أيضاً لأنه شخصياً، من بين جميع الناس، وهو أحد أكبر ضباط الشرطة الذين لا يزالون في المدينة، وقف موقف المتفرج.

على كل جانب من جوانب سيارتي المواكبة رسم قمر أصفر ومعه رسم «كفافي» أسود لذئب يعوي وقد مال برأسه إلى خلف: إنه شعار ما أطلق عليه اسم «القوات الخاصة.» حسناً، قال روسو محدثاً نفسه، إنها خاصة، لكن ليس على غرار «القبعات الخضر» الشهيرة في الولايات المتحدة أو قوات «غرينزشوتزغروبي ـ ٩» الألمانية المميزة المتخصصة في مكافحة خطف الطائرات. فتيان لوكا هم مقاتلو شوارع، سفاكون وقطاع طرق استغلوا حالة الحصار المفروضة على المدينة ليضفوا على أنفسهم أشكالاً رسمية قانونية، لكنهم الآن وأكثر من أي وقت مضى صاروا يعتبرون أنفسهم فوق القانون.

ـ «لوكا» قال محمود وكأن أحداً يجهل ذلك. قال زوران رافعاً يده بتحية «رجل طيب.»

«سأفتعل بأمك وأختك» قال محمود بصوت منخفض خشية أن يسمعه المسلحون المطلون من السيارات ـ وعزى نفسه بنظرة غاضبة وجهها نحوهم. رد زوران بشتيمة تجديف مقذعة ثم ضحك وربت على كتف محمود. تجاهل الجندي المسلم الإهانة. إنها أمر عادي مبتذل، وزوران رفيقه في أية حال. الشتيمة هذه لا تعني شيئاً، فقد تحولت إلى أمر لا أهمية له، أمر عادي يتكرر باستمرار في مدينة لا تزال علمانية إلى مدى بعيد وإن كانت متعددة الطوئف في مظهرها الخارجي. وكل ما يعني ذلك أنهما اختلفا في المنزلة التي يحب كل منهم أن يضع لوكا فيها.

اجتازهم موكب السيارات بسرعة. وتطاير الوحل والثلج الذائب عن الطريق المليئة بالحفر. كانت سيارتا الأوبل بحمليهما الثقيلين تثبان صعوداً وهبوطاً عندما مرتا بهم. ألقى المسلحون نظرات فارغة على نقطة التفتيش هذه وعلى حارسيها ذوي الثياب المضحكة ولم يردوا على تلويح زوران لهم بيده. كانوا يعتمرون قبعات عسكرية صوفية سوداء اللون على غرار رجال الكوماندوس، رأى روسو فيها بعض مظاهر لجوء الرجال إلى أفضل الملابس، أو الملابس الرسمية، في سعيهم إلى خلق أسطورتهم النرجسية التي تصورهم في صورة الأقوياء الذين لا يقهرون.

انحنى روسو قليلاً واضعاً يديه على ركبتيه وركز نظره على سيارة المرسيدس. كان متأكداً من أنه رأى لوكا، للحظة فقط، وراء مقود السيارة. كان ينظر أمامه مباشرة وهو يجلس مستقيماً مرتفع الرأس وذلك الفك الطويل يبرز ناتئاً إلى أمام. لم يكن ضابط التحري هنا يبحث عن لوكا، بل عن تانيا. وشعر بارتياح عندما لم ير ابنته بالتبني جالسة إلى جانبه. ترى ما الذي كانت ستقوله لو كانت تجلس هناك في السيارة ورأت روسو يقف في الثلج إلى جانب الطريق؟ هل كانت ستحث لوكا على التوقف هناك وتعرض عليه أن يوصلاه إلى المنزل. أم أنها كانت ستتردد كما يفعل كثير من الناس، إلى أن تمر اللحظة وبعد

ذلك تبرر عدم التوقف. مجرد حدث واحد من خيانات صغيرة لا تحصى لمن نحب، إلى أن تتراكم متحولة إلى لامبالاة أو إلى أسوأ من ذلك. هل أصبحت الآن تخجل من عائلتها بالتبني؟ هل دخلت السيارات والأسلحة إلى رأسها؟ هل قصص الشهرة ذات جاذبية لا تقاوم في مناخ اليأس؟

هل كان سيقبل أن يقلاه معهما؟

لكنها لم تكن هناك والأمر لا يهم.

«إنه دائماً في هذا الاستعجال اللعين» دمدم زوران متذمراً وقد تضاءل إعجابه بلوكا قليلاً لسبب هو أن سراويله رشت، عن عمد، بطبقة جديدة من وحل سارايفو الدبق.

كان روسو قد خسر زجاجة ويسكي ذهبت إلى الضابط البولندي الذي فتش حقيبته في المطار وذلك ثمناً لسماحه بإدخال الأوكسيجين. وحدة رجال الشرطة في المطار كبيرة دون أن تكون هناك ضرورة تبرر ذلك، فكانها تضم أفراداً من كل جنسية تحت الشمس. وبدا له أن كل ما يقوم به رجال الشرطة هؤلاء هو أنهم يقفون هنا وهناك في انتظار مدني حقيقي، شخص محلي، واحد مثل روسو، كي ينهالوا عليه بالأوامر، يطلبون أوراقاً ويلوحون في وجهه بقوانين - قوانينهم لا قوانينه - ويسرقون سكاير وويسكي، وهو أعلى ضباط التحري رتبة في المدينة وواحد من ثلاثة مفوضين يقدمون تقاريرهم إلى وزير الداخلية نفسه مباشرة. إنه لأمر مذل.

وفي كل حال فما جدوى أن يحمل معه مشروبات روحية أجنبية باهظة الثمن إلى زوجة مدمنة تستقطر الكحول حتى من مواد صبغ الأحذية إذا اضطرت إلى ذلك؟ وعندما فكر في سابينا شعر بأن قلبه يهبط. إنها مسؤولية جسيمة تلقى بثقلها على ذهنه إذ ليس من حل لها يلوح في الأفق. الأمر أشبه بمرض لا شفاء منه. الإدمان على الكحول

ليس طبعاً داءً لا دواء له لكن الحالة الذهنية التي كانت هي سببه، لا يبدو أن لها دواءً.

وانتقل روسو بفكره من هذه المسالة إلى تانيا ابنتهما بالتبني. كان روسو قلقاً عليها أيضاً.

إنها في التاسعة عشرة من عمرها، ولاجئة. وبعد أن أخذها روسو وزوجته تحت جنحهما إذ لم يكن لديهما أولاد، درست الإسعاف الطبي وتخرجت مسعفة طبية، وأقامت في الفترة الأخيرة نوعاً من الصداقة مع لوكا الذي كان دائماً يتوجه إلى جبهة القتال كي «يتذوق طعم المعارك» ويكتسب خبرة فيها، وهو تذوق لن يسعى إليه ضابط شرطة التحري أبداً. وتمنى أن تبقى تانيا بعيدة جداً عن لوكا وعن خطوط القتال أيضاً.

بدا الأمر في البداية وسيلة مفيدة لمعرفة المزيد عن الرجل. والواقع هو أن روسو كان قد شجعها وأفاد من المعلومات التي حصلت عليها، لكنه يخشى الآن أن تكون ابنته بالتبني قد أخذت تتعلق بالرجل الذي يسميه الناس، دون أن يخلو الأمر من سخرية وتهكم «روبن هود سارييفو.» لقد استغلها، ترى هل تستغله هي الآن؟ هل كل العائلات هي على هذه الشاكلة؟ كانت نفوسهم تمتلئ بمشاعر كثيرة وكان لدى كل منهم الكثير ليقوله للآخر، ومع ذلك فقد كانت ألسنتهم مربوطة بشكل يجعلهم مكبوتين لا يستطيعون التعبير عن الأمور ذات الأهمية الحقيقية. وما يهم الآن هو المحبة والرفق والحنان. وكالطعام الذي يوضع أمام رجل ممتلئ المعدة فقد اعتبر الحب أمراً مسلّماً به واستهلك بلا مبالاة في أيام السلم، لكن روسو أحس به الآن يستيقظ في نفسه بقوة. فاضت عيناه بالدموع. مسحها بظاهر كفه. أيها العاطفي الساذج الهرم، قال مخاطباً نفسه. إنك لست حتى في حالة سكر، كل ما في المسالة أنك خائف وليس هذا بالأمر الجديد.

ـ «في المسالة امرأة دون ريب» قال محمود وهو يعود متهادياً إلى مقعده في كوخ نقطة التفتيش ثم يرتمي جالساً فيه وهو يتنهد.

ـ «كيف يمكنك أن تعرف؟»

ـ «ألم تر زجاجة العطر الكبيرة تلك؟»

ـ «ربما كان ينوي بيعها.»

ـ «هراء. لو أراد الاتجار في السوق السوداء لكان اشترى مزيداً من علب التبغ والبن. لا. إنه صريع أنثى. مسكين.»

قام محمود الذي كان في السابق أحد الرجال الأقوياء الذين تستخدمهم الملاهي الليلية لطرد غير المرغوب فيهم، كما كان أحد رياضيي رفع الأثقال الهواة، وتناول جرعة كبيرة من الزجاجة ثم جلس من جديد.

ـ «لقد عاد من أجل قليل من البوم بوم» قال وهو يرسم بقبضة يده اليمنى حركة تشبه حركة المضخة. «بوم بوم» قال مرة أخرى.

ـ «إنك دائم السخرية والتهكم»

ـ «لا. إنما أنا حكيم يعرف كيف يعمل العالم.»

ـ «إنه على الأرجح متزوج وله ثلاثة أولاد.»

ـ «حسناً.. إذا كان الأمر كما تقول فتلك الزجاجة ليست لزوجته»

«لا يمكننا أن نعرف» قال الفتى وقد شعر بإحباط بسبب آراء رفيقه ونظرته إلى الإنسانية كما شعر بملل من من كل هذا الحديث. كان زوران ريفياً، أمه كرواتية من هرسغوفينا وهو يفخر بذلك.

وقال محمود بلهجة طنانة «هذه الحرب حافلة بأناس يقومون بالأعمال الصحيحة لأسباب باطلة وبالأمور الباطلة لأسباب صحيحة. وهذا الشرطي واحد منهم.»

ورد عليه رفيقه بقوله «لو كنت مكانك لما شربت كثيراً من هذا الذي تشربه. إنه يحولك إلى فيلسوف.» لم يؤثر ذلك في محمود الذي تناول زجاجة الشراب من جديد وقال «تباً لك. اختف عن ناظري.»

الفصل الثاني

«الإنسان حيوان اجتماعي يكره أخاه الإنسان»

دو لاكروا

كانت مفخرة قوات بوليس ساريفو في حالة يرثى لها، أبوابها الزجاجية الكبيرة اخترقتها الطلقات النارية وشظايا القذائف فألصقت عليها قطع من الورق الأسمر لإبقائها متماسكة. وشكلت سلسلة حديدية ضخمة وقفل يتناسب مع ضخامتها دليلاً على أن المدخل الرئيسي إلى بناية قيادة هذه القوات مغلق مؤقتاً، مع أن أي إنسان على درجة كافية من الشجاعة أو الحماقة كان يستطيع الدخول ببطء إلى المكان عبر الثغرات الواسعة ـ بشرط هو أن يستطيع الوصول إلى المكان. وعوضاً عن القيام بذلك فقد حبس روسو أنفاسه واندفع بسيارته عبر أحد الأرصفة إلى القسم الخلفي من المبنى، وعبر بسرعة زقاقاً مكشوفاً ثم جذب مكبح اليد ليحقق ما يشبه التزلج التعرجي (سلالوم) ملتفاً حول شجرتي كرز ملأتهما نيران الحرب بالندوب، وغاص أخيراً في عتمة موقف للسيارات في طبقة من المبنى تقع تحت الأرض.

وصعد درجات سلّم داخلي يؤدي إلى مكاتب شرطة التحري في الطبقة الثالثة. كانت المصاعد المصنوعة من الصلب الذي لا يصدأ متوقفة عن العمل وأبوابها الأوتوماتيكية مفتوحة نصف فتحة. شق

ضابط التحري اللاهث المقطوع الأنفاس طريقه بحذر عبر شبكات من المكاتب إلى مكتبه الخاص. باب مكتبه يحمل اسمه ورتبته. شاهد الملفات المكومة بعضها فوق بعض بارتفاع ثلاث أقدام مندلقة من طبق الأوراق الواردة الخاص به. وفتح بسرعة درجاً من أدراج مكتبه المعدني الخالي من الجاذبية والجمال، وألقى فيه شارته واحتياطيه من الذخيرة ومشط الرصاص والمسدس ثم أغلقه ركلاً بقدمه. بعد ذلك خلع معطفه وعلقه خلف الباب وطرح الجاكيت على ظهر كرسيه الدوّار. ونزع ضابط التحري عنه البلوفر الذي كان يرتديه وشرع يشمر كمي قميصه عن ساعديه. لكنه تذكر أنه ليست هناك تدفئة في المبنى فعاد وأنزل الكمّين ثم زرّرهما. أرسل نظره عبر الغرفة إلى ماكينة القهوة. إنها متوقفة عن العمل منذ ثلاثة أعوام، وحيث عملت، وكان ذلك مرات قليلة، كانت تنتج سائلاً غريباً يشبه ماءً غسلت به الصحون. يا الله.. إنه على استعدادٍ للقيام بأي شيء مقابل فنجان محترم من القهوة التركية، الشيء الحقيقي هذه المرة، بنكهة حب الهال ومعه شطيرة «كايماك» تفوح منها رائحة الجبن، بل أفضل من ذلك «راجنيتشي» تلك القطع المكتنزة من لحم العجل مشوية على الفحم. كم هو رائع أن تأكل شيئاً يسبب السمنة ولذيذاً جداً - من نوع الطعام الذي دأبت سابينا على القول أنه سيسبب له نوبة قلبية! سيكون محظوظاً جداً. هناك كثير من النوبات القلبية إلا أنها لم تحدث بسبب الإفراط في الأكل. وجلس ضابط التحري يبتسم بينه وبين نفسه لهذه الفكرة، ثم سحب إليه الملفات الأولى من كومة الملفات.

حجرة روسو الصغيرة هذه تحكي مجلدات عنه لكنها في الوقت نفسه لا تقول سوى القليل. لم يكن فيها إطلاقاً أي شيء شخصي يميزها عن مئات غيرها في مبان حكومية مماثلة في أنحاء المدينة - لا صور موقعة للأغنياء والمشاهير أو أصحاب السلطة معروضة ضمن إطارات، لا لقطات فوتوغرافية للزوجة والأولاد، ولا جوائز أو

مداليات رياضية، لا شهادات ولا كرة قدم موقعة من فريق أثير في المدينة. لم يكن هناك ما يعكس أي طموح أو رغبة أو منزلة أو هواية محببة. كل ما كان هناك ملفات وملفات.. ومزيد من الملفات، مكومة ترتفع من الأرض إلى السقف وقد ربط كل منها بشريط بطريقة مرتبة. كانت كل أقسام المكتب الأخرى تكتظ بكتب توجيه وقواعد عمل الشرطة، ومراجع في الطب الجنائي، وكتب مدرسية في علم الأمراض وكتيبات تمرين على الأسلحة اليدوية وأخرى عن المخدرات. وفي إحدى الزوايا استقر، بطريقة ملتوية، جهاز كمبيوتر شخصي على طاولة رمادية غطاها الغبار. ولم يكن هناك من متسع سوى لضابط الشرطة كي يجلس إلى مكتبه ولشخص آخر يحشر نفسه حشراً ليجلس في شكل محفوف بالمخاطر قرب تلك الأعمدة المرتفعة من الكتب والملفات بحيث يمكن أن تؤدي أية حركة غير صحيحة إلى انهيارها على رأس الزائر. ويبدو كأن كل ذلك يقول أن هذا مكتب رجل يفصل بين عمله وحياته الشخصية ويتحاشى الرموز التي تدل على نجاح معقول في العمل.

وباستثناء مكان عمل روسو المتواضع البعيد عن الأضواء فقد كان المكتب فارغاً والخطوط التليفونية صامتة. نظر إلى ساعة يده.. لم يحن الوقت فالساعة لم تبلغ التاسعة بعد. القعقعة والدوي الناتجان عن إطلاق النيران يكادان لا يسمعان. صف ساعات الجدار الألكترونية التي يفترض أن تشير إلى الوقت في كل من زغرب وبلغراد وفيينا ولندن وموسكو مطفأ مظلم. ويبدو أن الزمن نفسه قد توقف تاركاً سارايفو معلقة وسط جحيم عالمي.

أما شبكة الأنابيب العلوية التي تستعمل طريقة امتصاص الهواء لدفع لفيفات تحمل رسائل سريعة من قسم إلى آخر والتي توجه من «غرفة الأنابيب» في الطبقة الأرضية من المبنى، فهي متوقفة منذ أشهر. لقد غدا روسو مولعاً بتلك القرقعة السحرية التي تحدثها هذه اللفيفات وهي تندفع حاملة أنباءً عن افراطات الطبيعة البشرية وتجاوزاتها. كان

الأمر يشبه سكة حديد مصغرة علِقت مقلوبة بالسقف. وكان منظرها مثيراً للإعجاب في يوم من الأيام. كانت الستائر لا تزال سليمة في الجهة التي تقع إلى جانب روسو. أما في الجانب الجنوبي من المبني فقد كان معظم النوافذ محطماً وقد كومت عدة مكاتب وكراس بعضها فوق بعض بطريقة غير منتظمة وكأن هناك من أعدها لإحراقها لكنه نسي أن يضرم النار فيها.

نباتات الأصص التي كانت في يوم مضى أشياء شديدة النماء توحي بأماكن استوائية نائية، وذات أوراق براقة تشبه المطاط، ذوت منذ زمن ويبست لعدم وجود الماء. أما الستائر المعدنية فكان بعضها مائلاً والبعض الآخر مثقوباً أو متدلياً من النوافذ التي بدت أقرب إلى فجوات كبيرة. لم يعد أحد يجلس هناك فالمكان مكشوف جداً لنيران العدو فضلاً عن أن عدد الطاولات والمقاعد أصبح أكثر من عدد الذين لا يزالون يعملون من أعضاء السلك وموظفيه.

وفي الجانب الأقصى من المكان كانت الجدران ملطخة ببقع حريق سوداء وعلى الأرض سجادة التهمت النار بعض أقسامها وتشبعت بالماء من الثلج الذائب وامتلأت بطبقة من نثار الزجاج المحطم بينما تدلت من السقف أسلاك بدت شبيهة بأطراف عش عنكبوتة ذئبية هائلة الحجم. المنظر الأنيق الذي يحمل طابع عقد السبعينات الماضي: الزجاج الدخاني والكروم والأثاث الجلدي والسجاد الأناضولي الزاهي، مما كانت دائرة الشرطة شديدة الفخر به في الأيام السالفة، بدا يتناقض مع ذلك الجو من التشويش والفوضى الناتج عن أضرار الحرب ويخلق شعوراً بجو من الرثاثة تنقبض له النفس، إحساساً بعالم هو في حالة صراع مع ذاته. أشاح ببصره عن هذا الدمار وركزه على المكتب أمامه ثم مد ذراعيه وجذب نحوه الملفات التي أعطيت رموزاً تمثلت في عدد من الألوان. بدأ روسو بذات اللون البرتقالي الأصفر أي ملفات المسائل الحساسة من الناحية السياسية. اشتمل الملف الأول على رسالة احتجاج وجهها قائد

قوات الأمم المتحدة في سارايفو إلى رئاسة الجمهورية وتناولت ما زعم من عدم السماح لرجاله بالحصول على أدلة مادية من مسرح هجوم بمدافع الهاون أدى إلى مقتل أربعة مدنيين. قالت الرسالة إن قوات الأمن رفضت السماح لجنود الأمم المتحدة بالوصول إلى المكان ومنعتهم من الحصول على الأدلة المادية. التعليقات والحواشي التي وصفت بأنها سرية ملأت الهوامش. نائب رئيس الجمهورية ذو الحساسية الخاصة إزاء رأي العالم الخارجي كتب يقول بعجلة ودون عناية بخط يده ذي الحروف الصغيرة التي تصعب قراءتها «هذا يحدث وقعاً سلبياً على أصدقائنا.» أما «إيما موفيتش» وزير الدفاع فقد أضاف إلى ذلك نفياً اتسم بجفاف وفظاظة، قال فيه «لا علاقة للوزارة.»

قال روسو بينه وبين نفسه إن الأمر يشبه البصلة. طبقات عديدة وهذه الكلمات ليست سوى القشرة. الحكومة تخشى أن تكون الأمم المتحدة قد مست بسيادتها. وتلك المذكرات والتعليقات الموجزة إنما تعبر عن لعبة السلطة داخل الرئاسة. أما الرجل الوحيد الذي يعرف فعلاً ما الذي جرى خلال عملية القصف بمدفعية الهاون فلم يأت أحد على ذكره ولم يطلب منه أحد التعليق على الأمر.

لوكا.

وضع روسو طرف قلمه في فمه للحظة ثم انتزع ورقة من مجموعة أوراق الفولسكاب وشرع في كتابة جواب لإرساله إلى ضابط الشؤون المدنية في القوات الدولية. إنها طريقة لطرح الموضوع جانباً وممارسة نوع من التهرب من المسؤولية. وكتب يقول «رداً على رسالتكم... تعرب دائرة بوليس سارايفو عن أسفها لأية قيود فرضت على مسؤولي الأمم المتحدة، عسكريين ومدنيين خلال قيامهم بمهماتهم.»

أضاف: «لكن الدائرة تود لفت النظر إلى أن المنطقة التي وقع عليها الهجوم كانت في ذلك الوقت تخضع لمسؤولية السلطات الأمنية

ومطوقة برجال الميليشيا وفقاً للتعليمات السارية المفعول من أجل مصلحة الأمن القومي ومن أجل نقل الجرحى بسرعة...»

وتوقف روسو مراجعاً ما كتب وهو يحك بأصابع يده الشعر الآخذ بالتناقص في مقدمة رأسه. وبحث في أحد أدراج مكتبه عن الختم الرسمي ودواة الحبر التابعة له. وبعد ذلك وضع الملف في المكان الخصص للصادر من المراسلات.

وأخذ روسو يقلب الأوراق في الملف الأصفر البرتقالي الثاني متوقفاً عند ورقة هنا ومذكرة هناك وجميعها قد حال لونها وبدت بالية إلى حد ما. هذه الأوراق التي ربط بعضها ببعض بسلك معدني اخترقها كالإبرة كانت تمثل ستة أشهر من المراسلات بين دائرة الشرطة وقيادة قوات المنظمة الدولية في موضوع تورط حماة السلام التابعين لها في الاتجار في السوق السوداء. بدأ روسو بمذكرة احتجاج رسمية على قيام جنود أجانب ببيع سكائر وبترول إلى عناصر خارجة على القانون في المدينة. وهز روسو رأسه بمزيج من الإعجاب واليأس وهو ينظر إلى رد من الأمم المتحدة جاء فيه أن المسؤولية عن معالجة أمور الجريمة المنظمة تقع على عاتق السلطات المحلية. وكتب رداً سريعاً على ذلك قال فيه «ستعمد دائرة البوليس بشكل فوري إلى اعتبار أية مخالفة من العاملين مع الأمم المتحدة للقوانين الصارمة الخاصة بضبط بيع المواد الغذائية والكحول والتبغ والوقود في سارايفو انتهاكاً للقانون البوسني، وسيجري التعامل مع المخالفين، من محليين وأجانب، بمقتضى قانون العقوبات المدني البوسني...»

كان هناك اسم واحد يبدو يطل دائماً من تلك الأوراق: لوكا.

بعد أربعين دقيقة كان روسو قد خفض تلك الكومة من الملفات في صينية الرسائل الواردة إلى ما يبلغ ارتفاعه قدماً واحدة من الأوراق. كتب تعليقاً سريعاً ليضم إلى تقرير من كبير المسؤولين الطبيين في المدينة إلى الأمم المتحدة في موضوع الأمراض الزهرية. وردّ على سؤال من

وزارة الدفاع عما اعلن من سرقة الأسلحة الحربية العائدة إلى خمسة جنود مصريين من قوات الأمم المتحدة من ناقلة جند مدرعة كانوا فيها وأوقفوها قرب أحد المساجد قبل دخولهم إليه للصلاة.

ووقع روسو على مذكرة تطلب من قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة منع رجالها من إدخال المخدرات إلى المدينة. وكتب روسو احتجاجاً آخر، أمل بأن يكون جامعاً بين الدبلوماسية والحزم، على شراء الجنود الدوليين خدمات جنسية من نساء محليات. ووقع بالأحرف الأولى على مذكرة من وزارة الداخلية شكت من قيام لوكا بمصادرة عربات وبترول من ممتلكات الحكومة. وقرأ بتمعن تقريراً عن إطلاق النار على جندي من القوات الدولية كان يرتدي ثياباً مدنية خلال ساعات منع التجول، ثم وقع على التقرير.

حدث روسو نفسه قائلاً إنها لعبة. وقد أرهق بعبء القيام بدور فيها لأنه واحد من قلة قليلة جداً ممن بقي من الضباط الكبار. وهذا الدور سيترك في نهاية الأمر لرقيب من شرطة السير بعد مدة طويلة من اختفاء حركة السير نهائياً من الشوارع. هذه الأسماء: وزارة، دائرة، قسم، لم تعد تمثل شيئاً. إنها ليست سوى ظلال وصور لا قيمة لها. الأمر كله هو سعي إلى حفظ ماء الوجه.. كل المسالة انحدار وإخفاق. كانت رئاسة البلاد، قليلاً قليلاً، شبراً بعد شبر، ويوماً بعد يوم، تخسر مواقعها أمام تقدم صفوف البيروقراطيين المحترفين العاملين في ظل الراية الدولية الزرقاء. فهم في النهاية من يوزع المواد الغذائية، وطائراتهم وسيارات شحنهم توزع المواد الضرورية لفصل الشتاء ـ البطانيات والكسوات والأغطية البلاستيكية للسطوح. وعسكريوهم هم الذين يجرون المفاوضات من أجل توقف قصير لأعمال القتل. والحكومة تنزلق رازحة تحت حملها الثقيل مذعنة لضغوط قوة الصرب النارية المتفوقة وثقل البيروقراطية الدولية التي لا ترحم، وأخيراً بسبب رجال من أمثال لوكا.

انتقل روسو إلى الملفات الزرقاء الخاصة بالقضايا الإجرامية وقد ارتسم النفور على وجهه. ألقى نظرة على الملف: انتحار مراهق. عملية قتل مزدوجة ارتكبها جندي ثمل كان خارج دوام عمله عندما فاجأ فتاته وهي في الفراش مع جزار محلي. اعتداء جنسي على قاصر. سطو مسلح على المتجر الكبير في المدينة (وهو عمل جنوني أو عمل غبي إذ لم يبق على رفوف المتجر ما يستحق السرقة). عدة تقارير عن أعمال عنف منزلي وسطو على منازل. قضية الابتزاز الغريبة ـ إنه الجانب السفلي من حياة المدينة الذي استطاع روسو فهمه، أو فلنقل إنه مورد رزقه. وحتى هنا في هذه المجالات كان للحصار وقعه أيضاً. تابع بسبابته أسماء المرتكبين والضحايا والشهود والتهم والإدانات. وكانت شفتاه تتحركان وهو يعد محصياً هذه القضايا. الاغتصاب الذي كان نادراً نسبياً في ساراييفو قبل الحرب ارتفع ارتفاعاً حاداً. إدمان الهيروين ارتفع بشكل غير معقول. وفي كل يوم يجري العثور على جثث: مقيدة الأطراف وقد أطلقت النار على رؤوس أصحابها عن قرب ثم ألقيت في خنادق أو مبان التهمتها النيران.

أسند روسو ظهره إلى المقعد وتثاءب. تذكر ما جرى معه عند حاجز التفتيش صباحاً ـ كرة الورق التي وضعها المسلح في يده. ترى هل رماها في الثلج؟ هل سقطت منه؟ لقد قام روسو بحركة مؤداها أنه يضعها في جيبه وذلك كي لا يبدو عديم اللياقة.

إنها ما زالت هناك. فتح روسو الورقة المطوية ثم وضعها على مكتبه وشد عليها بيده لتتسطح وتستقيم. كانت قطعة قذرة من الورق منتزعة من جريدة. أما الرسالة فقد كتبت بحروف كبيرة وبطريقة بدائية. ولم يستطع روسو قراءتها إلا بصعوبة فقد كانت خطوط قلم الرصاص الذي كتبت به ضعيفة واهية كما كانت «الخربشة» فيها أكثر من سطورها:

«امرأة قتلت. الياسينو بوليي. المبنى التاسع. الطبقة السادسة. السيد فاسيتش يعرف. لكن لم يأت أحد. كن حذراً. صديقك.»

لم يكن هناك على حد علم روسو سوى امراة واحدة في الياسينو بوليي وهو حي يقع إلى الجنوب الغربي. ولا بد من أن تكون القتيلة هي تلك المرأة.

«أيها الرئيس» تعالت صيحة من جانب الغرفة الأقصى ورافقتها ضوضاء.. أصوات أبواب تفتح وأقدام مسرعة وأشخاص يتحدثون جميعاً في وقت واحد.

لم يكن أمامه ما يكفي من الوقت ليسحب ملفها، لكنه كان يستطيع بعيني بصيرته أن يرى وجه المرأة المذعور وذلك النور في عينيها الذي استطاع مصور البوليس الفوتوغرافي أن يلتقطه، والصورة الفوتوغرافية المأخوذة باللونين الأبيض والأسود والمثبتة إلى ملفها بدبوس.

إنها هي دون شك. كان الرقيب أنيل صلاح الدين مسؤولاً عن ملفها.

وانفجرت الضحكات وصخب الأصوات العالية فوق رأسه. طوى روسو الورقة وكورها بيده. ظهر فاسيتش أمامه متماوجاً. كان مفتشاً في شرطة التحري، والواقع أنه ربما كان الرجل السمين الوحيد الذي لا يزال حياً في سارايفو. والواقع أنه الوحيد الذي بقي من أفراد فرقة مكافحة السطو على المنازل. كان سميناً فعلاً، تتدلى ربطة عنقه على قميصه المنتفخ لتستقر في منتصف طريقها على بطن ضخم يتحدى قانوني الجاذبية والتركيب البنيوي. إنه ليستطيع أن يوقف قنينية ويسكي على هذا البطن الضخم. على رأسه قبعة فرو من التيرول عقد شريطها على مجموعة من ريش الحجل، وقد وضعها على رأسه بشكل زاوية مائلة. لم يكلف فاسيتش نفسه أن يشق طريقه بين الطاولات والكراسي بل جرفها

وأزاحها جانباً وهو يتوجه نحو مكتب روسو دافعاً الباب أمامه دون أن يحفل بأن يقرعه.

استطاع روسو أن يرى وراء جسم فاسيتش الضخم رقيبين من أفراد الشرطة السرية: بوريس ستانويفيتش وانيل صلاح الدين، التحريين الوحيدين الباقيين من شعبة الجنايات. كانا يرتديان بنطلونين من نوع «جينز» وسترتين من نمط ما يرتديه الطيارون. بوريس نصف مسلم ونصف صربي، وزوجته يهودية، الإثنان شخصان يصعب عليهما التكيف بعالم تسوده الشعارات الشيوعية القديمة والقومية الحديثة. كانا يعيشان وفقاً لمثال لم يعد شائعاً من زمن بعيد. لم يكونا ينتميان إلى أي مكان سوى ساراييفو، والانتماء إلى ساراييفو هو وضع ذهني وطريقة حياة. وإذا انتهت المدينة فسينتهيان وسيموت معهما الحلم ببوسنة علمانية ديموقراطية.

حمل أنيل زجاجة كبيرة من البراندي بيد ومسدسه باليد الأخرى، بينما كان بوريس يفتش عن كؤوس وهو يفتح ادراج المكاتب ويغلقها محدثاً دوياً متتابعاً يشبه الانفجارات، والاثنان يسيران في المكتب كأنهما مشاغبان حديثا السن يبحثان عن المتاعب. وجّه روسو نحوهما نظرة كالنار.

لم يكن الاثنان في المؤسسة العسكرية لسبب وحيد هو أنهما رسبا في الفحص الصحي. فقد بوريس قدماً في الأسبوع الأول من القتال، أما أنيل فيده اليمنى تنقصها أصابع أربع فقدها خلال الحرب في كرواتيا.

«هل كانت الرحلة جيدة؟» سأل فاسيتش. «لا بأس بها» قال روسو وهو لا يزال ينظر إلى الرقيبين. واستطرد قائلاً «كيف هي الأمور معكما؟»

- «أكوام القذارة ذاتها وليس هناك ما يتغير سوى قدرتنا على جرفها.»

كان من الضروري أن يتحدث روسو إلى أنيل، لكن لم يكن من الوارد أن يكلمه في وجود ذلك الحقير.

أخذت أصوات الضحكات الأنثوية ووقع ضربات الأحذية النسائية الحاد ترتفع من بيت السلم في طرف الغرفة إذ بدأت الموظفات الضاربات على الآلات الكاتبة بالوصول. ركل فاشيتش بطرف قدمه باب مكتب روسو فأغلقه.

وقعت عيناه الجاحظتان قليلاً بجفنيهما الثقيلين على الأوراق المتناثرة على مكتب روسو فأخذ يحاول قراءتها على رغم كونها في وضع مقلوب، وهو في الوقت نفسه يبذل جهده كي لا يظهر عليه أنه يفعل ذلك.

قال فاسيتش بما بدا مزيجاً من الحسد والسخرية «لقد دبر هنكو أموره، ولذلك تراكمت كل هذه القذارة على مكتبك. يقولون إنه يقيم في أحد فنادق فرانكفورت الفخمة مع عاهرة يعاشرها ومع حقيبة محشوة بالعملة الألمانية.» - «آه ها» تمتم روسو في اصطبار. وانتظروا إلى أن يتلاشى دوي انفجارات سلسلة من ثلاث قنابل هاون بدا صوتها قوياً وقريباً بشكل غير عادي. لم يحفل أي منهم ولم يرف له جفن. لكن روسو كان موقناً أن فاسيتش كان يعد الثواني بين انفجار وآخر. هكذا يفعل الجميع. إنها طريقة لمحاولة قياس المسافة وخط اتجاه القصف ونمطه، وأهم من كل ذلك أين ستسقط القذيفة التالية. «فكّر بالكرات الصغيرة البيضاء، فكّر بالغولف.»

قال روسو «حسناً. هل من جديد؟»

كان هيدزوفيتش هو الذي يتولى إمرة الشرطة العادية والمسؤولية عن التنسيق الخارجي وهي وظيفة لا تنسجم مع المرتب الذي يحصل عليه، وقد حصل عليها بفعل علاقات عائلية لا صلة لها بعمل البوليس الفعلي.

هز فاسيتش كتفيه دون مبالاة وأجاب «مزيد من المخدرات في الشوارع، ومزيد من السكر ومزيد من الأسلحة ومزيد من البغاء.»

«ليس هناك من جديد إذن» كان تعليق روسو.

كان فاسيتش خلال تفكيره في سؤال روسو يضرب بإصبعه على أنفه، وبدت عيناه كأنهما اختفتا من رأسه المائل إلى أسفل، وهذا كما أصبح روسو يعرف، دليل على أن فاسيتش يخفي أمراً أو أنه على وشك أن يفشي أمراً.

خلع فاسيتش قبعته فبدا تحتها رأس اكتمل صلعه باستثناء مجموعتين من الشعر واحدة عن كل جانب فوق أذنه تماماً. نفض بإصبعه غباراً وهمياً عن طرف قبعته وتفقدها بنظرة عابسة تنم عن استغراق في التفكير، قبل أن يلقي بها على مكتب روسو. ألقى بنفسه على الكرسي الوحيد في المكتب فصدرعن الكرسي صرير بدا أشبه بإنذار بسوء.

قال فاسيتش بعد تردد «لا ليس هناك من أمر آخر.»

ـ «وماذا عن المرأة في البلدة الجديدة؟»

ـ «امرأة؟» قال فاسيتش وجلس مستقيماً في كرسيه كأن أحداً سدد إليه ركلة.

ـ «نعم المرأة التي قتلت في المدينة الجديدة. المبنى التاسع، الطبقة السادسة.»

ألقى روسو كلماته متجنباً أن تلتقي عيناه بعيني محدثه. وسرح بنظره إلى بعيد بعدم اكتراث مدروس. تلمس فاسيتش بسبابته شاربيه الأبيضين الصغيرين الشبيهين بفرشاة أسنان. يا ابن العاهرة لقد وقعت في يدي.

ـ «طبعاً. طبعاً. المرأة الصربية. لقد نسيت أمرها».

رأى روسو من طرف عينه أنيل وبوريس وقد استلقيا على أحد المكاتب. كشف أنيل عن مفصل ضخم وبدا أن خسارته الأصابع الأربع لم تشكل أية صعوبة له. وكان بوريس يشرب خمراً من الزجاجة ممسكاً بها من عنقها وقد مال برأسه إلى خلف كأنه يهدف إلى أن يسكر سكراً شديداً وبسرعة. انضمت إليهما زلاتا وهي سكرتيرة اشتهرت بنكاتها ودعاباتها البذيئة، كانت ترتدي تنورة «ميني» ضيقة سوداء. وشق رجلا شرطة يرتديان ثياباً عسكرية هما سالكو وطاهر طريقهما إليهما.

- «حفلة؟»

- «إنه عيد ميلاد سالكو.»

قال روسو «لكنها الساعة العاشرة الآن.»

ترى هل كان أنيل يعرف. لقد قام بتجنيدها وكان مسؤولاً عنها. وقد أجاز روسو أن يدفع لها مبلغاً من المال بين حين وآخر.. الرشوة المعهودة لإبقائها إلى جانبهم.

ارتفع صوت فاسيتش قائلاً «ليس الأمر عيد ميلاد عادياً. لقد بلغ الأربعين من العمر وهذا ما يجعله مسناً لا يصلح للخدمة الفعلية.»

كانوا جميعاً قد سمعوا شائعات مؤداها أنه سيجري قريباً تعبئة جنود الاحتياط وصولاً إلى عمر خمسين سنة بمن في ذلك من بقي في المدينة من رجال الشرطة المدنية.

- «أتريد أن تتحدث إليهم؟»

أجاب روسو بهز رأسه بالإيجاب. إنهم اليوم هنا على الأقل وهذا لم يعد حدثاً مألوفاً هذه الآونة.

قال فاسيتش وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة «أتعرف. الحقيقة هي أنني لم أكن متأكداً تماماً من أنك ستعود.»

تجاهل روسو الملاحظة وركز عينيه على الرجل الآخر. وبدا أن ذلك أربك المفتش الذي أسرع إلى وضع إبهامه سبابته على زاويتي فمه في محاولة غريزية لإخفاء وجهه.

- «أكنت ستخبرني عن الجريمة؟»

- «آه. نعم. اسمع. إنك مشغول وسوف -»

- «تكلم.»

هل كان فاسيتش يعرف المرأة؟

- «كانت، فعلاً، جثة غير عادية.»

- «فكيف إذن لم تتذكرها؟»

قال بارتياح أقرب إلى التلذذ وهز كتفيه بلا مبالاة «صربية قحباء. لقد غرقت.»

- «غرقت؟»

- «نعم.» ابتسم فاسيتش ابتسامة عريضة ثم أخذ يرتجُ بالضحك.

- «ما الذي تعنيه؟»

- «لقد عثر عليها غريقة في حمامها.»

وتغضن وجه فاسيتش مرحاً وانطلقت خيوط صغيرة من أطراف عينيه وفمه وانضمت بعضها إلى بعض محولة وجهه كله إلى سلسلة من التموجات. انفتح فمه وقفزت دموعه إلى عينيه دون أن يصدر عن ذلك أي صوت. كان يهتز بضحك صامت جعل كرسيه يصدر صريراً.

مر روسو بيده على وجهه بسأم. لقد تعامل رجال شرطة مثل فاسيتش مع الموت والعنف طوال حياتهم المهنية. عملهم في الشوارع أعطاهم خشونة وجعلهم عديمي الإحساس وسمّك جلودهم فكوّنوا

أحكاماً مسبقة غدت كأنها مناطق صلبة ثابتة في الدماغ.

ـ «أوضح.»

ـ «لا شك في أنها أمضت أياماً إذا لم نقل أسابيع لتجميع ما يكفي من الماء في مغطس الحمام، لتذهب بعد ذلك وتغرق فيه.»

ـ «لست أجد ذلك مضحكاً. إنه لأمر مأساوي.»

مسح فاسيتش زاويتي عينيه بقفا إحدى يديه السمينتين وأطلق نفساً قوياً.

ـ «حسناً» قال وهو يهز كتفيه. كان يشعر بحرج. «ربما كنت على حق أيها الرئيس لكن الأمر بدا مضحكاً.»

مضحك لأنها صربية. أيها الحقير.

ـ «أحدث هذا الأمر اليوم؟»

فتح فاسيتش يديه ورفعهما إلى أعلى. «بحق الجحيم. لست أدري أيها الرئيس. لقد عثر عليها أمس. أعتقد ذلك.»

ـ «تعتقد ذلك؟ أين التقارير المكتوبة.؟»

هز فاسيتش رأسه.

ـ «من ذهب إلى مسرح الجريمة؟»

ـ «تبلغنا ذلك من القيادة المحلية.»

أنعم بها من قيادة: إنها محمود.

ـ «أي إنك تعني أننا لم نرسل أحداً إلى هناك؟»

ـ «لا أيها الرئيس.»

سيطر روسو على غضبه ولم يسمح لصوته بالارتفاع وسأل «لماذا لم نفعل؟»

- «أيها الرئيس الأمر شديد الخطر. وهناك أمر آخر -»

هنا نهض روسو من كرسيه وارتدى سترته وتناول مسدسه وشارته. كان الأمر خطراً دون شك. وسيقول فاسيتش له إنه لم تكن لديهم سيارات، أو بترول وأنه لم يكن من الحكمة إرسال رجل وحيد إلى المكان وأنه لم يكن هناك ما يكفي من رجال الشرطة لإرسال شرطيين اثنين في كل مهمة.

- «رقم الشقة؟»

- «أيها الرئيس -»

شعر روسو بذلك التيار البارد من الغضب الذي سرى في أطرافه يكاد يلهب دماغه.

وقال بهدوء: «سألتك عن رقم الشقة.»

فهم فاسيتش تلك العلامات التي تشير إلى انفجار وشيك لروسو الشهير بمزاجه المتفجر. «كل ما اعرفه من العنوان هو الياسينو بوليي. المبنى التاسع.»

- «فلنذهب. سيارتي.»

- «أيها الرئيس، أعتقد أن من الحكمة أن نذهب بسيارتي.»

في طريقهما إلى الخروج مرا بالشرطيين الذين كانوا يحتفلون بعيد ميلاد زميلهم. رفع أنيل الذي بدا زجاجي العينين، بقية لفافة ماريجوانا ودفعها إلى أن كادت تمس وجه روسو. لم يستطع روسو منع نفسه من تنشق تلك الرائحة القوية الحلوة. إذا كان هذا تظاهراً وتمثيلاً يا أنيل صلاح الدين، فهو جيد إلى درجة تجعله أفضل مما ينبغي أن يكون عليه.

- «هيا أيها الرئيس. خفف عن نفسك. إنه رائع. ذهب لبناني.»

وغمزه أنيل بعينه. إنها غمزة تآمرية.

تجنب روسو تلبية العرض المقدم له متظاهراً بأنه لم ينتبه وسار متوجهاً إلى الدرج.

قال فاسيتش بعد أن ابتعدا فلم يعد بوسع الآخرين أن يسمعوا كلامهما «إذن هذا ما وصلت إليه الأمور. رجالك يتعاطون المخدرات ويهزأون بالقانون أمام عينيك وفي غرفة رجال التحري».

لم يكن روسو ليحفل بأية صورة من الصور بما إذا كان أحدهم يدخن الحشيش في مجالسه الخاصة، لكن المسالة هي مسالة انتهاك القانون الذي يفترض أن يحافظ أنيل عليه. وبذل روسو جهداً للسيطرة على غضبه، لا على أنيل، بل على فاسيتش وتلك السخرية في صوته وعلى محاولته تملُّق روسو. وفي نهاية الأمر فان أنيل، بعد أن نحسب ماله وما عليه، شرطي ممتاز دون شك.

ـ «لم علينا أن نستقل سيارتك؟» سأل روسو بينما كان وفاسيتش ينزلان الدرج إلى الطبقة الأرضية. كان روسو يسير في المقدمة وهو لا يزال في الوقت نفسه يجهد لارتداء معطفه. أجاب فاسيتش «كلهم هنا يعرفون سيارتك أيها الرئيس. إنها تلفت النظر ولسنا في حاجة إلى ذلك، فنحن رجال الشرطة، كما تعرف، لم نكن أبداً محبوبين في ذلك القسم من المدينة. والجميع لديهم سلاح الآن ـ»

ـ «حسناً، تولّ أنت القيادة.»

ـ «أيها الرئيس، إنها مجرد صربية. وقد تكون انزلقت بها القدم فسقطت. ضعيفة من الجوع.. وغير ذلك.»

اضطر فاسيتش إلى السير في ما يشبه الهرولة ليستطيع اللحاق بروسو. واستأنف كلامه فقال «دع العسكريين يرسلون الأوراق إلينا. دعهم يهتمون بالأمر.» بدا صوته قوياً جداً وشديد الدوي في الطبقة

الأرضية. لم يردّ روسو على ذلك، بل وقف إلى جانب السيارة المحطمة وهي من نوع «ب. أم. دبليو» بينما كان فاسيتش يحاول فتح بابها. إنها مجرد صربية.

- «تقرير الطبيب الشرعي؟»

- «ما من طبيب شرعي أيها الرئيس. وما من تقرير».

شد روسو حزام الأمان حول وسطه وأنزل زجاج نافذة السيارة قليلاً.

- «من كانت؟»

- «طبيبة أسنان على مايبدو. صربية كما أخبرتك. وأرملة.»

خطأ. كان روسو قادراً على استحضار الملف في ذاكرته. مكتوب بخط اليد. بخط يد أنيل اليسرى المائلة والمليء بالتعرجات إنها مطلقة لا أرملة.

كانت السيارة عابقة من الداخل برائحة نتنة، رائحة دخان سكاير عتيقة.

- «هل لها اسم؟»

أدار فاسيتش السيارة وهز برأسه. وأجاب «آسف. لقد ذكروا الاسم. نسيت.»

بحق الله قال روسو في داخله. إما أنه لا يعتبر الأمر مهماً إلى درجة تفرض عليه أن يكتبه أو أنه يكذب.

كان عليهما اجتياز المدينة من جهة إلى أخرى فمرا قرب مقر الرئاسة عبر «زقاق القناص» قبل أن يلتفا شمالاً فيجتازا الأوتوستراد (الطريق السريع) العريض وينتقلا صعوداً إلى جهة الجنوب في اتجاه مجموعة المباني السكنية الشاهقة. وكان ذلك يعني اجتياز كثير من

الأمكنة المكشوفة المعرضة للنيران.

حدث روسو نفسه قائلاً إنه لا يعرض حياته وحدها للخطر بل حياة المفتش أيضاً. ففاسيتش كان هناك لأن روسو أمر بذلك، لانه لم يكن يرغب في رفض الأوامر. إنه ربما كان أضعف من أن يعترف بمخاوفه ويخالف روسو بقوة قائلاً له إن ما يقوم به هو عمل غير مسؤول.

الأبطال ليسوا أكثر من أشخاص منعهم خوفهم من أن يقولوا لا.

ـ «من هو القائد؟»

ـ «أحد رجال لوكا، فهذه الناحية قسم من منطقته.»

خيم الصمت على الرجلين. كان فاسيتش يقود بأسرع ما يستطيع والسيارة الألمانية، التي تركها في زقاق القناص طاقم تلفزيوني أميركي قبل مغادرة المدينة فاستولى عليها فاسيتش، تميل من جانب في الشارع إلى جانب آخر بينما يسعر فاسيتش جهده للإفادة من كل ما يمكن أن يوفر له حماية من الرصاص.

كانت مباني «هرانسو» السكنية الواقعة إلى الشمال ملتفة بالدخان والغبار.

قال روسو «يبدو كأنها أصيبت اليوم.»

تحرك فاسيتش معدلاً بصعوبة طرقة جلوسه في مقعد السائق وقال «لا يعجبنى الأمر.»

ـ «إنه لا يعجب أحداً.» أراد روسو بهذا أن يقول أنه لا يشعر بأنه أكثر شجاعة من فاسيتش ولا بأنه في حال أفضل من حاله، وأنه هو أيضاً يعرف كم ينطوي عليه الأمر من مخاطر وأنه هو أيضاً يشعر بالخوف. لقد رغب أيضاً في الرجوع وصرف النظر عن القيام بهذه الجولة. لم تكن مشاعره الغريزية مختلفة عن مشاعر زميله. إنه يرغب في

أن يبقى حياً. وكان يود أن يقول كل ذلك لفاسيتش لكنه كان الضابط الأعلى رتبة. إنه رئيس المفتش. عليه أن يقوم بدوره، أن يصمد حتى النهاية.

كانا يقتربان من مفترق الطرق.

- «هل تعرف شيئاً عن هذه القضية أجهله أنا؟»

هز فاسيتش رأسه.

- «هل تعرف ماذا يسمون هذه الشقق السكنية وتلك التي تقع في المبني التاسع؟» سأله فاسيتش.

- «هل يفترض بي أن أعرف؟»

- «منزل القردة» قال فاسيتش. تبسم وهو يقول ذلك.

كان روسو سيسأله عما يعني هذا لو لم يدوِ صوت رهيب بدا كأنه يشق السكون كصوت منشار هائل، مثل فرقعة سوط كهربائي ضخم فوق رأسيهما كاد يصعقهما. طنت أذنا روسو وتكوم فاسيتش وراء مقود السيارة هابطاً إلى أدنى ما يستطيع الوصول إليه. تمايلت السيارة من جانب إلى آخر ولم يستطع روسو معرفة ما إذا كان السبب هو اهتزاز فاسيتش وراء المقود أو محاولاته المتعمدة تجنب نيران العدو.

كان ذلك مدفعاً مضاداً للطائرات. هناك في الخطوط الصربية المشرفة على المدينة من يسعى إلى قتلهما به مطلقاً سيلاً من القذائف المدفعية من عيار ٢٠ مللمترا التي ترددت اصداؤها تلف السطوح والجدران. كان في وسع طلقة واحدة من هذا السلاح أن تخترق السيارة فتمزق محركها وتمزق الرجلين.

- «المبنى التاسع» قال فاسيتش مشيراً إليه بإصبعه. كانت المباني مرتفعة جداً، تتجمع بشكل عنقودي وكل منها يواجه جهة مختلفة عن الأخرى في ما بدا محاولة من مهندسي البناء لإعطاء كل شقة وشرفة

قدراً من العزلة والحفاظ على الشعور بالخصوصية، وشيئاً من المنظر يتجاوز ألواح الأردواز الحمراء والجص الأبيض والقرميد في المنازل المجاورة. كانت هذه الشقق أنيقة في يوم من الأيام أنشئت في عملية تنمية وتطوير إسكانية لجماعات الدخل الأدنى والمتوسط، خاصة العائلات الشابة، لكنها بنيت بنوع من الإحساس المرهف الذي يضع نصب العين إقامة منطقة ليست على شاكلة تلك المباني الرمادية الكئيبة المقامة على شاكلة تلك «اليوتوبيا» الستالينية المبنية على نسق واحد التي نجدها في بلغراد.

وفي الطبقة الأرضية كانت هناك مماش ومتاجر للتسوق، أو ما كان متاجر وقد تحطمت واجهاتها، وما كان في السابق مظلات براقة ترتفع فوق هذه الواجهات رث وتمزق. تمزقت الممرات القرميدية المزينة بالرسوم وتبعثر قرميدها واتسخت كل هذه الأمكنة بالسخام وامتلأت بالنباتات البرية.

ولمح روسو «مانيكانات» عارية في «بوتيك» لبيع الألبسة النسائية وقد مالت أجسامها البلاستيكية الوردية اللون كلها إلى جانب واحد وتكومت بعضها فوق بعض كحجارة الدومينو، وبعضها انتزعت أطراف منه وصارت شفاهها الحمراء وأعينها الميتة وعظام وجنات رؤوسها الصلعاء والتي قطعت بطريقة عبثية دون دماء تسيل منها، تحاكي الموتى كما كانت تحاكي الحياة في ما مضى.

كان هناك وبوضوح شيء يثير التقزز في ذلك المشهد، شيء يفيض بالشر الذي يستعصي على الوصف.

«بوت. . بوتبوت. بوت

بوبا بوووب

ز ز ي ي ي نغ»

كانت المباني تغير الأصوات وتبددها وتخفت أصوات الانفجارات إلا أنها مع ذلك كانت تضخم أصوات القذائف المختلفة وهي تمر في الهواء فوق المكان. كانت الأصوات ترتد مندفعة إلى أعلى وإلى أسفل بين الأرض والسحب القليلة الارتفاع.

زحف روسو وفاسيتش إلى أمام وهما ملتصقان بالجدران. لم يكن هناك من أحد في الجوار. إنها علامة سيئة.

الفصل الثالث

«إذا كنت تستطيع الحفاظ على هدوئك ورباطة جأشك بينما يفقد كل من هم حولك هدوءهم ورباطة جأشهم، فذلك يعني أنك أسأت فهم الوضع.»

كتابة على جدار قديم.

أصر المفتش فاسيتش على الكلام بينما كانا يصعدان درجات السلم وحذاؤه ذو النعل الجليدي ينزلق ويتنقل بصعوبة على هذه الدرجات التي لم تكنس من عدة أشهر. وسرعان ما شعر بأنه يفقد أنفاسه ويكاد يختنق مما جعله يتوقف كل بضع درجات وهو يكاد يغص بالهواء.

وكلما زادت المسافة التي تفصله عن روسو الذي كان يسير أمامه كلما بدا صوته في بيت السلم أعلى من السابق وأكثر تقطعاً. الفترات الزمنية القصيرة التي استند خلالها إلى الجدار امتلأت بصوت لهاثه المجهد وفي أعقابه صوت قدميه وهو يعود إلى جرهما ببطء. وقد يكون ارتياح المفتش لوجوده داخل المبنى أو لأن رجال لوكا لم يعترضوا سبيله، السبب في جعله يكثر الكلام إلى هذا الحد. وعلى كل حال فرجال الميليشيات المحليون كانوا دون شك مشغولين بهذه المناوشات، أو مهما كانت الأسماء التي تعطى لها، التي تجري في الجهة الأخرى المقابلة لصف المباني هذا، عبر «نيداريتشي» إلى الجنوب من منطقة

«دوربينيا» التي تسيطر عليها قوات الحكومة.

أخرج روسو من جيبه مصباحاً كهربائياً في شكل قلم رصاص وأضاءه لفترة قصيرة مسلطاً نوره على اللوحات الصغيرة التي تحمل أسماء ساكني الشقق.

- «ما الاسم الذي قلت أنها تحمله؟»

وكأن من الممكن لروسو أن ينسى الاسم.

رد فاسيتش وهو يلهث «لم أقل شيئاً.»

- «إنها تحمل اسماً صربياً.»

- «صحيح.»

كانت تلك هي الطبقة الخامسة من المبنى وعليهما الصعود إلى الطبقة السادسة. تبعه فاسيتش متململاً ترافق الشتائم أنفاسه المتقطعة. مر روسو بنور مصباحه على الأسماء وشفتاه تتحركان وتقرآن: دوديتش، ماتريتش، كوزكس، ماركوفا، دوسان بوكوفاتش.

رفع روسو صوته قائلاً «بوكوفاتش.»

- «إنه اسمها.»

- «متاكد؟» كان روسو متأكداً من الأمر لكنه أراد أن يعرف ما إذا كان فاسيتش كذلك.

- «طبعاً أنا متأكد.»

لا بد من أن دوسان كان الاسم الأول لزوجها.

- «الشقة ٦ ب، فلنبدأ عملنا.» جاء صوت روسو أشبه بالهمس وكانت تصدر عنه نفثات من البخار وهو يتكلم في ذلك الجو البالغ الرطوبة.

أخرج فاسيتش مسدسه الصغير وهو من نوع ماركوف وحمله قريباً من فخذه وهما يسيران في الممشى. وكان روسو يضيء مصباحه بين فترة وأخرى باحثاً عن الرقم. وقف فاسيتش جانباً مسنداً ظهره إلى الجدار حاملاً المسدس بيديه الاثنتين مصوباً ماسورته إلى أسفل وهو يراقب روسوالذي وقف أمام الباب.

قرع روس الباب بحدة ثلاث مرات ثم تراجع إلى الوراء. «الشرطة!» لكن الممشى ابتلع صرخته.

انتظرا في الظلمة. قرع روسو الباب مرة أخرى وأخرى. ثلاث مرات، لكنه في الأخيرة ضرب الباب بكف يده بقوة.

- «أحاول عند الجيران، هل أفعل ذلك؟»

لم يجب روسو. أخرج مصباحه من جديد وأخذ يتفحص الباب. هناك من فتحه عنوة ممزقاً الإطار الخشبي بقضيب حديدي أو بشيء يشبهه مقتلعاً الباب من مفاصله. وقد تمزق الخشب وتشظى في الجهة المقابلة للقفل وفي أماكن المفاصل.

قال روسو «فلندفعه. خذا أنت هذه الجهة.» وضع روسو كتفه على الباب، واقترب فاسيتش منه. أسند كل منهما ظهره إلى الآخر واستعدا للدفع.

قال فاسيتش «واحد.. اثنان.. ثلاثة.» تحرك الباب بسهولة. دفعه روسو فانفتح.

كان المكان صغيراً وشديد النظافة. الباب الأول يوصل إلى ردهة صغيرة. كانت هناك مرآة على الجدار وبساط على الأرض، وأرضية من قطع الخشب المصقولة الملمعة تؤدي إلى ممشى. وإلى الشمال مباشرة تقع غرفة الجلوس وخلفها نافذة وشرفة.

كان أول ما لحظه روسو وجود وحل جاف على الأرض المصقولة

وآثار أحذية. توقف روسو وحدق في آثار الأقدام على الأرض. شخصان على الأقل، قال لنفسه.

يا يسوع المسيح. إنها تلك الرائحة من جديد. إننا في حاجة إلى مصور فوتوغرافي، أضاف روسو يقول في دخيلته وهو يخطو بعناية فوق الوحل مشيراً إلى فاسيتش بأن يحذو حذوه. وذكّر نفسه بأنه ليس لدى الشرطة مصورون فوتوغرافيون، فالمصورون الذين لم يلحقوا بالجيش يعملون الآن مع الصحافة الأجنبية.

كانت غرفة الجلوس على شكل حرف «ل» بالإنكليزية. اجتازها روسو وفاسيتش بحذر لأن النافذة والشرفة امتدتا بطولها تماماً مما يجعل كل من يقف في الغرفة معرضاً لأن يصاب بالنار من وسطه حتى رأسه. كان لون الجدران الداخلية أبيض يميل إلى صفرة وحملت الصوفا غطاءً فضفاضاً بلون مماثل كما كانت هناك منضدة للقهوة ذات سطح نحاسي مطعّم وعليه غطاء مخرّم ومزهرية وصورة داخل إطار. وارتفعت فوق لوحة كي الثياب كومة من البياضات المكوية بعناية. أما المكوى، وهو من الطرز القديم الذي يحمَى على النار، فقد كان موضوعاً على طرف لوحة الكي. وجاء بساط صوفي بلون أبيض على اصفرار مكمّلا صورة اللين والبساطة هذه. وحشر سرير ضيق في قاعدة زاوية حرف L الإنكليزي المذكور، بين غرفة الجلوس والمطبخ البالغ الصغر. ولاحظ روسو أن السرير رتِب بإتقان وبطريقة أسرة المستشفيات. وبدا غطاء المخدة وأغطية الفراش نظيفة بل مكوية لم يعبث بها. أدرك روسو أن السرير موضوع هناك لان من ينام فيه يكون محمياً بجدار من كل ناحية وبعيداً عن خط النار المباشر.

ـ «من المحتمل أنها مازالت في الحمام.» قال فاسيتش.

الجثة موجودة هناك إذا صح الاستدلال بالرائحة. للموت رائحة نتانة ناعمة متخمة. إنها في كل مكان. ليس هناك ما يشبهها ولا يمكن

حجبها بالعطور ولا بالأزهار أو بمحرمة توضع على الوجه. إنها تدخل من تحت الأبواب ومن خلال النوافذ إلى الطعام والشراب. وإذا كان المكان قريباً والبقايا متحللة بشكل كاف، فهذه الرائحة تلتصق بثياب الإنسان، بشعره، وقد يحتاج إلى أيام أو أسابيع لغسل طعمها عن فمه.

اشتمها روسو الآن. كان يحس بطعمها على لسانه، ولم يكن غريباً عنها. سار أمام زميله إلى المطبخ الذي يكاد لا يتسع لهما معاً.

ـ «لماذا لا تلقي نظرة؟» سأله روسو مشيراً إلى غرفة الحمام. أراد أن يكون وحيداً، وحيداً كي يفكر، كي يرى. المغسلة المعدنية من النوع الأصلي، وفي حوضها فنجانان مع صحنيهما وصحنان وسكينان وشوكتان وملعقتا شاي. وعلى طرف المغسلة منشفة للأواني، نظيفة ومطوية بترتيب.

هل استقبلت زائراً قبل أن تموت؟ شخصاً تعرفه؟ هل كان الزائر فاسيتش نفسه، ربما؟ قال روسو لنفسه إنه ليس لديه أساس للاشتباه بفاسيتش. حسناً هذا المفتش ليس من شعبة الشرطة الجنائية، ليس واحداً منا. الأكيد أنه سمين، وهو دون شك ليس محبوباً. رجل ميليشيا يعطيك قطعة من الورق كتب اسمه عليها. كل ذلك ليس كافياً.

فتح روسو الخزانة الصغيرة المثبتة فوق المغسلة واستعمل مصباحه الكهربائي ليتأكد من محتوياتها. مقدار فنجان من الأرز في قعركيس من البلاستيك. ملح. صحن شاي مشقق يحتوي على نحو ثلاث ملاعق من السكر. تنكة من الحليب المكثف المحلّى. ورقة ملفوفة تحتوي على أوراق شاي. كيس فيه حوإلى نصف كيلوغرام من العدس، وربع رغيف من الخبز الذي أصبح، لقدمه، قاسياً كحجر. قشرة جافة لفص من الثوم وزجاجة فيها بقية عكرة من زيت للطهو.

هذا كل ما كان هناك، لكنه مع ذلك كان كافياً ليشكل دافعاً إلى

جريمة قتل. كانت الثلاجة الصغيرة فارغة إذ ليس من السهل تذكر متى أتيح للمدينة تيار كهربائي يكفي لتشغيل الآلات المنزلية التي يعتبرها الأوروبيون أشياء مسلماً بها في حياتهم. نظر روسو إلى ما تحت حوض المغسلة متفحصاً بعناية سطلاً من البلاستيك ولفة من الأنابيب البلاستيكية وأخذ يمر بأصابعه على أطرافها ثم يشم أصابعه. مواد كيماوية ـ مواد تبييض، ربما كانت حمضية.

فتح الأدراج ثم أغلقها وخرج إثر ذلك إلى الشرفة منحنياً وزاحفاً على يديه وركبتيه دون ارتباك، باذلاً جهده كي لا تجرحه قطع الزجاج المتناثرة. كان يفتش عن بقع دم، عن أي دليل يشير إلى أن أحداً سعى إلى إخفاء آثار وقوع عراك.

دخل فاسيتش إلى غرفة الجلوس وشاهد روسو من خلال النافذة المحطمة. «إنها هناك» قال.

نهض روسو وعاد إلى الداخل ثم قال «غرفة النوم أولاً.»

قرر بينه وبين نفسه أن المكان لطيف، منوَر بنور طبيعي جيد. ومع ذلك فهو يكاد يكون أكثر نظافة مما ينبغي حتى ولو كانت ساكنته امرأة. كان أقرب إلى شقة سكنية مستأجرة يجري ترتيبها وتنظيفها بانتظام أكثر منه إلى منزل مأهول. قال روسو لنفسه إن كل منزل دخل إليه، بما في ذلك منزله، كانت فيه زوايا مغبرة، وثياب متسخة وخرق بالية ملقاة دون اهتمام في عمق أماكن منعزلة مظلمة لا يتوقع أن ينظر إليها أحد. وتمتم محدثاً نفسه «إن ذلك جيد إلى درجة لا يبدو فيها حقيقياً.»

ـ «ماذا تقول؟»

ـ «لا شيء. أحدث نفسي.»

أراد روسو أن يلقي نظرة على غرفة النوم. تململ فاسيتش بعصبية في الممر وشكله ينم عن انزعاج مقموع. كانت شفتاه مزمومتين بشكل

غريب وبدا أنه يتجنب عيني روسو. وبدت نظرة فاسيتش كأنها تقول إن كل ذلك إضاعة للوقت وإن فاسيتش يريد أن ينتهي من الأمر. أما روسو فقد قال لنفسه ان الجثة لن تهرب مع أنه، عقلانياً، يدرك أنه من الأكثر منطقية أن يلقي نظرة على جثة المراة أولاً خشية أن يقطع الجيران عليه عمله مثلاً أو في أسوأ حال أن تقطع عليه الميليشيا المحلية هذا العمل. لكن من ناحية ثانية فإن الجرائم نادراً ما تكون معقولة والحل يكمن غالباً في ثنايا التشابكات العاطفية في حياة الفقيد أكثر منه في مجال العقل والمنطق. وفي هذا الشأن غالباً ما لجأ روسو إلى شعوره الغريزي، إلى إحساسه بما قد جرى. لقد كانت تتسم بالترتيب والتنظيم وهذا واضح تماماً، كما كانت نظيفة جداً إلى حد الهوس. لم يكن في منزلها سوى قليل من تلك الأشياء التي تعودت النساء على جمعها. ما من صحون خزفية وصور رومانتيكية لأشخاص وأماكن. لم تكن هناك مجلات أزياء أو صور لأولاد أخ أو أخت أعزاء ولا علب مجوهرات أو أخرى لمواد تجميل بل لم يكن هناك حتى أصبع حمرة ـ ما من شيء يوحي بطريقة من الطرق بالخيلاء أو التأنق التافه أو باهتمام بعائلة أو اهتمام بالزي أو بالشكل.

وإذا كان لهذه المرأة جذور فليس هنا أي أثر لهذه الجذور.

غرفة النوم صغيرة، ومربعة وبسيطة الأثاث كسائر المنزل. كانت هناك سجادة صينية ذات أطراف زرق حيث كان السرير قبل نقله إلى مكان أكثر أماناً، وخزانة ذات أدراج من خشب الصنوبر وخزانة ثياب. وليس في الغرفة منضدة زينة ولا أدوات تزيين ولا مرآة طويلة تظهر قامة الإنسان بكاملها. وهل هناك امرأة تشعر بالارتياح بالعيش في أي مكان لا يحتوي على مرآة من هذا النوع.

استعمل روسو طرف مصباحه الكهربائي الصغير لفتح الأدراج. كانت الثياب مطوية بنظافة وترتيب ولم يكن ثمة أي إسراف أو إفراط

في شيء. لا ثياب نوم حريرية أو سراويل داخلية من الساتان. وكانت الثياب كلها من من المواد المعقولة ومعظمها من القطن وقدكويت وطويت بنظافة وترتيب. فتش روسو المكان ساعياً إلى العثور على رسالة أو على مفكرة يومية، على شيء من شأنه أن يتيح له النفاذ ببصيرته إلى حياة أو حيوات لا بد من أن تكون قد تدفقت على هذه الشقة دخولاً وخروجاً.

كان هناك ثلاثة أزواج من الأحذية وقد تهرأ كل منها عند الكعب، وفي الجهة السفلى من خزانة الثياب تنورتان وثوبان شتائيان وثوبان طويلان صيفيان، وبنطلونان فضفاضان ومعطف شتائي أخضر اللون ـ وكلها معلقة بتعليقات معدنية ومقاسها من الرقم عشرة. كل شيء نظيف ومعقول لكن ليس هناك أي شيء جديد.

القى نظرة على الرقع الملصقة بها والتي تدل على أسمائها التجارية /ماركاتها/ فلم يستطع التعرف إلى أسماء صانعيها فقد كانت محلية الصنع لاتلفت النظر وغير باهظة الثمن. رأى على ظهرالخزانة ذات الأدراج منبّهاً كبير الحجم من النوع الذي يتوقف عند ساعة محددة وقد توقف عقرباه عند الساعة الثانية والثلث. وبقرب المنبه كانت هناك كومة من الكتب. تناولها روسو واحداً واحداً رافعاً دفتي كل كتاب إلى أعلى وهو يهز صفحاتها بقوة كي تسقط أية ملاحظة أو ورقة قد تكون أخفيت داخلها. بعدذلك أخذ يقلب صفحاتها وما لبث أن اكتشف أنها جميعها كتب دراسية مقررة في مجال طب الأسنان. اعادها إلى مكانها. كان هناك قليل من «بودرة» الوجه ولوح جديد من الصابون لا يزال ملفوفا بورق السيلوفان وترتفع منه رائحة الخزامى. وباستثناء ذلك فقد كانت الغرفة خالية من كل ما يذكِر بالجنس وكأنها مركز رهبنة.

«حسنا، فلنلق نظرة.» قال وهو يشق طريقه متجاوزا فاسيتش. كانت المراة منبطحة على بطنها في حوإلى عشرين سنتيمترا من الماء.

فليساعدني الله. هل فعلنا ذلك بك. كانت عارية باستثناء قميص داخلي، قصير ورقيق، من القطن وقد ثني وتجمع تحت ذراعيها وكتفيها. وكان ظهرها وردفاها وكثير من ساقيها وقدميها، فوق سطح الماء. حدث روسو نفسه قائلا ان هناك من الناس من يغرق في البرك الصغيرة التي يحدثها المطر إذا كان في حالة سكر شديد. الرائحة التي انتشرت في المكان سيئة جداً حتى بالنسبة إلى شخص مثل روسو تعود مثل هذه الأجواء. من سؤ حظه أن غرفة الحمام كانت الغرفة الوحيدة التي لا تزال فيها نافذة سليمة. فلو كان في أي مكان آخر من الشقة لحملت إليه نسمات الهواء شيئاً من الراحة. لكن هذه النافذة صغيرة جداً ومرتفعة تطل بزجاجها السميك المكسو بالجليد على مهوى أو نوع من الفناء الداخلي.

ركع ضابط شرطة التحري على ركبتيه وأخذ يفتش ببصره اطراف الحمام وجنباته بعناية. لم تكن رائحة الموت هي الرائحة الوحيدة هنا. لقد أصبح روسو على يقين الآن أن الضحية قاومت مقاومة شديدة لكنها كانت تعرف أن لا أمل لها بالنجاة فمهاجموها اقوى من أن يتركوا لها مجالاً للخلاص.

أما الماء فكان قذراً بلون بني داكن لم يستطع نظر روسو اختراقه، وقد أخذت قشرة سميكة كريهة تتكوّن على امتداد خط الماء في مغطس الحمام. لقد نزفت المرأة نزيفاً حاداً يبدو أن مصدره مكان من الجهة الأمامية من جسمها أو وجهها. لقد ضربت أو طعنت مرات وهي في الحمام، إلا إذا كان قتلتها قد قاموا بعملية تنظيف مكان مقتلها لاحقاً. كان هناك دم على جوانب الحمام حيث يبدو أنها أبدت مقاومة شديدة وهي تحاول منعهم من أن يلقوا بها في المغطس ويبقوها فيه بالقوة. وقد جفت الدماء وتحول لونها إلى بني فلم يعد يمكن تمييزها عن البراز. ارتسمت خطوط من الدم حيث حاولت أظافرها عبثاً أن تتمسك بميناء المغطس بينما أخذت مقاومتها لمهاجميها أو مهاجمها تضمحل. وقدّر أن

طول المراة يبلغ حوالي متر وخمسة وستين سنتيمتراً، وقد وخط الشيب شعرها البني القصير. وهي نحيلة ذات قوام كان يعتبر، قبل الحرب، حسن المنظر رشيقاً. قبل الحرب. أشبه بقولك قبل بداية الزمن نفسه. أما الآن فهي أقرب إلى هيكل عظمي.

أخذ روسو يسجِل ملاحظات في ذهنه. الوزن: بين١٧ كيلوغراماً و٢٠ كيلوغراماً. العمر: منتصف الثلاثين. الجلد مشدود على العظام. مشهد ذكّر روسو بما رآه من صور لمعتقلات الإبادة النازية؛ الأكوام المرعبة من الجثث. صور جعلته يوشك على التقيؤ ويتصبب عرقا. هي أيضاً كانت شديدة الشحوب وجلدها بلون المرمر إذ أن المدة التي انقضت على موت طبيبة الأسنان كانت كافية لجعل سوائل الجسم تستقر في الجهة الأمامية منه. ومع ذلك فقد استطاع روسو أن يتبينّ على منطقة السلسلة الفقرية أثر أذى أو كدمة وقد تغير لونها قليلاً حيث تمزق الجلد. وكانت بطول قلم رصاص وبعرض يبلغ ضعفي عرضه. وبدت هناك أيضاً لطخات زرقاء سوداء على أعلى الفخذين وحجم كل منها يماثل تقريباً حجم قطعة نقدية من فئة ٥٠ دينارا.

لم يكن في ذهن روسو أي شك في أن عراكاً دار وفي أن المهاجمين كانوا أكثر من شخص واحد. استدار وهو لا يزال على ركبتيه وأخذ يتفحص ما حوله. زجاج محطم تحت المغسلة، وعلى الأرض فرشاة أسنان، ولفة ورق المرحاض التي تشربت بمياه الحمام. فاسيتش على حق، فلا بد من أنها احتاجت إلى أيام لجمع هذا القدرمن الماء في الحمام. نظر روسو حوله مرة أخرى. رأى منشفة يد صغيرة ملطخة بالدم مرمية في الزاوية المواجهة لطرف الحمام. وكأن أحداً القى بها جانباً بعد أن مسح بها الأرض.

ـ «ما الذي تعتقده أيها الرئيس؟» سأل فاسيتش وقد خرج صوته مكتوماً من المحرمة التي وضعها على وجهه.

وقف روسو.

- «مضت على موتها مدة اقدّر- استدلالاً بالرائحة - أنها تراوح بين ست وثلاثين ساعة واثنتين وسبعين ساعة، بل ربما أكثر من ذلك.»

كان روسو يريد إجراء تفتيش في الشقة كلها عن بصمات وأن يقوم طبيب اختصاصي في علم الأمراض بفحص الجثة قبل نقلها لإجراء عملية فحص كاملة من تلك التي تجرى لمعرفة سبب الوفاة كما كان يرغب في أخذ عينات دم من الحمام وكشط تلك المواد المتجمعة في الفراغ بين بلاطات أرض الحمام كي يدرسها الطبيب الشرعي. لكن الواقع هو أن أياً من تلك الإجراءات لم يعد ممكناً. فمؤسسات الطب الشرعي أصبحت عملياً متوقفة عن العمل. ونتج عن ذلك أنه في قضايا من هذا النوع أصبح التوصل إلى معرفة المجرمين وإدانتهم أمراً متزايد الصعوبة إذا لم يكن مستحيلاً.

عاد روسو فجثا على ركبتيه مرة أخرى. التخشب الموتي، ذلك التيبس الذي يصيب الجثث حل بجثتها ثم غادرها. ولم يكن ظاهراً من يد المرأة اليمنى سوى الرسغ إذ كانت مثنية بشكل جعل القسم الأكبر منها تحت الوجه فكأن المرأة كانت ترفعها لتحمي بها نفسها. أما يدها اليسرى فكانت كلها تحتها. من المفترض في مثل هذه الحالات القيام بإجراءات منها أخذ عينات مما قد يكون علق تحت أظافر اليدين وشعرة أو شعرتين من رأسها. إلا أن هذا أيضاً لن يحدث.

- «ما رأيك أيها المفتش؟» سأل روسو.

هزّ فاسيتش رأسه بلا مبالاة. «قلت لك. لقد سقطت. أصيبت بنوبة قلبية.»

- «تعال إلى هنا. ألق نظرة.»

لم يتحرك فاسيتش وبدا متجهماً غاضباً. عزا روسو ذلك إلى أنه خائف.

ـ «تعال.» قال روسو وانحنى قليلاً إلى الخلف ومد يده فامسك بذراع فاسيتش وجذبه نحو الحمام. «قل لي إنك لا ترى كدمات على الظهر. قل لي ما الذي تشمه. ليس الأمر مجرد بداية تحلل، بل إنني أشم رائحة براز. لقد فقدت السيطرة على العضلات العاصرة في جسمها. كانت تتعرض لعملية خنق.»

رد المفتش وقد تحول لون وجهه رمادياً «كيف يمكنك التأكد من ذلك؟»

ـ «لست متأكداً ولكنني أستطيع أن اقوم بعملية تصور عقلي مبنية على العلم والمنطق. يوجد كثير من الدم هنا. ضربها أحدهم، أو أكثر من واحد، ربما في مكان آخر، لكن الأرجح أن ذلك جرى هنا في الحمام. وربما اعتقدوا أنها ماتت وأن عليهم أن يلقوا بها في الحمام كي يبدو الأمر انتحاراً، لكنها لم تكن ميتة، وقد بدأت تقاوم عندما أدركت أنهم يضعونها في الماء. إذن لقد قررت أخيراً التوقف عن التظاهر بالموت. لكن ذلك جاء متأخراً جداً، كما ترى. لقد وضع أحد المهاجمين ركبته أو قدمه على ظهرها ودفعها إلى تحت. وشد هو أو رفيقه على رقبتها بأيديهم أو بحزام أو حبل، أو ربما قاما بكسر عنقها. لن نعرف ذلك قبل أن نخرجها. لقد طعنوها فنزف دمها بغزارة. لكنها عرفت ما الذي كان يجري فقاومتهم. وقد تكون غابت عن الوعي لكن الماء أعادها إلى وعيها عندما ألقوها في الحمام. ويمكنك أن ترى خطوط الدم هناك على ذلك الجانب. هذه هي أصابعها التي كانت تسعى إلى خدش جانبي المغطس لتتمكن من التمسك بشيء وهم يدفعونها إلى الماء.»

كان روسو يفكر في مدى رغبته في أن تجفف رئتاها ومعدتها ليعرف ما إذا كانت قد ماتت غرقاً، أو قبل أن تبتلع هذا المزيج الرهيب من الماء والبراز والدم.

ـ «هناك شيء آخر» قال روسو. خطوط رسمتها الإبر التي كانت بها تحقن نفسها، بالهيروين على الأرجح، يتجه إلى الأوردة الرئيسية فوق كاحل قدمها اليسرى. لم يعد هناك من شك الآن في أنها المخبرة التي كان آنيل يتعامل معها، المرأة التي كان وجهها يحدق فيه من أحد الملفات في مكتب السجلات الرئيسي.

قال روسو وهو يشير إلى الوريد الكثير الثقوب المحاط بالكدمات «أترى ذلك؟» لكن فاسيتش خرج إلى الشرفة غير عابئ بأنه يعرض نفسه لنيران القناصة الذين يكمنون في عليات المباني المجاورة وأخذ بالتقيؤ من فوق الدرابزون قاذفاً ما كان في معدته بجلبة من ارتفاع ست طبقات، إلى الثلج الذي يملأ الأرض تحته.

ـ «أتشعر بتحسن؟» سأل روسو عندما عاد فاسيتش وهو يمسح وجهه بكمه.

ـ «طبعا» أجاب فاسيتش بصوت خفيض كنقيق ضفدع.

معظم رجال الشرطة الذين عرفهم روسو كانوا من الذين يحترمون الحياة البشرية. ولطالما شعر بالإعجاب وحتى بالحسد من هؤلاء الشرطيين الأصغر سناً منه لبراءتهم في مواجهة الموت العنيف. وليس الفرق هنا هو أن روسو لم يكن يحترم الحياة أو أنه كان أقل احتراماً لها منهم. كل ما في الأمر أنه لم يكن يعتبر الجثمان الملقى في الحمام بشرياً، أي إنه عائد إلى شخص معين. فالمرأة، ساكنة تلك الجثة رحلت منذ زمن إلى المكان الذي ترحل إليه الحياة، كائناً ما كان، إذا كانت قد رحلت إلى أي مكان. الذي خلفته وراءها هو بالنسبة إلى روسو شأن لا شخصي مثله مثل تلك «المانوكينات» المعطوبة والمحطمة.

علق فاسيتش على الموضوع قائلاً «إن ذلك يشرح أموراً كثيرة. أعني أنها كانت مدمنة، وقد تكون تناولت جرعات أقوى مما ينبغي فسقطت في الحمام فصدمت رأسها وغرقت. وفي كل حال فتلك الرضوض قديمة.»

لم يعلق روسو بأية كلمة واكتفى بالنظر إلى أعلى.

ـ «انتهينا؟» سأل فاسيتش.

ـ «تقريباً. أخبرني، من أبلغكم تليفونياً بالأمر؟»

ـ «لست أدري أيها الرئيس. الذي اتصل لم يترك اسماً.»

ـ «ورد الاتصال من الجيش أليس كذلك؟ أم من جماعة لوكا؟ فلتكن زيارتنا التالية إليهم، ما رأيك في أن نقوم بها.»

عبس فاسيتش ورد قائلاً «كما قلت لك. لم يترك أسماً.

ـ «كان رجلاً، لا امرأة.»

ـ «صحيح.»

سأله روسو «أتريد أن تقول أن التبليغ كان مكالمة من شخص مجهول؟ أي أنه لم يكن تبليغاً رسمياً؟»

ـ «نعم.»

ـ «إذن كنا نحن أول من وصل إلى المكان.»

أجاب فاسيتش وقد بدا التوتر عليه «قد يكون الأمر كذلك.»

بادر روسو إلى القول «قد يكون القتلة هم الذين خلعوا الباب لا العسكريون أو الجيران.»

أشاح فاسيتش ببصره ولم يقل شيئاً.

وقف روسو ثم سأله «من تلقى المكالمة؟»

بدا فاسيتش في حالة من القلق والتململ. قال «أنستطيع الخروج من هنا.»

أعاد روسو طرح السؤال بإصرار «من الذي تلقى المكالمة.»

صعد الدم إلى وجه فاسيتش وردّ بصوت حادّ مدوّ «ما الذي تحاول أن تثبته؟ أنَ شرطياً كرواتيا يعنيه أمر بقرة صربية انصبَ اهتمامها على المخدرات وسقطت في حمامها القذر فغرقت في برازها؟»

وارتفع صوت فاسيتش قائلاً «إنه لأمر مقرف. لا يهمني أمر هذه المرأة ولا سعيك إلى التكفير عن الماضي». رفع فاسيتش قبضته وهزها بشدة وهو يصرخ اذهب إلى الجحيم. أنا أخاطر بحياتي هنا لكي تستطيع أنت أن تقدم الدليل على أنك لست ابن ابيك.»

وما أن تفوه فاسيتش بهذه الكلمات الأخيرة حتى سيطر عليه الندم. وخف غضبه وظهر الخجل عليه.

تفكّكت يوغوسلافيا وانتهت، وعادت العداوات القديمة إلى الظهور. لقد مسّ فاسيتش ما ينبغي ألا يذكر: عائلة روسو، وبصورة خاصة تعاون والده مع الحكم النازي في زغرب خلال الحرب العالمية الثانية. نظام يوستاش السيئ السمعة.

تميز روسو دائماً بموهبة القيام بما هو غير متوقع. وهنا أيضاً جاء تصرفه على صورة لم يكن فاسيتش ليتوقعها أبداً. لم تكن هناك أية ومضة غضب، ولم تمتد يد إلى قبضة مسدس. لو تلقى فاسيتش تهديداً من الضابط الأعلى منه رتبة، بل لو ضربه هذا الضابط لكان شعوره أفضل بكثير مما هو الآن. لقد اكتفى روسو بالابتسام، ابتسامة عريضة. ابتسامة تهنئة.

- «حسناً أيها المفتش. إنك تدهشني!»

- «اسمع. لم أقصد أن أهينك -»

استمر روسو في ابتسامته وأجابه قائلا «لا. طبعاً.»

- «كل ما في الأمر -»

- «أعرف»

توجه روسو إلى الباب الأمامي وقال«المفاتيح؟»

بدت الحيرة على وجه فاسيتش.

- «مفاتيح سيارتك.»

سحب فاسيتش المفاتيح من جيبه فمد روسو يده، لكن فاسيتش تردد قليلاً ثم ألقى بها إليه.

- «سأذهب لأفتش عن طبيب جراح يلقي نظرة على هذا. وأريدك أن تبقى هنا.»

- «اسمع -»

- «هل تناولت فطورك؟»

قال فاستش «نعم» قاصداً بها ما كان قد تناوله وأصبح الآن منتشراً على الثلج تحته على بعد ست طبقات.

أضاف روسو «سيحل شخص آخر، محلك لا تغادر الشقة لأي سبب من الأسباب. ممنوع دخول أي شخص كان. فهمت ذلك؟ وإذا شعرت بأنك في حاجة إلى التبول فافعل ذلك من على الشرفة.»

- «أعتقد أن عليك ترك ذلك للعسكريين. دعهم يحلون القضية.»

- «تستطيع ذكر ذلك في تقريرك، لكن في هذه الأثناء حاذر أن تترك بصماتك على أي مكان من الشقة، ولا تسمح لأحد بالدخول.»

هز المفتش رأسه موافقاً على رغم إرادته.

- «قم بإلقاء نظرة على المكان، إننا بحاجة إلى تحديد هويتها بشكل إيجابي. حاول أن تعثر على جزدان أو حقيبة أو حقيبة يد من أي نوع. أي نوع من الأوراق. رخصة قيادة سيارة، بطاقة حافلة ركاب أي شيء.»

وتلاشى وقع أقدام روسو بسرعة وهو يعبر الممرمتوجهاً إلى أسفل.

كان ذهن روسو مشغولاً بما يجب القيام به إلى درجة أنه غفل كلياً عن المخاطر التي يعرض نفسه لها في العودة وحده بالسيارة. وقد نسي أن يرسم في ذهنه معالم الطريق الذي سلكه. لم يقسم رحلته إلى مراحل فيقطع واحدة بعد أخرى كأنه يقنن شجاعته مقتصداً بها. مر بنقطة تفتيش للجيش وهو في هذه الحالة من انشغال الذهن إلى درجة أنه كاد لا يتذكر أنه فعل ذلك. إنه دون شك لا يستطيع أن يتذكر شيئاً مما قيل أو وجوه الجنود الذين تفحصوا أوراقه. إنه نسيان من النوع الذي يحمل شيئاً من الارتياح من خلال تركيز الذهن على هدف واحد. أما تفكيره في سابينا وقلقه بسبب النزعات الرومانتيكية عند ابنته بالتبني فقد دفعا بعيداً إلى مكان ما في دماغه.

إنّ في ذلك شيئاً من الرحمة فعلاً. لم يكن ضابط التحري من النوع الذي يفكر بعمق أكثر مما ينبغي في البواعث التي تحركه. لو كان من النوع الذي يفعل ذلك فلربما استطاع أن يدرك أن الواجب لم يكن الدافع الوحيد الذي جعله يتابع مسألة موت مخبرة في شقة سكنية من مبنى شاهق بل السبب هو أن هذا الأمر كان، إلى درجة ما على الأقل، يجعله يتصرف بشكل عادي لفترة قصيرة. وفي إمكانه التوقف، لبضع ساعات، عن التفكير المحطم للأعصاب في موته الوشيك على أيدي الذين يحاصرون المدينة. ويستطيع بذلك أيضاً التوقف عن القلق من التفكك العقلي والفيزيائي الذي يصيب زوجته. ومن شأن ذلك أيضاً أن يجعله يبتعد عن مسألة تورط تانيا مع رئيس قطاعي الطرق في المدينة، وهو تورط جعله يندم الآن على تشجيعه لها على القيام به في البداية لأسبابه الخاصة المهنية الأنانية. إن طاقاتنا على خداع الذات لا حدود لها؛ فنحن نخلق الازمات من أجل الهرب. وإذا كان هناك بالفعل شيء من التهرّبية في تفاني روسو الفردي واخلاصه للواجب ولإيمانه بحكم القانون، ففي هذا التفاني والأخلاص أمر آخر أيضاً هو أنه

يستطيع الانصراف إلى القيام بما هو بارع فيه وما يتمتع بالقيام به أكثر من أي أمر آخر، إلا وهو كونه تحرياً. كانت له رسالة، وقد فقد الإحساس بها في طريقه إلى منحدرات منتصف العمر. وبصورة من الصور فإن استعادته هذه الرسالة جعلت موضوع البقاء على قيد الحياة أو خسارته الحياة، أمراً أقل أهمية مما كان عليه في السابق.

يمكنه أن يتناسى كرات الغولف البيضاء الصغيرة.

سلك روسو الطريق الرئيسي خلال عودته وهو يقود السيارة بسرعة دون أن يخطر له أن يسلك طريقاً أكثر أماناً عبر الشوارع الخلفية. ودارت محادثة خاصة بينه وبين نفسه. لم يبرز حتى الآن دافع واضح إلى الجريمة، على الأقل ليس بالنسبة إلى من ليس على إطلاع على الملفات أو له علاقة بالتحقيق. أن يكون الإنسان صربياً في سارايبفو ليس في حد ذاته جريمة ولا يشكل سبباً لعقوبة من هذا النوع - على الأقل في المرحلة الحالية.

عليه أن يظهر في صورة الساعي إلى التأكد من هوية المرأة أولاً، ثم وهو يوجه أسئلة إلى جيرانها إذا كان قد بقي أحد منهم هناك. هذا هو الطريق الذي عليه أن يسلكه، أي أن يشاهد وهو يقوم بذلك. طبعاً كان يعرف اسمها وقد إطّلع على ملفها، وهو الذي وافق على الأمر. كانت الشقة «بيتاً آمناً»، لكن السؤال هو لمن، لنا أو لهم؟ المهم في أية حال هو أن يقوم بالإجراءات المتّبعة: يجب مقابلة زملائها وطرح أسئلة عليهم - أي سائر أطباء الأسنان والعاملين في الحقل الطبي ممن يكونون قد عرفوها. لم يكن روسو يعرف شيئاً عن عائلتها، إذا كان لها من عائلة، فليس ثمة صورة عائلية أو إنه هو على الأقل لم يستطع العثور على واحدة عندها. لقد افترض أن قاتلها أو قاتليها اقتحموا المكان، ولكن لم يكن هناك ما يشير إلى عراك خارج غرفة الحمام - ما من دم أو فوضى أو مايشير إلى اعتداء جنسي. والوقع إنه بحاجة إلى

دليل على أن الجثة الموجودة في الحمام هي جثة ساكنة الشقة، زوجة المدعو دوسان بوكوفاتش الذي تحمل اسمه لوحة على الباب. وواقع الحال كما هوالآن يجعل من القول أن الجثة هى جثة طبيبة الأسنان مجرد افتراض.

هل كان فاسيتش على صواب؟ هل إيمانه برفع لواء القانون في هذا العمل ليس سوى هوس شخصي سعياً إلى التكفير عن ماضي والده؟ الجميع يعرف من هو، وما كان عليه والده. لم يكن اسم روسو من الأسماء التي لا تلفت النظر أو من الأسماء التي تذكِر بالعلوم أو الطب أو الفنون.

كان روسو قد أمل أنه بزوال نظام حكم تيتوِ سيرحل معه التذكّر الجماعي للأحداث التي جرت بين سنة ١٩٤١ وسنة ١٩٤٥ لكنه أدرك الآن بعد زوال يوغوسلافيا القديمة أن هذا الأمر لن يتحقق، وأن هذا الاسم، روسو، لن يطويه النسيان ولن يلقى الصفح. ليس هناك من مكان له في ظل ذلك الترس ذي البقع المربعة الحمراء الذي يمثل شعار كرواتيا. وفي أي مكان يعيش سيبقى ابن ابيه. وما كان في وسع أي منهما، مهما فعل، أن يغير هذا الواقع. لكن المسألة المهمة هي ما الذي يفعله روسو بهذا الإرث الذي لا يريده؟

لوّح البروفسور ميسيتش بمبضع يحمله في وجه روسو. بدا ذلك تحية وتحذيراً في الوقت نفسه. ميسيتش طويل القامة ذو شعر أبيض قصّ بشكل قصير جداً. نظارتاه الهلاليتا الشكل اللتان تلتصقان بأنفه البارز أضفتا عليه جواً من التميّز وإن خالطه شيء من الذهول. كان يرتدي وزرة عمل خضراء طويلة وغطاء رأس ذا قناع للوجه أبيض اللون، وكانت يداه وساعداه داخل قفازين من مادة اللاتيكس لونهما أخضر أيضاً. كان واقفاً في أقرب مهجع من ستة مهاجع صغيرة في كلِ منها سرير مستشفى وفي كل واحد منها امرأة. النساء الثلاث

اللواتي استطاع روسو رؤيتهن وسماعهن كنَ في حالة مخاض وقد اشتدّ عويل اثنتين منهن. وشاهد قابلتين تنتقلان بين الواحدة منهما والثانية وهما تعدان الانقباضات وتطمئنانهما. القابلتان امرأتان ممتلئتان قويتا البنية وفي نحو منتصف العمر وتبدوان محترفتين وتوحيان بجومن الجدّية الصارمة يجعل الواحدة منهما كأنها «رقيب أوّل» في عالم الطب، على غرار ذلك العسكري الذي يتولى ضبط النظام في الجيش.

استدار روسو نحو مريضته. كان فوقهما مصباح كهربائي دائري كبير بدا أنه يتلقّى الطاقة من مولد تابع للمستشفى. كانت المرأة ممددة في سريرها، ساكنة، وقد غطيت بأغطية خضر لكنها أزيحت عن المكان الذي سيعمل عليه الطبيب.

ـ «هذا أنت؟» قال لروسو ثم خاطب ممرضة قائلاً لها «إعطيه قناعاً.»

تردد روسو.

ـ «تعال. تقدم فقد تتعلم شيئاً. لا تقل لي إن كبير شرطيينا شديد التأثر سريع الغثيان.»

وحالما سمح روسو بأن يوضع قناع أبيض فوق الجهة السفلى من وجهه، مدّ ميسيتش يده وهي داخل القفاز وأمسك بذراع ضابط التحري.

ـ «تقدم، ليس هناك من مهرب لك. القضية مثيرة للاهتمام.»

لم يكن روسو يريد أن يشاهد ذلك لكنه يحتاج إلى ميسيتش لكي يهتم هذا بأمر أسوأ بكثير مما هو بين يديه الآن. إنه ثمن زهيد لابدّ من دفعه. لم يبد أية مقاومة، ووجد نفسه داخل غرفة العمليات واقفاً قرب ميسيتش، ناظراً إلى أسفل حيث جلد بطن المرأة الشاحب.

«سمعت سابقاً بكلمة «ايكتوبيك»؟ لا؟ أنها تعني «خارج الرحم.»

إنها في الرابعة والأبعين من العمر. متزوجة. وقد سعت منذ زمن طويل إلى إنجاب طفل. وهي في الواقع من مرضاي القدامى. وقد حملت فعلاً لكن حملها جاء في «قناة فالوب» وهذا خطر. لقد امتلأ بطنها بالدم.»

لوّح ميستش بالمبضع ثم شق بطن المرأة بسرعة، بحركة دلت على حزم وعلى تحكّم بما يقوم به. أما روسو فقد سيطرت عليه حالة من التيبّس.

- «إذا لم نجر العملية الآن فإنها ستموت.»

أسقطت يد ميستش المشرط الذي كان الدم يلمع على نصله الآن في طست مطلي بالميناء صمّم في شكل كلية. وسرعان ما أبعد فلم يعد روسو يستطيع رؤيته. اختفت أصابع الطبيب أولاً في داخل بطن المرأة ثم يده كلها. استمر ميسيتش في الكلام وكأن ما يقوم به هو أمر عادي جداً، فكأنه يقطع الجزر مثلاً على لوحة فرم اللحم في المطبخ. أما بالنسبة إلى روسو فكانت الكلمات تختفي ثم تعود وكأن هناك خللاً في سمعه. لم يكن هناك من علة في سمعه وكل ما في الأمر أن ما كان روسو يشاهده على بعد بضعة سنتيمترات من وجهه بدا كأنه محا كل إحساس آخر لديه.

بدا الطبيب المولّد يجرف الدم إلى الخارج. ظهر له الدم سميكاً، قاتماً جداً - أقرب إلى السواد - وكأنه ليس طازجاً تماماً بل في بداية تخثُره. سقط بعضه على الشراشف الخضر وتطاير رشاش منه فأصاب وزرة ميسيتش كما تناثرت قطرات منه على الأرض عند أقدامهم. لم يتجرأ روسو على النظر إلى أسفل خشية أن يتهم بأنه يحاول تجنُب مشاهدة العملية الجراحية أو بأنه شديد الاهتمام بثيابه. بدا قفازا ميسيتش لماعين زلقين لما علق بهما من الدم.

- «مفارقة تدعو إلى السخرية، اليست كذلك؟ ما أكثر الذين

يحاولون قتلنا، وهذه المرأة تكاد تموت لأنها تريد طفلاً.»

وعادت اليد إلى الداخل من جديد. أحسّ روسو بشيء من الدوار. إنه يشتم رائحة الدم وقد شم هذه الرائحة في هذا الصباح نفسه. قال لنفسه ليس الأمر مهماً، فالجسم البشري يحتوي على ثمانية باينتات/ غالون واحد/ وخسارة باينت واحد أو اثنين أمر يمكن تدبره، بل يمكن تحمل باينت ثالث.»

قال ميسيتش «هناك كثير من الأعضاء الحيوية في البطن وحدوث خلل في هذا المكان أمر سيئ. التجويف الصدري مكان أفضل منه. وكأن الخيار لنا، أليس كذلك!»

مزيد من الدم.

ـ «كيف حال العائلة؟»

ـ «في حال حسنة» رد روسو.

استمر ميستش في حديثه وهو يقوم بعمله.

ـ «إنه لأمر غريب ـ هناك زيادة في حالات الحمل. من الصعب تصور السبب. قد يقول البعض، تهكّما وسخرية، إنه في غياب التيار الكهربائي لايعود هناك مجال كبير للناس كي يفعلوا شيئاً سوى «إنتاج» الأطفال. في بداية الحرب ارتفعت نسبة الأجهاض بشكل حاد كما كثر عدد حالات الولادة السابقة لموعدها. والآن يبدو كأن الناس أخذوا يتعودون على العيش في ظل حكم بالإعدام. ربما كان الأمر طريقة بيولوجية في المقاومة، طريقة لتحقيق توازن.»

نظر ميسيتش إلى أعلى، مشيراً بذقنه إلى نافذة صغيرة في طرف الغرفة البعيد خارج المهاجع مباشرة. سمع روسو دمدمة الرصاص ودوي نيران المدافع من خلالها.

ـ «ومن ناحية أخرى» قال ميسيتش وهو يبتسم بعينيه «لا يستطيع

أحد أن يعثر على واق ذكري. وطبعاً، فأطفال الولادات المبكِرة هم نتيجة التوتر والضغط والخوف والصدمات ـ وسوء التغذية. وهم كلهم تقريباً دون الوزن العادي. وهذا سببه أن الأمهات يدخن بكثرة.»

لم يستطع روسو إبعاد عينيه عن يد ميسيتش التي اختفت داخل بطن المرأة الغائبة عن الوعي.

ـ «ها ها» قال ميسيتش «عثرت على شيء». كانت يده اليمني تتحرك ببطء شديد. حاول روسو أن يبتعد بأفكاره ومشاعره عن هذا الجو. الطريقة التي رتبت بها الملاءات لم تكن تجعل المريض يبدو شخصاً إطلاقاً، لكن روسو لم يستطع منع نفسه من أن يتصوَر أن هذا المسجى على سرير كان يمكن أن يكون سابينا أوتانيا. حاول روسو أن ينظر إلى العملية الجراحية على أنها مجرد تمرين غير شخصي، درس في الجراحة.

قال ميسيتش «طبعاً كل ذلك لم يكن ضروريا، أعني الجراحة المفتوحة. لقد أعادتنا الحرب جميعا سنوات إلى الوراء. في أيام السلام كنت أدخل آلة فيديو للتصوير صغيرة منمنمة واحدث ثقباً صغيراً جداً لسحب الدم. كانت المرأة تأتي إلى المستشفى وتخرج منه إلى منزلها في اليوم التالي.»

تحركت يده من جديد. «ها هي» قال ميسيتش بظفر وهو يمسك بشيء مستدير رطب وردي اللون في حجم كرة من كرات الغولف الصغيرة التي كان روسو يفكر فيها في حالات الخوف.

ـ «المبضع.» وفي لحظة كانت الممرضة هناك قرب مرفقه.

تفحص ميسيتش هذا الشيء، إداره ورفعه بيده اليسرى الملوثة بالدم ثم، وبحركة طعن سريعة من يده اليمنى، ثقبه بالالة التي في يده. اندفع سائل دون لون متساقطاً على القسم الأمامي من وزرته.

ـ «ورم» قال ميسيتش. «لا شك في أنه كان يزعجها مع أنها لم

تذكر ذلك. سيئ لكنه غير خطر. عصفوران بحجر وأحد، أليس كذلك. كان بإمكاننا تجفيفها بآلة أيضاً، قبل الحرب.»

صدرت عن ميسيتش إشارة إلى أحد مساعديه. «لقد انتهينا» قال الطبيب داعياً روسو إلى الخروج من المهجع. وقال للممرضة «أرجو أن تقومي بتنظيفها.»

- «هل ستعيش؟»

- «طبعاً ستعيش. سيجري تقطيب جرحها الآن، وأخشى أنها لن تستطيع الإنجاب بعد الآن، لكنها ستعيش. في بضعة أسابيع ستصبح الأمور عادية بالنسبة إليها بقدر ما يمكن أن تكون الأمور عادية في هذه المدينة.»

تحدث ميسيتش إلى إحدى القابلتين ثم تناول لوحاً مشبكياً وقلب بسرعة الأوراق والملاحظات المثبتة عليه. لاحظ روسو وراء طبيب التوليد خمسة مخلوقات صغيرة عراها الذبول، خمسة من الأطفال الحديثي الولادة لفوا ببطانيات صوفية ووضعوا على صف من زجاجات الماء الساخن. كانت هناك ممرضة تقف في إحدى الزوايا تسخِن وعاء معدنيا مملوءا بالماء على نار شعلة من الغاز. تركت أصابع ميسيتش علامات دموية على الأوراق التي كان ينظر إليها.

- «والآن ما الذي أستطيع أن أساعدك فيه يا حضرة مدير البوليس؟»

- «تعرف امراة باسم بوكوفاتش؟

كان ميسيتش يخلع قفازيه. فكّت ممرضة عقدة خيط القناع الذي كان يضعه على وجهه ثم حملت طستاً يحتوي على ماء ووضعته تحت يديه. حرص الطبيب على عدم أراقة نقطة منه، فقد كان ثميناً نادراً.

- «أهذا سؤال؟ طبعاً أعرفها» قال ميسيتش وهو ينشف يديه

بمنشفة «أنها زليكاوهي طبيبة أسنان وطبيبة جيدة أيضاً، والواقع إنها عضو في لجنتنا الطبية وصربية مثلي أنا. صربية حقيقية من صربيا نفسها.»

ـ «متزوجة؟»

ـ «مطلّقة. لكنني لم أعرف زوجها أبداً على رغم أنني أسمع أنه هنا في مكان ما قريب. وهو كرواتي.»

ـ «متى كانت آخر مرة رآيتها فيها؟»

فرك ميسيتش وجهه ثم قال «دعني أفكر. قبل أسبوع وربما عشرة أيام... شيء من هذا القبيل، في آخر اجتماع لنا. ما الأمر ولم كل هذه الأسئلة؟»

ـ «لديّ أسباب تدفعني إلى الاعتقاد أنها ماتت. عثرنا على جثة ونعتقد أنها جثتها. أريد منك أن تتعرف إلى الجثة.»

ـ «قنّاص؟»

ـ «لست أعرف سبب الوفاة. هل تتكرم بأن تفحص لنا الجثة؟»

ـ «فحص الجثة بعد الوفاة، هذا ليس مجال عملي.»

ـ «أعرف ذلك. لكن الطبيب الوحيد الاختصاصي في علم الأمراض لدينا ينوء تحت ثقل ما لديه من أعمال. أريدك أن تلقي نظرة عليها وأن تقوم بفحصها لاحقاً إذا توفر لك الوقت. وسأجعل الأمر رسمياً.»

ـ «حسناً فلنلق نظرة. هل نذهب؟»

ـ «أستطيع أن آخذك إلى هناك الآن. لدي سيارة في الخارج. وطبعاً إذا كنت من الأصدقاء الوثيقي الصلة بالراحلة ـ»

وهنا عبس الطبيب وبدا عليه التردد.

- «لديّ لك بعض الأوكسيجين. جلبته من زغرب هذا الصباح وهو في سيارتي.»

اختفى عبوس الطبيب وأشرق وجهه بابتسامة.

- «اتفقنا يا حضرة الضابط.»

الفصل الرابع

«علينا ألا يثق الواحد منا بالآخر. إنها وسيلة دفاعنا الوحيدة في وجه الخيانة.»

تنيسي وليامز في «قطة على سطح من الصفيح الحامي»

كان الوقت بعيد الظهر عندما انطلق روسو متوجهاً إلى «البلدة الجديدة» في سيارته الخاصة وإلى جانبه الدكتور ميسيتش. أما آنيل الذي بدا ميالاً إلى التمرّد وقد تحولت عيناه إلى ما يشبه كرتين زجاجيتين براقتين، فقد جرى سحبه سحباً من حفلة صاخبة في مقر القيادة. وقام طاهر وهو من شعبة رجال الشرطة الذين يرتدون بزّات نظامية، بقيادة ذلك الحطام المسمى سيارة فاسيتش ومعه الرقيب الذي جلس متراخياً في المقعد الخلفي يتمتم بلعنات حافلة بالشفقة على الذات عن مدى انعدام العدالة في العالم وعدم عدالة الضابط روسو بشكل خاص في تعامله مع رقباء شرطة التحري.

انطلقت القافلة الصغيرة بسرعة عابرة «زقاق القنّاص» دون وقوع أي حادث. سارت سيارة روسو وهي من نوع «يوغو» في المقدمة. توقف الثلج عن السقوط وخمدت الريح. كانت المدينة غارقة في مزيج من ضباب رقيق متجمد ودخان الأخشاب المحترقة، وبدا من المستحيل معرفة أين ينتهي الضباب وتبدأ الغيوم القليلة الارتفاع. أما حشود الناس الصباحية فكانت قد تفرقت متوجهة إلى المنازل وطبقات المباني

التي تقع تحت الأرض وإلى مراكز اللاجئين ليواجه هؤلاء الناس بأفضل مافي قدرتهم ليلة تتدنى درجة حرارتها إلى ما تحت الصفر.

سرّ ميسيتش بالأوكسيجين، وانفرجت أساريره في ابتسامة عريضة عندما شاهد القناني اللماعة خلف المقعد الأمامي في سيارة روسو. ستكون اللجنة ممتنة فهذا عمل لا يمكن نسيانه. قال له روسو أن الأمر لا يستحق كل هذه الأهمية، لكن كلا الرجلين كان يعرف معرفة أكيدة أن هذا ليس صحيحاً.

هناك إطلاق نار لكن الضباب كان يمتص صوته ويحوله إلى صدى يئز أزيزاً ويوحي بأن إطلاق النار يدور في كل مكان لكنه ليس في مكان محدَد. وبدا أنه يتبعهم بينما كان روسو يقود السيارة بثبات وحذر. صار في بعض الأحيان يضيء مصباحي السيارة الأماميين دون أن يبقيهما مضاءين مدة كافية تسمح للمسلحين في مواقعهم في التلال بأن يصوبوا أسلحتهم إلى مصدر ذلك الشعاع البخاري. وسرعان ما أصبحت السيارة نفسها دافئة نتيجة حرارة جسدي راكبيها. غطّت الزجاج غشاوة فكان ميسيتش ينحني إلى الأمام بين فترة وأخرى ماسحاً الزجاج بقوة بكمِ معطفه. أحس روسو وهم محتجزان في هذه الكبسولة المؤلفة من المعدنَ والمطاط وينتقلان في شوارع كأنها في مدينة أشباح، بشعور من الثقة الأخوية ينمو بينهما.

ـ «هل تستطيع أن تراهما؟»

ـ «نعم» قال روسو وهوينظر إلى المرآة التي تريه ما وراء السيارة. أضاف «بصعوبة.»

ـ «لماذا تقوم بذلك أيها المدير؟»

ضحك روسو ورد بقوله «مساعدة الجرحى والمرضى تبدو أمراً من الطبيعي القيام به. أليس كذلك؟»

ـ «لم أكن أتحدث عن الأوكسيجين.»

ـ «طبيبة الأسنان تقصد؟»

أحنى ميسيتش رأسه وقال «نعم. بوكوفاتش.»

أزاح روسو بصره عن الطريق للحظة ونظر إلى طبيب التوليد وقال «إنه عملي.»

ـ «إنها من صربيا!»

ـ «وما في الأمر؟ أنت صربي بوسني. ألست كذلك يا دكتور؟»

ـ «الأمر خطر بالنسبة إلى شخص مثلك.»

ـ «شخص مثلي؟ ما معنى ذلك؟»

ـ «أنت مسؤول حكومي كبير. لم لا تترك الأمر لأحد رجالك. قد يكون هذا أكثر حكمة.»

ـ «كيف؟»

هز ميسيتش كتفيه استهجاناً.

ـ «كيف. بأي شكل؟» كرر روسو السؤال.

ـ «إنس أنني قلت لك ذلك.»

ـ «هل السبب هو أنني كرواتي؟»

ـ «في المسألة شيء من ذلك.»

ـ «بسبب اسمي؟»

ـ «وهذا أيضاً.»

خيم صمت على الرجلين. صراحة الطبيب فاجأتهما كليهما. نظر روسو إلى أعلى، إلى المرآة الصغيرة أمامه. كان آنيل وطاهر وراءهما

مباشرة الآن. كانت السيارتان على وشك العبور والبدء بالصعود إلى «المدينة الجديدة.» أصبح بإمكان روسو أن يرى المباني وقد غطى الضباب طبقاتها العليا.

كم سيمر من الوقت، تساءل بينه وبين نفسه، قبل أن تسقط سارايفو ضحية الوباء الطائفي الذي يستعر في انحاء البلقان ويهدد حتى ألبانيا واليونان؟ لم يكن هناك من فروق عرقية حقيقية فالصرب والمسلمون والكروات هم جميعاً سلافيون قدموا أصلاً من المنطقة التي تعرف الآن باسم بولندا. ثلاثة عوامل وحيدة هي الدين، وإحساس متحيز بالتاريخ، وسياسيون قوميون يسعون الآن إلى البروز، أعطت تلك الأقليات شعوراً بالضيم ضل سبيله الصحيح.

- «يقول الناس أن الأمور تسير إلى ذروة التأزم» قال ميسيتش. «يقول الناس أموراً عديدة» رد عليه روسو. «وكثير منها هراء. الأمور تسير إلى ذروة التأزم منذ أن سقط تيتو عن كرسيه، أو ربما منذ أن جلس عليه.»

- «يروى أن الميليشيا الكرواتية في كيسيلياك سمحت للصربيين بالمرور بين فيلقي الجيش الثالث والخامس.»

- «هكذا إذن؟»

- «إذا صحّ ذلك فقد تكون سارايفو هي الهدف التالي.»

- «إذن فنحن الكرواتيين أشرار هذه المسرحية؟»

تردد ميسيتش قبل أن يجيب ثم قال «فلنكتف بالقول أنني لوكنت مكانك لفضلت ألا ألفت النظر إليّ.»

أجاب روسو مبتسماً «وأتجنب رفقة الصربيين؟»

أضاف «ما الذي تستطيع أن تخبرني عن طبيبة الأسنان؟»

هزّ ميسيتش كتفيه ثم قال «ليس بالكثير. كانت مطلّقة ولم يكن لها أولاد، وكانت تقصد العيادة كل يوم، وعلى غرار كثيرمن الناس لم تكن تتلقى أجراً عما تقدمه من خدمات، لكن على المرضى أن يأتوا هم بالحشوات لأضراسهم. وانطباعي عنها هو أنها كانت من النوع الحساس المستقل. محتشمة، أجل. ولم تكن غير جذابة. عانت كثيراً من القلق بسبب عدم توفر البنج. كانت كثيرة الكلام بشكل رهيب، لكنني أعزو ذلك إلى أعصابها.» سأل روسو «أكانت لها علاقات؟ صديق؟»

ـ «ليست لدي أية فكرة عن ذلك.»

ـ «هل كانت عليها ديون؟»

ـ «لست أدري. كانت فقيرة. إننا جميعاً فقراء.»

ـ «هل كانت تدخن؟»

قطب ميسيتش وجهه مكشراً في نفور ثم قال «آه. نعم. كثيرة التدخين. رهيبة. كانت تفوح منها رائحة التبغ الكريهة.»

لم تكن هناك منافض أو أعقاب سكائر في الشقة.

ـ «كيف استطاعت تحمل كلفة ذلك؟»

ـ «الله أعلم!»

ـ هل من عادات سيئة أخرى؟»

ـ «إذا كان لها شيء من ذلك فلا شك في أنها احتفظت به لنفسها ولم تكشف عنه.»

ـ «إذن لم تكونا وثيقي الصلة؟»

ـ «أنا وبوكوفاتش؟»

ـ «نعم. هذا ماسألت عنه. أنت وبوكوفاتش.»

- «لا. إطلاقاً.»

- «لكنكما عملتما في اللجنة نفسها، أضف إلى ذلك أنكما صربيان، وكلاكما في الحقل الطبي.

لا بدّ من أنه كان لديكما كثيرمن الأمور المشتركة. كانت تعد قوائم بما تحتاج إليه المستشفيات وتعطيه إلى الأمم المتحدة وكنت مستشاراً لها. علاقتكما لم تكن وثيقة. لماذا؟»

- «تصحيح: هي من صربياً أما أنا فصربي بوسني.»

غيّر روسو وجهة الحديث وحوله إلى مجال آخر.

- «هل كانت عضواً في الحزب في الأيام الماضية؟»

- «لا فكرة لدي عن ذلك. هل من أهمية للأمر؟»

قام روسو بمحاولة أخرى.

- «معذرة إذا كان قد فاتني التمييز بين صرب البوسنة وصربيي صربيا.» جاء صوت روسو لاذعاً بمرارة. وأضاف يقول «أتصور أن هذا يفسر كل شيء في هذه الأيام. هل اللجنة كلها مؤلفة من صرب بوسنيين ومن صربيين من صربيا؟»

- «أجل. هذ هو المقصود تماماً: أن يكون لنا إسهام في بقاء المدينة وصمودها. كانت مهمتها وضع قوائم بالإمدادات التي تحتاج إليها المدينة والسعي إلى إقناع الأمم المتحدة بأن تدخلها في قوافل الإغاثة التي ترسلها إلى سارايیفو.»

- «لكن اللجنة ليست على قدر من التعالي يمنعها من أن تقبل مساعدة من الكرواتي الغريب الأطوار.»

- «هذا صحيح» ابتسم ميسيتس واضاف «الكرواتي المخلص الغريب الأطوار.»

- «حتى ولو كان شرطياً ومجرم حرب مشهور؟» ضحك ميستش وقال «أجل طالماً أن ذلك يؤمن لنا ما نحتاج إليه...»

- «آه ما أعظم تسامحكم ورحابة افقكم الفكري.»

ضحك ميسيتش مرة أخرى. بدت الضحكة أشبه بسخرية حادة تتعالى مثل نباح.

- «لم تجب عن السؤال. لماذا لم تكن علاقتكما وثيقة؟»

- «لم أقل إننا لم نكن على تفاهم، بل الذي قلته هو -»

- «الذي قلته هو أنه على رغم من كونكما رفيقين وثيقي الصلة من العالم الطبي وعضوين فقيرين من الفئة نفسها التي يطلق عليها تعبير جماعة عرقية، وعضوين مثاليين في لجنة خيرية تكرس عملها لإظهار مدى ما هم عليه الصرب البوسنيون والصربيون من طيبة فلم تكونا حميمين، لم يثق أحدكما بالآخر.. لماذ بحق الجحيم؟ هل رفضتك يا دكتور؟»

هز ميسيتش رأسه استهجاناً.

- «هل حدث أنك زرتها في شقتها؟»

- «لا.»

- «هل ذهبت هي إلى شقتك؟»

- «لا.»

- «أليس في هذا شيء من الغرابة؟»

- «لا ارى سببا للغرابة»

- «لا ترى سبباً؟»

- «كلكم متشابهون» قال ميسيتش.

ـ «تعرف آخرين من أفراد السلك الذي انتمي إليه؟»

ـ «لا والحمد لله»

ـ «ما ذاك الذي قلته عن بوكوفاتش والبنج؟»

ـ «لو كنت شاهدت أحداً مثلي يجري عملية جراحية لطفل دون بنج لكنت فهمت ما أعنيه. هل عندك أولاد؟» كان يعرف أن لا أولاد لروسو.

ـ «لا.»

ـ «إن ذلك أكبر مشلكة نواجهها ـ بالإضافة إلى المضادات الحيوية لوقف تفاقم أوضاع الذين نعالجهم.»

ـ «ما الذي تستعملونه؟ لمواجهة الألم أعني.»

ـ «كل ما نستطيع الوصول إليه. المورفين عادة. وهو أفضل في حالات معينة منه في حالات أخرى، هناك أعراض جانبية أحياناً.»

ـ «أهو أحد مشتقات الأفيون؟»

ـ «نعم»

ـ «والهيروين؟»

ـ «ذاك من مادة مورفين أو سولفات المورفين.»

ـ «هل هناك أي فرق؟»

لم يجد الطبيب وقتا كافيا للإجابة، فقد كانوا هناك. كان ضوء النهارقد أخذ بالأفول ممهدا لذلك الغسق الغريب الذي ليس بالنهار ولا بالليل بل هو بين الاثنين؛ إنه مطهر الشتاء الرمادي الموحش الكئيب.

كان هناك جدل دائر عندما وصل روسو إلى المدخل المؤدي إلى الشقق. وقف شابان مسلحان ببندقيتين من نوع أ ك ـ ٤٧ /

كلاشنيكوف / معلنين منع الدخول إلى المكان. كانا يرتديان بنطلونين اسودين ضيقين من نوع الرداء السروالي ذي الحمالتين/ أوفرأول/ مع جزمتين سوداوين وسترتين واقيتين من الرصاص من صنع منزلي أي صفائح من الفولاذ رِكِبت لها أكمام من القطن وخيطت باليد بعضها إلى بعض. حرص المسلحان على الوقوف في المدخل تماماً، فقد أصبحت حماية النفس طبيعة ثانية بعد فترة من الزمن، غريزة مكتسبة، شرط أن يعيش الإنسان مدة تكفي لاكتسابها.

كان آنيل يسير مترنحاً من جهة إلى أخرى وقد بدا عليه ميل إلى القتال.

- «افتحوا الطريق أيها الفرجان.»

كان نطقه متثاقلاً. صعد نحوهما بشكل مترهّل كأنه بحار على ظهر مركب وفي عرض للقوة يثير السخرية.

رفع واحد من الشابين فوهة بندقيته ودفعها إلى صدر آنيل وأبقاها هناك. لم يبد عليه الغضب أو الشعور بالإهانة، بل بدا، على نقيض ذلك، هادئاً ومدركاً تمام الإدراك أن سلاحه وحده يمنحه حق الأمرة في هذا الوضع. بدا تعبير وجهه كأنه يقول إن مجرد رقيب في الشرطة مسلح بمسدس «ماكاروف» لا يمثل مشكلة بالنسبة إلى رجل يحمل بندقية كلاشنيكوف مع مشط رصاص كامل وطلق في بيت النار، وصمام الأمان يشير إلى العلامة التي تعني إطلاق النار بشكل آلي.

- «اللعنة»، قال آنيل، وفي محاولته دفع ماسورة البندقية بعيداً عنه تعثرت أحدى قدميه بالأخرى فكاد يسقط. وكان من شأن منظره في هذه الحال أن يتحوّل إلى مادة تسلية بالنسبة إلى المسلحين لكنّ رجلي لوكا لم يضحكا. كانا ينظران إلى نفسيهما بكثير من الجدِية.

أما طاهر وهو الوحيد الذي كان يرتدي لباس الشرطة الرسمي فقد

اعتمد طريقة أكثر احتراماً للنفس. أخرج بطاقته الرسمية ورفعها إلى أعلى كي يراها المسلحان. لكن ذلك لم يثر اهتمامهما.

ـ «إنه رفيق لك، أليس كذلك؟» سأل أحد المسلحين المراهقين طاهراً وهويشير إلى آنيل الذي كان الآن يحاول، مترنحاً، دون نجاح أن يولع لفافة سكاير. عند ذلك صعد روسو إليهما ويداه في جيبيه. إدرك أن محاولة إقناعهما لم تصل إلى نتيجة. وأخذ نجاحه في جلب هؤلاء الناس إلى هذا المكان يتحوَل إلى ما يشبه انتصاراً يحقق بثمن غال جداً. وأفضل ما يستطيع القيام به الآن هو الحيلولة دون وقوع مكروه. وبدا أن آنيل ذهب في دوره، دور معتوه القرية إلى أبعد مما ينبغي، وقد ينتهي الأمر بأن يطلق أحدهما النار على آنيل أو طاهر أو كليهما. الدكتور ميسيتش تصرَف بحكمة عندما بقي بعيداً في الضباب.

ـ «أنا رئيس رجال شرطة التحرِي» قال روسو «ولسنا هنا للتسبب بمشكلات لكم. لكننا نحقق في ما نشتبه بأنه جريمة قتل. نطلب الدخول إلى المبنى.»

ـ «للأسف. إنها الأوامر. لا أحد يدخل ولا أحد يخرج.»

ـ «في هذه الحال أرغب في مقابلة قائدكم.»

ـ «لك ذلك، بالتأكيد.» تبادل المقاتلان النظرات، وغادر المكان أصغرهما الذي لا يمكن أن يكون عمره يزيد على سبعة عشر عاماً.

ـ «لن يغيب أكثر من دقيقة.»

ـ «هل لك أن تقول لي، إذا لم يكن لديك مانع، ما هو سبب كل هذه التدابير الأمنية.»

هز المسلح كتفيه في شارة إلى عدم معرفته السبب.

ـ «سيكارة»، قال طاهر مادًا إليه يده بعلبة الدخان.

- «شكراً.»

أشعل طاهر السيكارة له.

- «تعرف اللقب الذي يطلق على هذا المكان، أليس كذلك؟»

لم يردَ روسو على هذا السؤال.

سحب المسلح نفساً طويلاً من السيكارة مدخلاً الدخان إلى رئتيه بحدَة، ثم وجه نظرة عارف بالأمور إلى روسو وقال «إنه منزل القردة.»

- «لم سمّي بهذا الاسم؟»

- «ربّاه.. كنت أعتقد إنه يفترض فيكم أنتم رجال الشرطة أن تعرفوا كل شيء.»

- «من الواضح أنني لا أعرف.»

- «هل ترى أي ثقوب أحدثها الرصاص، أو أي أضرار في هذا المبنى بشكل خاص.. هل ترى شيئاً؟»

- لا. لا أرى شيئاً من ذلك.»

- «أرأيت إذن، هذا هو السبب.»

- «أخشى ألا أكون قد رأيت السبب.»

تنهد المسلح ثم قال «يعيش عدد من الصرب هنا. معظمهم أو معظم من بقي منهم على كل حال. والتشيتنيك/ الصربيون/ هناك لا يوجهون نيرانهم إلى أخوتهم. والذين يعيشون هنا منهم يعرفون أنهم في أمان. هل تفهم ما أعنيه؟»

- «الهذا السبب أنتم هنا؟»

لم يجب المقاتل فقد عاد رفيقه راكضا.

- «إنه قادم» قال الشاب.

ـ «إذن لا مشاعر غير ودية نحونا، أليس كذلك؟»

ـ «طبعاً لا» قال روسو.

ظهر الاطمئنان على المسلح الذي بدا إنه الأعلى رتبة بين الاثنين.

ـ «هذا حسن. فلتجر الآن حديثاً مع الرئيس. سيحلّ لك الأمور فهو ليس من النوع السيئ.»

لكن القائد لم يأت ركضاً. سار متمهلاً إلى المدخل وقد وضع بندقيته على كتفه بشكل مقلوب. أمسك بها بأحدى يديه مطبقاً بأصابعه على ماسورتها. كان يصغر روسو بما لا يقلّ عن خمس عشرة سنة. شعره أشقر قصير جداً وقد وضع قرطاً مذهباً في أحدى أذنيه. كان قصيراً ممتلئاً وعابساً في وجه روسو. ومن حزامه تدلت قنابل يدوية وسكين كبير جداً.

ـ «مدير البوليس روسو» قال ضابط التحري. أحنى القائد رأسه.

ـ «إننا نحقق في حادث وفاة في أحدى الشقق. أريد أن أدخل مع رجالي وطبيب لفحص الجثة.»

انحناءة رأس أخرى. لم يتضح ما إذا كانت أشارة سماح أم مجرد أشارة إلى إنه فهم الأمر.

خطا روسو خطوة إلى أمام وقال «هل ندخل؟»

ـ «لا»

ـ «هل لي ان اسأل عن سبب عد السماح؟»

ـ «الأمن»

ـ «ما معنى هذا؟ أنا رجل بوليس.»

ـ تستطيع العودة صباحاً .»

ـ «أنا مضطر إلى القيام بذلك الليلة.»

ـ «لا. تعرّض هذا المكان لهجوم اليوم فهو ليس آمناً. أنك قريب جداً من خط القتال فالتشيتنيك لا يبعدون عنا أكثر من أربعين متراً، فمن الحكمة أن تذهب إلى بيتك وتعود غداً، فسيبدأ منع التجول قريباً.»

ويدأ القائد الشاب بالابتعاد.

ـ «هل أنت واحد من قوات لوكا؟»

تلك الانحناءة المثيرة للغضب، من جديد.

سأل القائد مرة ثانية «من أنت»»

ـ «قائد شرطة التحري روسو.»

ـ «هذه منطقة عسكرية تخضع لسلطتنا.»

ولم يبد على وجه الرجل مايشير إلى أن الاسم «روسو» يعني له شيئاً فهو ليس بوسنياً. إنه أوروبي غربي، والجميع يعرف أن الغربيين ممن هم في سن الشباب فقدوا اتصالهم بتاريخهم، فخمسون سنة وخمسمئة سنة سيان بالنسبة إليهم.

ـ «هل أستطيع أن أطرح عليك بضعة أسئلة؟»

كان القائد قد أدار ظهره وانصرف قائلاً للحارسين كلمات بالألمانية لم تستطع أذنا روسو التقاطها.

ـ «غداً. هل سمعت؟» قال المقاتل دون أن يلتفت.

سيكون إذن على فاسيتش المسكين أن يمضي الليلة وحيداً دون طعام. ستنفجر الشتائم منه كالسيل، دون شك، وسيعتقد أن روسو تعمد معاقبته لطيشه وانفجارات غضبه. استدار روسو عائداً إلى السيارة إذ لم يعد هناك ما يستطيع فعله طالما أن رجال لوكا يمنعونه من العمل.

إذا نظرنا إلى مقر الرئاسة من الأمام يبدو لنا إنه بقي سالماً نسبياً بعد ثلاث سنوات من الحرب فلم يصب باذى كبير. هناك ذلك الرشاش العادي من الثقوب التي أحدثها الرصاص وقد بدت مثل بقع الأكزيما على الجص الذي طليت به الجدران، وأكوام رمزية من أكياس الرمل المتداعية، وتلك الثقوب الغريبة الشكل التي أحدثت في المباني فجوات بحجم كرة القدم، وتراكم من قرميد السطوح توزع على امتداد الرصيف. وباستثناء ذلك، ليس هناك في الشارع الرئيسي كثير مما يوحي بأن مركز صنع القرار السياسي في الحكومة البوسنية كان هدفاً حربياً.

وعلى كل حال فهذا المكان لم يكن جميلاً حتى في أفضل الاوقات التي عرفتها المدينة، وليس من المرجح أن يزيد عامل الزمن في بشاعته. هذا المقر الرئاسي مستطيل الشكل ذو أربع طبقات، يتسم بذلك التجميل الكلاسيكي الجديد التافه، وبما فيه من إطارات زجاج نوافذ هابيسبرغ الكبيرة. جدرانه ملبسة بالحجارة ومدعّمة مثل مدرعة. أما فضيلته خلال الحرب، فهي ما ظهر من صعوبة هدمه. فلم إضاعة الجهد عليه بينما هناك وفرة من الأهداف السهلة الهدم. ينقص المبنى الرئاسي أيضاً شيء من الجمال من حيث تناسق أجزائه فهو كبير أكثر مما ينبغي. وهو في الدرجة الأولى، يبدو مقعياً وخفيضاً جداً ويشكل منظراً لا يريح العين. وعلى خلاف كثير من المباني المدنية الأخرى ذات النوع المماثل في يوغوسلافيا السابقة والتي طليت بمغرة ميديتيرانية صفراء أو حمراء، فقد البس المبنى الرئاسي لباساً رمادياً داكناً فبدأ مثل سفينة حربية طليت بألوان الشتاء فجعله ذلك يتناسب تماماً مع روح العصر.

وخطر لروسو أنه إذا كانت الطيور الصربية الجارحة، التي تحدق في المدينة من أعلى، تختار ضحاياها على أسس جمالية في هندسة البناء، فمن شأن ذلك أن يوضح سبب بقاء مبنى الرئاسة. ولا شك في أنه لا

ينطوي على إغراء بقدر ما هو عليه مسجد من القرن السادس عشر أو كنيسة من الطرز الرومانيسكي. وقد سبق للمتمردين أن دمروا مبنى البريد الرائع في المدينة.

المسألة كلها، بالنسبة إلى روسو، تختصر إلى لاعبين اثنين في لعبة قاتلة غير متكافئة: هناك المدينة السيئة الطالع نفسها، هامدة غير قادرة على الحركة، ضحية نزف دمها إلى الشوارع المدمرة من ألف جرح، وهناك معذبها القاسي العديم الشفقة، الذي يكاد يكون غير مرئي والذي ينتظر هناك في الضباب راغباً في قتل المدينة درجة درجة وقطعة قطعة ويوماً بيوم. بالنسبة إلى روسو لم يكن تصميم الانفصاليين الصرب مقتصراً على قتل الأحياء والحاضر فقط. التهمت النيران ما يزيد على ٧٠٠٠ كتاب قديم عندما دمروا مكتبة غازي هوسريف بك بعد ظهر يوم مشمس في اغسطس/آب. وقد شاهد روسو يومها، بينما كان يقود سيارته، أناساً، بينهم أطفال، وهم لا يزالون يسحبون ماتبقى من العوارض الخشبية وإطارات النوافذ من المكتبة التي تقع فوق الطريق، كي يستعملوها وقوداً. واحترق أيضاً ما يزيد على ٥٠٠٠ مخطوطة أخرى عندما قام الصرب، وبطرقة منهجية، بدك «المؤسسة الشرقية» القريبة من المكان الأول ومسحوا بها الأرض. وجاء دور السجلات التاريخية والمكتبة العامة بعد ذلك، فحوّل المبنيان إلى كومتين من الحجارة بفعل المتفجرات الشديدة القوة، ثم شبت فيهما النار بفعل القنابل الفوسفورية. إنه تدمير لماضي شعب، لأعمال باحثين وشعراء من الدراويش والمحاربين كتبوا هذه النصوص القديمة، الشعر وأغاني الشهوة والجنس بالأوزان الشعرية العربية؛ الأغاني الشعبية وقصص الحب الملحمية التي كان يستمتع بها المسلمون والمسيحيون على حد سواء.

خطر لروسو أن القوميين الصرب يستطيعون الآن القول أن البوسنة تحولت إلى صحراء ثقافية وأن الإسلام لم يحمل إلى البلقان سوى التعصب والخرافات، وأن المسلمين ليسوا سوى مسيحيين اعتنقوا الدين

الإسلامي خشية قطع رؤوسهم، وإنهم أناس فقدوا «حق المولد.»

أما القسم الخلفي لمبنى الرئاسة فقد كان الأسوأ من حيث أصابته بالرصاص والقذائف. لم يكن هناك سوى سلسلة من أشجار السنديان العارية من الأوراق بشكل يثير الأسى، بين مبنى الرئاسة ومواقع الصرب على الضفة الأخرى من النهر في مراكوسا وسيروكاشا وما بعدهما صعداً على امتداد منحدرات جبل تريبيفيتش البيضاء الشبيهة بظهر الحوت. وقد سدت نوافذ هذه الجهة من المبنى وقويت بما يجعلها تقاوم ما يطلق عليها. المسؤولون العاملون في المبنى الرئاسي، الذين كانوا حتى فترة أخيرة يعتبرون محظوظين بهذا المنظر الرائع المكشوف، اضطروا إلى الانتقال إلى أماكن بعيدة داخل الممرات والدهاليز في عمق المبنى ليصبحوا في منأى عن مواجهة خط النار.

ترك روسو سيارته خارج الجهة الأمامية للمبنى وسار محتمياً بجدرانه السميكة القوية. قدم بطاقته الرسمية إلى مسؤولي الأمن عند المدخل الخلفي وارتقى السلم العريض الذي أمسى شبه مهجور الآن لاقتراب الليل، سار نحو مكتب لوكا في الطبقة الثانية. خلال سيره في أحد الممرات المظلمة سأل عن الطريق إلى المكتب عارضاً بطاقته على موظفين كانوا يغادرون المكان لكنه تلقى أجوبة مقتضبة من هؤلاء الناس المسرعين كي يبتعدوا عن الشوارع قبل حلول الظلام. لم يكن هناك من يريد التخلف فالناس يعتقدون أن أموراً شريرة تجري في الشوارع الخلفية ليلاً. وحتى رجال البوليس انفسهم لم يعودوا يخاطرون بالخروج سيراً على الأقدام بعد الغسق.

لم يكن الباب مغلقاً. قرعه روسو ثم دخل. كان هناك مكتب خارجي صغير لضارب الآلة الكاتبة، وبعده المكتب الذي يعمل عليه لوكا وكرسيه وصوفاً غير مريحة تسربت حشوتها منها فبدت مثل أمعاء من الفرو، ومنضدة قهوة متمايلة كثيرة الخدوش ذات أصل عثماني غير

واضح، وجهاز تليفون قديم مصنوع من مادة الباكليت. وبدا الأثاث كأنه سحب من الأقبية التي صارت تحول إلى ملاجئ، ثم نفض عنه الغبار ووضع حيث هو الآن عندما تقرر أن المصلحة القومية تقضي باعطاء لوكا بعض أشكال السلطة الرسمية على الأقل. أما سائر «الديكور»، وهو من صنع لوكا، فقد جاء نموذجيا في تصويره الرجل - الطفل الذي يفرض الاحترام والرعب وعبادة البطل. كان هناك، وقبل أي أمر آخر، «تحف» هي قطع تذكارية من مجوعته الحربية؛ غلاف نحاسي ضخم لقذيفة مدفعية من مربض مدفعي للصرب وخليط من علامات الطرق من المفترض أنها كانت إشارات لأماكن قاتل فيها لوكا، وعلم ممزق لفوج عسكري يحمل رسم نسر صربيا القديمة ذي الرأسين، وقبعة ضابط صربي ملطخة بدم جاف، وقناع قديم للوقاية من الغازات السامة، وأخيراً قنبلة يدوية أبطل عملها واستعملت مثقلة لمنع الأوراق من التطاير وقد بدت شيئاً لا حاجة إليه على مكتب خال من الأوراق. وخلف كرسي لوكا كانت هناك صورة فوتوغرافية باهتة مأخوذة عن رسم يظهر نابوليون بونابرت وهو يتوج نفسه أمبراطوراً.

على روسو الآن أن يجد لوكا في منزله، فهو يعرف حقائق الوضع التي لا مفر منها. إذا عاد صباح غد إلى ذلك المبنى في مجموعة المباني التاسعة تلك فسيهز آمر آخر كتفيه ويقول له أنه لا يستطيع إكمال تحقيقه في منطقة تخضع لسلطة عسكرية دون أن تكون معه ورقة تحمل توقيع لوكا وإلى جانبه توقيع أحد الوزراء. أنها عملية تملُّص دائرية التفافية، وسيواجهها كاملة غير منقوصة لسبب، هو كونه شرطياً. لوكا وحده يستطيع حل المشكلة.

وبينما كان روسو يستدير ليغادر المكان شعر باندفاع الهواء حوله. اهتزت نوافذ مكتب لوكا وصدر عنها طنين ضعيف وهي تردد دوي الانفجارات البعيدة لمقذوفات تطلقها راجمات صواريخ متعددة الفوهات تزعق منقضة على المدينة. ارتفعت ذرات من الغبار وبدت تتمايل بشكل

ضفائر في الجو المعتكر في الضوء الشاحب الآفل المتسرب من النوافذ القذرة. انتهت فترة الهدوء الموقت.

جاءت الطلقة عبر الجسر من مسافة نحو ٨٠٠ متر فأصابت المراة وطرحتها أرضاً. سمعت تانيا أزيز الرصاصة وهي تمرُ فوقها، ثم، بعد لحظة، تلك الضربة الخفيفة الشبيهة بقرقعة السوط والناتجة عن بندقية القناص والتي جعلتها تعرف بصورة تقريبية اتجاه الطلقة ومداها.

رفعت المراة ذراعيها، مسقطة السلة التي كانت تحملها، وارتفعت طائرة مثل دمية من الخرق المهلهلة ثم تهاوت دون صوت، فبدت ذراعين ورجلين بلون السواد تلتصق ببياض الثلج. لم تصدر عنها نأمة تصل إلى سمع تانيا، وانطرحت ساكنة سكوناً تاماً؛ مجرد لطخة من السواد على ملاءة بيضاء. بعد بضع دقائق لن تعود مرئية لأن الثلج يتساقط بكثافة. كان بإمكان تانيا أن تنظر بعيداً مشيحة بوجهها كأنها ليست هناك. السابلة ـ الذين صاروا الآن ركعاً على ركبهم متمسكين الواحد منهم بالآخر بصورة غريزية ـ صاحوا بتانيا طالبين إليها عدم الذهاب، لكنها مع ذلك خرجت راكضة. مدَ رجل منهم يده محاولاً الأمساك بسترتها. كان منفغر الفم وكأنما قد التقطت له صورة فوتوغرافية في تلك اللحظة. شاهدت فمه الذي بدا في شكل دائرة ومليئاً بأسنان فاسدة مبقعة. لم تسمعه يصيح بها لأن الدماء كانت تضج في اذنيها. لم تترو تانيا، وكل ما في الأمر أنها انطلقت راكضة في الطريق. لم تشعر بالرعب إذ انحصر تفكيرها في المرأة وفي أي مكان من جسمها أصيبت وما إذا كانت حالتها سيئة وكيف ستعالج وضعها. أخذ الثلج يشد بقدمي تانيا ويبطيء حركتها. وصلت إلى مكان المراة متقطعة الأنفاس تلهث بشدة. تذكرت كم كان الأمر متعباً وهي طفلة تركض في الرمل عندما أخذها أهلها إلى الشاطيء. أهلها.. أمها وأبوها الحقيقيان الميتان. دفعت تانيا هذا الحمل من الأفكار عن ذهنها

ونظرت إلى أسفل. كانت تسمع صوت قلبها بشدة كأنه مضخة قوية في داخل أذنيها وهي تفتح حقيبة الاسعافات الأولية الصغيرة التي تحملها مربوطة إلى حزامها. شعرت بأن القناص يراقبها وتخيلت أصبعه تضغط على الزناد.

كانت المرأة متقدمة في السن، لا يقل عمرها عن خمسين عاماً. إنها، بالنسبة إلى ابنة تسعة عشر عاماً، امراة مسنة. الضحية منطرحة على ظهرها ورقاقات الثلج تتساقط على خديها وفي أهدابها حبيبات من الماء. انحنت تانيا عليها واقتربت إلى أن أصبح وجهها على بعد سنتيمترين من وجه المراة. بدا الأمر أشبه بمنظر شخصين يعانق أحدهما الآخر ويتهامسان؛ حركة تعبر عن ألفة ومودة بين صديقين. لمس شعر تانيا جبهة المرأة.

إنها تتنفس، قالت تانيا لنفسها. وتوصلت وهي لم تزل على ركبتيها إلى المنطقة العليا من رأس المرأة، وبعناية فائقة وضعت إحدى يديها تحت فك المصابة ووضعت اليد الثانية على قمة الرأس كي تفسح لمجرى التنفس مجالاً للعمل دون عائق، ثم قامت وهي لا تزال على ركبتيها بتحسس فروة رأس المرأة والجهة الخلفية من عنقها بأصابعها. سحبت تانيا قفازيها بأسنانها ثم مرت بيدها على عظام ترقوتها وصدرها وظهرها وردفيها. ما من شيء. تكلمت تانيا بصوت مرتفع قائلة «إذا كانت الأصابة في ظهرك، يا أماه، فلن أستطيع أن أفعل لك الكثير.» بعد ذلك رأت الدم السائل حديثا والساق المعوجة تحت المرأة وقد انفتلت بشكل غير طبيعي.

انحنت من جديد، وبعد أن تأكدت من ان المرأة لاتزال تتنفس بدأت العمل على الساق ترفعها بأقصى درجة من اللين ثم تمددها بالرفق واللين ذاتهما. نادتها تانيا مرات فلم يكن هناك رد فعل. من حسن حظها أنها غائبة عن الوعي نوعاً ما لأن ألمها سيكون شديداً.

توقف إطلاق النار وخيم صمت مطبق، وبدا لتانيا كأنها في جزيرة صحراوية يحيط بها الرمل الأبيض من كل جانب.

الرصاصة دخلت الساق من مكان فوق الركبة. وبدت قطعة عظم خارجة من الجرح. لكن نزف هذا الجرح البليغ كان بطيئاً فقد ساعد البرد على جعله كذلك. قصت تانيا الثياب المحيطة بالجرح وأبعدتها عنه ثم كورت إحدى ضماداتها في شكل كعكة مستديرة مثقوبة في وسطها ووضعتها فوق ذلك التمزق البشع كي لا تتعرض العظمة النافرة للضغط ولتبقى مستقرة وسط هذه الدائرة الضمادية. ووضعت واحدة أخرى فوقه وشدتها حول فخذ المراة.

تأكدت تانيا مرة أخرى من أن المرأة لا تزال تتنفس. لن تموتي عليّ الآن يا عزيزتي، أليس كذلك؟

على تانيا أن تنقل الجريحة إلى مستشفى. سحبت تانيا بلطف ساقيّ المرأة معا وجعلتهما في وضع مستقيم قدر الإمكان ومنعت القدمين من الحركة بربطهما بضمادة قديمة ثم استعملت شال المرأة حشوة وضعتها بينهما. وأخيراً أخرجت ضمادتين مستعملتين مثلثتي الشكل من النوع الذي يستعمل عصابة لذراع مكسورة وطوتهما وربطت الساقين معاً بهما فوق الجرح وتحته مباشرة.

يجب أن يكون هذا كافياً. وقفت تانيا وهي تتصبب عرقاً على رغم البرد. أمسكت بالمرأة من تحت ابطيها وسحبتها. كان من الأفضل إبقاء القدمين مرتفعتين لأن الطرف المصاب سيجر على الأرض الآن تاركاً ثلماً خلفه، لكن ليس هناك من خيار آخر.

«أنا آسفة يا عزيزتي» قالت تانيا للمرأة «أنا آسفة.»

كانت كلما شدت بالمراة مرة تسحبها بضعة سنتيمترات بعيداً عن الطريق وعن مرمى نار القناص. تساءلت تانيا عما إذا كان القناص

التشيتنيك يراقب المراتين. شدت بالمراة مرة أخرى وبدأت تشعر نحوها بغضب لاعقلاني لانها، اساسا، تركت نفسها تصاب بالرصاص. «أفيقي» قالت تانيا بصوت حاد ناقم. «أفيقي. لا تتوقعي مني أن أحملك.»

بعد أن وضعت تانيا المراة برفق على الأرض ووقفت تتساءل عما يجب ان تفعله بامرأة في حالة غيبوبة جريحة بالرصاص في شارع مهجور، شاهدت سيارة تقترب. كانت تضيء مصابيحها وتطفئها وتتحرك ببطء شديد. السماء والعالم حولهما يشتد ظلامهما ثانية بعد أخرى. رفعت تانيا ذراعها مدفوعة بشعور غريزي كأنها تستوقف سيارة تاكسي. لن يراني السائق. قالت لنفسها. تركت المراة ملقاة على الأرض وتقدمت خطوة على الطريق. بدت السيارة مألوفة نوعاً ما على رغم عدم وضوح الرؤية. وعندما أصبحت قربها أدركت أنها سيارة أبيها بالتبني، سيارة اليوغو الصغيرة بالصدأ المنتشر على أطر أبوابها والشعار الرسمي المتكلف الفخامة الذي يزين مقدمتها. انحنت على السيارة. قالت «لديَ امرأة جريحة.»

ترك روسو محرك السيارة يعمل وشد المكبح اليدوي وخرج. أبلغته تانيا كيف يمكن رفع الجريحة ثم حملا المرأة كلاهما ووضعاها على المقعد الخلفي. استدار روسو بالسيارة بعناية وحذر. «المستشفى الفرنسي أقرب» قالت تانيا.

بدا كأن هناك اتفاقاً ضمنياً بينهما على أنه يمكن الاستغناء عن التحيات الرسمية والشكلية والاستفهامات المهذبة عن صحة كل منهما وسائر الأمور المماثلة. وخطر في بال روسو أنهما من هذه الناحية، ومن هذه الناحية وحدها، أشبه بزوجين.

يالها من عائلة! زوجة روسو من بلد، هو من الناحية الجغرافية، مثل طائر جارح مفترس يرفرف فوق البوسنة. أما روسو فهو من شعب

لا يمكنه صد زحف الصربيين إلا بالاستيلاء على البوسنة والانتشار في القسم الأكبر منها. وفي الوسط بينهما، تقبع تانيا اليتيمة، ابنتهما بالتبني، وهي من شعب مسلم يعتبره الصربيون والكرواتيون جماعات مرتدة دينياً.

استدارت تانيا إلى الوراء الآن وركعت في المقعد الأمامي قرب روسو وانحنت فوق المراة الجريحة التي بدا انها بدأت تستعيد وعيها اذ انها اخذت تنتحب بصوت خافت جداً . كان الدم ينز ويظهر على سطح الضمادة التي وضعت على ساقها. سعت تانيا إلى وضع ضمادة أخرى فوق الأولى مما يزيد الضغط على الجرح ويخفف الدم. هكذا تقول التعليمات الأولية.

- «لم يعد المستشفى بعيداً» قال روسو.

ارتفع المستشفى فوقهم من جهات ثلاث. تحركت تانيا بسرعة ففتحت بابي السيارة الخلفيين ودخلت من أحدهما لترفع رأس المراة وكتفيها، يساعدها في ذلك معاون من المستشفى. ووضعت المرأة التي شرعت تبكي ألماً، برفق على حمالة ذات عجلات تصدر عند تحركها صريراً مزعجاً يشبه صوت أظافر اليد وهي تكشط لوحاً مدرسياً أسود.

- «هل ستأتي؟ قالت بعد أن اغلقت البابين الخلفيين.

- «لا أعتقد أنني أستطيع ذلك. هل ستتأخرين؟»

- «أريد الحصول على مزيد من الضماد، وسأتدبر أمري في العودة إلى المنزل.»

- «إلى المنزل أو إلى مكان لوكا؟»

- «إلى المنزل.»

استعد روسو للانطلاق.

- «انتظر» قالت وهي تنحني على باب السيارة.

- «ما الأمر؟»

كان شعر تانيا طويلاً. مدت يدها ورفعته بعيداً عن وجهها ودفعته إلى ما وراء أذنها.

- «أبي.» إنها تناديه بهذا الاسم في مناسبات رسمية أو عندما تريد منه شيئاً. ويبدو أنها تعلم أن ذلك يؤثر فيه تأثيراً عميقاً بشكل لم يستطع هو أن يفهمه.

نظرت خلفها بسرعة كأنها تحرص على ألا يسمعها أحد. كان المكان خالياً.

- «هل تواجه مشكلة ما؟»

- «لا» قال. «لم هذا السؤال؟»

حاول أن يبتسم ليبدو خلي البال. أراد أن يبدو مرتاحاً لكنّ قلقا غامضا كان يرخي بثقله عليه. مدت تانيا يدها ولمست خده للحظة ثم سحبتها مشيحة بعينيها عن وجهه ناظرة إلى أسفل. وبدا كأنها اهتمت فجأة بطريقة طلاء القسم الجانبي من سيارة اليوغو.

- «عدني بأمر.»

- «ما هو؟»

- «عدني بألا تخرج الليلة» قالت ثم عبست كأنها تجد صعوبة في اختيار الكلمات المناسبة. «عدني بأن تبقى في البيت. عليك أن تتوخى الحذر. أعرف انك شرطي، لكن هل ستتوخى الحذر يا أبي؟»

- «أعدك. لكن هناك شيئاً يجب أن تقوليه لي -»

لكن تانيا عدلت من انحناءتها ثم استدارت وركضت إلى الداخل دافعة باب المستشفى دون أن تتوقف.

بقي روسو دون حراك لحظة أو اثنتين. هل استطاع لوكا أن يكسبها إلى صفه؟ هل فقداها الآن؟ أدار المحرك فسارت اليوغو ببطء داخلة في جوف الليل. وفي الداخل وقفت تانيا، في مكان مظلم حيث لا يمكنه أن يراها، تراقبه ملتصقة بالنافذة تحدق في الظلام في الخارج إلى أن اختفى نور مصباحي السيارة الخلفيين.

الفصل الخامس

«الكذب نظام نعيش فيه. الكحول وسيلة للخروج منه، والموت وسيلة أخرى.»

تنيسي وليامز في «قطة على سطح من الصفيح المحمّى.»

اجتاز روسو العتبة. كان يحاول سحب المفتاح من قفل الباب عندما خرجت زوجته من غرفة النوم مرتدية البيجاما. لم يكن روسو يعرف ما إذا كانت قد خلعت ثيابها وارتدت ثياب النوم (لأن الناس عامة ينامون باكراً إذا ليس هناك من نور ولا كثير من الأمور التي عليهم القيام بها) أم أنها بقيت على هذه الحال طوال النهار. قابلته سابينا بأفضل ابتسامة لديها وقبلته على خده. كانت رائحة الكحول تفوح منها.

ـ «كيف حالك؟»

يدرك روسو أن ذلك ليس اكثر من سؤال فارغ، فهو يعرف حالها. يتساءل أين خبأت زجاجات الكحول. في أيام غيابه لم تكن في حاجة إلى تخبئتها. هو يعرف أنها كانت تنتظر غياباته القصيرة هذه لهذا السبب. الإدمان على الكحول كان مرض أهل الفكر والنخب الاجتماعية البلقانية، والحاجة إليها جعلت ضحايا هذا الإدمان، من أمثال زوجته، على درجة غير عادية من المكر. لقد جعلت الأوفياء والمؤمنين ضعفاء غير مبالين، وحولت الصادقين إلى كذبة وقحين. لقد

مزقت شخصية الإنسان تمزيقاً رهيباً، ولم تشكل سابينا استثناء من هذه الحال.

ـ «أتريد أن تأكل؟ لقد عددت شيئاً.»

كانت تصرفاتها في أفضل حالاتها وهذا يدعو دائماً إلى الارتياح. ومع ذلك فقد علَمت التجربة روسو أن وراء هذا الابتهاج عاصفة آخذة بالتجمع. جعله ذلك يحترس منها.

كانت سابينا نحيلة إلى درجة تثير الألم في النفس، وتحت عينيها بقع سوداء. البيجاما التي كانت في يوم من الأيام تناسب جسمها جيداً تحولت الآن إلى شيء ضخم لا شكل له يتدلى من كتفيها النحيلتين.

في لحظة من لحظات التنبه إلى الذات مدت يدها إلى شعرها تلمسه. كان أشيب ودون حياة وبحاجة ماسة إلى غسل. لم يكن هناك من شامبو لغسل الشعر ولا مياه جارية. وسقطت يدها عن شعرها منهكة.

أراد الشرطي ان يضمّ زوجته إلى صدره. وبينما كان لا يزال في الممشى واقفاً على الممسحة وضع ذراعيه حولها بارتباك مغلقاً عينيه بقوة لحبس الدموع التي كانت تنفجر وراء جفنيه، دون قدرة له على ردها، كتفجر مياه من بئر أرتوازية. لكنها انسلت بسهولة من بين يديه متذرعة بأنها في حاجة إلى الاستحمام وبأنه كان عليها أن تبدل ثيابها. أليس جائعاً، سألت في ارتباك وتوتر. لا شك في إنه لم يتناول طعاماً منذ دهر، وفي أية ساعة توجه إلى المطار في ذلك الصباح ـ كانت تستعمل الكلمات والأسئلة بما يشبه تلك السحب من القطع المعدنية التي تذروها الطائرات لتضليل الرادارات الأرضية. كانت تنهال عليه بهذه الأسئلة والكلمات وتمطره بشظايا من العواطف. الطعام لا يثير اهتمامها ولا كان مهما بالنسبة إليها في يوم من الأيام، لكنها الآن ترى فيه موضوعاً لا يزال بإمكانها التحدث فيه عائدة إلى أحد الأمكنة الممتعة في أعماق

الذاكرة، رافعة منه صورة مثالية للزوجة الشابة التي تعد وجبات الطعام لزوجها الممتلئ توقاً وطموحاً. كانت دائماً طاهية ماهرة مع أنها نادراً ما كانت هي نفسها تجد نتاج يديها مثيراً للشهية، وأصبحت النتيجة أنها أخذت تفقد الاهتمام بسرعة.

هكذا كانت الأمور تبدأ دائماً. سابينا تتظاهر بالقوة والشجاعة عند عودته إلى البيت وتعد نفسها وتعده بأن الأمور ستصبح أفضل. ستصبح سابينا زوجة أفضل. ويبدو أنها كانت تعتقد أنها إذا تصرفت بطريقة أفضل فستصبح هي أفضل. ولم يكن إدراكها المؤلم أن الموت العنيف يقتحم كل حديث وأنه على كل شفة ولسان ليسهل عليها الأمر. ما من موضوع، مهما كان تافهاً، يخلو من إشارات إلى الموت، حدوثه وطريقة حدوثه، وحتميته. كان ذلك مثل تلك الرمال الناعمة التي تقذفها الريح إلى داخل أفواه الناس مهما أحكموا إغلاق أفواههم في وجه عاصفة صحراوية. كانت سابينا، وبطريقة ربما أدّت إلى نقيض ما تسعى إليه، تتيح لهذا الموضوع أن يدخل في كل ما تقوله من خلال أصرارها على عدم الإتيان على ذكره أو ذكر الحرب إطلاقاً ومن خلال تعمّد استبعاده. ومرة أخرى بدا أنها مقتنعة بأنها بعدم ذكره تستطيع بعمل إرادي، أن تجعله يبتعد. لكن لم تكن لهذا الإصرار من نتيجة سوى جعله دائم الحضور.

جلس روسو على السرير؛ فالأثاث الوحيد في الشقة هو سريرهما المزدوج وخزانة الثياب وسرير تانيا العسكري الضيق الموضوع خارجا في المشى. لقد بيع كل شيء آخر أو حطم وقطع كي يستعمل وقوداً. لكن في حالتهم فهذا الوقود بيع ولم يشعل في مدفأتهم الصغيرة. مجموعة جواهرها الصغيرة ذهبت أيضاً وتبعتها مجموعة آنية الشاي المطعمة بالفضة، .وأخيراً الستائر. وقد استولت على أشياء خاصة به أيضاً، ولم تصدر عنه كلمة تأنيب. الأزرار المعدنية التي تستعمل في أطراف أكمام القمصان، وزوج أحذية، وسترة جلدية. وما أهمية الستائر

طالما لم يعد هناك زجاج في النوافذ، ولم يعد هناك نور كهربائي؟ ما أهمية أزرار القميص؟ هذه الأشياء ليست ذات قيمة، وسيكون من الجموح الخيالي الكبير أن تتصور سابينا ان هذه الاشياء ستعود وتصبح مهمة في يوم من الأيام. كانت تقول أنها لا تستطيع أن تحمل أمتعتها معها. وقد عود سكان ساراييفو أنفسهم عل أن هناك حتماً نهاية، نهاية عنيفة ومبكرة، وهي إذا لم تقع في هذا الأسبوع فستقع في الشهر القادم أو حتى في السنة القادمة. ما الذي يهم من كل هذه الأشياء. وقد باع الجيران كل ما كانوا يملكونه للحصول على طعام أو وقود. لكن حال عائلة روسو كان مختلفاً، فكل دينار أعطاه لها أنفق على الشراب. وكل ما كانت تملكه ذهب إلى السوق من أجل الشراب. وكلما هبطت قيمة الدينار كلما تبخر قسم من كمية الكحول التي كان يمكن أن تشترى به وأصبحت سابينا تزداد يأساً وقسوة في التماس ضالتها. في وقت من الأوقات تلقت علاجاً نهارياً في جناح الأمراض العصبية في مستشفى كوسوفو في الجبل المشرف على مدافن المدينة. أما الآن فهم يرفضون استقبالها فلديهم أمور أشد أهمية تشغل بالهم، فأي أدوية تتوفر لهم تستعمل لتخدير المصابين باضطراب الإغماء الخشبي والفصام/ سكيتزوفرا نيا/ والمس الانقباضي كي لا يندفعوا إلى الشارع تحت القذائف المدفعية المتساقطة.

بعد مضي نصف ساعة على وجود روسو في البيت عثر على الزجاجة الأولى مربوطة بخيط من القنب حول عنقها ومدلاة من نافذة الحمام، وقد استهلك نصف ما احتوته. تردد روسو ولم يطاوعه قلبه على أفراغها. ليس الآن، ليس الليلة، فعوضاً عن ذلك سيشترك معها في عملية الادعاء والتظاهر بغير ما في النفس ليتيح لها بعض النجاح في عملية الخداع هذه كي يطيل حالتها النفسية الجيدة على الأقل.

إنها الحرب، كانت تقول. أعطت مشكلة إدمانها الكحول اسماً هو الصداع. كانت تقول «أشعر بصداع يا عزيزي» ثم تدخل إلى غرفتها

وتغلق الباب خلفها وتقوم خلسة برفع أحدى خشبات أرض الغرفة أو تقلب كومة من الثياب التي تحتاج إلى غسل بحثاً عن مشروبها الروحي. أحياناً كانت تستلقي على سريرها في الظلام طوال أيام.

لم يعطها زجاجة العطر لأنها كانت ستجد طريقة لبيعها، وقد تحاول أن تشربها ولن تكون هذه هي المرة الأولى التي تفعل فيها ذلك.

إنها الحرب.

بعد أن ينتهي كل ذلك، قال روسو لنفسه، تستطيع أن تذهب إلى عائلتها في بانيا لوكا إذ لن تعود سارايفو مكاناً يصلح لسكن الصربيين في ظل هذه الحكومة الإسلامية. لقد تحدثاً في هذا الأمر.

آخر مرة وقعت فيها أسيرة نوبة من نوباتها الهستيرية صرخت في وجهه قائلة انه لا يحبها وإنه لم يحبها أبداً (وهذا على الأقل ليس صحيحاً) وأنه يريد التخلص منها. شدته من ثيابه وحاولت ضربه بقبضة يدها على وجهه. كرواتي قذر، قالت له. وفي النهاية تراجعت مستنزفة القوى باكية طالبة صفحه الذي كان يقدمه لها بسهولة.

شعر بأن هذا الوضع مذلّ لكليهما.

إنه يعرف كيف سارت الأمور، فبعد أن كانت بين من عرفوا باسم «نومينكلاتورا» في يوغوسلافيا، وواحدة من الأكثر جمالاً في الحزب، تحولت إلى نكرة. كانت طريق السقوط طويلة. لم يكن الانتماء القومي شبكة أمان بالنسبة إليها بل كانت تنفر منه. وقد استطاعت أن تقرا الكتابة على الجدران قبله، عرفت ما سيجري عندما قام سلوبودان ميلوسيفيتش، الذي كان في تلك الفترة على رأس الحزب الشيوعي في صربياً، بتجريد المتحدرين من أصل الباني في كوسوفو والمتحدرين من أصل هنغاري/ مجري/ في فويفودينا، من وضع الحكم الذاتي الذي كان لهم. ذلك القرار جعل الحروب التي تلته وتلك التي ستأتي، أمراً لا

مفرّ منه. أدركت سابينا ذلك وجرت الأمور وفقاً لما تصورته. كل ذلك دفعها إلى وضعها الحالي المتمثل بزجاجة الكحول الفارغة وتلك التي بقي فيها نصفها معلقا بخيط من القنب.

الناس الذين عرفتهم سابينا طوال سنوات مضت أنكروها ورفضوا التعرف إليها الآن؛ صاروا يغيرون طريقهم كي لا يلتقوا بها أو يلقوا عليها تحية. يتحدثون عنها همساً ويشيرون إليها بالأصابع. إنها صربيتهم المحلية والشيوعية السابقة، وأسوأ من ذلك كله أنها زوجة ابن «يوستاشي» سيئ السمعة، زوجة ابن فاشي كرواتي. بعضهم أظهر عداء سافراً بشتمها والبصق عليها.

إنها الحرب.

اعطاها روسو السكاير. سألته عن أمه مظهرة اهتماماً مهذباً لكنه زائف. كان تفكيرها منحصراً في الجرعة التالية من الشراب. قليلاً ما كانت تأكل، حتى في المناسبات النادرة حيث كان الطعام يتوفر لهم. وعلى كل حال فهي لم تكن تستطيع هضم المواد الصلبة ألا بشق النفس. حاولت أن تبتسم، أن يبدو وجهها مشرقاً، إن تظهر اهتماماً بعمله. ووجد نفسه يخبرها عن الأوكسيجين وعن طائرة الأليوشن التي استقلها في العودة إلى المدينة. أخذت تنتف بعض خيطان بيجامتها في تململ وعصبية. حاولت التركيز لكنها لم تنجح، فقليلة هي الأمور التي تثير اهتمامها هذه الأيام.

ومع ذلك فقد كان هناك ما يزعجها.

ـ «هل هناك امرأة أخرى؟»

ـ «ماذا؟»

ـ «ذهبت إلى زغرب ثلاث مرات في ثلاثة أشهر. لا تقل لي أن الأمر يتعلق بأمك اللعينة.»

ـ «أصبحت في الثالثة والسبعين هذه السنة.»

ـ «إنها قوية كحصان.»

ـ «لا داعي لأن تغضبي وتثوري.»

ارتفع صوتها بحدة «أثور؟»

ـ «حسناً، حسناً» قال روسو محاولاً تهدئتها وهو يقوم بحركات استرضائية بيديه.

ـ «في الأمر امرأة، أليس كذلك؟»

ـ «نعم. إنها امراة انكليزية صار عمرها ثلاثاً وسبعين سنة هذه السنة. وعندها حب جامح لذلك النوع من الحلوى المثير للاشمئزاز لحلاوته والمعروف باسم كعك فيينا بالشوكولاتة أو «زاكروتورتي». إنها أمي. لقد اجتمعتما قبلاً، أتذكرين؟ يبدو أني أتذكر أنكما تبادلتما الشعور بالكره فوراً.»

لم يستطع روسو منع نفسه من الضحك.

ـ «أنك تحاول تغيير الموضوع، تحاول أن تضحكني.»

ـ «نعم.»

ـ «لا تظن أنني أشعر بالغيرة.»

ـ «أنا لا أظن ذلك.»

قامت خطة روسو على الموافقة على كل ما تقوله، أي شيء تقوله، تحاشياً لمواجهة بينهما.

ـ «إذن قل لي ما هو سبب ذهابك؟»

أخبرها روسو عند ذلك عن جهوده من أجل جمع ما يحتاج إليه صديقه ميسيتش في المستشفى. كان ذلك نصف حقيقة، ووسيلة لجأ

إليها روسو في حالات عديدة لمنع من يحبهم ويهتم لامرهم من أن يسببوا أذى لانفسهم وليوفر عليهم قلقاً غير ضروري. الحقيقة أقسى من أن يسمح بتلقيها مباشرة. إنها بحاجة إلى تخفيف وإلى أن يجري تلقيها دفعة بعد أخرى. استمر في الحديث إلى زوجته. أعتقد أنه لايزال يستطيع من خلال اسم روسو أن يفتح أبواباً مغلقة في زغرب. قال إنه، في الواقع، أحب أن يقوم ابن رجل نازي سابق بعد نصف قرن من الزمن باستغلال صيت والده السيئ لمساعدة ضحايا العدوان. إنها طريقة لتسوية الحسابات أو تسوية جزء منها على الأقل. حدّث سابينا عن لجنة المستشفى المؤلفة من موظفين صرب بوسنيين ومن صربيين من صربيا نفسها، وعن جهودهم لتأمين تعاون الجسم الطبي في أنحاء «المتاريس العرقية» الأخرى وسعيهم إلى الحصول على امدادات طبية وجعل الطاقة الكهربائية والماء يعودان إلى المدينة. لقد طلبت منه اللجنة أن يبذل ما في وسعه في كرواتيا. قال إنه شعر بأنه ملزم بالمساعدة. مرة أخرى كان هذا الكلام نصف حقيقة.

عندما انتهى تحدثت سابينا بهدوء وقوة.

ـ «أنت لم تخلق للبطولة» قالت. «ليست أسلوبك. المدافن تغص بالشهداء. أنت شرطي، وهذا هو مجال اسهامك. أعتقدت أن لديك مناعة تنأى بك عن طالبي المجد، والمثاليين والرومانتيكيين. أعتقدت أننا، كلينا، خرجنا من ذلك كله، انتهينا منه عندما انتهينا من الحزب. هل أنا على خطأ؟»

ـ «إن اسم روسو يعني شيئاً في زغرب.»

ـ «رباه. أنا متأكدة من ذلك. إنك تستغل صيت أبيك.» بدا أنها ترتعش، ولم يكن هواء الشقة الرطب سبب ذلك. شكّلت ذكرى والده سبب ارباك بينهما لا يمكن أن يزول بسهولة، على غرار تلك الصور التي لا تزال والدته تصرُ على الاعتزاز بها مغلقة أذنيها في وجه

مناشدات روسو متناسية ما تسببه له من خجل. كانت تخرجها بمحبة كل يوم في شقتها السكنية في زغرب حاملة «البوم» الصور القديم كأنه كتاب مقدس، وتدعو روسو إلى الجلوس إلى جانبها للتمتع بها باعجاب كما تفعل وهي تلمس كل صورة من هذه الصور الفوتوغرافية البالية بأصابع لا يزال بعضها يحمل خاتم خطبتها إلى زوجها الراحل وخاتم زواجهما. هنا طالب المدرسة في زغرب ذو الوجه الذي يشبه وجه جرو كلب ينظر مبتسما إلى آلة التصوير. المراهق الصلب الفخور بنفسه يقف جامداً متيبساً وقفة تأهب في بزته النظامية السوداء. رجل نحيل مخشوشن برتبة «اوبرشتورمفوهرر» وخط شعر رأسه الشيب وقد تخلص من أي وهم عن رومانسية الحرب، يتلقى وسام صليب الفرسان/ ريتر كرويس/ المشتهى من يد الفوهرر/ هتلر/ نفسه بينما تلتقط له صورة لصحيفة الحزب أمام شجرة «الراتينجية» البافارية.

لم يشأ روسو أن يتسبب في جرح مشاعر المرأة المسنة، وقد جلس بإذعان على طرف مقعدها وهي تصدر أوامرها إليه. إنه يحبها على كل حال. لم تكن تستطيع فهم شعوره نحو الماضي، وقد فات أوان السعي إلى الشرح، مهما كان رأي سابينا.

وما الذي يستطيع أن يقول لها الآن بعد نصف قرن من الزمن؟ أيقول لها أن الرجال الذين كانوا يرتدون شارة «رأس الموت» اتخذوا من «بوشينفالد» مقرا لقيادتهم؟ وأنهم لم يكونوا يأخذون أسرى؟ وأن ما كان أساساً «قوة» نقية عرقيا تحول إلى جيش متعدد الجنسيات من مليون رجل عرفوا بضراوة لا مثيل لها في ساحات القتال وخارجها؟ وأن البوسنيين كانوا بين آخر من دافعوا عن برلين، وأن الألمان وحلفاءهم الكرواتيين «الاوستاش» كانوا يقتلون رمياً بالرصاص ٤٠٠ مدني صربي مقابل مقتل كل ألماني؟

ثم كانت هناك تلك الصور الفوتوغرافية التي قصت من الجرائد

بعد أن انتهى الأمر ؛ بعد زمن طويل من آخر مرة سمعوا فيها خبراً منه. وقد احتفظت أيضاً بهذه الصور التي حولها الزمن إلى صفراء. عشرات من الصور حفظت في صندوق من الكرتون من تلك الصناديق التي تباع فيها الأحذية، ووضع في قعر خزانة أرملة الحرب المسنة: صور لبحر من الرجال يمتد إلى الأفق، يسيرون باضطراب عبر السهول الروسية الواسعة الجرداء متجهين إلى الاسر أو إلى ما هو أسوأ منه، إلى الأسوأ في معظم الأحيان. الوجوه الجائعة إلى حد الموت، والأقدام الملفوفة بالخرق، الضمادات القديمة التي ينز منها الدم، والثلوج التي لا نهاية لها. كانت تبكي كلما نظرت إلى تلك الصور وتتمتم بصلوات من أجل أحد أبناء «فرقة رأس الموت» من جماعة «قمصان وافن السوداء.» لا يزال لديها أمل. لا تزال تحدق في صور الناجين الذين أطلق سراحهم من معسكرات الاعتقال السوفيتية بعد ذلك بعقود من الزمن مفتشة بدقة عن وجهه. كي لا ننسى قال روسو في نفسه، إذ إننا لن نستطيع أن نغفر. كان الحقد، لا الغفران، هو الغذاء الذي فرض الحزب على اعضائه تناوله. من الصعب التغلب على التعاليم القديمة. صعب على روسو وسابينا معاً.

أبي، ساعدني يا الله.

لو أن الرجل العجوز حيٌّ لكان في الرابعة والثمانين من العمر الآن.

كان روسو لا يزال يحدث سابينا عن نهاره. روى الأمر وكأنه دعابة يسخر بها من نفسه: الخراب في مقر القيادة، الأعمال الكتابية، ولع آنيل بالماريجوانا، رد فعل فاسيتش شبه الهستيري على الجريمة، تفتيشهما شقة المرأة، واضطراره إلى مشاهدة العملية الجراحية التي أجراها ميسيتش، وأخيراً شعوره بالإحباط لمنعه من الدخول إلى المبنى السكني في «نوفوغراد.»

أخبرها عن التقائه تانيا صدفة في شارع مليء بالثلج ونقلهما المراة الجريحة إلى المستشفى وكيف بدت تانيا كأنها تحذِره. وطوال هذا الوقت، وبينما أخذ روسو يدرك كم هو جائع وتعب، كانت سابينا تراقبه بعناية كأنه قطعة من البورسلين قريبة بشكل خطر من حافة أحد الرفوف. لم يحدثها بشيء عن أن القتيلة كانت تقوم بدور مخبرة لدى الشرطة، ولا عن التحقيق في أمور لوكا.

- «لماذا؟»

- «عما تسألين؟»

«لماذا تورطت؟»

- «أنا شرطي. لقد قلت ذلك بنفسك، وهذا ما أستطيع أن أسهم به.»

- «ليس هذا ما أعنيه.»

- «ما الذي تعنينه؟»

- «خذ هذه اللجنة مثلاً. إنها أكثر مما تقوله عنها. هي من ناحية غير رسمية صوت الصرب في المدينة. يسمون أنفسهم الصرب الموالين. الآخرون يرون فيهم ورقة تين من الانسجام العرقي تغطي كراهية طائفية متنامية. الولاء وسيلة مصطنعة، عملية تصنيف مثلها مثل كلمة إرهابي.»

- «عليّ أن أعتمد على كلامك في هذا الشأن، فانني لا أعرف شيئاً عن ذلك.»

- هناك أمورٍ كثيرة تجهلها فانت مغفل نوعا ما، هل تعرف ذلك. بريء.» نظر إليها دون تعبير متجاوزا ما قالته. لقد تجاوز أموراً كثيرة فلم عليه أن يشعر بالإهانة الآن؟

أضافت تقول «الكرواتيون في المدينة يريدون من رئيس الجمهورية أن يقبل تقسيم ساراييفو. والرئيس، هذا الرجل المسكين، يدفعه جانباً رجال مثل لوكا. لوكا هو الرجل القادم. الأمر خطر، ألا تدرك ذلك؟ إنك تجازف بالكثير. لقد وعد كل منا الآخر ـ»

ـ قاطعها روسو قائلاً «أنا أحقق في جريمة قتل.»

ـ «فليقم غيرك بذلك.»

ـ «ليس هناك من أحد غيري.»

ـ «الأمر ليس جريمة قتل فحسب، ألا ترى ذلك؟!»

ـ «بصراحة، لا.»

ـ «تقول إن المراة صربية وإنها طبيبة أسنان يعرفها ميسيتش وإنها عضو في اللجنة، وقد عثر عليها مقتولة في منطقة سيطرة لوكا. إن رائحة مقرفة تفوح من الأمر كله. إنك تذهب في مخاطرتك إلى أبعد مما ينبغي. اترك الأمر لواحد من الآخرين. سجِل حضورك ووقع على الأوراق ولا تتورط.»

لاحظ يدي سابينا ترتجفان. كم هي قوية البصيرة، قال في دخيلته. لديها القدرة على التركيز على النقطة الضعيفة في أية قصة. لقد استطاعت أن تشعر بأن هناك ما هو أبعد مما يبدو للعيان بالنسبة إلى جريمة القتل والضحية.

ـ «وتانيا» قال.

أشاحت بوجهها لحظة كأن ذلك أمر لا تود التفكير فيه.

«إنها في سن الرشد. وهي ليست ابنتنا» قالت سابينا بغضب وبرفض للدخول في الموضوع. بدت كأنها تقول هذا الأمر لا يعنينا فلدينا ما يكفي من المتاعب.

سمع روسو صوت سيارة تحت، في الزقاق، فانحنى من النافذة ونظر إلى اسفل. كانت المصابيح الأمامية مضاءة، وظهرت من خلال انعكاساتها سيارة كبيرة ذات لون فاتح. بدت لروسو واحدة من تلك السيارات القوية الرباعية الاندفاع في عجلاتها والتي يستعملها كبار موظفي الأمم المتحدة. كانت تشق طريقها ببطء بموازاة المبنى وإطارات عجلاتها تسحق الثلج الذي سقط حديثاً. عندما توقفت السيارة أطفئت مصابيحها وفتح الباب القريب من السائق لحظة ثم أغلق.

ـ «ما الأمر؟» قالت سابينا.

قال «الأمم المتحدة، كما أعتقد.»

وقفت سابينا ثم بعد بضع لحظات اتجهت نحو روسو ووقفت إلى جانبه. انحنت على النافذة وأرسلت بصرها إلى اسفل. لا بدَ من أنها انتهزت فرصة إدارته ظهره لها وانسلت إلى الحمام من أجل جرعة سريعة. اشتم الرائحة المنبعثة قوية مع أنفاسها.

ـ «إنها تلك المومس المقيمة في الطبقة الثالثة» قالت سابينا.

ـ «أية مومس؟» سأل روسو.

ـ «يأتون إليها في كل ساعات النهار والليل. زبائنها من الأجانب فقط، البوسنيون أدنى من مستواها. إنها الماركات الألمانية. ربما كانت هذه هي الوحيدة في حينا هذا التي ستخرج من الحرب أغنى مما كانت عليه قبلها. مبروك لها ذلك.»

ـ «كأنك تشعرين بالحسد.»

ـ «لا، بل بالقرف من كل ذلك.»

ـ «كيف عرفت بأمرها؟»

ـ «الناس يتكلمون، حتى اليّ أنا. اسمها ناديا. اتصور أن هذا

ليس اسمها الحقيقي. ثمة من يريدون طردها من هنا لأنها قحباء ويريدون طردي لأنني صربية.» ضحكت سابينا ضحكة سكر، نوعاً من الضحك الطائش كقوقأة الدجاج، جعل قشعريرة تدبُ في جسم روسو.

- «لن يرموا بك خارجاً.»

- «هه. سيسمحون لناديا بالبقاء ويرمون بي إلى الخارج، فمعها مال.»

- «كوني واثقة من أنهم لن يرموا بك إلى الخارج».

- «إنك ساذج إلى درجة تجعلك لا تصلح لأن تكون شرطياً. أتعرف ذلك؟ إنهم لا يطردون الصرب وحدهم من منازلهم بل إنهم يطردون الكرواتيين أيضاً. ولا يمكنك لومهم فالصرب والكرواتيون هم الذين بدأوا هذه الورطة.»

- «لا. أنت مخطئة، فهم ينزلون اللاجئين في البيوت التي تركها الكرواتيون فارغة، والأمر يختلف عما قلته.»

رفع روسو رأسه ونظر إلى المدينة. كان ظلام حالك يلفها، لكن ومضات من إطلاق مدافع بعيدة وغير مرئية كانت تضيء الجبال المحيطة فتجعلها تبدو مثل قوالب حلوى فوقها طبقة سكرية لزجة. وبدا في الجو إلى جهة الجنوب وهج أحمر خافت. هناك شيء يحترق، قرية أو مصنع. حدَث نفسه قائلاً أن ذلك يجري في قطاع لوكا وربما كان مسرحه «ستوب» أو «ايليديا.» وتردد دويٌ غير قوي لا يختلف كثيراً عن الرعد.

ارتدّ روسو عن النافذة مبتعداً وتوجه إلى داخل غرفة النوم. كان جو الغرفة جليدياً فشعر بدافع يدعوه إلى أن يدفن نفسه تحت أغطية الفراش.

وعوضاً عن ذلك تناول مصباح الدورية الكهربائي الخاص به. أضاءه ثم أطفأه للتأكد من عمل بطارياته، ولما تأكد من حسن عمله وضعه في جيب سترته وخرج إلى القاعة. متى كانت آخر مرة لمس فيها سابينا أو رغب فيها؟ بكل صدق لم يستطع روسو أن يتذكر ذلك. أما هي فتعرف. سابينا تعرف تاريخ ذلك وفي أي وقت جرى كما تعرف لون الملاءات ونوع قماشها. تستطيع استعادة ما قالاه وكيف كان الأمر. هكذا هي. إنها تضايقه بقوة ذاكرتها. والآن؟ إنهما يضطجعان معاً في الفراش، تلمس يد الواحد منهما يد الآخر. في ذلك راحة وعزاء، وهذا كل ما في الأمر. يبصر بالعروق في يديها وذراعيها، زرقاء تحت جلدها الشاحب. إنها سريعة العطب. شعر بحاجة إلى البكاء عليها، عليهما، لكنه عوضاً عن ذلك غضب على نفسه. لم لا يستطيع أن يرقّ ويلين ويعطي المزيد من نفسه؟ هل كونه إنكليزياً في جزء منه هو الذي جعله في هذه العزلة؟ إنه يتوق إليها توقاً موجعاً، لا عن رغبة جنسية بل نتيجة عشرة ورفقة، بسبب شعور بالأسى لعذاب إنسان آخر، لكنه لا يعرف كيف يتجاوز ذلك وكيف يعبر عن تلك المشاعر القليلة التي لا تزال لديه. بدا الأمر كأن عنده، هو روسو، خزاناً محدوداً من المشاعر وإنه استهلك معظمها ساعياً إلى أن يؤدي وظيفته كواحد من أراد الجنس البشري. قد يكون لدى كل إنسان خزان مليئ بالمشاعر، لكن الناس تستهلك هذه المشاعر بنسب مختلفة؛ هناك العاطفيون ذوو المشاعر الجياشة، وهناك البخلاء عاطفياً الذين يوفرون عواطفهم لأنفسهم، أي الجبناء أو القتلة.

استبد به شعور بالشفقة على زوجته، وهو آخر ما ترغب فيه من المشاعر. ومع ذلك فرائحتها وكونها على مقربة منه يجعلانه يشعر بالغثيان. رائحة الكحول الحلوة المقرفة المختلطة بأنفاسها، وماء الكولونيا القديم الذي تستعمله ساعية إلى حجب روائح جسمها الذي لم يغسل منذ مدة، وجلدها المحرشف الجاف. كل ذلك يشكل رائحة انحلال

نتنة. إنهم جميعاً يحملون هذه الرائحة، الأحياء منهم والأموات.

حدّث روسو نفسه قائلاً إنها الحرب فحسب. عندما تنتهي الحرب سيصبح كل شيء أفضل. كل شيء.

كان في بعض الأحيان يرى أن الأمل هو أسوأ أعداء الإنسان.

- «إلى أين أنت ذاهب؟»

- «تلك السيارة في الخارج»

- «لم تسمع أي شيء مما كنت أقوله لك.»

- «بلى سمعت.»

- «دعها. الأمر لا يهم وتلك المرأة لا تهم. لا تستطيع تنظيف الشوارع وحدك.»

- «ومع ذلك فأنا ذاهب»

- «لا لست ذاهباً»

- «بلى. والآن ابتعدي عن طريقي.»

شعر بغضب شديد ينمو في داخله ويتملكه، وكأن إحباطات ذلك النهار ومراراته تمثلت بتلك السيارة.

وقفت أمامه محاولة منعه من الخروج.

- «ابتعدي، أرجوك.»

- «ارجوك لا تخرج.»

- «لا تجعليني أؤذيك، تنحي.»

- «لا تذهب. أرجوك ألا تذهب»

- «خففي هذه الجلبة التي لا معنى لها يا امرأة»

أمسك بيدها بقوة، ولكن بلطف، وأدارها إلى الناحية الأخرى ثم فتح الباب وخرج.

- «بالله عليك كن حذراً»

- «أنسيت أنني ضابط بوليس؟»

- «وأنت أنسيت أن الأيام تغيرت ولم يعد هناك من يحترم شارتك ولا مسدس المفرقعات هذا الذي تحمله.» كان روسو قد أخرج مسدسه وتأكد من أنه محشو. أضافت تقول عن المسدس «إنه ليس عديم النفع فحسب بل اسوأ من ذلك.»

تركها في المدخل ترتعد بثياب نومها الوردية اللون التي تحمل رسوم أزهار، وتشرق بالدموع التي بللت وجهها. لم تعد تعرف ما الذي تفعله أو سبب فعله. إنها في حالة هياج شديد تسيطر عليها رغبة لا ترحم في تناول جرعة من الزجاجة المدلاة من نافذة الحمام، يحرقها شعور بتمني خروجه وفي الوقت نفسه تتوسل إليه ألا يخرج. وبدا الشعور بكره الذات والشعور بالذنب واضحين تماماً.

كانت سابينا محقة في شأن مسدسه، فهو لا يصلح وسيلة للدفاع عن النفس.

حوّل برانستون فليت الأبن /جونيور/، الذي يراسل من سارايفو الصحيفة المفضلة عند الرئيس الأميركي، وجهة سيارته نحو زقاق متفرع من الشارع الرئيسي يشكل منطقة محمية تقع بين صفين من المباني السكنية الضخمة التي تبدو مثل صخور هائلة سوداء تلوح منتصبة في الظلمة. لم تكن هناك مصابيح شوارع. ضغط فليت على مكبح السيارة برفق ثم أطفأ محركها ومصابيحها. كانت سيارة أميركية الصنع ضخمة قوية البنية تتسع لثمانية أشخاص صنعت بناء على طلب من الاستخبارات الأميركية وبيعت إلى طرف ثان وثالث قبل الحصول عليها

وأرسالها بطريق الجو عبر الأدرياتيكي من أنكونا في إيطاليا على نفقة صحيفة «فليت» سعياً إلى الحفاظ على سلامته. كان المراسل الصحافي يعرف أن كل من في المدينة يعتبر العاملين في مجال المساعدات الأجنبية والجنود والصحافيين الأجانب بابا للربح. عملية إحسان دولية؛ وإذا عثر أحدهم على سيارته هذه فسينسل منبطحاً تحتها ويقطع أنبوب الوقود ليعبئ منها صيده الذهبي السائل، وسيقوم بذلك حتى ولو كان صاحب السيارة جالساً فيها.

فتح فليت باب السيارة وهو يصفر بهدوء لحنا لا انتظام فيه. أضيء المصباح الداخلي. استدار نحو المرأة الجالسة قربه. «لحظة» واحدة قال وانحنى عليها وقبلها على طرف فمها متذوقا أحمر الشفاه الذي طلت به شفتيها.

استدارت نحوه رافعة رأسها إليه، عيناها في نصف إغماضة وشفتاها منفرجتان.

هنا. قال لنفسه. فلنعمّد سيارتي الجديدة، فلنتضاجع.

جذب فليت الباب وأغلقه من جديد فانطفأ بذلك ضوء المصباح الداخلي. أعطاه الظلام شعوراً بالراحة. انحنى بلهفة وطوقها بذراعه اليمنى وجذبها إليه.

بدا صوت دوي المدافع بعيداً جداً لاسباب ليس أقلها طبقات الزجاج الثلاث التي تستطيع مقاومة رصاصة شديدة القوة تطلق من مسافة قريبة.

باستطاعة الرجل شراء نساء مقابل سكاير في هذه المدينة، ولا شك في أن كثيرين فعلوا ذلك. يعرف فليت ما الذي يجري ليلاً في الأقسام الخلفية من مركبات الأمم المتحدة ذات الأطنان الخمسة في القاعدة الفرنسية. تقول الشائعات أن رجالاً يجلبون زوجاتهم لكسب ما

يكفي لتأمين طعام العائلة.

ويجني حماة السلام الدوليون ثروات من الاتجار بالسكائر التي تأتيهم بمبالغ كبيرة من الماركات الألمانية. وقد أدرج فليت هذا الموضوع في قائمة التحقيقات الصحافية المحتملة التي ينوي إعدادها عندما تحلّ فترة من الهدوء.

تلقفت لسانه بفمها.

كانت النساء سريعات العطب والتأثر، ترتسم على وجوههن تلك النظرة من الألم التي تذكِرّ بالحيوانات الجريحة؛ عيونهن تبدو خالية من الأمل، مناشدة ملتمسة يائسة. لكن هذه المرأة من نوع آخر.

امتدت يدها تداعبه منطلقة من فخذه. اثارته بشدة. جذبت رأسه إليها مرة أخرى.

- «قبلني يا بلانستون».

- «برانستون»، قال مصححاً.

- «نعم. بلانستون.»

أخذت أصابع يد المرأة الطويلة ذات الأظافر المطلية تعمل عليه، تجرده من ثيابه مبتدئة بفك حزامه الذي اشتراه من أحد متاجر واشنطن المخصصة لبيع الفائض عن الحاجة من الثياب العسكرية. حاول فليت تسهيل الأمر عليها بالتحرك نزولاً في كرسيه.

- «أتشعر بلذة؟»

كان يشعر بها تماماً.

- «عزيزتي. أرجوك عزيزتي.»

لم يسمع أي منهما صوت خطوات القدمين وراءهما، الصوت المميز، صوت صرير الحذاء الجلدي العالي على الثلج الجاف.

انحنت إلى الأمام وشعرها يكنس خد فليت. «أيها الرجل الكبير القوي، أنت.»

ـ «يا حلوتي» قال وهو يشهق الهواء. «ناديا.» لقد لفظ الاسم الصحيح هذه المرة فقد كان سيىء الذاكرة بالنسبة إلى أسماء الفتيات اللواتي يتعرف إليهن. اللذة الجنسية تقوم على المخاطرة، خطر في بال فليت. اللذة والمخاطرة تسيران يدا بيد، وهل اللذة شيء غير الخطيئة والانتهاك؟

أغلق المراسل الصحافي عينيه. فاحت رائحة الفريز/ الفراولة/ من شعر المرأة. وعندما أعاد فتحهما بعد لحظة، رأى، لهلعه الشديد، أن هناك شاهداً على انغماسهما في رغبتهما. كان نور مصباح كهربائي يدوي يتراقص على زجاج السيارة الخلفي. وبعد ذلك نزل إلى زجاج الباب الجانبي واستقر على كتف فليت اليسرى بينما كان حامل المصباح يدور حول السيارة. سيطر التوتر على فليت وحاول أن يعدل جلسته في المقعد، لكن شريكته، التي لم تر ما رآه هو، قاومت ذلك وازدادت حدة ما كانت تقوم به.

شاهد زجاجة المصباح الكهربائي على مسافة سنتيمترات من زجاج السيارة السميك المقوى.

ـ «لا» قال المراسل الصحافي، ثم عاد إلى القول رافعاً صوته «لا.»

ـ «حبيبي» قالت ناديا تشجعه.

أعتقد فليت للحظة أنه سيتلقى ضربة، وأن هذه هي محاولة اغتيال، أو هجوم عليه. مرت الفكرة في رأسه وتصور أنه وقع ضحية مكيدة. تخيل جثته مستندة إلى عجلة القيادة وقطعاً من دماغه متناثرة على الزجاج الأمامي وعلى لوحة القيادة أمامه ممتزجة بسائل منوي في حضنه.

وما لبث فليت أن ذكّر نفسه بأنه يجلس في سيارة مصفحة ووراء زجاج مقاوم للرصاص وبأن هذه السيارة لا يمكن اختراقها ألا إذا أطلق أحد عليها قذيفة صاروخية أو مقذوفاً من عيار ٥٠. لمدفع رشاش كبير.

بدأت حبيبات من العرق البارد تسيل منهمرة من تحت إبطيه على جانبيه. فجأة شعر بغضب شديد. فليتفرج ابن الزنا إذن.

كان الزجاج الثلاثي الطبقات يشتت شعاع النور الصادر عن المصباح الكهربائي. لكن، مع ذلك، يبدو أن الذي يقف وراء المصباح أدرك ما الذي عثر عليه. انتقل النور من كتفي فليت مرتفعاً إلى وجهه ثم هابطاً إلى حضنه.

تلوّى فليت بضيق محاولاً الابتعاد عن النافذة وصاح بناديا هذه المرة فتوقفت.

قالت بلغتها الإنكليزية المكسرة «أنت لا يحب؟» ورفعت رأسها مبتسمة له بثقة لا تهتز لامرأة تعرف تماماً ما يحبه الرجال.

لفت نور المصباح الكهربائي انتباهها، وبلحظة صارت جالسة، جاذبة سترة فليت إلى تحت لتخفي ما يبدو من عريه. لاحق المصباح الكهربائي حركاتها ثم ابتعد عن النافذة، وانطفأ الضوء.

وضع فليت يديه على الزجاج ناظراً عبره. لم يستطع أن يرى شيئاً. أما ناديا فقد استطاعت الباس الأميركي سراويله بأسرع مما نزعتها عنه. قضى الرعب على انتصاب قضيبه. لم تستطع كتم قهقهة صدرت عنها. يا للرجال.

ظن فليت أن الأمر قد انتهى لكنه سرعان ما سمع طقطقة قوية قرب رأسه. كان أحدهم يضرب النافذة بقوة بشيء معدني. ويبدو أن الرجل الذي عثر عليهما بواسطة مصباحه الكهربائي قد إعطاهما فرصة

بضع لحظات للتخلص من وضعهما المحرج قبل ان يقترب من السيارة ثانية.

كان الشيء المعدني مسدساً، وذلك الشخص يقرع زجاج نافذة السيارة بعقبه بتكرار وقوة.

«اللعنة!» قال فليت.

أدار مفتاح السيارة فهدر المحرك القوي وقد دبَت فيه الحياة. أمسك بمقود السيارة بقبضتي يديه.

ـ «ألا تريد أن تصعد إلى شقتي؟» قالت وهي تبتسم له ابتسامة تآمرية متكلفة.

إنها شقراء ذات ساقين يكادان يصلان إلى ما تحت إبطيها، ونهدين كأنهما يوجهان إليه دعوة لا لبس فيها. شعر برغبة فيها تعود إليه من جديد كأنها تمتد من ملتقى فخذيه إلى حلقه. فليذهب البوسنيون إلى الجحيم هم والأمم المتحدة وأولاد الزنا الفضوليون ومصابيحهم الكهربائية، وليحترق ابن الزانية بغيظه. انطلق بالسيارة. ضغط على دواسة البنزين بقدمه فاستجابت السيارة بزئير عميق. أطلقها فليت كرصاصة إلى خارج الزقاق شاعراً بقوتها بينما كان الإطاران الخلفيان يثيران خلفهما سحابة من الثلج. فقدت السيارة للحظة قدرتها على الاندفاع وأخذت إطاراتها تدور في فراغ وسط الثلج، لكنه بعد أن عالجها قليلاً عادت إلى وضعها الصحيح.

نظر فليت إلى المراة فابتسمت له واقتربت منه ودست يدها بين ساقيه.

ـ «أنت لا يريد؟» سالته بنعومة.

ـ «طبعاً أريد» قال بصوت خشّنته الرغبة. تساءل في سريرته عن السبب الذي يجعل لعابه يسيل عندما تجتاحه الرغبة.

كل من قال إن النساء المسلمات لا يعبثن، هو كما يبدو، ممن لم يعرفوا حياة الليل في سارايفو. إنهن لا يختلفن عن سائر النساء في أي مكان من العالم. نظر فليت إلى المرآة أمامه. كان الشارع، أو ما استطاع أن يراه منه، ساكناً وفارغاً مثل ملاءة فراش بيضاء تمتد خلفهما. لم يكن هناك أثر لذلك الرجل المجنون ذي المسدس.

استدار فليت إلى اليمين، إلى «مارسالا تيتو» ثم اتجه إلى الفندق. سيأخذها إلى غرفته. وما الذي يهمه إذا شوهدا معاً ؟ أي ضرر في ذلك؟ لن يسيء قليل من الثرثرة إلى سمعته كمراسل حربي. ولا شك في أنه ليست هناك مخاطرة في الأمر.

الفصل السادس

«كل يوم ينام رجال مع نساء لا يحبونهن، ولا ينامون مع نساء يحبونهن.»

دنيس ديديرو في «جاك لو فاتاليست.»

انطلق روسو وراءهما بتهور. أزعجته عجرفة مسترقي اللذة الأجانب هؤلاء. ولم تؤد محاولات سابينا ثنيه عن الخروج سوى إلى زيادة دفعه إلى القيام بذلك. حال الزجاج المدرع دون تعرف روسو إلى فليت بوضوح. كانت كلمة «صحافة» الملصقة على جانبي السيارة بشريط لاصق أسود هي التي فضحته. وعندما أصبح من شبه المؤكد أنه فليت تسللت الظنون إلى ذهن روسو.

جرى الأمر بعد موعد بدء تنفيذ منع التجول، وهذا أيضاً يشكل سببا آخر بالنسبة إليه. قد تطلق عليهما النار أو يقتلان عند أحدى نقاط التفتيش والحواجز العديدة التي تقيمها القوى الأمنية بعد حلول الظلام - مواقع متقدمة عديدة يسيطرعليها الجيش، والشرطة العسكرية، وشرطة روسو المدنية نفسها، وميليشيا لوكا، والقوة الأمنية التابعة لرئاسة الجمهورية، وكل منها يتدافع مع الآخر من أجل موقع له، من أجل حصة في سلطة الدولة الآخذة بالتقلص. لكن ذلك لم يكن السبب الذي جعل روسو يتوجه إلى سيارته اليوغو ويدير مفتاح الاشغال يمنة

ويسرة ويطأ دواسة البترول بقوة إلى أن «سعلت» السيارة مرغمة وعادت إلى الحياة. لقد تأخر عدة دقائق لكنه وصل في الوقت المناسب ليشاهد سيارة الجيب وهي تتوقف في القسم الخلفي من الفندق. كان الوقت متأخراً جداً ولذا لم يستطع فليت الدخول إلى موقف السيارات في الطبقة الأرضية. لقد أغلقه عند الساعة التاسعة الحارس الذي يشرف على المكان، وهو رجل أحدب مسلح برشاش ألماني الصنع من أسلحة الحرب العالمية الثانية، يجمع ما يجود به عليه الأجانب من عملات أجنبية كي لا يسرق بترولهم النادر. ألا إنه مع ذلك كان يسرقه. وقام فليت، شأنه شأن كل من يتأخر عن موعد الإقفال، بصف سيارته في أقرب مكان إلى الباب الخلفي.

ومن الجهة الأخرى من الشارع شاهد روسو السائق يقفز نازلاً من السيارة إلى الثلج. أين هي الراكبة التي كانت معه؟!

تبعه روسو مارًا بحارس انطرح على مكتبه بعد الباب مباشرة واضعاً رأسه بين ذراعيه وهو يغط في نوم عميق. سار روسو على رؤوس أصابعه تقريباً، عبر باب فاصل، إلى المنطقة الداخلية لرواق الفندق الذي يشبه الكهف واختبأ وراء المصاعد. كان فليت قد تسلم مفتاح غرفته من مكتب الاستقبال وأخذ يسير مبتعداً عنه. سمع روسو صوت صرير حذاء فليت على الأرض التي ركبت فيها قطع الخشب عوضاً عن البلاط.

كان وحيداً.

ردهة الفندق ضخمة، وقد أقيمت غرف النزلاء حول شرفات داخلية امتدت في كل طبقة من طبقات المبنى الثماني. صمم الفندق بالألوان الأساسية فبدت الخطوط مثل ضربات فرشاة عريضة تتناسب مع عصر أشد ثقة بالنفس وأكثر اندفاعاً. في هذا المكان يعقد حديثو النعمة حفلات زواجهم، وفيه تلقَى روسو عندما كان شاباً برتبة ملازم في

البوليس، جائزة استحقاق، وبعد ذلك بزمن طويل شارة تقدير لعمله عشرين سنة في سلك الشرطة. وفي ذلك المساء رقص في الحفلة الراقصة السنوية مع سابينا التي ارتدت الثوب الأحمر الذي يحبه. كانت في ذلك الزمن مثار الأعجاب بل الحسد. كم كانت الأمور مختلفة. كم كان فخورا في عمر حافل بالنشاط والوعود. بدا ذلك كأنه جرى قبل قرن من الزمن أو في حياة أخرى غير هذه. كان هذا الفندق مكاناً ترى فيه الناس ويرونك، يعجُ بالنشاط، واسعاره تناسب مستواه، ويغصُ برجال الأعمال الأجانب والسياح ووجوه المجتمع من المحليين الذين يتفاخرون بالتمتع بسهرة فيه. أما الآن فقد كان جو ردهة الانتظار بارداً صقيعياً ومظلماً.

اقترب روسو من مكتب الاستقبال الذي لفّ بجدار من الكرتون وورق السيلوفان في محاولة تثير الشفقة للحفاظ على بعض الدفء. اختبأ وراء لوح علقت عليه اعلانات كتبت بخط اليد هي في الواقع رسائل تسوّل علّقها أناس عرضوا خدماتهم كسائقين ومترجمين ووسطاء. المحظوظون من هؤلاء كانوا يحصلون على أجر يبلغ حوالى مئة دولار أميركي في اليوم. وكان الذين يصل دخلهم إلى هذا القدر يكتشفون فجأة كم تصبح عائلاتهم كبيرة وواسعة.

أين هي؟!

سار فليت مبتعداً في الظلمة نحو درج السلم في الطرف الآخر لقاعة الانتظار وعبر «البار»الدائري المبني من الصلب الذي لا يصدأ ومجموعة مقاعده ذات المخمل الأزرق. تبعه روسو.

إلى اليسار استطاع ان يرى بقع الضوء الأحمر في رؤوس السكاير المولعة تتحرك مثل أنوار ذنب حشرة الحباحب/ سراج الليل/ ، وصورة باهتة للساهرين في الفندق ـ الصحافيين الذين لا يستطيعون النوم أو الذين ينتظرون مكالمة تليفونية لن تأتي؛ وبنات الليل بغايا العملات

الأجنبية ينتظرن زبائن، وتجار السوق السوداء يسعون إلى أن يبيعوا ويشتروا مشروبات روحية وسكاير وبترولا، والمحتالون، الذين تبدو عليهم سمات الجنون، يعرضون بيع اخبار أو شقيقاتهم لقاء مال؛ وصيارفة العملات، وعملاء استخبارت الرئيس يراقبون ويستمعون، ويتمتعون بذلك دون شك.

عندما أخذ روسو بالصعود توقفت دمدمتهم وكفّت أنوار الحباحب عن الحراك. كانوا يراقبونه، ينتظرون كي يصعد الدرج ويبتعد عنهم.

- «أهذا أنت؟»

- «هل فوجئت برؤيتي؟»

«الأفضل أن تدخل يا حضرة القائد»

«إنها لسيارة عظيمة سيارتك الموقفة هناك»

«مثيرة للإعجاب، أليس كذلك»»

دخل روسو إلى غرفة الفندق وفي نفسه فضول لمعرفة كيف يعيش هذا الأميركي. وقف فليت ووضع يده على عينيه لحظة كأنه ينظر إلى نور الشمس. فهم روسو هذه الحركة تعبيراً عن شعور حاد بالحرج. هو يعرف أنه آخر شخص يرغب فليت في رؤيته الآن. شعر روسو بمتعة إزاء حال المراسل الصحافي. لا شك في أن هذه قسوة منه لكن الأمر لم يكن خاضعاً لإرادته.

لا ريب في أنه يعرف أنني الرجل الذي فاجأه في ذلك الوضع.

- «أين هي؟»

- «آه» قال فليت وتوقف لحظة عن الكلام ثم تابع «حدث بيننا نوع من الخلاف. لقد رفضت المجيء إلى الفندق لأن فيه، كما قالت، كثيراً من رجال الشرطة والشرطة السرية. طلبت مني أن أذهب إلى

شقتها. لست أعرف السبب تماماً لكنني لم أشعر بالارتياح إلى الاقتراح. أعني أنني لم أشعر بأمان.

لم تكن تانيا، بل فتاة أخرى. شعر روسو بارتياح هائل.

قال «حسبتك من جماعة الأمم المتحدة»

ـ «وما الذي كنت ستفعله لو كنت منهم؟»

ـ «لست أدري. كنت اعتقلتك. كنت أحدثت ضجة ما.»

ـ «هل كنت أنتهك القانون؟»

ـ «لا شك في ذلك. كنت تقوم بإقلاق للراحة، وبتهديد للنظام العام، وتعرض الأمن للخطر وتنتهك منع التجول، وتوقف سيارتك حيث يمنع إيقاف السيارات، وتقود بطريقة خطرة، تقود تحت تأثير عوامل»

توقف روسو قليلاً فلاحظ شعوراً بالارتياح على وجه الصحافي، فأضاف قائلا «دعارة وفسق، زنا مع قاصرة... الخ»

ـ «قاصرة!»

حلَت نظرة هلع محل الشعور بالارتياح عند فليت.

ـ «هل كنت تعرف عمرها؟»

ـ «بصراحة، لا، لا أعرفه تماماً.»

بدا واضحاً لروسو أن فليت أصيب بصدمة، وهذا ما أراده أن يشعر به. من المحتمل أنه دفع إلى المراة مالاً كي تختفي عندما سيطرت الرغبة في النوم على الرغبة الجنسية عنده خلال الدقائق القليلة التي كان فيها روسو يدير محرك سيارة اليوغو. لم تكن هناك أية سمة رومانتيكية في غرفة الفندق هذه. كانت رائحتها مثل رائحة حديقة حيوانات المدينة. تنشق روسو. استطاع التعرف إلى العناصر المكونة: اقدام غير

مغسولة، وأعقاب سكاير وكحول وسخام، وحمام رطب عفن. ربما كانت هي التي غيرت فكرها بماركات أو دون ماركات.

قال «أتصور أنك ستمضي ستة أشهر في السجن في حال كونك حسن السلوك.»

من خلال النظرة التي ارتسمت على وجه فليت بدا أن هذا لم يكن واثقاً مما إذا كان عليه أن يحمل كلام روسو على محمل الجد.

كانت غرفة الأميركي تقع في الطبقة الرابعة جيدة، إلى جهة الغرب. الطبقة الرابعة جيدة، ففي الطبقات الشديدة الانخفاض يتلقى النزيل نيران الأسلحة الخفيفية مع «خدمة الغرف»، وفي الطبقات الشديدة الارتفاع يتعرض لأن تسقط على ملاءات سريره علامات تأتيه، بتلطف، من مدفعية الصرب البوسنيين وعرباتهم المدرعة من مواقعها القائمة على مسافة كيلومتر ونصف كيلومتر في الجانب الآخر من المدينة. أما نافذة غرفة فليت فتشرف على منظر ما كان أساساً حديقة صغيرة أهملت أهمالاً شديداً، فصارت في مثل هذا الوقت من السنة، مليئة بطبقة من الثلج الذي يغرق فيه الإنسان حتى ركبتيه، وحفرتها الريح فجعلتها ملساء وتحولت إلى قشرة براقة متماوجة. ولم يكن فليت يقف في النافذة وقتاً يكفي لأن يلمحه قناص. في لوح الزجاج ذي الطبقتين ثقب كبير أحدثته رصاصة يشكل تذكيراً فعلياً بما حدث لهؤلاء الذين كانوا حمقى إلى درجة أنهم جعلوا من أنفسهم أهدافاً.

- «أتريد شراباً؟»

- «رائع»

- «تبدو مرهقاً.

- «أنا مرهق فعلاً، وأنت كذلك.»

- «لم آكل بعد. المطعم يقفل خلال عشر دقائق. ما رايك في أن تنضم إلي؟»

ـ «حسناً. لم لا؟»

أحد مبادئ البقاء والاستمرار أن يأكل الإنسان عندما تتاح له الفرصة. اخذ روسو ينظر حواليه، إلى جهاز تشغيل الأسطوانات الصغيرة (سي. دي)، وإلى ذلك العديد من الأسلاك الكهربائية الممدودة على الأرض إلى ما بدا أنه جهاز كومبيوتر، لوحة حروف وآلة طابعة وكدسة ضخمة من الأوراق. كان هناك قرب السرير كتب وبطاريات ودفتر ملاحظات ومصباح كهربائي يدوي وكؤوس وزجاجة كاملة من الويسكي السكوتلندي. أما السرير نفسه فبدا مجموعة من الملاءات المطروحة عليه بفوضى وكأن أحداً خرج منها الآن.

كانت خريطة يوغوسلافيا معلقة على الجدار وقد انتشرت فيها الأسهم والإعلام التي رسمت بحبر صيني، حمراء وخضراء وسوداء وزرقاء. الزرقاء لتشكيلات قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام، والخضراء لجيش الحكومة الذي تتألف غالبيته من المسلمين، والسوداء لجيش الصرب الانفصاليين الذين يطلق عليهم اسم «تشيتنيك.»

دفع روسو باب غرفة الحمام فانفتح على مصراعيه كاشفا عن داخل الحمام المظلم الذي تفوح رائحة البول منه.

ـ «هل كنت ستلقي القبض عليها أيضاً؟»

ابتسم روسو.

يشكل الصحافيون نزلاء جيدين أيام الحرب، فهم نادرا ما يعترضون على كلفة الغرفة وهي تبلغ ٨٠ دولاراً في اليوم، أو على الإقامة وسط قذارة تسبب الانقباض، ولا على الملاءات الرثة المتآكلة والطعام الذي يكاد يكون غير صالح لأن يتناوله الإنسان. وكذلك هو حالهم بالنسبة إلى نور التيار الكهربائي الذي ينقطع باستمرار وبالنسبة إلى الوجود الرمزي لأجهزة التلفزيون وللتليفون الذي يتوقف عن العمل

يوما ليعود في اليوم التالي فيعمل ساعة اوساعتين وعدم توفر الماء والتدفئة. وغالباً ما جلب هؤلاء الصحافيون معهم مولدات للطاقة خاصة بهم ولأجهزة تليفون تعمل عبر الأقمار الاصطناعية، فضلاً عن «أكياس» خاصة للنوم وعن الطعام والشراب.

وكان المسؤولون عن طواقم المراسلين التليفزيونيين الأميركية يوظفون لديهم أشخاصاً لا عمل لهم سوى قيادة السيارت ذهاباً وأياباً عبر خطوط الجماعات المتنازعة لنقل مواد غذائية طازجة ـ بيض وفواكه ولحم وخضر وحبوب وأطعمة مستحضرة منها وبيرة وشوكولاتة ـ وهي أنواع من الترف أبعد من قدرة جيوب سكان المدينة بل أبعد من تصوراتهم مهما جمح بهم الخيال.

ويمتلك هؤلاء الغرباء ـ الذين يسميهم السكان المحليون سياحاً ـ ثياباً داخلية تحفظ حرارة الجسم وأجهزة اتصال لاسلكية من نوع «ووكي توكي» وأحذية متينة وسترات محشوة باللباد؛ وهم يطبخون على نار الغاز ويكتبون على أجهزة كومبيوتر تدار ببطاريات، ويتكلمون بالتليفون يومياً مع عائلاتهم واحبائهم بكلفة عشرين دولاراً للدقيقة الواحدة. ويدفع هؤلاء المراسلون ثمناً أعلى بكثر من الثمن العادي لشراء البترول من السوق السوداء، ويقودون سيارات كبيرة جرت «تقويتها» وتصفيحها خصيصاً لمقاومة الرصاص ونقلت إلى هنا بطريق الجو. وهم يرتدون ثياباً مضادة للرصاص صنعت من صفائح من الخزف باستطاعتها مقاومة تأثير رصاص بنادق شديدة القوة.

باختصار، كان هؤلاء كما قرر روسو، صنفاً مختلفاً من الناس. وإذا كان الناس، في سرهم، يشعرون نحوهم بشيء من الامتعاض، فقد كانوا يخطبون ودهم في العلن. وكانت تقاريرهم وأفلامهم التلفزيونية والصور التي يلتقطونها، هي التي تبقي قضية الحكومة البوسنية حية، كما بنوا هم بدورهم شهرتهم على آلام المدينة وبؤسها.

إلا أنهم، على رغم كل أخطائهم، كانوا ينزفون دماً حتى الموت شأنهم شأن سائر الناس: لم يكن هناك ما يجبرهم على أن يكونوا موجودين في المدينة.

يعرف روسو أن لفليت نفوذاً لا يتناسب من أية ناحية، مع سنه وخبرته أو حتى براعته في عمله. لم يكن الأميركيون يميلون إلى زيارة ساراييفو لمدة طويلة أو بإعداد كبيرة. ومن يفعل ذلك منهم هم غالباً من العاملين في الإعلام التلفزيوني الذين كانوا يقصدون المدينة في غمرة ارتفاع عدد القتلى في الحرب. أما فليت، فببقائه هنا خلال أسوأ أيام سارايفو، أي بالتشبث بالبقاء هنا، إذا استعملنا التعبير الأقرب إلى طريقته في الكلام عن هذا الأمر، استطاع أن يستحوذ على انتباه الصحيفة وهي صحيفة تجذب اهتمام الرئيس الأميركي خلال تناوله الأفطار في البيت الأبيض. أعطى ذلك فليت موقعاً مهما داخل الصحيفة جعله يحتكر تغطية أخبار البوسنة. ولم يكن متوفراً لأحد، حتى لوزراة الخارجية الأميركية بمواردها مجتمعة، أن يكون ندا لفليت من حيث تمكنه من هذه السوق المناسبة في حقل الصحافة المكتوبة وتأثيرها في السياسة الأميركية في هذا المجال أو في موضوع افتقار الولايات المتحدة لسياسة من هذا النوع.

أما الوجه الآخر للمسألة فهو أن الحكومة البوسنية ورئاسة الجمهورية في شكل خاص كانتا تنظران إلى فليت بكثير من التقدير وتعانيان من حساسية مفرطة من أي شيء قد يكتبه أو يقوله عن الحكومة وجهودها الحربية. صار فليت الذي دخل السنة السادسة والثلاين من عمره شخصية تقوم بأدوار القناصل. تحول إلى شخصية شهيرة.

لكن روسو كان يدرك أن الصحافي يبحث عن أخبار وأن هذه الأخبار قد تسبب أذى أو قد تقدم مساعدة.

وإذا كان فليت يدرك الأخطار التي تحدق بعمله ـ أو «موضوعيته» حسب تعبيره المفضل ـ فلم يكن يصدر عنه ما يدل على أنه يعطي أهمية لهذه الأخطار. وقد بدا فليت لروسو أشبه بمن يقود سيارة بسرعة جنونية متجاوزاً سلسة من إشارات السير الحمراء. إنه بذلك قد يصدم عدداً من الناس، بل إنه فعل ذلك أحياناً. لم يبد الأمر ذا أهمية، على الأقل بالنسبة إلى فليت. فمن شأنه في وضع كهذا أن يحول الانظار عن الأضرار بوصفها بأنها تخدم المصلحة العامة العليا. ويبدو أن هذه هي الطريقة التي تسير بها الأمور في الغرب. وقال روسو لنفسه أن فليت ـ من ناحية السلوك الخلقي ـ يعيش في عالم آخر مختلف عن سائر البشر، ودون شك عن الناس الذين يسيرون مترنحين في شوارع ساراييفو التي ملأتها الحرب بالحفر.

وفليت كريم، لكن هناك ثمناً لضيافته حتى وإن تمثلت بزجاجة من البيرة أو بوجبة الطعام التي سيحملها إليهما بعد قليل ذلك النادل المرهق غير الحليق بسترتة الحمراء المتسخة المليئة بالبقع ـ ولم يكن روسو يريد أن يحترق في حملة أحد للبحث عن الحقيقية. لن يفعل ذلك عندما تكون استخبارات السلطات وأعدائها قد اخترقت الواحدة منهما الأخرى، وعندما تنتقل، بشكل آلي، ملاحظة في ملف شخص ما إلى ملف هذا الشخص نفسه عند الطرف الآخر، وعندما تعتبر كلمة تعاطف طائشة مع جهة ما، كلمة عداء أكيد للجهة الأخرى.

على روسو أن يكون حذراً.

لم يسألهما النادل عما يطلبانه، فلم تكن هناك قائمة طعام، لكن فليت طلب نبيذا. احتوى الطبق الأول على سلطة ملفوف/ كرنب/ مع مرق أحمر اللون في الوسط، تبين إنه مكثف عصيرالطماطم/ رب البندورة/ من النوع المعلَب. وقد اشبع الملفوف بالخل. أما الطبق الأساسي فقد كان نوعا من اليخنة مع زلابية، وبعد ذلك «كريم

كاراميل» وقهوة. إنه طعام حقير وفقاً لكل المقاييس باستثناء مقاييس المدن والبلدات البوسنية الإسلامية المحاصرة. ففي سارايفو وتوزلا وماغلاي وغورازدي يعتبر هذا الطعام معجزة مطبخية.

لم يكن في قاعة الطعام أناس غيرهم وغير مجموعة من الصحافيين الفرنسيين الشبان الذين جلسوا في الطرف الأقصى من القاعة الواسعة وهم في صخب وسكر شديدين. أتاحت عربدتهم لروسو وفليت مجال الحديث دون خوف من أن يسمعهم أحد.

ـ «سيارة جديدة؟»

ـ «وصلت جواً اليوم من أنكونا.»

ـ «تبدو جيدة جداً .»

ـ «أجل. إنها سيارة لرجال الشرطة السرية ـ وهم الذين يتولون حماية الرئيس. وهي مصفحة من أعلاها إلى اسفلها، بل إنها تحتوي على جهاز من أجهزة جيمس بوند ؛ اسحب جهاز تحويل أحمر صغيراً فينهمر منها مزيج من الزيت والبنزين على الطريق خلفك، واسحب مفتاحا آخر يشتعل هذا المزيج.»

ـ «هي ـ هيهي» قهقه فليت بسرور وفخر.

ـ «وهل تنوي أن تجرب هذا الجهاز في شوارعنا؟»

ـ «يا للجحيم. لا.» ضحك فليت من جديد وهو في غاية السرور رافعاً يديه نفياً ثم أضاف «ربما فعلت ذلك عند حاجز صربي.»

ـ «وما الذي جرى للسيارة البيضاء؟»

ـ «طلبت من جماعة تأجير السيارات أن تتسلمها.»

ـ «أتمنى أن أشاهد وجوههم وهم يتسلمونها.»

المرة الأولى التي التقى فيها روسو الصحافي كانت اثر وصول

الأميركي في ربيع سنة ١٩٩٢ بعد أن نشبت الحرب مباشرة وبدأت الحقيقة المرعبة تلقي بظلها على المدينة. كان فليت مصمماً على تكوين اسم لنفسه في هذا النزاع. وكان هذا الأميركي مثل كثيرين ممن هم في سن الشباب يخشى أن يبدو خائفاً أشد من خشيته أي أمر آخر. وقد وجد في روسو رجلاً يفهم هذا الأمر تماماً، يفهم هذا الخوف القبلي من الخوف نفسه. الفكرة كلها، فكرة عدم إظهار الخوف، وما يسميه الإنكليز إبقاء الشفة العليا متيبسة صلبة، نتجت عن الخوف. وعززها العسكريون وعملوا عليها بهدف تقليل الخيارات المتاحة أمام الإنسان. سمي الأمر انضباطاً. وهو يعني القيام بعكس الشعور الطبيعي الذي يخالج معظم الناس عند مواجهة الخطر.

مرة كان روسو يعمل في مكتبه جارفاً عنه ذلك المد الذي لا ينتهي من الأوراق عندما دخل فليت إلى المكتب. والواقع أنه لم يدخل بالمعنى المعروف للكلمة بل اندفع اندفاعاً عبر الباب المفتوح خلال جولة من جولات القصف المدفعي تميزت بوحشية تفوق المألوف، واكمل المسافة الباقية زحفاً على يديه وركبتيه. يتذكر روسو ذلك اليوم ولا يستطيع أن ينساه. قتل سبعة وثمانون شخصاً من سكان ساراييفو في ذلك اليوم وأصيب نحو ٣٠٠ شخص بجروح وسقط على المدينة ما لا يقل عن ٣٠٠٠ قذيفة.

يومها لمح فليت مجلة هي إحدى الأسبوعيات الأخبارية الأميركية موضوعة فوق مجموعة من الملفات القديمة وسأل ما إذا كان يسمح له بقراءتها. رد روسو بالإيجاب دون أن يرفع بصره ثم تساءل بينه وبين نفسه عن طريقة فليت الجنوبية في التشدق بالكلام. عرض عليه روسو كرسيا ليجلس عليه هوالكرسي الوحيد في الغرفة باستثناء ذلك الذي يحتله روسو. رد عليه فليت قائلاً «أفضل الجلوس على الأرض. شكراً.»

عند ذلك عرّفه الاميركي بنفسه. ولم يعد روسو يدعوه إلى الجلوس على كرسي، فقد أدرك أن فليت يسيطر عليه الرعب من احتمال إصابته إلى درجة أن مخيلته جعلته في حال ترقّب دائمة لشيء يأتي من خلال الستائر مخترقاً مكتب روسو ليمزق ضابط البوليس الجالس على مكتبه إرباً. ولا شك في أن الأمر ممكن الحدوث.

هذا هو الرباط الذي جمع بين مراسل صحافي شهير ورجل شرطة: الخوف. كلاهما يشعر به وكلاهما تعلم العيش معه، والسيطرة عليه، وجعله يتكيّف، واستخدامه. وقد اقتضى ذلك قدراً كبيراً من الشجاعة.

في الأشهر التي تلت ذلك سيطر فليت على مشاعره تدريجياً من خلال التصرف بتهور، بشحذ نفسه وفولذتها عبر التوجه إلى ساحة المعركة في ذروة القتال، وبازدراء السترة الواقية من الرصاص وبقيادة سيارة هشة المعدن بينما سائر رجال وسائل الإعلام يتنقلون في سيارات مدرعة من نوع أو آخر.

ويبدأ مراسلون صحافيون آخرون - ربما لأن الأفكار الجديدة أعوزتهم - يرسلون إلى رؤساء تحرير صحفهم تحقيقات عن فليت وإيمانه بالخرافات: كان دائماً يرتدي جوربين لون كل منهما يختلف عن لون الآخر، جورباً أحمر في قدم وجورباً أخضر في القدم الثانية. ودرج على أن يرتدي قمصاناً وسراويل سوداء اللون وسترة سوداء. ولم يكن يخرج إلى الشوارع دون ربطة عنق بلون أسود أيضاً. جيمس دين سارابيفو. وكان يسمى رحلاته السريعة «تطوافاً.»

تلك السمرة الذهبية، وخصلات الشعر المتروكة دون تمشيط، والأسنان البيض. حلم هوليوودي بليل يتنقل على عجلات تحت النار والرصاص.

سرُه يرقد بأمان عند روسو.

هل كان فليت يعرف ذلك؟ كان المراسل الصحافي يتصرف أحياناً وكأنه ممتعض من كون روسو الإنسان الوحيد الذي لا يخفى عليه شعوره الحقيقي المخبأ تحت قناع من التبجح. كان لدى رجل البوليس ذلك الشعور الاستثنائي المتميز. وقد كرهه الأميركي لهذ السبب وحده.

بعد أن دفع روسو وفليت بطبقيهما جانباً نظر المراسل إلى الشرطي.

ـ «أنا مدين لك بشرح» قال الأميركي.

ـ «عما تتحدث؟»

ـ «عن هذه الليلة.»

ـ «في الواقع لست مديناً لي بشرح فحياتك الجنسية هي شأن خاص بك. لكن صدف أنك كنت خارج نافذتي مباشرة.»

ـ آسف. لم أكن أعرف ذلك. أمر رهيب ـ «وتردد لحظة كأنه يفتش عن اللفظة الصحيحة. ثم أضاف «رغبة رهيبة.. ربما كان هذا التعبير المألوف. إنها تتملكني بعد أن أعود من جبهة القتال.»

ـ «لست الوحيد الذي يشعر بذلك. لكنك شاب وأميركي ومن المشاهير، وتستطيع أن تحظى بفتيات من النخبة.» وكان من الممكن أن يقول له أيضاً «لكن ابنتي بالتبني رفضتك.»

ـ «لا أستطيع تحمل أن يكون هناك من ينتظرني.. كي أقول لهن أنني أحبهن... الأمر على هذا الشكل أسهل بكثير ـ»

ـ «لا بأس في الأمر.»

ـ «أصحيح ذلك؟» سأل وهو في حال من التوتر. كان يسعى إلى شيء من الطمأنة. «لم يكن هناك سوى امرأة واحدة ـ» لم يرد روسو أن يجد نفسه مضطراً إلى الاستماع إلى أعتراف طويل مشبوب العاطفة من

هذا النوع. إنه أكبر سناً من أن يستمع إلى أحاديث كهذه، وهو فضلاً عن ذلك تعب جداً . رفع يده إلى أعلى.

- «اسمع يا برانستون. الأمراض الزهرية تكتسح هذه المدينة كأنها نار تلتهم غابة، ولن يتأخر مرض الإيدز(مرض نقص المناعة المكتسب) في اللحاق بها.»

تدلى فك فليت خوفاً.

- «لذا عليك إذا مارست الجنس لقاء مال أن تستعمل واقياً ذكرياً.»

هز الصحافي رأسه موافقاً. بدا مثل طفل قبض عليه متلبساً في عملية سرقة أو غش.

خطر لروسو أن من المستحيل معرفة عمر المراسل لأن الأميركيين يبدون بطريقة خارقة للطبيعة أصغر من أعمارهم الحقيقية ووجوههم توحي ببراءة تفيض من داخلهم ولا يبدو أن شيئاً يؤثر فيهم ولا رذيلة أو أعمال وحشية تجعلهم يشيخون. قال روسو لنفسه إن فليت يبدو أشبه بطفل بين هؤلاء السلافيين مما يجعل النساء يتبنينه ويعتنين به ويفضن عاطفة عليه. لكنه كان يعاني من الاعتقاد البروتستانتي بالشر الذي يلازم الإنسان من فطرته. إذن ففكرة اللهو والتمتع بالوقت والتصرف بعفوية لم تكن مما يستطيع فليت ان يقوم به بسهولة.

وقد يكون هذا هو السبب الذي جعله يلجأ إلى مومسات من اللواتي يتقاضين لقاء خدماتهن مئة مارك ألماني، فالمتعة لمن هم على شاكلته هي القيام بما هو خطأ، وإرضاء الذات يكون من خلال الجماع السهل الذي لا يعكره الخوف من الإخفاق.

- وهل خرجت إلى هناك اليوم؟»

هز فليت راسه بالايجاب. ثم سكب ما بقي من الخمر في كأس

روسو. كان خمراً من نوع جيد. نبيذاً كرواتياً مراً أبيض اللون من أفضل الأنواع معبأ في نوع من القناني الزجاجية ذات اللون الأخضر الغامق. أحس روسو بنشوة الخمرة وقد فعلت فعلها.

- «كيف كان الوضع؟»

- «أتريد أن تقرأ الموضوع قبل نشره» قال فليت وأخرج بعض الأوراق من جيب سترته.

والواقع هو أنها كانت ورقة واحدة طويلة وقد طواها عدة مرات.

- «هذا سيظهر في الصفحة الأولى غداً.»

- «هل لديك مانع من أن أقرأها في وقت لاحق؟»

هز فليت رأسه بأن لا مانع لديه لكن ما ارتسم على وجهه قال عكس ذلك. عندما يعرض عليك موضوع طازج خرج للتو من آلة فليت الطابعة ولم يصل بعد إلى مطابع الجريدة فمن المفترض أن تقرأه فوراً وتعرب عن تقديرك.

وتعالت ضجة من الطرف الآخر لقاعة الطعام. سقط أحدهم عن الطاولة فأثار عاصفة من الضحك بين الفرنسيين.

- «ابنتك ـ» قال فليت وقد اضطر إلى رفع صوته.

- «تانيا. إنها بخير لكنها ليست ابنتي.»

حدث روسو نفسه قائلاً أن فليت لا يخطر له أن السؤال في ظرف كهذا عن ابنة ضابط الشرطة هوضرب من البلاهة الخاصة وانعدام الذوق. لكن ليس هناك من جدوى في لفت نظره إلى ذلك. هكذا هم الغربيون. إنهم يميلون إلى أن يصرحوا بما يفكرون فيه وفي هذا مزيج من الصدق والقسوة.

- «أنا آسف، إنها ـ»

ـ «ابنتي بالتبني.»

ـ «لم أكن أعرف ذلك.»

ـ «أمورها حسنة.»

ـ «إنها تعمل مساعدة طبية.»

ـ «نعم هذا صحيح.»

ـ «وهل توافق أنت على ذلك؟»

ـ «ليس مهما أن أوافق أو لا أوافق. إنها في سن الرشد.»

ـ «ولكن يجب أن يكون لك رأي في الأمر»

ـ «لي رأي ولكنني لست متأكداً من أن هذا شأن من شؤونك.»

ـ «أنا آسف. ما كان علي أن أسأل. كل ما في الأمرـ»

ـ «ما الذي في الأمر؟»

ـ «لا شيء سوى أن الناس يقولون إنها تقابل لوكا. إنك تعرفه كما أعتقد.»

ـ «هكذا إذن. أعرف عنه.»

ـ «وما هو شعورك في هذه الحال؟»

ـ «نحو تانيا؟ أنا أحبها كما يجدر باب بالتبني أن يفعل. أما نحو لوكا.. فالأمر سياسي. ونحو علاقتهما ان كان ثمة علاقة بينهما؛ لقد قلت لك ان لدي وجهات نظر في المسألة وهي ليست شأنا من شؤونك.»

هناك دائماً ثمن لضيافة فليت وكرمه.

ـ «حسنا» قال فليت وقد بدت عليه أمائر عدم الرضا والانزعاج

وكأنه اخفق في الحصول على ما كان يرمي إلى الحصول عليه.

- «والآن، أخبرني عن أمر»

«اسأل»

- «ما هو منزل القردة؟»

كان الفرنسيون الآن ينشدون «لا مارسييز». وكان من يقف منهم يعود فيسقط وهم يتهاوون على أرض الغرفة وأحداً فوق آخر. ارتفع صراخ فتاة ولم يكن واضحاً تماماً ما إذا كان ذلك صراخ رعب أو سرور، وربما لم يكن الأمر واضحا لها هي أيضاً. ووقف النادل يهز راسه إزاء تلك الفوضى التي يحدثونها.

- «إنه ذلك المجمع السكني الشاهق. تعرف أين. في منطقة علي مإذا؟... تبا لي.. فأنا لا أستطيع أن الفظ بقية الاسم. يقول الناس أن عدداً كبيراً ممن بقي هنا من أهل المدينة الصربيين يعيشون هناك في أحد المباني السكنية الشاهقة ولذا فقد سموه منزل القردة. إنه لقب وليس لقباً جميلاً. لقب عرقي.» كان فليت في هذه الأثناء يعبث بفنجان قهوته محركاً أصابعه بعصبية.

«هذا ما تتجه إليه الأمور. حدث أمر شبيه بذلك - مجمع سكني قرب ثكنة تيتو في زغرب سنة ١٩٩١ وقد أطلق عيه الجنود الكرواتيون الاسم نفسه.»

- «هل هم مرغمون على السكن هناك؟»

- «لا. كل ما في الأمر أنه أشيع أن هناك نسبة غير عادية من الصربيين تعيش هناك. وقد تحول المكان كذلك إلى مركز لمدمني المخدرات المحليين. وأعتقد أن السبب يكمن في أن الصربيين هم الآن أشد الناس فقراً في سارايفو. يتسكع أولاد الشوارع هناك في انتظار بائعي المخدرات.»

«ومنذ أن عدت من زغرب ـ» مضى روسو يقول وقد تذكر أن ذلك جرى هذا الصباح وأن بدا كأن أسبوعاً مرّ عليه. «منذ أن عدت اليوم، وأنا أسمع إشاعات.»

ـ «إنها مدينة الإشاعات. ماهي تلك الإشاعات التي أشرت إليها؟»

«كلام عن السماح للصرب بالمرور عبر قطاع كيسيلياك، نوع من الحشد، تجمُع في منطقة سارايفو ـ» كان فليت يهز رأسه.

أضاف روسو مبتسماً «يسمي الجنود الفرنسيون ذلك «ديا بيان فو» أخرى. في ذلك شيء من المبالغة، لكن جغرافية المكانين ليست مختلفة كلياً.

«وهناك حديث عن تغييرات في القمة، في الرئاسة، تحولات في السلطة.»

ـ «كان هناك دائماً حديث عن إزاحة الرئيس من الدرب. هذا الأمر يبقيني دائم الانشغال. لكنك كلما دققت النظر فيه اكتشفت صعوبة التحقق منه.»

ـ «وماذا عن تحركات الوحدات العسكرية؟»

ـ «أحصل على تلميحات، على ما يشبه قش تبن تذروه الريح. ستفهم ما اعنيه عندما تقرأ ما كنت أكتبه اليوم، ما شاهدته اليوم. لكن الأمر ليس مقنعاً بشكل قاطع..»

ـ «إذا كنت لا تعلم ـ»

ـ «هذه الحكومة لن تعلن عن الضربات التي ستوجهها يا حضرة مدير البوليس. والأكيد أنها لن تكشف عن ذلك لي.» انحنى فليت إلى الأمام وتابع كلامه قائلا «على خلاف الرأي الشائع هنا، فأنا لا أعرف كل ما يجري. ومن بعض النواحي فأنا آخر شخص يستعملونه لتمرير رسالة مثل هذه من خلاله.»

كم انت متواضع، قال روسو في سريرته.

- «مثل ماذا؟»

- «إنه الشتاء» قال فليت. «إنه ذلك الوقت من السنة الذي يقوم الطرفان خلاله بتخفيض قواتهما على خطوط القتال فيرسلان الرجال إلى زوجاتهم وأمهاتهم ليمضوا فترة الميلاد. عندما سألتهم عن سبب خروج القوات الحكومية النظامية من المدينة ردوا بكلمات عن عملية تخفيض القوات على أنها التفسير الرسمي للمسألة.»

- «القوات تنتقل إلى خارج المدينة؟»

- «نعم. كل من هم ليسوا من سارايبفو، كل الجنود النظاميين ينسلون خارجين من المدينة. هذا ما تتناقله الألسن في الشارع. بعضهم يقول إن السبب هو هجوم شتائي في المنطقة العليا، شمالاً. والبعض الآخر يصف ما يجري بأنه خطة مدروسة لجر الصرب إلى القيام بهجوم شامل على العاصمة لوضع الغرب أمام أمر واقع.»

- «لكنك تقول أن هذا ليس سوى تكهن.»

- «حالياً هو كذلك.»

رفع فليت ذراعه بعجرفة وطقطق بأصابعه في ما بدا لروسو نموذجا لسائح أجنبي جلف. ولم يظهر على النادل أن الأمر ساءه فقد ابتسم بل إنه في الواقع انحنى فوق ذراع فليت. وتساءل روسو بينه وبين نفسه عن سبب إظهار هذا القدر من الاحترام للأجانب الذين لم يفعلوا شيئاً سوى تركنا في مركز حرج. طلب فليت كأسي براندي مزدوجين. ولدهشة روسو فقد جاء النادل بهما في دقيقة أو دقيقتين. براندي من النوع الأصلي.

بالماركات تستطيع أن تشتري أي شيء.

- «حديث ليس للنشر..» بدأ روسو كلامه. لربما كان باستطاعته

تقديم ذلك الشيء بعينه الذي يسعى إليه الصحافي. فلنطعم الوحش.

- «نعم؟»

حرك روسو البراندي في الكأس المصنوع في شكل يشبه البالون.

- «أو بالأحرى على أساس معلومات توضح خلفية الأمور، لا أسماء، ولاشيء من شأنه أن يدل علي.»

- «حسناً.»

- «وجود جنود من خارج المدينة اعتبر على نطاق واسع سبب تصاعد معدل الجريمة. وقد أحدث ذلك ضجة قوية عند الرئاسة. وقد شعر رجال الوحدات العسكرية المجندون محلياً باستياء شديد وقالوا إن وحداتهم تتعرض لأخطار من غرباء بيننا عندما يكونون هم في مواجهة العدو.»

- «أمر مثير للاهتمام.»

قال روسو «إنه يتوافق مع نظريتك عن إعادة نشر الجنود النظاميين.» لقد أثر فيه البراندي بقوة وجعل رأسه يدور. قال لنفسه إنه لن يكمل شرب ما في كأسه.

- «لا شك في ذلك» قال فليت.

- «إذا كان موضوع الجريمة يهمك فقد استطيع أن أقدم لك بعض المساعدة.»

- «عظيم» قال فليت في ما بدا حماسة لا شك فيها.

- «ولكن يجب أن تكون هناك قواعد للعمل.»

كان روسو يعرف أنه يحاول التحكم بصاروخ غير موجّه وأن عليه القيام بأمر ما سعياً إلى الحد من الضرر الذي يرافق ذلك.

ـ «لن أقبل أي شروط يا حضرة المدير.»

بدأ النادل بجمع الشموع فلم يعد الواحد منهما يستطيع رؤية الآخر بوضوح عبر الطاولة.

ومع ذلك فقد استمر الفرنسيون في احتفالهم دون أن يعيروا الأمر أي اهتمام.

ـ «إنها قواعد للعمل وليست شروطاً.»

ولسبب ما جعل الظلام روسو يخفف صوته إلى مستوى الهمس.

ـ «ما هي؟» قال فليت وقد انحنى إلى أمام ليتمكن من سماعه.

ـ «ألا تشير الّي كمصدر من مصادرك بأية صورة من الصور.»

ـ «موافق.»

ـ «إذن اتفقنا.»

ـ «طبعاً وسننسى أمر الحادث الذي جرى في وقت سابق، أليس كذلك؟»

«لا مشكلة في الأمر.»

ـ «أتريد أن أوصلك؟»

ـ «لا، فأنا أكون أكثر أماناً في سيارتي.»

ـ «تستطيع دائماً الحصول على غرفة هنا.»

ـ «لا. فلست في حاجة إلى إلى ذلك. أنا ـ»

من خلال النظرة التي ارتسمت على وجه فليت بدا أن هناك من يقترب من طاولتهما من وراء روسو. دفع الشخص القادم الباب المؤدي إلى منبسط درج السلم فوق الردهة ففتحه فأضاء شعاع خفيف من نور القمر وجه فليت. تغيرت تعابير وجه الأميركي من الدهشة والاستغراب

إلى السرور، ومن السرور إلى القلق.

راقب روسو فليت بينما كان الصحافي يدفع بكرسيه إلى وراء ويقف. بدا ان السرور والقلق يتصارعان للسيطرة على وجهه الذي يفيض شباباً.

«برانستون» قالت المرأة وهي تسير بسرعة وقدماها تضربان الأرض الخشبية بقوة.

عرف روسو ذلك الصوت الأنثوي الناعم. استدار ضابط شرطة التحري في كرسيه بينما كانت رائحة عطر مألوف تنتشر حوله. إنه من نوع العطر نفسه الذي حمله معه من زغرب. لم تكن القادمة بنت هوى قاصرة من ذوات المئة مارك تدعى ناديا، على الأقل لم تكن المرأة أو الفتاة القاصرة التي توقعها. وقف الضابط متمايلاً ومد يده إلى الطاولة مستنداً إليها.

حمل إليه ذهنه صورة جسد المرأة. بوكوفاتش مع كل التفاصيل.

شعر روسو بالغثيان.

بدأت غرفة الطعام تتماوج، وبدت ضوضاء الحفلة الفرنسية أشد قوة من السابق. استنشق روسو الهواء بشره، سحبه إلى داخل رئتيه. شعر بأن ساقيه أصبحتا كأنهما من مطاط. لا بد من أن السبب هو الخمر والصدمة التي تنتج عن تناول هذا القدر الكبير من الطعام دفعة واحدة. كان يتصبب عرقاً.

إنها تانيا الطيبة، ابنته بالتبني.

عندما وصل روسو إلى المنزل كانت سابينا نائمة، مستلقية على ظهرها، وشفتاها منفرجتان. بدت كأنها فتاة صغيرة، لكنها كانت بين فترة وأخرى تطلق شخرة حلقية لا تتناسب مع سيدة. بدت عندما نظر إليها من إحدى الزوايا صورة تامة للطمأنينية. لكن عندما وقف روسو

قرب زوجته وانحنى فوقها محدقاً فيها تراءى له أن زمجرة عميقة الجذور ارتسمت على وجهها، فأشاح بنظره عنها وقد هزته تكشيرتها وشفتها العليا المجمدة وأسنانها المكشوفة.

كان الوقت حوالى منتصف الليل. استطاع أن يندس في السرير تحت الملاءات دون أن يوقظ زوجته. ورفع برفق ذراعها اليمنى وإزاحها ليفسح لنفسه في المجال وهو يصغي إلى صوت تنفسها. استدار مستلقياً على جنبه كي يواجه النافذة كعادته. كانت ليلة صافية والنجوم تغمز من عليائها المدينة المشوهة الغارقة في الظلام.

أما آخر أفكار روسو الواعية قبل أن يلفه عالم النوم فقد استعادت صور خروجه متعثراً، كالأعمى، من قاعة الطعام متجاوزاً ابنته بالتبني وقد سيطر عليه ارتباك جعله يعجز عن الاستجابة لأي أمر وعن أي رد فعل وحتى عن الكلام. شعر بأنه مشتت الفكر وسكران. خرج مترنحاً من الفندق يتخبط في الظلام. وقد تعثر مرتين بالثلج المتكدس قبل أن يصل إلى سيارته. قاد السيارة إلى المنزل وكأنه في غيبوبة. في البداية عندما أخذ الدم يندفع إلى رأسه، شعر بأنه كان ضحية مؤامرة حجبت عنه حقيقة هي أن تانيا داخلة في هذه اللعبة تمارسها في الخارج وربما في المنزل نفسه وتستغل مركز روسو ومنزلته لحمايتها. (هنا برز أمامه تصور مرعب: عن لوكا وقيامه بدور قواد، وسابينا في دور الشريكة في تلقي دخل لا خلقي من أجل أشباع إدمانها، وأسوأ من ذلك: أخذ زبائنها إلى فراشهما بينما تجلس في الغرفة المجاورة تشرب من عائدات ذلك.)

بعد فترة رد الهواء البارد ضابط البوليس إلى وعيه وهدَأه، فدفع روسو عنه هذه الأفكار الشريرة قائلا لنفسه انها رهيبة، نتجت عن مخاوفه وتعبه الشديد وعن شرب قدر من الخمر الكرواتي اكبر مما ينبغي له ان يتناوله.

استعاد ما استطاع تذكره من حديثه مع فليت. لقد كان الصحافي يحاول فعلاً أن يقول له شيئاً؛ لكن ضابط التحري لم يتركه يكمل كلامه، فكان يقاطعه هازئاً من حديث الشاب الغربي المتنقل بين موضوع وآخر والدائر حول نفسه، ساعياً إلى الحصول على كل ما يعرف فليت، إذا كان يعرف شيئاً، عن الإشاعات السارية عن مصير المدينة، ومصراً دون اصطبار على استخدام الصحافي الغربي الغافل عن الأمر في قضية هي جعل لوكا يواجه يوم الحساب.

لقد أخطأ. كان عليه أن يستمع.

لقد أفترض أن المرأة مومس. وافترضت سابينا أن السيارة التي كانت تحت شرفتهم تعود إلى زبون مومس تدعى ناديا. قد يكون لناديا وجود وقد لا يكون لها وجود. ربما كانت من نسج خيال تانيا لتشرح لسابينا سبب تردد فليت المستمر، وربما تردد لوكا المستمر إلى هذا المكان الواقع خارج المبنى الذي يقيمون في إحدى شققه.

وعلى كل حال فقد لحق روسو بفليت مفترضاً أن المرأة هي بائعة هوى. لم يتمكن من رؤيتها بوضوح عبر الزجاج المصفح. . كانت شديدة الانهماك في ما تقوم به. لم يرد التفكير في هذا الأمر. لا في تانيا ولا في هذا الأمر. لم يكن روسو عشيق تانيا ولا والدها، فليس له الحق في الشعور بالغضب والاشمئزاز أو حب الامتلاك أو أي أمر آخر. إنها كبيرة بما يكفي لأن تقرر في هذه الأمور بنفسها. حياتها ملك لها، وحتى إذا نامت مع رجلين في سرير وأحد فالأمر يعود إليها وعليها أن تتحمل العواقب. إنها امرأة شابة حديثة، مهما كان معنى ذلك. لقد تطوعت لمساعدة روسو في جمع المعلومات عن لوكا ولم يجبرها هو على ذلك.

رباه. لقد قدم لفليت نصائح عن الأمراض الزهرية وقال له أن يستعمل الواقي الذكري. هل علم فليت أن شكاً خالجه بأن هذه المرأة

قد تكون تانيا؟ لاشك في أنه بدا بالغ الحماقة في نظر الأميركي. لقد شعر، وليواجه الأمر بصراحة، بأنه بدا أشبه بديوث أو بذي «قرنين» كما يقال في حال كهذه. أمر سخيف، هذه ليست امرأتك، قال لنفسه. أنها في التاسعة عشرة وأنت في مثل سن أبيها، ولو كنت أباها فلربما جاز لك أن تشعر بما تشعر به. ومضى روسو في توبيخ نفسه. إيها الأناني الأحمق. ليس المهم تفاهات شؤون تانيا الغرامية، أو كيف تبدو أنت في نظر صحافي أميركي دائم المراهقة، بل المهم هو المرأة القتيلة التي تتهرأ جثتها في مغطس حمام وسط الماء والدم والبراز.

على شعوره بالواجب أن يتركز على هذا الأمر.

استيقظ روسو بعد فترة. كان مدفع صربي مضاد للطائرات يطلق قذائفه بشكل متقطع على حي بيستيريتشا القديم جاعلاً سطوح المنازل تردد الصدى وتئن بعد كل طلقتين أو ثلاث في ما يشبه فرقعات مدوية لسوط كبير.

لم يشعر ضابط البوليس بخوف غير عادي. لقد تعود على ذلك. انسل من الفراش دون أن يحدث صوتاً وارتدى ثيابه الخارجية. فرك وجهه متحسساً بكف يده الشعر الذي غدا بحاجة إلى ان يحلق. واندفعت إلى أنفه رائحة جسمه المشوبة بشيء من الفساد؛ إنه العرق الممتزج ببقايا الخمر وتلك المواد التي كانت في الحساء الذي تناولاه.

ارتدى حذاءه دون جوارب. ودون أن يلقي بالاً إلى الجو البارد خرج إلى الشرفة وأخذ يبول من طرفها على الثلج المتكدس على الأرض تحته. لن يراه أحد؛ وما فعله هو أكثر نظافة من التبويل في حوض مرحاض لا ماء فيه. عندما عاد إلى الداخل حرك لسانه ومر به على اسنانه من جهة إلى أخرى فأحس كمن يمر بلسانه على فرو. إنها بحاجة إلى تنظيف بالفرشاة. ومر بأصابع يده على شعره محاولاً تسريحه. لم يكن هناك أي مجال للاستحمام، وأفضل ما بوسعه أن يقوم به هو أن يقف

في الحمام ويغتسل بالثلج. في وقت لاحق، بعد مدة طويلة، أي عندما لا يعود قادراً على تحمل رائحة جسمه سيلجأ إلى أساليب متطرفة من هذا النوع. أما الآن فهو يريد أن يبقى دافئاً. وأكمل ارتداء سائر ثيابه.

اقتحم النافذة وهج قذائف مدفعية، هذا الومض الذي ينم عن اصطدام المقذوفات بأماكن سقوطها يرافق ذلك تلك الخطوط المنحنية التي يرسمها الرصاص الخطّاط فوق سطوح منازل المدينة والتي تتحرك بتمهل يكاد يشبه الجلال. هناك من لا يزال مستيقظاً، قال روسو لنفسه. هناك من يتقدم أو يحاول التقدم. الرصاص الخطاط خدّاع يوهم من لاخبرة لهم بأنه ليس مؤذياً. فهو في نهاية الأمر يبدو متحركاً بهدوء وتمهل. شرارات صغيرة متوهجة خضراء أو حمراء تسبح في الجو. لكن قليلاً ما يدرك عديم الخبرة، قبل فوات الأوان، إن عياراً واحداً فقط بين كل أربعة أعيرة، يكون مضيئا. بين كل حباحب صغير وآخر هناك ثلاثة أخرى دون ضوء. إنه لأمر شرير فالناس كانوا يموتون في هذه العواصف الفولاذية القاتلة التي تبدو شبيهة باحتفالات عيد الميلاد. وفي كل الأحوال، من هم هؤلاء الذين لا خبرة لهم؟ إنهم ليسوا سوى هؤلاء الذين يرقدون تحت شواهد القبور هناك على التل في «مدافن الأسد»، والصحافيين وجنود حفظ السلام، ففي هذه المدينة يعرف حتى الاطفال الذين لا يزالون يحبون متى عليهم اللجوء إلى أماكن آمنة.

كانت سابينا نائمة وهي منحنية في شكل شبه دائري وقد أدارت ظهرها إلى جهته. استدار روسو نحو زوجته محاذراً ألا يجفلها ووضع ذراعه اليمنى حول كتفها ودفع جسمه نحو جسمها بلطف، وأخذ يصغي إلى صوت تنفسها.

لم تعد ثانيا إلى المنزل، فلو عادت لعرف ذلك.

قدر قليل من الراحة، ثم عودة إلى العمل.

أغمض روسو عينيه.

اليوم الثاني

الفصل السابع

بدا كل شيء مختلفاً في ضوء النهار. كانت السماء صافية ذات لون أزرق هش يتحول إلى وردي عند سلسلة التلال الشرقية حيث تطل الشمس مخترقة طبقة من الأشجار الراتينجية العالية التي أصبحت رؤوسها بيضاء اللون لما تجمع عليها من الثلج. وتدلت هوابط متجمدة ضخمة من طنف المنازل. كان الثلج المغطى بطبقة جليدية صلبة يتلألأ تحت أشعة الشمس مطلقاً الوف الومضات في وجه روسو. لقد تحول العالم إلى جليد. الأخاديد الموحلة في الشوارع والتي كان حذاء الرجل يغوص فيها حتى كاحل القدم أمس، تحولت اليوم إلى أضلاع صلبة كالحديد تستطيع أن تحطم نوابض السيارات. حتى الهواء نفسه بدا متألقاً لامعاً، كأن المدينة أخضعت لعملية تنظيف.

احتاج روسو إلى بعض الوقت قبل أن يتمكن من جعل «اليوغو» تسير، وعندما انطلقت وجد نفسه وحيداً في الشوارع ؛ فحتى تلك الجرذان الضخمة التي يبلغ حجم الواحد منها حجم الهر والتي تعوّد أن يراها تنطلق من مكان إلى آخر، لزمت جحورها ولم تغادرها. خفف روسو من سرعة السيارة قبل أن يصل إلى أول نقطة تفتيش، لكنه أزاح قدمه عن المكبح عندما أدرك أن أحداً لن يخرج ليطلب منه التوقف. الوقت مبكر جداً والبرد القارس شديد لا يطاق.

كانت منطقة «آليباسينو بوليي» كما تمنى أن تكون: مهجورة. وإذا

كانت جهمة المساء قد ذكرت ضابط التحري بالصورة التي كان يبدو فيها المكان عندما انشئت فيه المباني فقد جاء ضوء النهار ليكشف عن مدى البؤس الذي وصل إليه. المناطق المعشبة الخضراء بدت كأنها مخضت بقوة كما يمخض اللبن فتحولت إلى بحر من الوحل وقد غدا الآن جليدياً قاسياً. الأقسام السفلى من المباني السكنية امتلأت بكتابات ورسوم اعتمد فيها الدهان الذي يرش رشا فجاءت أشكالاً ضخمة مبهرجة تزعج الذوق. من ذلك رسوم كاريكاتيرية لجنود فرنسيين وبريطانيين من قوات حفظ السلام الدولية، وأسماء فرق أجنبية لكرة القدم. كانت هناك أيضاً شعارات سياسية ورسائل حقد موجهة إلى سكان ما سمي بمنزل القردة، كما كانت هناك محاولات سقيمة لمحاكاة الكتابة العربية جاءت حافلة بالأخطاء. وجاء في إحداها «الله أكبر» وفي أخرى «الموت للتشيتنيك.» الطبقات العليا المشرفة على خط القتال كانت ممزقة مليئة بالثقوب والفجوات، مثلّمة ومسحوقة كأن حيوانا هائلاً مسعوراً أعمل فيها مخالبه الحديدية. الشرفات متدلية والمباني فاغرة الأفواه والإسمنت المسلح يهدد بالسقوط على الأرصفة. الجص والدهان انسلخا تاركين وراءهما أشكالاً كالبقع الكبيرة يطل منها الآجر العاري.

ارتقى روسو سلم المبنى التاسع بهدوء إذ لم يرد أن يلفت الانتباه إليه. سيحل محل فاسيتش ويرسله في سيارة اليوغو ليجمع الآخرين وللعثور على الدكتور ميستش. وبعد ذلك سيجرون في الشقة وبشكل غير رسمي عملية فحص الجثة لتقرير سبب الوفاة، ويبدأون بطرح الأسئلة على الجيران. إذا استطاع روسو تخصيص خمسة شرطيين أو ستة ليعملوا على التحقيق في الجريمة فسيؤدي ذلك، على الأقل، إلى بذل جهد جدي في هذا المجال. قبل الحرب كان العدد الأدنى لأي فريق تحقيق في جريمة قتل لا يقل عن ثلاثين رجلاً.

لفت نظر روسو أن الباب المحطم كان مفتوحاً بشكل غير كامل.

ـ «فاسيتش؟»

دفع الباب ليفتحه بشكل أفضل ومشى خطوة إلى أمام. اضطر إلى استعمال كتفه للدخول بصعوبة إلى الشقة.

ـ «أيها المفتش!»

مد يده إلى داخل سترته وأمسك بمسدسه.

لم يحتج إلى أكثر من نظرة سريعة ليدرك أن المكان تعرض لعملية تفتيش أشبه بالنهب. كانت الصوفا مقلوبة رأساً على عقب وقد سحبت حشيتها منها. منضدة القهوة الصغيرة ذات الطبقة العليا النحاسية فقدت قوائمها. أما البساط، ولأسباب غير مفهومة فقد كان ممزقاً في قسم منه ومقصوصاً قطعاً صغيرة في قسم آخر. إحدى الصور أنزلت عن الحائط الذي كانت معلقة عليه وحطمت وانتثر زجاج إطارها على الأرض. وقد قام أحدهم، بدافع الحقد والانتقام كما يبدو، بتحطيم الإطار وتقطيعه.

ـ «فاسيتش!»

لم ينتظر روسو بل أسرع واجتاز الرواق.

الرائحة مازالت تفوح هناك لكن شيئاً آخر غشاها. رائحة نتنة قوية لمادة كيماوية، حمض الكاربوليك، نوع من المنظفات الصناعية. كان الحمام خالياً. اختفت جثة المرأة. لقد أفرغ الحمام وسكب بغزارة سائل زهري اللون - لعله تلك المادة الكيميائية الأكّالة المحولة للون أو مادة أخرى لا يعرف ماهي - على البقايا الغروية اللزجة في قعره. سفعت الأبخرة منخري روسو فقام بحركة غريزية بوضع يده على وجهه متراجعاً خطوة إلى الوراء.

الذين قاموا بذلك لم يكن لديهم ماء لغسل الحمام. لم يكن هناك ماء، وكانوا يعرفون ذلك مسبقاً، ولذا فقد جلبوا صفيحة من تلك المادة معهم.

توجه روسو إلى غرفة النوم ووقف هناك لاهثاً مضطرباً. مهما يكن نوع تلك المادة الزهرية اللون فأنها الآن على حذائه، وهي تصدر تحت قدميه أصواتاً مثل أصوات الامتصاص. وخطر له في شيء من الغباء أنها ستخرب الأرض الخشبية، وكأن لهذا الأمر أية أهمية. الخزانة ذات الأدراج حطمت أيضاً. وقد سحبت أدراجها منها وأفرغت على الأرض قبل أن يجري تحطيم الأدراج نفسها. أما الثياب المعلقة في خزانة الثياب فقد مزقت. استدار روسو عائداً وحذاوءه يسحق شظايا الخشب المنتشرة على الأرض.

السرير المقام في فجوة في الجدار منقلب من مكانه، والفراش جرى شقه وإخراج ما فيه من صوف. إطار السرير حطم وشرائحه الخشبية سحقت.

قال روسو لنفسه إنه ليس هناك بين معظم الناس من يتركون هذه الأخشاب وراءهم فهي وقود أثمن من ألا يحملوه معهم.

إن لهذا الشر هدفاً. الذي فعل ذلك، بل الذين فعلوا ذلك ـ أرادوا شيئاً معيناً، وكانوا يعملون بسرعة للحصول عليه.

كان روسو يقف هناك وينظر إلى الحطام عندما سمع شيئاً. جمد في مكانه. كان صوت رنين، صلصلة معدنية كصوت سقوط ملعقة على أرض الغرفة. أحس بوخز خفيف في مؤخرة عنقه. كان قلبه يدفع بالدم عبر أذنيه بما يشبه هدير موجة عاتية.

شدت يده اليمنى على مقبض مسدسه الآلي، وامتدت إبهامه إلى صمام الأمان دافعة به إلى أمام ليكشف عن تلك النقطة الحمراء الصغيرة التي تعني أنه أصبح الآن على استعداد لإطلاق النار.

هناك شخص آخر معه في المكان. اندفع ضابط التحري إلى أمام راكضاً بتثاقل. لم يعد هناك سوى أربع خطوات أو خمس إلى المطبخ.

وعندما بدأ بالتحرك وقد استدار متجهاً إلى الرواق دوت ثلاث طلقات حادة، وشاهد العيارات أمام وجهه تثقب الجدار وتمطره برشاش من الجص والدهان. وكاد لا يشعر بوخز الألم حيث أصابه هذا الرشاش في خده وعنقه.

ارتمى روسو على الأرض. سحب نفسه على الأرض مستندا إلى ساعديه ومرفقيه ووركيه وركبتيه مندفعاً مثل أفعى ومسدسه في يده. كان يجر معه، بثقل جسمه وثيابه، الحطام المتناثر خلال تحركه هذا. صوت إطلاق النار يصم الآذان ويحدث ما يشبه الاثلام في المكان. كان الرصاص يأتي من خلال درابزون الشرفة وبعض الرصاصات يصطدم بحديد الدرابزون فيرتد عنه مصدراً أصواتاً حزينة تشبه أصوات بعض الحشرات، بينما تضرب رصاصات أخرى الجدران أو تكتسح غرفة الجلوس وتنفذ منها إلى الرواق لتصيب أماكن ترتفع سنتيمترات عن روسو وهويشق طريقه زحفاً إلى الأمام وتنثر رشاشاً من الدهان والجص والغبار. وكانت أصوات ارتطام الرصاص وأصوات إطلاق النار تسمع في وقت واحد تقريباً. أن مطلق النار هذا، كائناً من كان، قريب من مكان روسو دون شك.

لم يعد هناك مجال للتراجع. اللعنة! إنه يستطيع أن يراني. وصل روسو إلى المطبخ ودخل إليه متلوياً في زحفه، وحرص على أن تكون المرحلة الأخيرة اندفاعة سريعة سحب بها ساقيه إلى الأمان في الداخل فوق «سجادة» من السكاكين والشوك و الصحون المحطمة والسكر وأوراق الشاي والعدس. كان على وشك دفع نفسه إلى أعلى ليصبح قادراً على الجلوس عندما وجد نفسه يحدق في وجه طفلة. أصيبا كلاهما بحالة من الذهول. فتحت البنت فمها واسعاً كأنها تنوي الصراخ ثم بدا أنها تراجعت عن ذلك وعادت متلوية إلى الزاوية.

كان رعب شديد مرتسماً على وجهها المتسخ. جلست مديرة

ظهرها إلى الصوان الذي ترتفع فوقه المغسلة وذراعاها النحيلتان ملتفتان حول قصبتي ساقيها اللتين شدتا إلى اعلى بصورة جعلت ذقنها تستند إلى ركبتيها.

منظر روسو ممسكا مسدسه بيده وقد كاد يسقط فوقها زادها رعباً على رعب. كانت تنشج، وبدا له أنها ترتجف.

ـ «لا تخافي. لا تخافي.» قال روسو لاهثاً متقطع الأنفاس.

دفع نفسه إلى أعلى وجلس بطريقة مماثلة لجلوسها ثم أعاد ضبط صمام أمان مسدسه ودفعه إلى داخل جيبه.

توقف اطلاق النار.

نظر روسو حواليه. تجهيزات المطبخ ولوازمه تحطمت، والمواد الغذائية القليلة التي خلفتها المرأة وراءها صارت الآن متناثرة هنا وهناك، فكأن هؤلاء الذين ارتكبوا ذلك ليسوا ممن يكابدون أي هم عندما يحين موعد وجبة طعامهم التالية.

ما زالت البنت تنظر إليه وجسمها النحيل يهتز اضطراباً. كانت ترتدي قبقاباً خشبياً وجوربين سميكين مرقعين ورداء قديماً رسمت عليه أزهار لكنه أكبر من حجمها بمرات وكنزة صوفية رمادية اللون من نوع بلوفر منحلة الخيوط في عدة أماكن ويبدو من النظر إليها أنها كانت لرجل. الكمان طويلان يغطيان يديها بشكل شبه كامل. أما شعرها فقصير أسود ومتسخ.

تبادر إلى ذهن ضابط الشرطة السرية أنها كانت تبحث عن طعام وربما كانت على أهبة إفراغ الخزانة من محتوياتها البالية عندما اندلع إطلاق النار.

ـ «ما اسمك؟» سألها روسو بهدوء ولطف مائلاً برأسه إلى جهة كما يفعل المرء عندما يريد تهدئة كلب خائف أو هائج. استمرت تنظر

إليه، لكن بدا له كأن عينيها مغطاتان بطبقة زجاجية، كانهما مركزتان على مسافة أقصر من أن تسمح لهما بالوصول فعلاً إليه.

- «هل تعيشين هنا؟ في مجمع المباني هذا؟»

لا جواب. لكن ارتجافها أشتد.

- «كنت تبحثين عن طعام؟ أهذا هو الأمر؟»

لم يستطع روسو التأكد مما إذا كانت الطفلة قد هزت رأسها موافقة.

«لا بد من إنها في الحادية عشرة من العمر» قال روسو لنفسه.

- «أنا لدي ابنة» قال. «إنها ابنتي بالتبني. هل تفهمين معنى ذلك؟ إنها أكبر منك قليلاً، وأنا متأكد من أنك ستحبينها. إنها تقوم بمساعدة الناس عندما يصابون بجروح.»

شعر روسو بان الكلام قد يكون مفيدا.

- «أهي ممرضة؟» قالت الفتاة. تكلمت بكثير من الهدوء وبطريقة عادية جداً وكأنهما يجلسان إلى طاولة يجريان محادثة عادية جداً، وهو ما سعى روسو إلى تحقيقه أي التظاهر بأن الأمور عادية، على الرغم من أن بعضهم حاول قتله منذ لحظة وأن شخصاً قد قتل في الحمام وأن مفتشا في شرطة التحري مفقود، وأنهما يجلسان القرفصاء على أرض مطبخ مغطاة بمواد غذائية قد يرتكب كثير من الناس جريمة قتل للحصول عليها لسد جوعهم.

قال لها «الناس ينادونني روسو.»

ذلك الذي حاول قتله، كائناً من كان، ربما لا يزال هناك يراقب. بل أسوأ من ذلك أنه ربما كان ينتقل إلى موقع آخر، يغير زاوية رمايته. المسالة دائماً واحدة: أن يتحرك أو ألا يتحرك.

عندما لم تجبه أضاف «اسم ابنتي بالتبني هو تانيا. هل تعرفين واحدة ممن يحملن اسم تانيا؟»

أسفرت جهوده عن نتيجة إذ حصل على هزة سريعة للرأس تعني نعم.

لاحظ أنها لم تعد ترتجف لكن عينيها ما زالتا مسبلتين تحملان نظرة مخفوضة كئيبة مما يدل على قصر نظر فيهما. جلست وقد عقدت أصابع يديها بعضها ببعض وشدت ركبتيها فاصبحتا قريبتين من صدرها. يداها مسودتان وأظافر أصابعها قصيرة امتلأ ماتحتها بالسخام. ومع ذلك فقد كانت يداها يدي طفلة. قد يكون السخام شق طريقه إلى مسام جلد هاتين اليدين لكن فيهما نوعا من البراءة، نعومة تتناقض مع مظهرها الذي يدل على التشرد.

سمع دمدمة إطلاق نار. ترى ألا يزال هناك؟

ـ «هل تسكنين هنا؟»

هزة رأس السريعة بالموافقة، وهاتان العينان الخفيضتا النظر، مجرد ومضة عين دامعة تحت هدب أسود.

ـ «مع عائلتك؟»

لحظة تردد، ثم هزة رأس أخرى. شعر روسو بان هناك كذبة، أو نصف حقيقة.

كراك...

ثلاث طلقات على الأقل اخترقت رصاصاتها نافذة المطبخ المحطمة الواقعة فوق رأسيهما. بدا كأن كل شيء يقفز من مكانه، وانهمر وابل من الشظايا والزجاج والجص على رأسيهما وعنقيهما.

أخذت البنت تنشج. اقترب روسو منها. إحساسه الغريزي جعله

يجذبها إلى تحت ويغطيها بالقسم الأعلى من جسمه جاذباً رأسها إلى ما تحت كتفه. أصبح خدها مستنداً إلى صدره. لم تقاوم بل إنها تمسكت بسترته بقبضتها الصغيرة. انهمرت الدموع من زوايا عينيها المغمضتين بإحكام. كانت ترتجف وتنتابها هزات لا سيطرة لها عليها.

«لا تخافي. سيكون كل شيء على ما يرام.» كان يحدث نفسه بقدر ما كان يحدثها. «لن يستطيعوا أن يصيبونا ونحن هنا. انت في مأمن. كلانا في مأمن.»

أحس بان الرعدة التي تملكتها أخذت تخف وبأن يدها تفلت سترته. أزاح نفسه قليلاً موسعاً لها في المجال جاعلاً بينه وبينها بعض المسافة.

- «اتفقنا؟»

رفعت وجهها إليه. تركت الدموع خطوطا شاحبة على خديها اللذين لم يغسلا منذ مدة. ابتسم لها.

- «سننتظر مدة قصيرة. ننتظر إلى أن يشعر ذاك الشخص الموجود في الخارج بالضجر أو التعب أو نفاذ الصبر فينصرف عنا ويجد لنفسه شيئاً آخر يطلق عليه النار.»

لم تجب، بل جلست صابرة مطبقة الفكين.

مرت الدقائق العشر الأولى بطيئة. فكر روسو ملياً في الخيارات المتاحة لهما. لو أنه وحده لركض منطلقا إلى الباب الأمامي. وإذا بقيا حيث هما فإن المسلح - الذي أفترض روسو أنه ليس قناصاً صربياً بل شخص يستطيع الدخول إلى المبنى - قد يقرر أن يلقي نظرة عن كثب.

- «نور؟» جاء الصوت. إنه صوت رجل.

سألها روسو «هل نور هو اسمك؟» ردت عليه هامسة «نعم.»

سمعا وقع أقدام في الرواق.

- «نور!»

- «بابا هذا أنا. بابا كن حذراً!»

- «هل أنت بخير؟»

رد روسو هذه المرة عليه معرفاً بنفسه قائلاً إنهما سمِرا في المكان، وناصحاً والد نور بألاّ يدخل.

هتف صاحب الصوت متعجباً «هاي. إنه كبير شرطيينا. أنا محمود يا حضرة المدير، الرجل الذي يشتري منك أشياء عند نقطة التفتيش. هل ابنتي بخير؟»

- «إنها بخير يا محمود. هل بندقيتك معك؟»

- «طبعاً»

- «هلا توجهت إلى نافذة أخرى وأمنت لنا تغطية بنيران بندقيتك بينما نحاول الوصول إلى الباب. سأقوم بحمل ابنتك.»

بعد حوإلى دقيقتين كان محمود يفرغ مخزن رصاص بندقيته. عند دوي ثالث طلقة من بندقية محمود رفع روسو نور إليه بإحدى ذراعيه وهرع خارجاً من الشقة إلى الرواق في اندفاعة جامحة ومتثاقلة مرتبكة اجتاز بها باب المطبخ إلى الممر الخارجي دافعاً جانباً الباب الخارجي المكسور.

عانقت البنت والدها بشدة وهي تلف ذراعيها حول فخذيه الضخمتين «آسفة يا بابا. آسفة جداً.»

بدا محمود محرجاً. «ليس هناك من سبب لأسفك يا طفلتي.» وانحنى على رغم ضخامة جسمه فضمها إليه وقبلها وطلب منها أن تجفف دموعها. بعد ذلك التفت إلى روسو شارحا له الأمر وهو أنه

أرسلها في جولات للبحث عن طعام أو وقود. وقال إنها ذكية واسعة الحيلة لكنها كانت تشعر بالاستياء بعد المرات القليلة التي عادت فيها خالية الوفاض.

ـ «أتسكن هنا؟»

ـ «تعال معنا» قال محمود. ستعد لك نور فنجان قهوة جديراً بالاحترام، أفضل مما يصنعونه في زغرب. وسترى بنفسك.»

أمسك بيد ابنته بإحدى يديه بينما الأخرى على كتفه تمسك ببندقيته وهي بندقية قنص يطلق رصاصها بواسطة آلة على شكل رتاج يُحرك بما يشبه المسمار المصومل. ولاحظ روسو ان البندقية تغيرت عما كانت عليه آخر مرة رآها فيها إذ ركّب لها جهاز تسديد بمنظار مكبر.

ـ «انت الذي أعطاني تلك الورقة...»

ـ «لن ترفض ضيافتنا، أليس كذلك يا حضرة المدير؟» قال وهو يقترب من روسو. خفض المقاتل القوي البنية صوته إلى ما يشبه الهمس «إننا نرى اشياء ونسمع أشياء أيضاً أيها الرئيس لكننا لانتكلم عنها هنا، اتفهم ما أعني؟» قال محمود وقد مشيراً برأسه إلى ناحية الدرج.

ـ «تعال.»

سار روسو خلفهما.

محمود ونور هما كل ما بقي حياً من عائلتهما. توفيت والدة نور خلال هروب ليلي محفوف بالأخطار من غورازدي عبر الجبال. ساروا منهكين في شعاب جبلية تسلكها المعز يتعثرون خطوة ويسيرون أخرى وسط سقوط القذائف المدفعية وقنابل الهاون. انهارت من البرد والإرهاق والجوع وفارقت الحياة بين ذراعي زوجها وسط الثلج في ذلك المكان. وكان شقيق نور قد قضى قبل ذلك بالتهاب الكبد وذات الرئة وهو في الخامسة من العمر في أثناء الحصار الصربي للمدينة. قال محمود

إنه قبل الحرب كان يعمل حاجباً في أحد الملاهي الليلية ويتولى إبعاد الزبائن غير المرغوب فيهم كما كان عضواً في فريق الهواة اليوغسلافي لرفع الأثقال. أيقن روسو من ذلك بمجرد النظر إليه، فقد كنت بنيته الجسدية تجعله يبدو أشبه بسيارة باص.

عاش الأب والابنة في العلِية تحت ذلك السطح المائل للمبنى السكني. والمكان هو متاهة من الطبقات الإسمنتية الخشنة والأعمدة والأنابيب وخزانات الماء والعوارض التي تستعمل لدعم السقوف. إنه عالم منفصل يبدو كأنه يصل إلى حدود السماء. مكان نومهما ومجالهما الحيوي تألف من عدة الواح خشبية ثخينة مدت جنباً إلى جنب لتشكل سطحاً مستوياً. أما سريراهما فكانا فراشاً من «السبيب» أي شعر أذناب الخيول وأعرافها ونحو ١٢ بطانية لمواجهة البرد. وعلى مقربة من ذلك يقع ما يشكل مسؤولية نور الأولى: موقد صغير يعمل بالحطب كانت الآن تغلي عليه الماء لصنع القهوة.

تصوّر روسو في البداية أن عمل محمود لا بد من أن يكون من نوع وكيل مبنى أو ناظر يهتم بشؤون المبنى - إلى أن أراه بطل رفع الاثقال السابق «عمله» الذي لا يبعد أكثر من ١٢ خطوة عن مكان سكنه. إنه يتألف من طاولة منصبية وضعت قرب سلم من النوع الذي يفتح ليصبح في شكل الرقم ثمانية العربي ويمكن أن يقف وحده دون أي دعم. وعلى الطاولة كان هناك كرسي خشبي بسيط عليه وسادة بالية من الجلد لتجعل ساعات عمل محمود الطويلة أقل تعبا. وفي مواجهة الكرسي مباشرة، وفي مستوى كتفي رجل جالس على الكرسي لفَت بالخيش إحدى درجات السلم وثبتت ربطا بخيطان من القنب.

أدرك روسو أنها آلة قتل مرتجلة. جهاز إعدام. مقصلة يستخدم فيها الرصاص.

شرح له محمود طريقة العمل. وضع البندقية على الطاولة ثم صعد

إليها برشاقة غير متوقعة من رجل بهذه الضخامة، وتناول البندقية. جلس على الكرسي ووضع البندقية أمامه على الدرجة المغلفة بالخيش. انحنى إلى أمام واسند مرفقيه إلى درجة السلم الواقعة تحت الأولى وجذب البندقية إلى كتفه وصوبها وهو ينظر من خلال المنظار. منطقة التصويب كانت فتحة صغيرة ربما نتجت عن إزالة آجرتين أو ثلاث من الجدار الخارجي. هذا يتيح لمحمود رؤية ضيقة محدودة للمواقع الصربية، لكن هناك في الخارج سيشاهد كل من يبحث عن قناص مسلم ما يزيد على ١٢ فتحة من هذا النوع وشقوقاً ونوافذ وأماكن محتملة أخرى لإطلاق النار منها، ومن هنا فلن تكشف عن موقع محمود عندما يطلق النار ماسورة البندقية ولا وميض فوهتها.

وضع محمود يده في جيبه ثم سحب قبضته منها وفتحها عارضاً على روسو أغلفة فارغة لثلاث رصاصات. شرح له الأمر قائلاً إنه يحتفظ بالأغلفة الفارغة للرصاصات التي تصيب أهدافها ويلقي على الأرض بغلاف

الرصاصة التي لم تصب. وبعد عمل كل يوم يقوم هو ونور بإحصاء النوعين وبسجيل الأرقام في دفتر كبير مع أي تفاصيل تتوفر عن الهدف.

وكل يومين أو ثلاثة يقوم محمود ونور بنقل الطاولة والسلم وموقدهما الصغير إلى مكان آخر مغيرين مواقع إطلاق النار لإبقاء العدو على أعصابه ولتخفيف الخطر عنهما.

- «نور اسم جميل» قال روسو للفتاة عندما ناولته فنجان القهوة. وشرحت له نور معنى اسمها باللغة العربية. ابتسمت، لكنها بدت كأنها تشيح بنظرها عنه.

- «يصعب عليك أن تلاحظ الأمر، أليس كذلك؟» سأله محمود.

- «ألاحظ ماذا؟»

- «إنها عمياء تقريباً.»

وأخبره محمود أن إعتاماً في عدسة العين(مياه زرقاء) بدأ ينمو في عيني ابنته بعيد وفاة أمها. وقال القناص إنه يجد في ذلك إحدى طرق الطبيعة لحماية الطفلة كي لا تنظر إلى عالم يقوم على الشر، أو ربما كان الأمر طريقة للهرب مما لا يمكن تحمله.

- «إنها عملية جراحية بسيطة» قال روسو

- «ليست بهذه السهولة في سارايفو» ردَ محمود. أضاف إنه بذل جهده لتعليم نور مبادئ التهجئة والحساب لكن بصرها ضعف جداً إلى درجة لم يعد يمكن فيها المضي في ذلك، وليس هناك من مدارس فاتحة أبوابها في سارايفو على كل حال. لكنه أخذ يتجه إلى الاقتناع بأن الأمر الوحيد الذي يستطيع القيام به الآن هو أن يخرجا كلاهما من المدينة إلى مخيم للاجئين في مكان ما من كرواتيا أو سلوفينيا حيث يمكنها أن تحصل على عناية طبية وشيء من العلم.

- «ما الذي ترغبين في القيام به عندما تكبرين؟» سألها روسو.

أجابت «أريد أن أصبح قناصة مثل أبي»

- «إذن لم تري ما الذي جرى في الشقة؟»

هزت نور رأسها نفياً.

«لكنني سمعتهم» قالت وقد تجهم وجهها.

كانت عندما قالت ذلك تجلس على ركبة والدها وقد ضمته إليها. أشاحت بوجهها عن روسو ولجأت إلى صدر أبيها.

«ما الذي سمعته؟»

- «الحديث عن هذا الأمر يزعجها»

ـ «أعرف ذلك لكن شخصاً قتل هناك. امرأة.»

«إذن هذا عمل رسمي أيها المدير؟»

أحنى روسو رأسه موافقاً.

ـ «احتفظت برسالتك. قراتها عندما وصلت إلى مكتبي ثم جئت إلى هنا مباشرة وشاهدت الجثة.»

ـ «لا نريد أي متاعب. متاعبنا تكفينا ولا أريدها أن تصبح أسوأ مما هي عليه.»

ـ «طبعاً. أفهم ذلك.»

ـ «ومع هذا فالأمور سيئة هنا. أرجو أن تبقينا خارج هذه القضية. تأكد من أننا لن ننجر إلى هذه الورطة»

ـ «لن اقحمكما في المسألة»

ـ «لن تذكر أسماءنا؟»

ـ «لن أفعل ذلك إذا كنتما لا ترغبان فيه»

ـ «مستحيل!»

ـ «الأمر لكما»

ـ «ولن تستدعينا للشهادة؟»

ـ «بإمكانكما الرفض.»

هنا خاطب محمود ابنته برقة قائلاً لها «أخبريه. أخبريه ما سمعته» مسحت نور عينيها بكم كنزتها العتيقة. ناولت ضابط التحري فنجاناً ثانياً من القهوة فقبله مقراً بأنها أفضل من أية قهوة تذوقها من مدة طويلة حتى في زغرب وفيينا.

وبعد تردد بدأت نور تروي حكايتها.

«كنت أفتش عن الطعام والوقود. الناس أحياناً يعطونني أشياء. هناك ناس طيبون في الشقق، أعرفهم جميعاً، الطيبين والسيئين. هناك سيدة، السيدة هادزيتش، تعطيني حليباً مجففاً، وخبزاً في بعض الأحيان والبن الذي أصنع منه انقهوة التي تشربها الآن. إنها غنية ومتقدمة جداً في السن، وهي تسكن في الطبقة السادسة.

ذهبت لأزورها. أنا حذرة كما تعلم. هناك خطر لأن الصرب يطلقون النار إذا شاهدوا أية حركة حتى ولو كان هناك قطة أو طفل، ولذا فأنا أسير بهدوء وانحني تحت النوافذ، وكل بضع خطوات أتوقف وأصيخ السمع. لقد علمني أبي ذلك.

«حدث ذلك في اليوم السابق لأمس. كان الظلام قد حل وأنا لا أبصر جيداً، ولذا فقد صرت اتلمس طريقي عبر الأروقة. أستطيع أن أحس بالأبواب ومجرى الهواء، وكان هذا الباب مفتوحاً. إنه يقع قبل ثلاثة أبواب من باب السيدة هادزيتش. لا أعرف أحداً في الشقة ولم أكن أعرف أحداً فيها سابقا أو كنت أتصور أنها فارغة تركها أصحابها وهربوا.

«كانت مفتوحة.. قليلاً. توقفت وتسمعت لفترة قصيرة ثم دخلت. ذهبت إلى المطبخ معتقدة أنني قد أجد طعاماً أو شيئاً آخر. سمعت وقع أقدام ثم أصوات رجال. كانوا غاضبين، يحملون شيئاً ما أو يجرونه وسط كثير من الصياح. أعتقد أنهم كانوا في الشقة وتوجهوا بعد ذلك إلى الغرفة الأمامية الواقعة مباشرة قرب المكان الذي كنت فيه. أخافتني الأصوات فاختبأت في الخزانة تحت المغسلة.

كانوا يصرخون بامرأة وهي تبكي وتتوسل إليهم ألا يقوموا بأمر من الأمور. ألا يؤذوها. الرجال يصرخون غاضبين لأن لديها شيئاً يريدونه وهي تقول لهم أنها لا تعرف شيئاً. ضربوها، فوضعت يدي على أذني لأن الأمر كان رهيباً جداً، ومع ذلك فقد سمعت كل شيء.

كانوا يصرخون صائحين بها ويضربونها طوال الوقت وكانت تصرخ طالبة إليهم التوقف. سمعتهم يقولون لها إنهم سيقتلونها أن لم تخبرهم أين هو ذلك الشيء، توسلت إليهم ألا يفعلوا وقالت أن هذا المكان ليس مكانها فالشقة شقة زوجها. اتهموها بالسرقة وبتلقي المال ووصفوها بصفات سيئة وقالوا أنها تعمل مع البوليس وأنها جاسوسة واستمروا يضربونها ثم أخرجوها من الغرفة. أعتقدت أنهم سيعثرون علي. وشرعت نور تبكي وتنشج بإضطراب ثم تابعت تقول «انتظرت هناك مدة طويلة وعندما اشتد الظلام عدت إلى المنزل.»

- «وهل فتشت المكان قبل أن تغادريه؟»

- «لا فقد كنت خائفة.»

- «لم تلق نظرة على الحمام؟»

- نظرت نور إلى والدها وترددت في الإجابة نحو أقل من ثانية، ثم قالت «لا.»

تساءل روسو بينه وبين نفسه لم بدا قولها كأنه كذب.

- «هل عثرت على المرأة قبل مغادرتك الشقة؟»

- «لا.»

- «هل استطعت تمييز وجوه هؤلاء الرجال؟»

قالت نور وهي تهز رأسها «لا.»

- «هل استطعت التعرف إلى أصواتهم؟»

أجابت نور «نعم. أعرف صوت أحدهم.»

- «صوت من؟»

- «كان هناك واحد يصدر الأوامر ويصدر معظم الصراخ عنه. بدا لي إنه الأشد غضباً بينهم.»

- «كيف تمكنت من أن تعرفي صوته؟»

- «لقد سمعته قبلاً.»

نظرت إلى أبيها مرة أخرى وقد بأن القلق على وجهها.

- «صوت من كان؟» أمسك محمود بنور فجذبها نحوه وشدها إليه قائلاً بهدؤ «لا بأس. أجيبي عن سؤاله.»

- «لوكا. إنه صوت لوكا» قالت نور وبدأت ترتجف من جديد. وأضافت «كان في حالة غضب مروع، يصيح بها: كاذبة كاذبة كاذبة، بينما هم منهالون عليها ضرباً.»

كان روسو يعرف بصورة تقريبية أين أقام لوكا مقر قيادة ميليشياه. يقع المقر فوق المدينة القديمة عند منحدر التل في واحدة من أكثر الضواحي فخامة وثراءً؛ شقق سكنية حديثة ودارات على نمط الشاليهات السويسرية بنيت لإقامة أفراد الطبقة الإدارية الجديدة وأصحاب المهن ذات الطبيعة العلمية والثقافية في يوغوسلافيا الماريشال تيتو. عند وصوله إلى المنطقة لم يحتج لمعرفته المكان إلى أكثر من دقائق قليلة. فبعد أن قاد سيارته عبر الشوارع الجليدية التي يلفها الصمت، لمح قطاع الطرق التابعين لرجل العصابات هذا ببزاتهم النظامية السوداء اللون وهم يتدفأون على نار موقد (كانون) في شارع هادئ تنتشر الأشجار على جانبيه. عندما أراهم بطاقته الرسمية بعد أن أنزل زجاج سيارة اليوغو أشاروا إليه بأن يدخل دون أن ينطقوا بكلمة ثم عادوا إلى النار للاصطلاء رافعين أيديهم وهي داخل القفازات فوق الفحم المشتعل وبنادقهم معلقة على أكتافهم. أنهم يشوون الكستناء ليتناولوها فطوراً. وفكر روسو في أن عليه أن يسعى لاحقاً لشراء بعض الكستناء ليحمله معه إلى محمود ونور.

كانت هناك مجموعة كبيرة من السيارات الألمانية الصنع والعربات اليابانية التي تندفع بالعجلات الأربع مصطفة بانتظام خارج دارة حديثة

مطلية باللون الأبيض تقع تحت الطريق. نظر روسو إلى السيارات وحدث نفسه قائلاً إن الحرب أفادت الناس غير الصالحين. الأكيد أنها لم تكن خيراً بالنسبة إلى الصغيرة نور.

أخضع روسو للتفتيش هذه المرة فأخذ منه مسدسه وقام بتسجيل رقمه شاب رزين ذو قصة شعر عسكرية على طريقة البحارة وتحت إبطه مسدس في قراب مزخرف. وأعطى الشاب روسو إيصالاً بالمسدس. كان في وسعه أحداث جلبة والاحتجاج على هذه المعاملة مطالباً بالاحتفاظ بسلاحه ولكن ما جدوى محاولة حفظ ماء الوجه؟ جرى تبادل كلمات عبرجهاز تليفون نقال قبل أن يقوم أحدهم أخيراً بمواكبة روسو عبر باب حديدي نزولاً على درج غطاه الجليد وصولاً إلى فناء مرصوف بالبلاط حيث أومأت إليه امرأة. إنها قصيرة جداً ذات شعر مجعد أسود فوق وجه سمين مبتسم. كانت ترتدي الرداء السروالي (أوفرول) الأسود الذي لا بد منه لجماعة لوكا، والذي يوحي بجو من الغموض والشر، لكنه بالنسبة إليها على الأقل، حمل بعض إيحاءات لا تتسم بالحشمة. قادته عبر درج لولبي إلى العلية التي حولت إلى مكان منامة للوكا. وخلال صعودهما كانت تسمع أصوات الآلات الكاتبة وتتمتمات الأصوات وراء الأبواب المغلقة.

ـ «حضرة المدير.. يا لها من مفاجأة»

وإذا كان ثمة شعور بالذنب أو الخجل يخالج لوكا فالواقع هو أن تصرفه لم ينمَ عن شيء من ذلك. بدا مرحاً ومسروراً لرؤية ضابط الشرطة.

جلس لوكا على طرف سريره غير المرتب يفرك وجهه وقد ارتدى سترة من ثياب ميادين السباق فوق قميص رياضي حمل اسم فريق «مانشيستر يونايتد» لكرة القدم. كان الجو عابقاً برائحة كريهة، والساعة تجاوزت الثامنة، لكن يبدو أنه كان قد استيقظ لتوه وسحب نفسه من

بين البطانيات. يعرف روسو كيف يعيش هؤلاء الناس، فقد أعتقل عدة أشخاص من نوع لوكا في الأيام الخوالي. تقليدياً، يمضي الواحد من رجال «مافيات» المدن الليل كله في المقاهي يتاجر بيعا وشراء بالويسكي والسكائر المهربة ويتعامل بالأسلحة والذخائر والسيارات المسروقة، ويقامر ويشرب الكحول ويعاشر المومسات ويدخل بين فينة وأخرى في شجار، وبين حين وآخر يعثر على أحد هؤلاء الرجال مرمياً في حفرة مصاباً بالرصاص في وجهه أو ظهره بعد خلاف على امراة أو ورق لعب موسوم بعلامات، أو بسبب صفقة غير ناجحة. ولا تأبه الصحف كثيراً لأعمال تسميها أعمال قتل بين العصابات.

والآن ها هو: السمكة الكبيرة، الرجل الذي يرضى روسو تقديم أغلى التضحيات من أجل وضعه وراء القضبان الحديدية لمدة طويلة من الزمن. إنه الآن يجلس أمامه مرتدياً نصف ثيابه ومبتسما.

قال روسو في اعتذار لم يخل من السخرية «أنا آسف لأنني عكرت عليك نومك.»

- «لا، إطلاقاً أيها المدير، فلن يتاح لي كل يوم أن أستقبل رجل شرطة وبشكل خاص واحداً رفيع الرتبة مثلك.

لا بد من أن هناك أمراً مهماً.»

هناك لطخة زرقاء تمتد على خد لوكا. كان الجلد رمادياً ومتغضناً حيث أجرى ميسيتش وزملاؤه في المستشفى عملية زرع جلد أخذوه من القسم الداخلي لفخذه. أما الفك الطويل الهزيل نفسه فقد كان مفككا وبدا أنه يتحرك في اتجاهات مختلفة عندما يتكلم رجل العصابات هذا. كان لوكا تافها إلى درجة تجعله يحاول أدارة النصف الأفضل من وجهه إلى من يحدثه. كان الدكتور ميسيتش أحد أفراد الفريق الطبي الذي أجرى عمليتين جراحيتين للوكا. وقد أخبر روسو في وقت لاحق بما جرى، أو على الأقل بتلك التفاصيل التي لم تظهر في ملفات الشرطة.

حدث ذلك في الصيف السابق لنشوب الحرب في البوسنة. كان القتال لايزال مستعراً في كرواتيا وكانت دوبروفنيك وكارلوفاتش تتلقيان ضربة وحشية من الصرب. رأى بعيدو النظر في البوسنة أن المسألة مسألة وقت ولا بد من أن توسع الحرب رقعتها فتتجاوز الحدود وتصل إليهم. أخذ وطنيون من جماعات مختلفة ومسلمون متحمسون ورجال عصابات - بينهم لوكا - يستعدون للحرب في البوسنة. وقد اعترض مهاجمون مجهولون سيارة لوكا قرب مقر رئاسة الجمهورية ورموها بقنبلتين يدويتين. أرتدت إحداهما عن غطاء محرك السيارة وانفجرت فحطمت الحاجب الزجاجي الأمامي وأدت إلى مقتل زوجة لوكا فوراً وإلى تحويل وجه لوكا إلى ما يشبه الخرق الممزقة. ووفقاً لميسيتش الذي شاهد رجل العصابات الجريح لدى وصوله إلى المستشفى فإن شفتيه وخديه بدت كأنها مدلاة من جمجمته كاللحم النيئ. أما ابنة لوكا الصغيرة فقد كانت في المقعد الخلفي الذي تركز عليه الانفجار الثاني فأدى إلى مقتلها فوراً.

لم يبد أن احداً استطاع التأكد مما إذا كان الدافع إلى هذا الهجوم سياسيا أو مجرد منافسة بين عصابات أو ربما مزيجاً من الأثنين. كانت السياسة وعمل رجال العصابات، حتى في ذلك الوقت ممتزجتين متداخلتين بشكل لا يمكن معه الفصل بينهما. عندما بدأ الأطباء الجراحون عملهم وقف رجال لوكا في غرفة العمليات بأسلحتهم مهددين بإطلاق النار إذا أخفق الجراحون في إنقاذ رئيسهم.

تساءل روسو محتاراً وهو ينظر إليه الآن كيف استطاعت تانيا أن تجد فيه ما يستهويها. لهجة لوكا وتصرفاته زقاقية مبتذلة. جبهته منتفخة وعيناه غائرتان، وهو مضطر دائماً إلى الاعتماد على عصا تساعده على السير. على الطاولة إلى جانب سريره كومة من الكتب الهزلية إلى جانب أمشاط ذخيرة وجهاز اتصال لاسلكي.

كان لوكا يعاني من «ديسلاكسيا» تجعل تعامله مع الحروف والكتابة

صعباً، ونصف أمي في أفضل الأحوال. كل ذلك لايهم طالما أن له صفات أخرى. يتمتع لوكا بقدر كبير من الشجاعة الجسدية دون أي شك. إنه عديم الشفقة وله قدرة على القيادة. الرجال الذين هم على شاكلة لوكا كانوا الشيء الوحيد الذي وقف يتصدى لرصاص التشيتنيك عندما نشبت الحرب.

لم يكونا وحيدين. جلس ثلاثة من مسلحي لوكا وبزاتهم العسكرية منتفخة بسبب مخازن الذخيرة الإضافية والقنابل اليدوية التي يحملونها، وسواعدهم تستند إلى ركبهم، في حالة تنبه ومراقبة.

صرفهم لوكا ببضع كلمات فخرجوا وهم يكررون الالتفات والتفرس بالزائر. جاءت المرأة ذات الشعر الأسود الأجعد بصينية عليها قهوة. أشعل لوكا سيكارة ونظر إلى روسو من رأسه إلى أخمص قدميه كأنه يحاول قرءاة ما في نفسه من خلال ثيابه ووضعه. وأصر على أن يجلس ضابط الشرطة على طرف السرير إلى جانبه.

- «أية خدمة أستطيع أن أقدمها لك أيها المدير؟»

إنه يعتقد أنني أصبحت في جيبه وأننا الآن في صدد تقرير ما أساويه من ثمن.

- «هل لك علم بوجود مجموعة من صربيي كوسوفو، في لجنة الأعمال الخيرية، تتألف من أعضاء ينتمون إلى الجسم الطبي؟»

عبس لوكا.

- «نعم. لقد سمعت بها.»

- «هل تعرف طبيباً يدعى ميسيتش؟»

- «نعم أنه أحد الاطباء الذين ساعدوني عنما جرحت قبل سنتين.»

- «هل هذه اللجنة هي خيرية محض أم أن لها نوعاً من العمل السياسي غير الرسمي؟»

- «استناداً إلى ما اسمعه فهي مزيج من الاثنين.»

- «ما الذي تسمعه؟»

- «ما هذا أيها المدير؟ امتحان في المعلومات العامة؟»

- «إنني أجري تحقيقاً وأحتاج إلى مساعدتك»

- «هل أنا موضع شبهة؟ أينبغي علي أن أدعو محامي؟»

كان لوكا يهزأ من روسو وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ماكرة.

- «هل تعرف امرأة تدعى بوكوفانتش؟»

- «لا أعتقد ذلك» قال لوكا وهو يهز كتفيه بلامبالاة رأى روسو أنها مبالغ فيها.

- «إنها طبيبة أسنان وعضو في اللجنة» حرك لوكا كتفيه مرة ثانية.

- «الحقيقة أنني لا أعرف»

- «وهل تعرف منزل القردة؟»

- «لقد سمعت به»

- «هل تعرفه؟»

- «ربما. إنه يقع في الياسينو بوليي»

- «هل ذهبت إلى هناك؟»

- «من الممكن أن أكون ذهبت»

- «هل كنت هناك قبل ثلاثة أيام في فترة ما بعد الظهر؟»

- «لا أعتقد ذلك، لكن الأمر ممكن»

- «في الطبقة السادسة؟ في شقة تسكنها واحدة تدعى بوكوفانتش؟»

ابتسم لوكا في وجه روسو وقال «ما هذا؟ هل ورد اسمي في دعوى طلاق؟»

ـ «أكنت هناك أم لم تكن؟»

ـ «ذلك ممكن. لست أتذكر»

ـ «فكر في الأمر.»

ـ «فكرت. لا أستطيع التذكر، والاسم لا يعني لي شيئاً. لماذا؟»

ـ «كانت بوكوفاتش طبيبة أسنان وقد ماتت قتلاً، واختفى مفتش من مفتشيي كان يراقب المكان، وجثة المرأة أختفت أيضاً. لست تعرف شيئاً عن الموضوع. أليس كذلك؟»

ـ «لا أعرف شيئاً، لكن تبدو الأمور متداخلة بعضها ببعض بشكل فوضوي.»

ـ «المكان يقع في قطاعك»

ـ «سأسأل عن الموضوع. أيرضيك هذا؟»

ـ «أرجو أن تفعل»

ـ «ما المهم إلى هذه الدرجة بالنسبة إلى هذه المرأة؟»

ـ «لا شيء بشكل خاص ـ سوى أنها قتلت وأنا أحقق في القضية.»

ـ «هناك كل يوم كثير من الجثث الجديدة أيها المدير، والقتلة ظاهرون بوضوح يراهم الجميع، ولست ادري ما سبب هذه الضجة إلا طبعاً إذا كنت لاتزال تسعى إلى الإيقاع بي»

ـ «هناك شاهد» قال روسو.

ـ «صحيح؟» قال لوكا ذلك ونهض فتناول عصاه التي تساعده على

السير وجمع ذخائره عن الطاولة.

- «شاهدك شخص هناك»

لن يشكوا في أن هذا الشخص بنت شبه عمياء.

- «أعتقد أنني أعرف سبب مجيئك لرؤيتي»

- «إنني أحقق في جريمة قتل»

- «الناس يموتون يومياً وأنت مهتم بصربية قذرة. دعك من هذا الكلام. إنه هراء.»

بدا بوضوح أن لوكا على وشك المغادرة، فنهض روسو من مقعده أيضاً.

- «تعتبرني مجرد رجل عصابات، مهرباً. أمثالي من الناس» - ارتفع صوت لوكا - «هم الذين أبقوا هذه المدينة خارج أيدي الصرب يا حضرة المدير. وكل يوم يطلبون مزيداً من أمثالي. وأنا هنا أعني الرئاسة. الآن يريدون جميع رجالي في جبهة القتال - حتى الكتبة وسائقي العربات، كل واحد منهم.»

لم يحب لوكا أن يخضع لاستجواب وقد بدا ذلك واضحاً عليه. ضرب رشاش اللعاب الذي تطاير من فمه وجه روسو لكن هذا لم يجفل أو ترفّ له عين ولم يمسحه عن وجهه.

- «حسناً أيها الشرطي.» انخفض صوت لوكا. استطاع على غير عادته أن يضبط نفسه.

«تريد أجوبة عن هذا العدد الكبير من الأسئلة. تعال معنا الآن. سأريك. سترى بنفسك.»

دفع لوكا الباب ففتحه وصرخ معطيا سلسلة من الأوامر تخللتها شتائم وتجديف. فتحت أبواب أخرى وأغلقت. بدا كأن صوته أرسل

شحنة كهربائية سرت في العاملين معه. بدأ لوكا يعرج في شكل محرج وهو ينزل على السلم. كان يصيح، وعندما يتوقف عن الصياح يتمتم محدثاً نفسه.

سار روسو خلفه.

- «إلى أين نحن ذاهبون؟»

- «إلى جبهة القتال يا حضرة المدير. وهل من مكان آخر؟»

الفصل الثامن

«سيستلقي الأسد والعجل معاً، لكن العجل لن يستطيع النوم جيداً»

وودي الآن

لم يبدأ صباح فليت بداية جيدة.

كان الصحافي يقف على المدخل المحصن بأكياس الرمل لمبنى البريد والاتصالات اللاسلكية الذي تحول الأن إلى مقر قيادة قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام في سارايفو. سرح الصحافي بصره متنقلاً عبر موقف السيارات إلى قسم من المدينة يشرف عليه خط من التلال إلى جهة الشمال الغربي. أخذ يضرب قدميه بالأرض، يرفعهما وينزلهما ويفرك إحدى ذراعيه بيد ثم الذراع الثانية باليد الأخرى وهو ينتظر بفارغ الصبر مواكبيه وهم ضابط أوسترالي برتبة نقيب ومجموعة من الجنود الأوكرانيين الأفظاظ الذين بدا أنهم يعتبرون عملهم فرصة من السماء لمبادلة أي شيء لديهم بعملة صعبة.

علم فليت من الندوات الأخبارية الموجزة التي تعقدها القوات الدولية لوضع الصحافيين في أجواء ما يجري أن مناوشات وقعت في ضاحية ستوب الجنوبية الغربية حيث يحاول جيش الحكومة البوسنية انتزاع أصبع من الأراضي يسيطرعليه الصرب في ايليديا. رد الصرب

على ذلك بالضغط على رجال لوكا. وكانت مهمة الأوسترالي هي أن يتيح لفليت أن يلقي نظرة شاملة على الوضع من التلال الواقعة إلى الشمال الغربي خاصة من قمة نائية تطل مباشرة على ستوب نفسها. وكان فليت ينتظر ذلك بتوق، فمن شأنه أن يجعله يرى الصورة الكبيرة، أن يوفر له الرؤية الواسعة التي يحتاج إليها في موضوعه التالي. سيكون الأمر مثالياً بالنسبة إلى مراسل صحافي أجنبي، فهو سيشاهد القتال ويبقى في الوقت نفسه بعيداً عن تعريض نفسه للأذى. لكن الأوسترالي وأفراد المجموعة الأوكرانية تأخروا. القى فليت نظرة على ساعة الرولكس الضخمة التي يحملها في معصمه. كانت تشير إلى السابعة والدقيقة الثالثة والثلاثين. يتذكر الوقت لأنه في تلك اللحظة سمع ذلك الصوت البشع، صوت قذيفة مدفع دبابة تطن مارة فوقه وتسقط في مكان محجوب عن النظر يقع وراء الحاجز المحيط بموقف السيارات. كان لسقوطها صوت قوي جداً، انفجار برجع هائل؛ كان للقذيفة كما تخيل فليت مزاجاً خاصاً بها وكأنها تعلن للمدينة رضاها عن الدمار الذي أحدثته. لم يدرك فليت للوهلة الأولى أنها قذيفة دبابة لكنه عرف أنها قريبة جداً، فقد كان لها مسار منحن شديد الانخفاض وهي تصدر صوتاً مشؤوماً لولبياً متتابعاً. ولم يكن صوت الانفجار بعيد الشبه بصوت اصطدام مقدمتي سيارتين سريعتين، الواحدة بالأخرى.

تبعتها ثلاث قذائف أخرى خلال دقيقة. جثم فليت وراء جدار أكياس الرمل الذي يحمي المدخل. جلس القرفصاء في وضع يشبه وضع الجنين، ممسكاً بنفسه ماداً ذراعيه على جسده كأنه خائف أن تسقط قطع منه أو كأنه يشعر ببرد شديد. لقد كره المدفعية دائماً، وقد أعتقد أن الأمر هو قصف مدفعي إذ لم يسبق له أن كان قريباً بهذا القدر إلى نيران قذائف الدبابات كما جرى له اليوم.

كان يمكن لها أن تطيح رأسي عن جسدي.

توقف القصف فترة قصيرة لكنها كانت كافية لأن يتراجع الرعب الذي سيطر على فكره ونظره. وهنا رأى جندياً فرنسياً يقف حارساً في الجانب الآخر وينظر إليه بفضول. وقف فليت. كان الجندي يحمل بندقيته معلقة على كتفه وقد أدخل، في شيء من اللامبالاة، إبهامي يديه في حاشيتي كتفي سترته المقاومة للرصاص. وكي يظهر فليت أنه ليس خائفاً، وكي يتخلص من تلك النظرة الهزلية التي ارتسمت على وجه الفرنسي، خطا خارجاً من حيث جاء، إلى المكان المكشوف.

يعرف فليت أن ما قام به ليس أمراً يدل على تعقل. أحس بذلك من خلال سحابة من الخوف كما يستطيع ضعيفو البصر الشعور بأن شيئاً ما يهبط عليهم. لكن الإحساس ذلك جاء متأخراً جداً الآن، إذ إن فليت لن يجعل نفسه يبدو، خاصة أمام الفرنسي، في مظهر من سيطر عليه الخوف.

رأى القذيفة الخامسة سابحة في الجو: شيء غامض لايمكن استبانته بوضوح، ذو وسط أسود قاس، مر من اليمين إلى اليسار وضرب القسم الأعلى من سلم الحريق الحديدي الذي يلتف حول الطبقات الثلاث للمبنى الواقع على بعد ثلاثين متراً.

لم تنفجر. سُمع صوت اشبه بصوت سحق شيء بقوة، ثم أخذت القذيفة تسقط متدحرجة على درجات سلم النجاة من الحريق. وكلما سقطت على درجة من هذه الدرجات صدر عنها صوت ارتطام معدني يمزق الإذن. وكانت، فعلاً، ترتد هابطة عن كل درجة تدور على نفسها ببطء شديد يوحي بالضعف.

كلانغ كلانغ كلانغ

ومع كل ارتداد لها كان فليت يتوقع ان تنفجر.

ارتمى أرضاً وقد طارت لامبالاته المشهورة أدراج الرياح. وبدا له أن سقوطها سيستغرق أجيالاً.

كلانغ كلانغ.

أحس فليت بشيء حاد في جانب من جسمه. لقد أصبت. قضي الأمر. كل شيء يبدو واضحاً وعادياً جداً. لكنني أصبت في مكان ما.

كان الضابط الأوسترالي قد وكزه في أضلاعه وكزة ليست على قدر كبير من اللطف بحذاء عسكري لم يصبغ منذ زمن طويل.

ـ «طلقة محكمة» قال الأوسترالي في لهجة من يجري حديثاً عادياً. «إنها قذيفة مضادة للدبابات بالمناسبة انا النقيب هارت.»

لم يشر فليت إلى الركلة التي تلقاها لكن شعوراً خالجه بأن جميع الأوستراليين يستمتعون بان تتاح لهم فرصة لتسديد ركلة إلى صحافي - خاصة إلى صحافي اميركي - انبطح على الأرض في حال من الرعب والخبل.

صعد لوكا إلى القسم الأمامي من سيارة المرسيدس بصعوبة ووضع عصاه قربه وأصرَ على أن يجلس ضابط الشرطة إلى جانبه. أقبلت فتاة أخرى من مساعديه وناولته من النافذة رزمة ملفوفة بورق اسمر. أعاد لوكا إغلاق زجاج نافذة السيارة، ثم فتح اللفافة فإذا بها تحتوي على ما بدا شطيرة (ساندويتش) قسمها لوكا إلى نصفين. رفع أحد النصفين ولوح به لروسو، فهز رجل البوليس رأسه رافضاً.

ـ «كل» قال لوكا بلهجة آمرة ملوحا بالساندويتش بعنف جعل روسو يخشى أن تندلق محتوياته على ساقيه وعلى مقاعد السيارة الجلدية.

تناول روسو حصته، وكان فم لوكا قد امتلأ وفكاه يتحركان من عدة أماكن. كانت الشطيرة مؤلفة من الجونبون والريحان وزيت الزيتون ورب البندورة/ الطماطم/ المجففة بأشعة الشمس والخبز الإيطالي.

على روسو أن يستجوب لوكا، ولم تكن لديه رغبة في الذهاب إلى جبهة القتال، لكنه لم يستطع الرفض الآن لأن من شأن ذلك أن يعني

قدراً كبيراً من خسارة ماء الوجه. وبدا صعباً عليه أن يصدق أنه جالس قرب قاتل ومهرب وأنه يشاركه فطوره.

جاء أناس عديدون وتوجهوا إلى نافذة لوكا التي يفتح زجاجها ويغلق آلياً بالضغط على زر خاص. تحدث إليهم لوكا بفمه الملآن، وفكاه غير السويين يتحركان إلى هذه الجهة وتلك وهو يطحن الطعام ويبتلعه. بدا الأمر شبيهاً بمشاهدة سحلية عملاقة تلتهم فريستها. أعطيت أوامر ووجهت أسئلة وجرى شكر أشخاص والأشادة بآخرين والسخر من عدد آخر كما وجه تهديد في أحدى الحالات.. واستمر المضغ.

وأخيراً رمي لوكا الكرة الورقية في الشارع. التفت بوجهه إلى روسو بينما كان يدير محرك السيارة وقال له«ليست المرأة القتيل سبب حضورك إلى هنا.»

- «ما الذي تعنيه؟»

- «أعرف سبب وجودك هنا. إنه تانيا. أنت لا توافق. لقد أبلغتني ذلك. وقد خطر لك أن تأتي لإلقاء نظرة، لترى أي نوع من المتوحشين هو ذلك الذي تحاول منذ سنوات وضعه وراء قضبان السجن الحديدية.»

فجأة خطرت في بال روسو المفارقة الحافلة بالسخرية في هذا الوضع ولم يستطع تمالك نفسه فألقى برأسه إلى الخلف واستغرق في الضحك.

لوكا يطلب موافقته. حتى رجال العصابات يتمسكون بالتقاليد، وعوضاً عن أن يهدد بقتلي، قال روسو لنفسه، فهو يرغب في الحصول على بركتي.

- «صحيح أنني لا أوافق على صداقتها لك، وصحيح أنك كنت

موضع تحقيق قبل الحرب، وصحيح أن دائرة الشرطة السرية لم تستطع أن تتوصل إلى أي مستمسك يدينك على رغم سعيها الشديد إلى ذلك. لكنك مخطئ في موضوع سبب مجيئي لمقابلتك. إنها بوكوفاتش التي اريد معلومات عنها.»

- «معلومات عن صربية؟»

- «معلومات عن جريمة قتل.»

- «ومن الذي يهتم بها أيها المدير؟ أعزاؤك دافعو الضرائب؟ إن لديهم أموراً أخرى يهتمون بها.»

- «كانت بوكوفاتش واحدة من المكلفين دافعي الضرائب»

انطلق لوكا خارجاً بالسيارة الكبيرة إلى الشارع وهو ينظر بين فينة وأخرى إلى المرآة التي تريه ماخلفه، بينما خنصر يده اليسرى يبحث بين اسنانه عن قطع الجونبون الصغيرة العالقة فيها. وعلى خلاف سيارة روسو اليوغو، فقد كانت سيارة المرسيدس هذه مجهزة بسلاسل حديدية على عجلاتها الأربع.

كان الصرب على مقربة. عادة، لم تكن اشجار المرتفع هناك أكثر من كتلة من لا شيء، ومنظر يدعو إلى التأمل. أما الآن فقد بدا أن كل مافيها هو موضع درس وإحصاء دقيقين وأن كل حركة تخضع للمراقبة. لديهم مناظير مكبرة جهزت بها رشاشتهم الثقيلة. ولا شك في أنهم يرون السيارة الإنيقة ويعرفون إنها سيارة لوكا. شعر روسو بوخز الخوف الذي بدا كوجع الأسنان، إحساساً مزعجاً ومالوفا، لكنه ليس سيئاً إلى درجة إنه لا يستطيع أن يبعده عن ذهنه.

وجع الأسنان.

هذا هو الأمر. لقد نسي كل شيء عنه. تذكر بوكوفاتش بوضوح الآن. وقفت يومها في مكتبه أمام مكان جلوسه قائلة إنها طبيبة أسنان

شارحة له كيف ستعالج له أسنانه دون مقابل. لم تكن تتوقف عن الكلام والتلويح بيديها في هياج. استدعى أنيل وأجرى تعارفاً بينهما وطلب منه الاهتمام بأمرها ثم تمتم معتذراً وتركهما. وفي وقت لاحق من فترة بعد الظهر نفسها لمحها مرة أخرى تجلس على مقعد قرب مكتب أنيل وتدخن سيكارة وهي لا تزال تتكلم، لكنها هذه المرة لم تكن توجه كلامها إلى شخص محدد. كان قد انتحى بأنيل جانبا وطلب إليه ان يبذل قصارى جهده للنجاح في مهمة سيئة. بدا واضحا ان ذهنها مشوش وفي حالة من الفوضى واختلاط الأمور بعضها ببعض وأنها ستكون شاهدا بائسا. لم تكن تستطيع التوقف عن الكلام. هذا ما فعله الحصار بالناس ولا يمكن القيام بشيء في هذا الشأن.

وكان روسو قد قال لأنيل إنها ما كنا نبحث عنه ويمكنها أن تزود لنا الفخ بالطعم الضروري فاترك لها قدراً كبيراً من حرية التصرف، ومهما اقتضى الأمر فأنا أجيز ذلك وأخولك القيام به. لا بد من أن هذا جرى قبل ثلاثة أشهر.

حاول روسو أن يركز اهتمامه على الطريق الممتدة أمامهم والتي تناثر عليها الحطام ـ أكوام من أغلفة الرصاص النحاسية الفارغة، وأعمدة مصابيح انحنت فصار شكلها مثل دبوس الشعر، وخطوط ترامواي اعوجت فصارت مثل شاربي سلفادور دالي بسبب حرارة النيران التي التهمت عربات القطار الكهربائي، وقطع مرمية من الثياب وحجارة قرميد سقطت من السطوح وقطع مقتلعة من المباني تطل من بين الثلوج. كانت الطريق مكشوفة بشكل رهيب، خالية من أي مجال للاحتماء. وفي تلك الأمكنة، حيث تراجع الثلج لسبب أو لآخر، تركت انفجارات قنابل الهاون حفراً مميزة في أشكال نجوم، حفراً صغيرة محاطة بافريز من آثار تشبه آثار الأسنان. وكانت هذه الآثار التي خلفتها تلك القنابل تبدو ـ بصورة كاذبة ـ كأنها غير ذات أذى لكن الواقع هو أن اصطدام تلك القنابل بسطح الشارع الصلب يوسِع دائرة

القتل إذ يرسل ذلك الرشاش من الشظايا الحارة القاطعة كالشفرات إلى مسافة أبعد.

بدا لوكا رابط الجأش بل مرتاحاً. كان صفيقاً تماماً، مثل فليت، في تحديه الظروف. كان ينطلق بالسيارة بقوة نزولاً في وسط «زقاق القناص»، وبدا أن السيارة تخرخر مثل هرة وتتماوج وتقفز إلى أمام عندما تطأ قدم لوكا دواسة البنزين وكأنها تحب السرعة. ارتجفت السيارة الكبيرة. كان لوكا يزيد من سرعته منطلقاً بهم عبر مبنى الصحيفة المنهار ـ لقد قصف بوحشية إلى درجة أن أبراجه العالية الحاملة سمات المدرسة الفنية«المستقبلية» أعادت إلى ذاكرة روسو صور هياكل السفن الحربية الضخمة المنقلبة وهي نصف غارقة في مياه «بيرل هاربور.»

الساعة العاشرة والدقيقة الأربعون، والجسر العلوي الرهيب أمامهم. قال رجل الشرطة لنفسه أن الصرب لن يبدأوا قبل أن يتناولوا جرعة منتصف الفترة الصباحية من «راكيا» أي البراندي المصنوع من الخوخ لتقوية أنفسهم في مواجهة البرد والقتل. أضاف يحدث نفسه انهم، إذا حالفهم الحظ، سيكونون في المكان الذي يقصدون وسيعودون منه في مدة أقصاها الساعة الحادية عشرة قبل أن يعود التشيتنيك من الحانة وهم يسيرون الهوينى ممتلئين بما شربوه، ليشدوا حبال مدافعهم لتطلق حممها.

تساءل بينه وبين نفسه هل اكتفى لوكا بمشاهدة بوكوفاتش تموت أم أنه ساعد في قتلها بل قاد عملية القتل. اندفعت سيارتا إسعاف نحوهم وهما تتلويان على الجليد من جهة إلى أخرى؛ سيارتان قديمتان من نوع «سيتروين» تفصل بين الأولى والثانية مسافة نحو مئة متر. كانتا في حالة زرية فالنوابض التي يرتفع ثقلهما عليها استهلكت من زمن بعيد، وقد طليت نوافذهما باللون الأبيض ورسمت عليها صلبان حمر. أما هيكل كل منهما فقد تحول إلى رمادي بفعل الوحول القديمة التي صبغتهما.

لم يحفل لوكا حتى بالقاء نظرة سريعة على السيارتين، فقد كان اهتمامه مركزا على شاحنة محطمة من فئة الأطنان الأربعة كانت تسبقهم بمسافة ليست قصيرة. كانت مغلقة، وقد شدَ غطاؤها المصنوع من قماش القنب باحكام عليها. شاحنة قديمة من نوع زيل الروسي الصنع مطلية بلون أزرق سماوي تسير بسرعة محدثة جلبة على الطريق. وبينما كان لوكا يتجاوز الشاحنة لوح له السائق له بيده. وبدا أن لوكا أجابه بإحناء رأسه. وسرعان ما اختفت الشاحنة وراءهم.

«أباناً الذي في السموات. . .» إنها الصلاة الوحيدة التي يتذكرها روسو، وقد تعلمها من أمه عندما كان طفلاً. جعلته يشعر بارتياح كما كانت عصارة الخس التي توصف للحلق الملتهب تجعله دائماً يشعر بتحسن. في ذلك الزمان لم يكن يعرف ما هو الخس ولا معنى كلمة عصارة أو خلاصة. كانت كلمات سحرية. بل إنه حتى الآن لا يعرف ما تعنيه كلمات الصلاة الربانية تماماً، لكنها كانت تعويذة، علامة خير، موقفاً من نوع ما، مناشدة هي الملجأ الأخير، لا أكثر ولا أقل من خرزة زرقاء تعلق بالعنق أو فوق عتبة باب لصد العين الشريرة.

لفتت نظر روسو حركة إلى جهة اليسار. في فناء مبنى ضخم هو مؤسسة حكومية ما، كان عشرات من جنود الحكومة يروحون ويجيئون وكثير منهم يحمل أرغفة من الخبز.

- «من هم؟»

لم يكلف لوكا نفسه عناء الالتفات.

- «اللواء الثامن واللواء السابع عشر»

- «وما الذي يفعلونه؟»

- «يتسلمون حصصهم من الطعام بموجب نظام التقنين قبل أن يغادروا»

- «يغادرون؟ إلى أين سيتوجهون؟»

نظر لوكا إلى ضابط البوليس دون أن يتفوه بكلمة. ورأوا مزيداً منهم، عشرات من هؤلاء الجنود يسيرون على اقدامهم مبتعدين عن المدينة. لقد قسموا إلى زمر أو جماعات وصفُوا في طابور واحد. كانوا من المخضرمين؛ رجالاً أكبر سناً ممن هم في عمر الشباب، أسلحتهم على أكتافهم، ملتفين بأحزمة من الذخائر وفرشهم الملفوفة تتدلى من أكتافهم أو أحزمتهم، والقذائف الصاروخية المعبأة في جرابات مؤونتهم محمولة على ظهورهم. وعلى رغم ثقل حمولتهم فقد كانوا يسيرون بتلك الثقة، وبذلك التبختر اللذين يتميز بهما رجال يعرفون ان طريقهم طويلة ويعرفون في الوقت نفسه انهم قادرون على القيام بكل ما يطلب منهم.

ليس هؤلاء الجنود رجالاً في حالة تقهقر أو انسحاب. كانوا أكثر هدوءا واطمئناناً من أن ينطبق هذا الوصف عليهم.

وبين فترة وأخرى كانت المرسيدس تتجاوز عربة يجرها حصان وقد تكومت فيها فرش وبطانيات وأوان مطبخية وصفائح لقواعد مدافع الهاون.

- «إنه جيش ينتقل من مكان إلى آخر» قال روسو.

- «شيء من هذا القبيل»

- «قل لي لم قتلتها؟»

لكن لوكا لم يجب عن السؤال.

في الساعة العاشرة والدقيقة السابعة والثلاثين دعي فليت إلى الصعود إلى العربة الأوكرانية المدرعة عبر فتحة في جانبها بدا له كأنها صممت على قياس أقزام. كانت صغيرة بشكل غير معقول بينما الصحافي الأميركي طويل وعريض. واضطر إلى أن يعاني من مهانة تمثلت بسحبه من جهة ودفعه من الجهة الأخرى في عملية قامت بها

مجموعة من الأوكرانيين المبقعي الوجوه الذين بدوا صغار السن لم يحلقوا ذقونهم بعد والذين رأوا في العملية كلها شاناً ظريفاً شديد الإثارة للضحك.

وطوال هذه الفترة جلس النقيب هارت على ظهر ناقلة الجند وهي من طراز «ب. ت. ر ـ ٦٠»، يدخن غليونه وقدمه تضرب ضرباً متتالياً خفيفاً بحذائه القذر على حاضن الرشاش الثقيل تعبيراً عن نفاد صبره وهو يتأمل ملياً الصراع الدائر تحته.

لم يبتسم النقيب هارت أو يمد يده بمساعدة مما جعل فليت يشعر بأنه يخضع لاختبار وأنه لم يصبح مؤهلاً بعد لعضوية ما يعتبر النقيب أنه الجنس البشري. أكتفى الكابتن هارت بالنظر إلى فليت من أعلى إلى أسفل وقد ارتسم على وجهه تعبير يقارب الازدراء مشيراً إلى المكان الذي على هذا المدني الصعود منه والدخول إلى ناقلة الجند المدرعة التي تبدو كقطعة من السجق بمقدمها الذي يشبه القارب وإطاراتها المطاطية الضخمة. هذا هو الأمر؛ فليت مدني، أي أنه يمثل ما يبغضه الجندي المحترف.

شكر فليت ربه على عدم وجود كاميرات تلفزيونية تسجل هذه البداية المذلة لرحلة هذه الدورية. وبعد ان استجمع نفسه ومعداته ـ آلة تسجيل، وجهاز كمبيوتر صغير محمول، وآلة تصوير فوتوغرافي ذاتية التركيز ـ وجلس بحرج في شبه قرفصاء، نظر حواليه. كان جندي أوكراني لا يزيد عمره على ١٨ سنة يتولى أمر تشغيل الرشاش الثقيل(دي اتش. اس ك) عيار١٢.٧ ملليمتراً (المعروف باسم دوشكا) وهو يجلس في ما يشبه الحلقة ـ مقعد متحرك بدا عليه القدم مغطى بالشحم والغبار. كان الجندي المراهق يدير الرشاش يميناً ويساراً وعلى محوره أحياناً. وكانت الرصاصات الكبيرة الثقيلة منظمة واحدة قرب أخرى في حزام معدني يمتد نزولاً كأنشوطة إلى داخل العربة وحول الجندي كأنه

ستار فولاذي. أوكراني آخر وضع سماعتين على أذنيه وأخذ يعبث بأزرار جهاز لاسلكي عتيق بدا مثل مخلفات الحرب العالمية الثانية، شيئاً قد يعرضه متحف من المتاحف الحربية.

لف هارت شاله حول وجهه ومد إحدى ذراعيه إلى الأمام بشكل ميلودرامي كأنه يقود سرية من الخيالة. أدير محرك ناقلة الجند فاستجاب مطلقاً هديراً واهتزت العربة بعنف وتقدمت إلى أمام وسط سحابة زرقاء من دخان أنبوب العادم. أعاد هارت وقد ارتدى خوذته على رأسه الآن، وضع غليونه في فمه عبر ثنية شاله بينما تدلت قدماه من الفتحة الأخرى التي لم تغلق. كانت هناك منافذ لفوهات البنادق على جانبي ناقلة الجند المدرعة لكن هذه المنافذ كانت صغيرة بشكل غير معقول لا يسمح لمن في الداخل بأكثر من لمحة سريعة لجانبي الطريق. يعرف فليت أن الهدف من هذه المنافذ هو أن يتمكن الجنود المشاة من الدفاع عن أنفسهم دون أن يضطروا إلى النزول من العربة، لكن مجال رمايتهم في هذه الحال محدود إلى اقصى درجة.

وحدث نفسه في سريرته قائلاً من الأفضل أن يكون لديك ما تقوم به عوضاً عن أن تنتظر وقوع هجوم عليك. يعرف فليت أنه حتى إذا تعرضوا لإطلاق نار فهو لن يسمع أو يرى شيئاً، وهذا أمر يسبب نوعا من الشعور بالراحة. هناك احتمالان: إلا يكون بالإمكان سماع صوت إطلاق نيران الأسلحة الصغيرة بسبب صوت محرك الناقلة أودوي إطلاق النار من رشاشها الثقيل، أو أن تصاب ناقلة الجند أصابة مباشرة بسلاح أكبر ولن يكون في استطاعته فعل أي شيء في هذه الحال.

ارتفع دخان أسود أمام سيارة المرسيدس. كان كثيفا وفي غليان عنيف أوحى بأن هناك ناراً هائلة نتجت عن احتراق أطر سيارات.

«سندخل» قال لوكا وهو يعني بذلك منطقة «ستوب» الصناعية، وهي مجموعة من المستودعات والمصانع الجديدة المسيجة بطريقة جميلة

والمحاطة بمماش ومراكز تحميل مفروشة بحصباء بلون أزرق هادئ

ـ «سنأخذ هذا الممر بسرعة»

وفعل ذلك. وبينما هم يخرجون من الممر الضيق سمع روسو بوضوح أصوات الرصاص. رشق من ثلاث طلقات، واحد آخر من أربع، عدة طلقات مفردة بين الواحدة والأخرى فترة زمنية متقاربة فكأن مطلق النار يحاول مجاراة سرعة المرسيدس فيتنقل مع الهدف كما يفعل الصياد مصوباً بندقيته على بطة وهي في حالة طيران.

الطلقات كلها آتية من أعلى ومن جهة اليسار. غاصت المرسيدس نزولاً في اندفاع متهور ودخلت تحت جسر ثم خرجت من الجهة الأخرى وإطاراتها تصدر أصواتاً كالصراخ. لم يعد روسو خائفاً. كان للادرينالين وقع جعل حواسه تتسارع وتمتلك وضوحاً جديداً جعلها تصبح أكثر نشاطاً وحيوية وتخلق عنده انطباعاً بأن كل شيء حوله ـ بما في ذلك السيارة ـ يتحرك ببطء.

اتجه لوكا بالسيارة نحو ما بدا مدخل مصنع. لم يكن هناك أحد، وكل ما كان في المكان كومة من أكياس الرمل زينت بعلم بوسني. بدا المكان مهجوراً، من كان متحصناً هنا هو الآن أما منبطح ووجهه في التراب، أو ميت. دارت العجلات بسرعة فوق الحصباء بينما اندفع لوكا بالسيارة الضخمة إلى الأمام ثم استدار إلى اليمين واعمل المكابح بحدة فتوقفت السيارة فجأة بعد أن أصدرت عجلاتها أصواتاً فوق الحصى المنتشر في المكان.

فتح روسو باب السيارة لكنه عاد فأغلقه بسبب الحرارة التي ضربته مثل موجة هواء فجعلت شعره يتطاير وكذلك بعض ثيابه. بدت مثل آلة عملاقة لتجفيف الشعر. وشعر كأنها أعطته سمرة فجائية فوضع يديه على وجهه ليعرف ما إذا كان حاجباه لا يزالان موجودين.

كان مصدر هذه الحرارة لسان ضخم من النار لا يبعد أكثر من ١٢ خطوة عنه، يرتفع عمودياً، وينفتل بحركة لولبية يمتص الهواء المحيط به ساعياً إلى القفز إلى أعلى فأعلى للوصول إلى الأوكسيجين الذي يحتاج إليه.

كان لوكا يحاول الخروج من الجهة الأخرى، فتبعه روسو زاحفاً عبر المقعد دافعاً برجليه بارتباك تحت مقود السيارة وهو يفكر في إنه ليس من الحكمة ترك السيارة على هذا القرب من المستودع المشتعل. لكن ما كان يدوي في إذنيه لم يكن ناراً بل أصوات إطلاق النار، فتناسى أمر السيارة.

كان لوكا يعرج، فحاول روسو ألا يسبقه وأن يبقى معه. لم يكن متأكداً من السبب الذي جعله يفعل ذلك، لكنه تصرف على هذا النحو. وشاهد رجال اطفاء راكعين على الأرض في خط يقع إلى جهة اليمين بينهم وبين هذا الجحيم المشتعل. كانوا يوجهون خراطيم مياههم بصورة خاصة إلى تلك الفورة من الرماد والشرار والدخان والمعادن الملتوية وما قد يكون موجوداً في المستودع.

كان الأطفائيون يعملون أزواجاً، يقبض أحدهم على فوهة خرطوم الماء والآخر يحاول السيطرة على الأنبوب المنتفخ المصنوع من قماش القنب والدائم التحرك لولبياً والتفافاً وفقاً لضغط الماء. ارتفعت السنة اللهب نحو عشرين قدما في الجو وبدا أن جهود رجال الأطفاء لم تؤثر فيها.

وخطر لروسو ان تخلص لوكا من بوكوفاتش لم يكن أكثر من خطوة وقائية صممت لمحو الأدلة وإزالة شاهد معاد محتمل من الدرب.

هل دوره هو التالي؟ سيكون تدبير حادث وسط ساحة قتال أو خلال تبادل إطلاق نار أمر سهلاً على لوكا. وسيتولى هذا الجحيم المستعر الاهتمام ببقايا جثته.

وجد روسو نفسه على ركبتيه قرب عجلة سيارة إطفاء كبيرة حمراء اللون، ورجلاه تغمرهما مياه بركة صغيرة قذرة. كانت رغبته في البقاء على قيد الحياة قوية جداً. ولم يحتج إلى أكثر من دقائق قليلة ليدرك سبب جثوم الجميع على الأرض. الرصاص يتجه إلى ناحيته - بدا الأمر بعيد الشبه بأي ملعب غولف عرفه، بدا شخصياً جداً - ويأتي من جهتين يئز ويحدث فرقعة فوق الرؤوس محدثاً ثقوباً في أطواق صفائح الحديد المموج في المستودعات الأخرى التي لم تصل إليها النيران ومرتداً عن الأرض وعن الشاحنة، عابراً فوقه في دوران جنوني ومع صوت أشبه بالنواح. شعر روسو بضعف في ساقيه وبألم في خصيتيه، شعر بهما وكأنهما تتقلصان.

الفصل التاسع

بقي مستودعان سالمين حتى الآن من النار لكن أسراب الشرر التي نثرها في الجو نسيم منعش، لم تكن فألا حسناً لمخزون لوكا من السلع الكمالية المنهوبة. الحرارة التي ولدها الحريق كانت هائلة، وإذا لم يتغير اتجاه الهواء فستشب النار في المستودعين الباقيين في غضون دقائق.

لم يكن ذلك خافياً على لوكا، فعلى رغم صوت المعركة المتزايد الارتفاع تجمع لوكا وعدة أفراد من رجاله عند المستودع الأول. انتزعوا القفل الحديدي بفأس وقاموا بسحب باب انزلاقي واستمروا يجذبونه ويدفعونه حتى انفتح.

بدا لروسو أنهم وصلوا إلى هنا خلال مناوشات اندلعت بهدف السعي إلى السيطرة على الطرق المؤدية إلى ساراييفو. أيكون الرصاص الخطاط أو العيارات الفوسفورية السبب في إشعال المكان، وليس هناك من سبب محدد للاعتقاد ان العملية متعمدة؟

وعندما خف إطلاق النار ركض روسو إلى جماعة لوكا. ركض بأسرع ما يستطيع ورجلاه تتحركان بشكل جنوني. انتقلوا جميعاً إلى المستودع الثاني في انحناء مثل أناس دهمهم مطر غزير، محتمين بجدران مستودع البضائع المصنوع من صفائح رقيقة من الحديد المموج، وكأن ذلك يحميهم من عواصف الرصاص التي تتحرك كيفما اتفق.

عمل لوكا ورجاله بقوة ونشاط شديدين يدفعهم الحرص على إنقاذ أكبر عدد ممكن من الصناديق وأقفاص التوضيب التي صفت داخل المستودع الذي يبلغ طوله ٦٠ متراً.

كان الأمر شبيهاً بالوقوف في خيمة «سيرك»؛ وأعطى السير داخل أحد المستودعات روسو شعوراً كاذباً بالأمن. وفي الداخل خفت قوة الشعور بالاستعجال بالنسبة إلى مكافحة الحريق في الخارج وإلى المستودعات التي تلتهمها النيران. وبدا كأن الضوء الغريب الناعم وطبيعة المحتويات التي تمتص الصوت، يعزلانهم عن الخطر. أحس روسو بشعور يدفعه إلى البحث عن رف مريح يصعد إليه وينام، لكن لوكا استمر يعرج صعوداً ونزولاً ويصيح مصدراً أوامره شاتماً، ويدمدم متذمراً. هنا تقبع ثروة المدينة المسروقة، أو جزء منها، مكدسة بترتيب؛ واد ضيق يفصل بين مرتفعات من الأقفاص والصناديق على الجانبين وصولاً إلى السقف. ظهرت عربة صغيرة ذات رافعة مشعبة بأصابع فولاذية فسهلت كثيراً تحميل ونقل الويسكي والسكائر والمؤن المسروقة من الأمم المتحدة.

انتقل لوكا وأفراد طاقمه إلى الخارج من جديد وأخذوا يعبئون سيارة الشحن القديمة وهي من نوع زيل، بكل ما تستطيع حمله من السلع المهربة. اشترك روسو في أعمال التحميل. لم يكن خافياً عليه كم تتعارض طبيعة ما يقوم به مع نفسه ومركزه.

لم يكن في وسعه القيام بغير ذلك، أن يحجم عن المساعدة مثلاً، أو أن يسعى إلى الاحتماء في مكان آمن نسبيا ويراقب ما يجري، فمن شأن ذلك أن يثير عداءهم. كان هناك خمسة منهم وكلهم مسلحون. وتساءل عما إذا كان لوكا قد انتبه إلى ما في وضع روسو من مفارقة وسخرية، وعما إذا كان ذلك هو في الواقع بعض إسباب دعوته روسو أساساً إلى الانضمام إليه؛ وإذا لم يكن الهدف التخلص من ضابط

التحري هذا الذي يتدخل في ما لا يعنيه، فالهدف هو توريطه بطريقة ما في أعمالهم وإذلاله وإعطاؤه درساً في الحقائق السياسية في الحياة. وإحدى حقائق الحياة مثلاً، هي أن مستوعباً (كونتينر) واحداً من السكاير يستطيع شراء فترة راحة من القصف المدفعي الصربي مدتها عشرون دقيقة، هدنة لتبادل السجناء أو سحب جثث القتلى.

هذا هو مصدر قوة لوكا، أو جزء منه.

لم تسع الشاحنة سوى جزء بسيط جداً من البضائع، فكان من الضروري القيام بعدة رحلات لإنقاذ محتويات المستودعين. لم يعتقد روسو أن فرص سائق الشاحنة في النجاة كبيرة جداً ولا فرص الرجل الذي يقود الرافعة الشوكية المتشعبة الذي عليه الجلوس في مكان مرتفع معرضاً أكثر من أي واحد منهم للإصابة بالرصاص، بينما يقوم بجولاته المكوكية بين باب الشاحنة الخلفي والمستودع. خلال أحدى جولات سائق الرافعة الشوكية مرَ هذا قرب روسو فالتفت الأخير إليه والتقت عيونهما. كان الرجل هو المسلح الأجنبي الذي تحدث روسو إليه حديثاً قصيراً خارج «منزل القردة.» لم يصدر عن الشاب المقصوص الشعر على نمط البحارة والذي يضع قرطاً في إحدى أذنيه، ما يشير إلى أنه تذكر رجل الشرطة.

مشى أحد رجال الإطفاء إلى حيث وقف لوكا وروسو. سار متمهلاً ناظراً إلى الأرض أمام حذائه وعابساً كأنه مستغرق في التفكير. لم يظهر ما يدل على أن قعقعة نيران الأسلحة الرشاشة وسقوط قنابل الهاون والقذائف الصاروخية كانت ذات تأثير عليه.

- «سننسحب» صاح مخاطبا لوكا بصوت ارتفع فوق قهقهة ألسنة اللهب ودوي إطلاق النار وصرخات رجال الإطفاء.

استدار لوكا نحوه متأهبا لصب جام غضبه الشهير عليه.

لكن رجل الإطفاء أضاف يقول «سينفد منا الماء في مدة عشر دقائق ولا معنى لبقائنا بعد ذلك.» كان رجلاً متقدماً في السن قد يكون استدعي إلى العمل بعد تقاعده؛ وقد تركت الشمس وعوامل الطبيعة الأخرى آثارها على وجهه. بدا فمه ممصوصاً إلى الداخل كأنه خلع أسنانه الاصطناعية خشية أن يبتلعها إذا أصيب.

- «وماذا نفعل بهذين؟» قال لوكا مشيراً بيده إلى مستودعيه.

هز الرجل كتفيه بلا مبالاة، ثم قال «نستطيع المساعدة في أخراج البضاعة لكن إذا اشتد إطلاق النار فعلينا أن نترككم لتتدبروا أمركم.»

عاد رجل الإطفاء إلى رجاله بمشيته المتثاقلة التي تعوزها اللباقة وبجزمته العالية الساقين. هناك شيء في طريقة مشيه ينم عن أنه لا يعبأ بلوكا، وأنه دون شك، لن يعرض حياة رجاله للخطر لإنقاذ صناديق الويسكي والسكاير.

بدات الشاحنة بالتحرك لكن ببطء شديد. عاد لوكا بمشيته المائلة إلى المستودع وتناول عدة «كرتونات» سكاير؛ حذا المسلح الأجنبي حذوه، ثم فتح صندوق توضيب وأخذ يضع فيه ما يمكنه من كرتونات السكاير. ودفع أحدهم بزجاجة ويسكي إلى روسو فحملها بطريقة بعيدة عن الرشاقة وثم ناوله زجاجة أخرى.

صاح لوكا مخاطبا روسو «تعال. فلنذهب.»

انفجرت قنبلة الهاون على بعد ١٥٠ متراً، قرب المدخل الذي كانوا قد اتوا عبره. سقطت على الممر المفروش بالحصباء وهو ارض صلبة باستثناء طبقة الحصى الرقيقة المفروشة على السطح. تبع ذلك وهج من النور الأبيض. شعر روسو بالانفجار ابتداء من أخمص قدميه امتداداً إلى قصبتي ساقيه، وبعد ذلك دوى الصوت. دويٌ معدني شديد، ثم لفحة الهواء القوية الناتجة عن التفجر. وأخذ الدخان يتصاعد ببطء،

حلقات ترتفع إلى أعلى أو إلى خارج المكان بكسل، فهناك متسع من الوقت للقتل. ارتفع صوت خشخشة قوي من السقف فوقهم ورددت الجدران أزيز ما قذفت به قنبلة الهاون في اتجاههم. ضربت قطعة سلك صغيرة ملتوية حذاء روسو العالي الساق. نظر إلى اسفل فرآها هناك، حمراء من الحرارة ولا تزال تصدر هسيساً كفحيح الأفعى على التراب الموحل تحت قدميه. سقطت قنبلة الهاون الثانية على بعد ٥٠ متراً إلى الجهة المقابلة. قدم عملاقة تركل التراب والحجارة وتنثرها حول المكان. بعيدة عن البصر، لكنها على مسافة قاتلة دون شك. العيار ـ ٦٠ ملليمتراً؟ ٨١ ملليمتراً؟

إننا محاصرون. قال روسو في داخله. كان منحنياً شأن جميع الآخرين، انحناء من الخصر ورأسه ممتد إلى أمام كأنه يسير وسط عاصفة. إنني لغبي حقاً فقد أصاب من الخلف. فوق الإلية. الساقين. وعلى رغم ذلك فقد وجد روسو نفسه غير قادر على الوقوف بشكل مستقيم.

القنبلة التالية ستسقط في الوسط، هنا تماماً. وشرع يعدّ كما يعدّ الناس الثواني التي تفصل بين ومضة البرق وبداية قصف الرعد لمعرفة مدى بعد العاصفة.

واحد اثنين ثلاثة أربعة و. . . عندما اصل إلى أحد عشر سيحدث ذلك.

أدت انفجارات قنابل الهاون المدوخة إلى تجدد إطلاق نيران الأسلحة الخفيفة، فكان الرصاص يمر فوقهم مصدراً اصواتاً مختلفة، لكن معظمه كان يمر على ارتفاع أعلى من أن يسبب أذى. من المذهل هذا القدر الكبير من الذخائر والحديد المحمى الذي يحتاج إليه قتل إنسان واحد. أطنان من ذلك.

لم يصل روسو في العد إلى أحد عشر.

ركضوا إلى السيارة قابضين بأحكام على الغنائم. روسو الذي حمل زجاجتين من الويسكي السكوتلندي المعتق ١٢ سنة سعة كل منهما ليتران، قسَم المسافة إلى ثلاث مراحل: عدو باقصى سرعة خروجا من المدخل حتى سيارة الإطفاء، ثم الألتفاف حولها، وبعد ذلك أطول قفزة إلى السيارة. ذلك يشبه لعبة كرة القاعدة (بايسبول)، القاعدة الأولى، القاعدة الثانية، وأخيراً العودة إلى مكانك الأصلي. دار حول السيارة وهو ينزلق وتزل قدمه على الثلج الطري فيشعر به منسحقاً وناعماً تحت قدميه ويرى الوحل يتطاير ويشعر بحبيبات منه على وجهه؛ يشد ببابي السيارة ويفتحهما ويشهق جاذباً الهواء إلى رئتيه من خلال فمه المفتوح ثم يرتمي في الداخل منطرحاً على صدره ليجد نفسه مبللاً بالعرق وما زال ممسكاً بزجاجتي الويسكي.

جرّ لوكا نفسه إلى مقعد السائق رافعاً بيديه الاثنتين رجله المعطوبة بعد سائر جسمه إلى الداخل. ساعده روسو متوليا عنه أمر عصاه. كان الألماني على المقعد وراءهما.

رائع. مسدس في ظهري.

أدار لوكا السيارة. قال«هذا لاندسر. لاندسر، هذا مدير شرطة التحري روسو.»

- «أخبرني» قال روسو واستدار لينظر إلى الألماني «هل تعرف شيئاً عن امرأة تدعى بوكوفاتش؟»

لم يرد لاندسر عليه. نظر لوكا إلى روسو وقال «هناك عمل صغير علينا القيام به الآن.»

فكر روسو بالمرأة وما بقي منها في الحمام. هذا ماتتْ من أجله: أمبراطورية لوكا، وهؤلاء هم قتلتك.

شيء كبير ومثلم انطلق عابراً فوق مقدمة السيارة مصدراً صوت اصطفاق.

وبحركة شبه غريزية رسم روسو علامة الصليب.

كان منظراً هائلاً.

بعد صراع آخر انطوى أيضاً على مرح أوكراني خشن، تمكن فليت من أخراج نفسه من ناقلة الجند المدرعة التي كانت الآن موقفة على منحدر معشوشب خارج منزل/شاليه/جبلي جميل على قمة الجبل نفسها. أول ما خطر في باله قوله لنفسه أي منحدر تزلج رائع كانت هذه التلة قبل الحرب. بدا ذلك المنزل قائماً بشكل متوازن على القمة، يشرف على المدينة التي كانت سطوحها تتلألأ بجمال تحت أشعة شمس الصباح. لا عجب إذا كانت دورة الألعاب الأولمبية الشتوية عام ١٩٨٤ قد أقيمت في سارايفو، فهي الموقع الأكمل. كانت المدينة ممتدة في تجويف يبدو مثل لحاف ألقيَ بغير اهتمام فوق أرجوحة شبكية عميقة. إنها مدرَج رياضي طبيعي. مكان رائع للقتل.

الهضبة الصغيرة مكسوة بالعشب الأخضر. لم يصمد الثلج والجليد إلا في أماكن ظليلة غير مكشوفة، فبقيا قشرة بيضاء ملتصقة بجوانب الصخور والجذوع المحجوبة عن الريح. وانتشرت في المكان أشجار الكرمة والتين. استوقفت فليت الوان الشتاء المشرقة وجمال الجو كله ولم تكن عيناه قد تعودتا على التجول بحرية. شعر بأنه تحرر من شوارع سارايفو الكئيبة.

انتقلوا إلى الداخل، وكانت جدران غرفة جلوس المنزل المبني على نمط «الشاليهات السويسرية» والمطلية باللون الأبيض لاتزال مزينة بصليب عليه المسيح مصلوباً وبرسم لقديس ارتفعت يداه توزعان البركة وقد أحاطت هالة قداسة بطلعته. قال هارت إن المكان كان منزلاً لأسرة من الكروات البوسنيين رحلت منذ مدة طويلة، طاولها «التطهير» وهو يعني بذلك أن أفرادها قتلوا أو أجبروا على النزوح والعيش في مخيم للاجئين. وتناوب على احتلال المنزل الصرب والمسلمون والصرب ثانية

وميليشيا كرواتية. أما الآن فهو مركز لمراقبي الأمم المتحدة، وقد تكومت في الزوايا أحذية وصناديق مؤونة وخرائط وصناديق جعة ومعدات لاجهزة اللاسلكي، وكدست على الدرج المؤدي إلى شرفة الطبقة الأولى. قاد هارت فليت إلى هناك، نظر إلى أسفل حيث كان هجوم لايزال في بدايته تحتهما مباشرة، عند مشارف المدينة الجنوبية الغربية. شاهدا اندفاعات دخانية صغيرة وتطاير غبار نتيجة سقوط قذائف وقنابل هاون في ستوب. المنطقة أرض مسطحة تتخللها مصانع ومستودعات ورقعة غريبة من الأرض القاحلة وجنائن تفاح وأقنية وشعاب من الطرق الضيقة. شرح النقيب هارت لفليت الفرق بين انفجارات قنابل الهاون وقذائف المدفعية: قنابل الهاون تسقط عمودياً، ويرتفع الدخان الذي يبدو مشبعاً بالزيت بشكل متوازن مثل فطر ثخين قصير؛ وتتوزع في مكان سقوطها بشكل دائري. لكن القذائف المدفعية تندفع إلى الأمام، في انحناء، أما الدخان وشظايا القذائف فتدور منطلقة إلى أمام كما يفعل المرء وهو يكنس بفرشاة الغبار عن أرض المنزل.

الحمدلله أنني هنا في هذا المكان المرتفع ولست في الأسفل.

أزّت رصاصة منهكة القوى وهي تمر بينهما في طريقها إلى السقوط. وجه هارت نحوها صفعة بكف يده كأنه يضرب بها زنبوراً مزعجاً. لم يستطع فليت أن يعرف ما إذا كان النقيب هارت قد استطاع أن يتوصل عن عمد إلى جعل تحركاته بطيئة أم أن تعرضه للأخطار كثيراً وطويلاً جعله لايهتم بها.

ـ «اللعنة، انظر إلى هناك، هلا فعلت؟ رجال لوكا يقومون بهجوم آخر» قال هارت وهو يشير إلى جهة اليمين. كل ما استطاع رؤيته هو تلك النقاط الضوئية الصغيرة وذلك الضوء المتقطع الذي ينتج عن إطلاق نيران الأسلحة الخفيفة، والسديم الذي يحدثه القصف المدفعي ينتقل بهدوء من مكان إلى آخر. كل شيء يتحرك ببطء في نور

الشمس، وبدا الأمر مثل مشاهدة مباراة «كريكيت» إنكليزية؛ هادئاً جداً وسلمياً جداً، وبعيداً جداً، وخالياً من الأذى. كان الصوت والفعل مكتومين خافتين بصورة من الصور. لم ير ما يشير إلى أي مخطط للمعركة ولم ير خط جبهة ولم يستطع التمييز بين عدو وصديق. وبدا الأمر له غير معقول ودون معنى.

ـ «إنها عبثية إلى اقصى حد» قال الكابتن هارت.

ـ «ماالذي تعنيه؟»

ـ «أعني» قال النقيب هارت «أعني» وأوحى تشديده على كلمة «أعني» بأنه يعتقد أنه يتحدث إلى شخص ذي مستوى ذكاء متدن جداً أو إلى شخص تافه إلى درجة أنه لا يستحق أن يضيع حكمته عليه. واكمل «ان البوسنيين لديهم الرجال ولايملكون القوة النارية؛ ولدى الصرب القوة النارية وليس لديهم الرجال. المسألة عبثية لأن» وهنا شدد على كلمة «لأن» واكمل «لأن البوسنيين سيخسرون دائماً عندما يضعون اللحم والعظم في مواجهة القوة النارية. يضاف إلى ذلك ـ كما تستطيع أن ترى بنفسك ـ أنهم لا يعرفون كيف يشنون هجوماً جديراً بالاحترام. ليست لهم معرفة بالنيران والتحركات. خططهم التكتيكية سيئة جداً.»

كان الكابتن هارت يدخن باستمرار، يشعل سيكارة جديدة من عقب لفافة لا تزال بين شفتيه، وبدت أصابعه ملطخة بالنيكوتين الأصفر.

تحول نظر فليت عن ومضات إطلاق نيران الأسلحة الرشاشة والأشكال البشرية التي تبدو في حجم النمل وتثب من مكان إلى آخر، وسحب الدخان والغبار والالتماعات الحمراء البطيئة التي تحدثها انفجارات القذائف، إلى حيث السنة اللهب تندلع بسرعة من مستودع ما وتندفع إلى أعلى حيث الدخان الأسود يلتف متعالياً في السماء الزرقاء لينضم إلى العديد من مواكب الدخان والغبار المتتابعة الصادرة عن ساحة

القتال مغلفة بطبقة دخانية رمادية.

كأنها لعبة حرب بجنود من الدمى.

عند ذلك شاهد السيارة، ملساء ورمادية تتحرك بسرعة خارجة من المنطقة الصناعية وتنسل مبتعدة عن المدينة.

إنها سيارة لوكا المرسيدس. ابن الزنا المجنون. شعر فليت بأنه إذا ألقى حجراً من أعلى إلى أسفل فلربما استطاع أن يجعله يسقط قرب السيارة، يحذره، توقف، إنك سائر إلى معمعان المعركة.

ـ «اللعنة» قال النقيب هارت بعد أن سحب نفساً قوياً من سيكارته. «لقد خسر رجال لوكا عشرات منهم من يوم أو يومين إلى الآن، ومن أجل ماذا؟ لم يتبدل شيء على الأرض إطلاقاً. يسيطرون على بضعة أمتار في الصباح ليفقدوا السيطرة عليها بعد الظهر. اللعنة.»

الرشق الناري الصادر عن رشاش آلي والذي جعل الرصاص يجتازهم بسرعة وعلى بعد بضع أقدام فقط عنهم لم يظهرله أي تأثير على هارت. أما فليت فاجفل، فلا حيلة له في الأمر. سأله هارت بلهجته الأوسترالية«ما رأيك، يا صاحبي، في زجاجة بيرة؟»

حمل تقلص الخطر المباشر، وأن موقتاً، شعوراً عميقاً بالهدوء والارتياح. شعر روسو بأنه مستكين مستسلم إلى كل ما قد يأتي. ما الذي عناه لوكا بقوله«عمل صغير.؟» انحنى روسو إلى الوراء في مقعده وأرسل بصره إلى أعلى، ينظر إلى الفضاء والتلال، إلى البيوت باسطحها الملتوية المنبعجة وجدرانها المسودة الخالية من النوافذ. إنها تخفي قناصة دون شك. لكن حتى هذه الفكرة لم تستطع أن تثير في نفسه حالة من القلق. شعر بما يشعر به شخص اكمل لتوه تمرينا جسديا مرهقا، بذلك الإحساس الغريب بالخدر، بالسعادة الناتجة عن الخدر الجسدي.

لو كنت أستطيع حين يأتي الموت، أن أموت دفعة واحدة بسرعة،

قال لنفسه. دون أن أصرخ من الألم أو أصبح موضع سخرية متلوياً مثل حيوان ومتمرغاً في دمي على الأرض، وليس مثل بوكوفاتش مضروباً ومخنوقاً وغارقاً في الدم والبراز.

ماذا لو جيء به إلى المستشفى على حمالة ملطخة بالدم من حمالات نقل الجرحى ورفع نظره ليرى ميسيتش مرتدياً قفازيه وقناعه ويحمل مبضعه ناظراً إليه وهو على وشك البدء بشقه؟

نحن مجموع أجزائنا وأعضائنا، وأعضاؤنا وأجزاؤنا ليست خاصتنا؛ ساقاي هما ساقاً أبي. أصابع قدمي المربعة الأطراف هي أصابع أمي، ويداي النحيلتان لجدتي والدة أمي، وأنفي الأقرب إلى الانتفاخ هو أنف جدي. ليس هناك ما هو لي. لقد ورثت أجزاء وقطعاً من الآخرين، شللاً من الأفكار، من النخاع والأنسجة وغيرها، فعليّ إذن ألا أخاف من أن أخسرها بمبضع ميسيتش. إنها تعيش من خلالي طالما أنا حي. إنها تموت، وأنا لكوني محصلة مجموعها أموت أيضاً بسبب ضعف آلي أو جينة (مورثة) ضعيفة.

هناك أجزاء مني، التواءات خلايا، تملؤني بالرعب، خشية أن أصبح أنا أبي. إنه فيّ دون شك. لا يمر يوم دون أن أتعرف إليه فيّ. والذي جعله ما كان عليه قد يجعلني أنا أيضاً، إذا سمحت بذلك.

الموت ليس سيئاً إلى هذا الحد. هناك في الحياة أمور أشد سوءاً منه.

أوقف لوكا السيارة إلى جانب الطريق مندفعا بها حتى الحافة ساحبا روسو وبشدة من أحلام اليقظة التي غرق فيها. أبقى لوكا المحرك دائراً، وعينا رجل العصابات مركزتان أمامه على المرآة التي تجعله يرى ما وراءه. لاحظ روسو دون شك إنهم غادروا الطريق الرئيسية في نقطة ما لكن استغراقه في أفكاره جعله لا ينتبه إلى انتقالهم من تلك الطريق. لم يضطروا إلى الانتظار طويلاً، فبعد ما لا يزيد على دقيقة تجاوزتهم سيارة

الشحن التي تنقل القسم الأكبر من السكاير والويسكي ثم تباطأت وتمايلت متوقفة على بعد حوالي خمسين متراً منهم. بدا أنهم توقفوا في طريق قرية صغيرة في الريف، واحدة من تلك القرى التي ستصبح مع مر الزمن جزءاً من المدينة. إلى جهة اليمين ثلاث شجرات سنديان مزقتها نيران القذائف.

أمامهم مباشرة على إحدى الزوايا منزل وحيد محاط من بعض جهاته باشجار فاكهة لكنه دون سقف. هو بالفعل مجرد هيكل بيت. بوابة مدخل السياج انحنت مترنحة على مفاصلها المحطمة. فتح لاندسر باب السيارة ونزل منها. توقف قليلاً ليشعل سيكارة ما لبث دخانها الحاد أن اندفع إلى داخل السيارة. جلس لوكا مستقيما قابضا على المقود بيديه وهو ينتظر.

كان المكان هادئاً وساكناً في صورة غيرعادية. لا منظر ولا صوت لحيوانات زراعية، ولا دجاج ينقد التراب ولا غسيل معلقاً ليجف ولا حتى قطة تتشمس.

كان هناك علم كرواتي ممزق ومتسخ بالوحل يخفق ببطء على سلك تليفوني يمتد فوق الطريق. لم يكن خطاً تليفونياً عادياً إذ لم يكن مربوطاً إلى أي عمود تليفون استطاع روسو أن يراه. كان خطا أرضيا، خطاً تليفونياً عسكرياً رفع فوق الطريق ليربط مقر قيادة ما بجبهة القتال.

كان القتال يشكل صوتا مستمراً، قعقعة ودوياً، صوتاً مكتوماً، هزيم رعد، ارتطاماً وتحطماً، وكلها تبدو للأذن جوفاء كأنها مجرد أصداء. خرج مقاتل من وراء السياج المخرب في الجهة الأمامية للبيت ونظر ملياً إلى سيارة الشحن وإلى المرسيدس ثم أختفى. وبعد بضع لحظات عاد مع اثنين آخرين. بدا عليهم أنهم مزارعون وقد ارتدوا بدون عناية، ثياباً لا تتناسب مع أجسامهم هي مزيج من الألبسة العسكرية والمدنية. عندما وصلوا إلى سيارة الشحن اصبحوا على مقربة

من روسو فاستطاع أن يميز شاراتهم التي تدل على أنهم من من ميليشيا الكروات البوسنيين، والتي تحمل صورة الترس الكرواتي ذي المربعات الحمر والبيض والشبيهة بلوح لعبة الداماً. حمل أحدهم نوعاً من المسدسات الرشاشة أو رشيشاً ركب له جهاز طويل لكتم الصوت شبيه بأنبوب. وحمل آخر بإعتزاز وشغف كما يحمل الأهل أطفالهم، بندقية صيد نشر قسم من ماسورتها، وهو يضمها بذراعيه إلى صدره.

كان هذان النوعان من السلاح مخصصين للاستعمال عن قرب، من أجل عمليات «التطهير» وللانتقام، للقتل ولإثارة النزاعات، لتوسيعها، لخلقها. من أجل أن تتحقق أساطير الكراهية في البلقان. قام سائق سيارة الشحن واثنان من رجال لوكا بسحب التاربولين المشمع الذي غطيت به الشاحنة وفتحا بابها الخلفي. صعد الكرواتيون إليها وبدا أنهم يتحققون من الحمولة. كانوا يعملون بتؤدة، وقام رجال لوكا بإشعال سكايرهم وهم يتسمون ويتبادلون المزاح مع الكرواتيين.

قال روسو لنفسه إنهم يعرفون بعضهم بعضاً، وهذا الحدث منظم دون شك ويتكرر باستمرار؛ وابرز أحدهم زجاجة كحول.

اصدقاء قدامى. تناوبوا على الزجاجة وكل منهم يرفعها إلى أعلى ويضع فوهتها في فمه شارباً منها، ثم يمسح الفوهة بكمه قبل أن يناولها للرجل التالي.

قال لوكا دون أن يلتفت «اترى الآن كيف هي الحال أيها الشرطي؟ إننا نشتري ذخائرنا وأسلحتنا من الكرواتيين والصرب أيضاً.»

ـ «بالمساعدات الغذائية التي تقدمها الأمم المتحدة؟»

ـ «أحياناً نشتري طعاماً وأحياناً نشتري ذخائر. أيا من الأثنين كنت تشتري لو أنك مكاننا؟»

ـ «الاثنين»

ـ «وإذا لم يكن هناك ما يكفي للاثنين فما الذي كنت لتشتريه عند ذلك، أسلحة أم زبدة؟»

كانت يدا لوكا على مقود السيارة وهو يضرب برفق باصابعه على المقود، وبقيت عيناه مركزتين على الكرواتيين وسيارة الشحن.

ـ «إنك لا تجيب. لا يمكنك أن تجيب. أنت رجل مبدأ أيها الشرطي، رجل قانون. ترفع لواء القانون وتتأكد من المحافظة على النظام. امثالك يعملون للتأكد من من ابقاء أمثالي خارجاً كي يستطيع الكبار أن يعبئوا جيوبهم، أليس كذلك؟»

ـ «أنا لا أرى المسألة على هذه الصورة.»

ـ «لا. لا تراها»

رفع لوكا يده اليمنى عن مقود السيارة وادار كفه إلى اعلى فجعلها على شكل كأس ومد يده فوصلت إلى مقربة من وجه روسو.

ـ «والآن، فهؤلاء المتأنقون الذين يدفعون لكم رواتبكم يأكلون من يدي. أنا أطعمهم. أنا أسلحهم. أنا أقدم لهم الرصاص. رئاسة الدولة تحتاج إليّ وإلى رجالي، كل يوم يطلبون مزيداً من المقاتلين، وكل يوم يموت مزيد منهم. وعلى رغم جميع قوانينكم وحكومتكم الحاذقة ورؤسائكم، فانهم يلجأون إليّ. إليّ أنا.»

وضبط لوكا نفسه.

«قل لي أيها الشرطي. إذا سرقت وغششت وقتلت من أجل إنقاذ هذه البلاد فهل أنا بطل أم شرير؟ إذا سرقت من الناس لأدفع ثمن القذائف المدفعية فهل أنا مجرم؟ إذا سرقت من الأمم المتحدة للإبقاء على حركة الحياة في المدينة فهل أنا لص؟ هل تقف مكتوف اليدين تشاهد عزيزتك تانيا تموت جوعاً أم تسرق كي توفر لها الطعام؟ لقد شاهدتنا اليوم. هناك أمامك تماماً. إننا نبيع سلعاً مسروقة لقاء ذخائر.

انظر بنفسك وقل لي الآن الست جيداً بما يكفي لجعلي صالحاً لعزيزتك تانيا؟»

ـ «إنها ليست عزيزتي تانيا»

ـ «آه، صحيح؟» قال لوكا وقد تحول شكله عما كان عليه وبدا ضارياً، ثم حاول دفع روسو بمرفقه لكن ضابط التحري تحاشى ذلك بسرعة.

نظر روسو أمامه مباشرة دون أن يتكلم.

ـ «إنها من بيلينا، أليس كذلك؟»

لم يجب روسو.

ـ «كان والدك من حرس وافن النازي «القمصان السود» أليس هذا صحيحا؟»

أحس روسو بالدماء تتجمع في وجهه.

ـ «الفرقة الجبلية السابعة؟»

لم تصدر عن روسو أية أشارة توحي له بأنه مصيب.

ـ «كان مركز الفرقة السابعة هناك سنة ١٩٤٣، ألست محقاً؟»

ـ «وما في الأمر إذا كان كان هذا صحيحاً.؟» كان يدور في ذهن روسو أن لوكا على حق، فقد كانت الفرقة السابعة هناك سنة ١٩٤٣ وسرعان ما هرب معظم أفرادها وانضموا إلى رجال المقاومة. لكن والده لم يفعل.

ـ «اعذرني، فليست لي ثقافتك» قال لوكا بلهجة ساخرة. «مجرد نظرية صغيرة هي أن الشعور بالذنب يتأكلك. في إمكان شخص مثلك أن يكون مفيداً جداً، لكنك منهمك إنهماكاً شديداً في دفن الماضي. انك تمضي كل وقتك حاملاً صليبك اللعين إلى الجلجلة. أتعرف.. لا

أحد يهتم، لأننا منشغلون جداً بسعينا إلى النجاة بجلودنا وأنت في عالم آخر. قل لي أيها الشرطي بماذا تؤمن؟ بالله؟» ونطق لوكا بالكلمة كأنها شتيمة. ثم أضاف «أم أنك تؤمن بالحزب؟

ـ «قل لي لماذا قتلت طبيبة الأسنان»

أرسل رسو بصره بعيداً عن لوكا، نحو الرجال عند باب سيارة الشحن الخلفي. كانوا يحملونها الآن بصناديق ذخيرة، صناديق خشبية طويلة بمقابض من الحبال، وكل رجلين منهم يحملان صندوقاً.

سأله لوكا مرة أخرى «ما الذي تؤمن به؟»

ـ «أؤمن بأن يكون لي عمل وبيت أعود إليه، دون خوف من جاري ودون أن يخاف جاري مني.»

قال روسو في دخيلته إنه لم يحسن التعبير بما يكفي، لم يعرف الكلمات المناسبة. كان يقصد بقوله أن يعيش الإنسان دون استبداد، حراً في أن يتصرف بحياته كما يحلو له دون أن يكون مضطراً إلى الحصول على إذن من أحد.

سأله روسو «أين فاسيتش؟»

ـ «لا أعرف أحداً باسم فاسيتش»

ـ «المفتش في شرطة التحري فاسيتش، الذي تركته في الشقة حيث قتلت المرأة»

ـ «هل سألت عنه في بيته؟»

ـ «لا»

ـ «ربما كان في منزله مع زوجته، والأرجح إنه سئم من تركه في شقة مظلمة شديدة البرودة تقع على خط القتال مع جثة تسليه، فغادر المكان إلى منزله»

ـ «ما الذي فعلته بالجثة؟»

لم يحر لوكا جواباً.

ـ «دفنتها ليلاً؟ أغرقتها تحت الجسر؟»

في هذه الاثناء كان لاندسر يسير عائداً نحو السيارة.

ـ «كان هناك» قال روسو مشيراً باصبعه إلى المسلح الآخذ بالاقتراب من السيارة.» كان رجلك هناك، ورفض إدخالنا في المرة الأولى. هل هو الذي قام بعملك القذر. هل قتلها؟»

ولم يجب لوكا.

ـ «ما الذي فعلته بها؟»

كان جواب لوكا أنه هز رأسه.

أسند لاندسر رأسه إلى المرسيدس وهو لا يزال يدخن ورشيشه على سطح السيارة وفوهته موجهة إلى سيارة الشحن وإلى البيت المخرب وراءها.

ـ «هذا هو الجزء الصعب» قال لوكا. «هذا هو الوقت الذي يتحركون فيه إذا أغرتهم أنفسهم بالتحرك.»

أدرك روسو أن الألماني يتولى ضمان حسن سير الأمور، ويقف على استعداد لإطلاق النار إذا ظهر ما يشير إلى متاعب.

قال لوكا «كروات الهرسك هؤلاء يمكنك وصفهم بأمور عديدة لكن ليس بالغباء. إنهم يشاهدون الجنود ينسحبون ويستمعون إلى الراديو، وإلى الأميركيين والأوروبيين يتجادلون. وهم يعرفون أن حلف شمال الأطلسي والأمم المتحدة ليسا على اتفاق.

ويعرفون أن جميع رجالي تقريباً موجودون في جبهة القتال. وما الذي يفعلونه؟

إنهم يرفعون أسعارهم. وماذا يفعلون عندما لا نستطيع الدفع؟ يطلقون علينا النار ويستولون على البضاعة، يحملون ما يستطيعون الحصول عليه قبل أن يتدخل جوني الصربي.» ويضحك لوكا ضحكة خفيفة كأن التفكير في هذا الأمر يعطيه شيئاً من اللذة.

«ولو كنت مكانهم لما فعلت غير ذلك» قال لوكا بهدوء ولمس مفتاح إدارة السيارة كأنه يتأكد من استطاعته الخروج من هناك بسرعة إذا ساءت الأمور.

أشرفت عملية التحميل على الانتهاء.

عاد لاندسر إلى السيارة واعطى لوكا قصاصة من الورق ما لبث الأخير أن أراها لروسو. كانت صفقة اليوم مدونة على قطعة ورق بدت كأنها انتزعت من دفتر فروض مسطّر الصفحات يعود لولد صغير.

أدرجت المواد والمعدات الحربية بترتيب في عمود خاص وجاءت كما يلي:

١٧٠٠٠ طلقة رصاص من عيار ٦٢.٧ ملليمتر. و١١٠٠٠ طلقة رصاص خطاط من عيار ٦٢,٧ ملليمتر. ١٣٠٠ طلقة من عيار تسعة ملليمترات. و٣٢٠ قذيفة مضادة للطائرات. و٣٤ قذيفة صاروخية و١٧ قنبلة هاون من عيار ٦٠ ملليمترا. و٤٣ قنبلة انشطارية و١٣ لغماً مضاداً للدبابات من صنع صيني و٣٥ كيلوغراماً من المواد المتفجرة الصناعية و٢٢٠ متراً من قطن البارود الشديد الانفجار و٢٢ صاعقاً كهربائياً.

«أترى؟» قال لوكا رافعاً الورقة بيده.

«والآن إلى أين؟» سأله روسو.

استدار لوكا في مقعده وغمز للاندسر بعينه.

- «إذا لم يكن لديك ارتباط مهم أيها المدير فإننا سنقوم بعمليات

توزيع، إذا لم يكن لديك مانع.» كانت كلمات لوكا تسخر منه.

- «وهل لديّ خيار؟»

- «إنه يفهم بسرعة مدير بوليسنا، أليس كذلك؟»

«دون شك أيها الرئيس» قال لاندسر بمرح وعيناه الشاحبتان مركزتان على الطريق أمامهم.

«أعتقد أنك ستسر بالجولة» قال لوكا.

الفصل العاشر

«جريمة قتل واحدة تصنع مجرماً، ومليون جريمة تصنع بطلاً.»

بايلبي بورتيوس، «الموت»

انتشرت الخنادق وحفر المناوشات على امتداد خط أشجار التفاح متعرجة في امتدادها عبر الطرف الأقصى للحديقة. أما الأشجار نفسها فكانت شبه عارية، وأغصانها رمادية كئيبة وجذوعها صقيلة سوداء تطل جذورها من أرض رطبة موحلة وغير مستوية بينما جعلت ضربات المطر والثلج العشب مسطحاً في مستوى الأرض وزلق الملمس. سمع روسو إطلاق نار متقطعاً؛ صوت الفرقعة المزدوج الذي يصدرعن طلقة كلاشنيكوف، الدوي المكتوم لانفجار قذيفة صاروخية، التموجات السريعة لطلقات رشاش آلي في رشقات سريعة قصيرة مثل صوت تمزق ثوب إنما أشد قوة وحدَة، برَب برَب برَب. قال لاندسر دون أن يكون كلامه موجهاً إلى أحد معين إن قتالاً يدور على بعد نحو ٤٠٠ متر إلى جهة اليمين من المنطقة الممتدة أمامهم، وفي الساعة الثانية.

وبدت لهم مبان قليلة الارتفاع من خلال الأشجار في ذلك الاتجاه، وقطعة سماء زرقاء، وشيء أحمر يخفق على حبل غسيل. الأحمر الدموي، الأحمر لون الصرب مقابل الأخضر لون المسلمين والأسود اللون الذي اختاره الكرواتيون. جداول بيضاء من الثلج وجذوع مقطعة

سوداء وأشجار ممزقة وارض بقرت هنا وهناك فخرج باطنها إلى سطحها، وأحذية تعلق في الوحل. صوت الماء المتساقط من ذوبان الثلج قطرة قطرة، وبقع رطبة من نور الشمس الضعيف. إذن هذه هي ساحة القتال قال روسو لنفسه، هكذا هي، لنا ولهم.

أدرك روسو ان صوت الدمدمة وأصوات تقطع الغصون الصغيرة فوقهم إنما هي اصوات الرصاص الوارد إلى الجهة التي هم فيها، لكنه كان أعلى من أن يسبب أذى. نظر حواليه وعيناه تفتشان عن مكان للاحتماء. لم تكن الأرض تغري بالانبطاح عليها فهي شديدة الرطوبة ومسطحة إلى درجة لا يعود الانبطاح عليها ذا فائدة كبيرة وهذا أسوأ ما في الأمر. ليس مهماً أن ابتل إذا كنت سأبقى على قيد الحياة بعد ذلك. إنها أرض مشجرة أشبه ببستان؛ هجمات قصيرة قاتلة، مشاة يهجمون في رعب على مشاة آخرين قابعين ينتظرون برعب أيضاً. اسيجة تفصل بين الواحد منها والآخر بضعة امتار. بوسعك ان تسمع صوت تنفس رجل يقبع في حفرته وراء السياج أمامك مباشرة، أهو عدو أم صديق؟ إنه أيضاً يتساءل مثلك وسبابته حول الزناد منتظراً أن تسعل أو تعطس كي ينهض على ركبيته في الوحل ويزرع فيك بضع رصاصات، وبسرعة قبل أن تسبقه أنت إلى ذلك. أطفال في سن الرشد يلعبون لعبة «الغمَيضة» أو اللصوص ورجال الأمن، بانغ.. بانغ، وتقع ميتا. لكن الميت هنا لا ينهض بعد قليل كما في اللعبة. إنها أرض قاتلة، هذه الأرض، كل كتلة من العشب فيها تكلف السيطرة عليها ثمناً باهظاً، وخسارتها سهلة جدا.. ليس فيها من ساحات القتال مقدمة ولا مؤخرة، لا ميمنة ولا ميسرة.

قتل فحسب.

فكر ضابط شرطة التحري بنور الصغيرة وتلك الطبقة الرمادية من «المياه الزرقاء» الأخذة بالتجمع على عينيها، وبثيابها المرقعة وشعرها

المتسخ المعقود في مؤخرة رأسها بشريط قديم. وفكر في محمود القوي البنية، الشجاع الأصلع.

وفي فاسيتش وفوزه في معركته مع فقدان الشهية إلى الطعام دون أن يربح الحياة نفسها، وفي سابينا وهي تترنح سكراً وتتمايل على قدميها بشكل خطر وتقهقه ووجهها قناع من مستحضرات التجميل التي طلي بها بشكل غير صحيح، وبتانيا، جريئة متحدية، وجهاً شاباً جعلته معرفته الوثيقة بالموت يشيخ قبل الأوان، وفكر في ميسيتش وهو يبدو مثل احد نبلاء الرومان في رداء الجراحة الطبي الأبيض، وبطبيبة الأسنان بوكوفاتش أو ماتبقى منها. ترى هل دفنوها؟ هل احرقوا جثتها؟

هل تركوها في حقل الغام؟

وفجأة بدا له سبب مجيئه إلى هذا المكان بعيداً جداً.

كان لوكا قد خرج بالمرسيدس من الطريق الضيق إلى ممر بدا

طريقاً لأرض زراعية. كان هناك على احد جانبي الممر سياج خشبي وحاجز مؤلف من شجيرات على الجانب الآخر. العشب الذي يصل ارتفاعه عادة في أيام الصيف إلى مستوى خصر الإنسان ويمتلئ بالأزهار البرية والفراشات والجنادب، تحول إلى حصير قذر موحل من التراب والثلج. ليس هناك مايمكن الاحتماء به سوى منزل صغير حديث مطلي باللون الأبيض زخرفت جدرانه بالجص ورصفت المنطقة الواقعة أمام مدخله بشكل غريب غيرعادي، وفي الحقل الواقع خارج السياج مرحاض خارجي غير مكتمل البناء؛ ثلاثة جدران مصنوعة من الإسمنت ونفايات المعادن وسقف من الصفيح المموج.

أخرج لوكا نفسه من وراء مقعد القيادة ونزل من السيارة رافضاً بسيل من الشتائم عرض الألماني أن يقدم له مساعدة، ومضى يعرج

مستعيناً بعصاه جاراً رجله المعطوبة وراءه متجهاً إلى المرحاض. كم يكره وضع العجز الذي هو فيه. عندما وصل لوكا إلى هناك اسند ظهره إلى جدار الدعم الإسمنتي ثم أسند إليه عصاه وأشعل سيكارة. شدَ وشاحه حول عنقه إذ بدأ له الجو بعد خروجه من السيارة أكثر برودة مما هو فعلاً. توقفت الشاحنة وبدأ الجميع باستثناء لوكا وروسو ينزلون منها الذخائر ويخزنون قسماً من الصناديق الخشبية الطويلة في مبنى المراحيض. كان معظمها ذخائر لإسلحة خفيفة ومعها نحو ١٢ قذيفة صاروخية. بعد فترة قال لوكا «يكفي» فعاد الرجال إلى سيارة الشحن التي سارت إلى الخلف بسرعة إلى أن وصلت إلى الطريق واتجهت إلى حيث تجري المرحلة الثانية من التسليم، والعرق يتصبب من وجه السائق الجالس وراء زجاج الشاحنة الأمامي القذر وهو يشغَل محولات السرعة بأقصى طاقاتها سعياً إلى الخروج من المنطقة بأسرع ما يمكن.

هذا هو ما يطلق عليه اسم جبهة قتال ـ يطلق عليه ذلك كما شرح لوكا، لأن ما يسيطر عليه رجاله هو إصبع من الأرض الضيقة يحيط به العدو من جانبين ولا يبعد أكثر من بضع مئات من الأمتار عن الطريق الوحيدة التي يمكن الوصول من خلالها إلى سارايفو. لم تكن هذه جبهة قتال حقيقية، فجميع الطرق الأخرى كانت بأيدي الصرب وهذه الطريق نفسها تقع في نقاط مختلفة، منها تحت سيطرة قوات الكرواتيين والمسلمين أو تحت سيطرة الجماعتين معا. لم تكن مثالية أو مفتوحة أو حرة ومع ذلك فقد كانت نوعاً من شريان حياة، وكان الصرب يسعون جهدهم إلى تغيير ذلك كله وإلى شد الخناق حول المدينة درجة أخرى، شدة أخرى للمخنق الحديدي.

وبينما كان لوكا يتكلم ظهرت امرأة، كأنها خرجت من لا مكان. بدا واضحاً أنها زوجة مزارع بل ربما كانت هي المزارع نفسه. كانت ترتدي وزرة مزخرفة برسوم زهر دوار/ عباد/ الشمس وتحمل كا بدا سلة فواكه كبيرة. اجتازت الحقل ببساطة قادمة من البيت وكأنها غافلة

عن أصوات الرصاص ودوي نيران الأسلحة الكبيرة في الجو فوقها وبين أشجار حديقتها. أرادت أن تصافح لوكا، ولا ريب في أنها شاهدت السيارة وعرفت من هو ذلك الشخص المعوج الذي خرج مسرعا منها.

كانت في منتصف العمر، قصيرة بدينة ترتدي حذاءً من المطاط ومعطفاً قديماً من من جلد الغنم فوق كتفيها. وبدت وهي تبتسم صورة تجسد الحيوية الريفية. تكلمت بسرعة وبلهجة ريفية متثاقلة عند أطراف الكلمات، وحروف العلة فيها مرققة مقطعة، بينما كانت تدفع بالسلة إلى لوكا، ثم ابتسمت وأحنت رأسها في ما بدا انحناءة احترام. شكرته لإنقاذه عائلتها من العدو. إنه لشرف لها أن تستقبله. سألته هل يقبل تناول الطعام مع عائلتها؟ أو تناول القهوة على الأقل؟ إن لها ابناً في الجيش هناك في الشمال، قالت. ولها ابنة تعمل ممرضة في أحد مستشفيات المدينة، وعدد أولادها ستة. وجهها مستدير وعيناها براقتان وشعرها مفروق في الوسط وقد ضفر في جديلة رفعت إلى أعلى بدبوس. رد لوكا عليها بكياسة عرض عليها أن يواكبوها في عودتها. ابتسمت وهزت رأسها نفياً ثم لمست يده بخجل وسارت عائدة إلى منزلها.

حبس روسو أنفاسه. اللهم أرجوك احمها ولا تتركها تصاب.

تسلقت درجات السلم إلى الباب الأمامي لمنزلها واختفت في الداخل.

«يا مريم يا أم الله» تمتم روسو، والتفت فرأى نظرة لاندسر المركزة عليه. كانت نظرة تأملية. كان الألماني يدخن بهدوء وعيناه الزرقاوان خاليتان من أي تعبير.

شرعوا بعد ذلك في تناول الفواكه، لوكا يقوم بقطعها، وروسو معهم على الرغم من نفسه.

ـ «هذا» قال لوكا وفمه ممتلىء بالتفاح، وهو يدفع بسكين الجيب نحو وجه روسو للتشديد على كلامه «هذا هو عالمي، وليس عالمك. هنا ـ هنا تسير بموجب قوانيني.»

لم يجب روسو.

«هنا شارتك ومسدسك ليسا سوى هراء. لا شي. إنهما لن يحمياك من الرصاص.

الصرب لا يهتمون ورجالي لايأبهون أيضاً. و لماذا يأبهون؟ ما الذي تمثله انت بالنسبة إليهم؟ مجرد وجه لسلطة لحق بها العار منذ زمن طويل. حياة زرية لعينة. أين كان رئيس جمهوريتك العزيز عندما نشبت الحرب؟ يتحدث في السلام. ثقوا بنا، قالت الحكومة.»

وحشا لوكا فمه بمزيد من التفاح وفكه يصعد ويهبط تحت جلد وجهه.

كان هناك في قعر السلة جبن وخبز. سال لعاب روسو ولم يستطع منع نفسه من ذلك.

قسم لوكا الرغيف إلى ثلاث قطع متساوية ثم قسم الجبن.

«خذ» قال بلهجة آمرة.

أكل روسو بسرعة، وهكذا فعل الثلاثة، التهموا الجبن والخبز التهاماً، الخدود تنتفخ والفكوك تقضم وتمضغ بقوة دون أى كلمة؛ إنها عادة الرجال الذين لا يعرفون متى يقاطعهم أمر ما أو متى تتاح لهم فرصة أخرى لتناول طعام.

عندما انتهوا هز لوكا السكين في وجه روسو مرة أخرى لكن لهجته كانت ودية إلى درجة كبيرة.

ـ «الأمر كله في غاية البساطة أيها الشرطي. اسأل نفسك هذا

السؤال: ما الذي يستطيع أكثر من أي أمر آخر أن يجعل الغرب يساعد البوسنة؟»

- «لا شيء» قال روسو «فلا يوجد هنا نفط ولا ذهب ولا يورانيوم. لاشيء يكسبه أو يخسره.»

- «أرجو أن تكون على خطأ أيها الشرطي. هناك شيء واحد فقط يهتم به من يكتبون العناوين الرئيسية في الصحف والمؤلفون التافهون وجماعة التلفزيون: ساراييفو. ولهذا السبب هم هنا، أترى؟ إنهم لا يهتمون بامر غورازدي لإنهم لا يعرفون أين تقع، وكيف الوصول إليها إذا كانوا يستطيعون الوصول وهم لايستطيعونه، بل إنهم لا يحسنون أن يلفظوا اسمها بطريقة صحيحة. والأمر نفسه ينطبق على مئة مدينة وبلدة أخرى. افهمت؟»

أطبق السكين دافعاً بالنصل إلى داخل الغمد الخشبي ثم دسها في جيبه. «لكن الجميع سمعوا بساراييفو. يعرفون كلهم الأرشيدوق والرصاصة التي كانت شرارة الحرب العالمية الأولى، وعن الدورة الأولمبية الشتائية عام ١٩٨٤، وقد شاهدوا داخل غرف جلوسهم صور الأطفال القتلى في الشوارع. أليس هذا صحيحاً؟ ألست على صواب؟»

أومأ روسو برأسه موافقاً.

- «ورقتنا الرابحة هي ساراييفو. ولذا فالحكومة بحكمتها اللامتناهية قررت استعمال ساراييفو كطعم. إنهم من خلال سحب الجنود النظاميين إلى خارج المدينة بنقلهم شمالاً من أجل هراء يسمونه هجوماً ما، يأملون باغراء الصرب بالسعي إلى الاستيلاء على المدينة. إنهم يدعون الصرب إلى الحفل معنا، أليس كذلك يا لاندسر؟»

لم يصدر أي جواب عن الألماني الذي ظل يحدق في المجال الواقع الممتد أمامه وعقب سيكارته المشتعل يكاد يصل إلى شفتيه ويحرقهما.

ـ «الأمر اشبه بطائر يجر جناحه على الأرض متظاهراً بأنه جريح ليجذب مهاجماً مفترساً ويبعده عن عشه» قال لوكا. وأضاف «أتفهم أيها الشرطي؟ لم يعد هناك غيرنا. أنا الطعم. وكذلك هو» وأشار بيده إلى لاندسر. «وكذلك هي حالك أيضاً يا صديقي.»

ابتسم لوكا ابتسامة عريضة وقال«هذا جيد، أليس كذلك؟»

ـ «لماذا تخبرني ذلك؟»

هز لوكا كتفيه.

ـ «أريدك أن تعرف، أن تقدِّر كيف هي الأمور أيها الشرطي. أريدك أن تكف عن الخداع. إنس المرأة. إنس حربك على الجريمة. إنس الهراء الذي تسميه وظيفتك.

أتسمعني؟»

ـ «أنا اسمعك»

ـ «عظيم. رائع أيها الشرطي. كل ما نحن ننتظره الآن هو الجليد الكبير، عندما تصبح الأرض صلبة. عند ذلك سيتحرك التشيتنيك، عندما تصبح الأرض صلبة صالحة لدباباتهم اللعينة؟»

«تماماً» قال لاندسر.»

«تستطيع أن تأتي للعمل لحسابي» قال لوكا وأمسك بذراع روسو للحظة ثم هزها وأصابعه تشد عليها. «يمكننا أن نستخدم شخصا له مواهبك، جميع رجالي موجودون في الجبهة. من الأكيد أننا نستطيع أن نستخدمك، أليس كذلك يا لاندسر؟»

«لا شك في ذلك أيها الرئيس.» قال لاندسر، لكنه لم يبد مقتنعاً بذلك تماما. أما روسو فلم ينبس ببنت شفة.

ساروا إلى الأمام بحذر، يتنقلون باضطراب من شجرة إلى صف

أشجار ومنه إلى سياج ثم إلى اول حفرة مناوش، فكانت خالية من اي جندي وكذلك الحفرة الثانية، وكذلك كانت بعدهما حالة الخندق الضيق الذي يصل عمقه إلى وسط الإنسان. وشكلت المنخفضات التي حفرت بعجلة، والحواجز الترابية خطاً غير منتظم كأنه خط من الدم يمتد بين الأشجار. تلاشى إطلاق النار لكنه مالبث أن عاد من جديد. ووسط الصمت كان يسمع صوت الماء المتساقط من الشجر قطرات منتظمة. أين الجميع؟

هذه الحفر المثيرة للشفقة والتي تتجمع فيها المياه تحمل جميع سمات هذه الحياة القذرة البائسة التي يعيشها الجنود في جبهة القتال ـ غلافات أعيرة نارية مستهلكة. قفاز مرمي. أعقاب سكائر. حذاء ممزق، إبريق صغير للشاي، ورائحة براز نتج عن رجال يقضون حاجتهم حيث يربضون عوضا عن المخاطرة بالتعرض للإصابة بالرصاص حفاظاً على التصرف باحتشام. الاحتشام، مثل أي شيء آخر، يأتي في مرتبة أدنى من مسألة البقاء على قيد الحياة.

قال له لوكا «كانت هذه مواقعنا.»

الاستنتاج الذي لا بد منه هو أن رجاله تقدموا. تقدموا!

شعر روسو بموجة من الابتهاج. إذن فمن الممكن انتزاع أراض من العدو والاندفاع إلى أمام. لم يكن يصدق شيئاً عن أخبار هذه الانتصارات التي كان راديو سارابيفو يذيعها. وخشي الآن أن يتركوه خلفهم بين الأشجار. أسرع ليلحق بهم لكنه وجد نفسه يصطدم بلاندسر.

ـ «ما الأمر؟»

«ترى البيت؟» همس لاندسر محركاً رأسه باتجاه البيت مشيراً إليه بذقنه. أعد لاندسر بندقيته بعناية وحذر لإطلاق النار. البيت يقع إلى

جهة اليمين قرب الطريق. إنه البيت نفسه حيث كان روسو قد شاهد حبل غسيل وقميصاً أحمر أو قطعة قماش حمراء لكن ذلك كان من الجهة الأخرى التي تحجبها الجدران البيض التي تحجبها بدورها جذوع أشجار بستان التفاح وأغصانه. كان المنزل يبعد نحو ٢٠٠ خطوة كما بدا لروسو. لا بد من أنهم جيران للمرأة التي حملت إليهم سلة الفواكه التي تناولوها لتوهم.

«هناك» قال لاندسر بصوت خفيض «قناص على السطح وفي الطبقة العليا.» قال روسو في نفسه شخص مثل محمود. روح تفيض مرارة لديها حكاية مليئة بالأسى ترويها. شخص يقوم بتسجيل النقاط، يدون عدد من يرديهم قتلى. شخص لديه عائلة، أولاد. لا يستطيع روسو الكره مهما حاول. الكره.. هذا أمر تجاوزه من زمان. التفت لاندسر إلى روسو وعلى وجهه ابتسامة عريضة، فشعر رجل البوليس بالارتياح عندما رأى أنه ليس الشخص الوحيد بينهم الذي يلتمع وجهه عرقاً نتيجة جولتهم الريفية هذه.

كاد روسو يتعثر بأول جثة. كانت ملقاة على أحد الجذور المكشوفة لاحدى شجرات البستان. ثم رأى أخرى وأخرى غيرها، وكلها في ثياب نظامية رمادية سمراء مشبعة بمياه الثلج الذائبة وبالوحل. ولم يكن هناك كما يبدو سوى قليل من الدماء، فإما أن تكون الأرض قد تشربتها أو أن يكون البرد قد أبطأ سيلانها. لم تكن هذه الجثث ذات مظهر بشري تماماً بل إنها، على عكس ذلك، بدت أقرب إلى أن تكون جزءاً من الأرض. جزءاً من الطبيعة، من النظام الطبيعي للأشياء، مثل الفطر الذي ينمو في الغابات. وقال الشرطي لنفسه، انها كذلك في شكل أو آخر. أحصى روسو سبعاً منها: سبعة تورمات أو نتوآت أو مرتفعات ترابية. «تشيتنيك» تمتم الألماني.

لم يكن لاندسر شاحباً أو متوتراً أو ذاهلاً، بل على العكس من

ذلك، كان مرحاً. كان تعبيره عن مشاعره أقرب إلى تعبير شاب يقوم بما يلذ له. ومع انه ربما كان في مرمى نار قناص، وانه يقف وسط جثث عدة رجال، فلم يبد عليه ما يعبر عن ذلك. إنه في التاسعة عشرة من العمر أو في أولى مراحل العشرين. الموت بالنسبة إلى الشبان هو فكرة مجردة. كان وسط مغامرة؛ رجل طفل يعتقد أن الموت أمر يحدث للآخرين. الأمر كله لعبة مخاطرات والأخرون هم الذين يواجهون الموت والخسارة. والأشخاص الذين يقتلون يكونون قد ارتكبوا أخطاء أودت بهم ولذا فعليهم ألا يلوموا سوى أنفسهم. يستخلص من ذلك انني إذا لم ارتكب أخطاء لا أموت. قال روسو لنفسه أنه تفكير غير صحيح دون شك، لكن هذه هي الطريقة التي يرى فيها الأمور أشخاص مثل لاندسر إلى أن يحدث ذلك للواحد منهم فيبدو عندها متفاجئاً غير قادر على التصديق بينما الحياة تبتعد عنه. سيقول أن ذلك لا يمكن أن يكون حقيقيا وأن الأمر ليس أكثر من لعبة.

أحد هؤلاء القتلى أصيب في مؤخرة رأسه، ولم تبد آثار إصابة على وجهه الذي كان خلوا من اللون بصورة غريبة ويكاد يكون شفافاً مثل شموع الإنارة. أما عيناه اللتان كانتا لا تزالان مفتوحتين انفتاحة صغيرة، فقد انقلبتا إلى أعلى فبدتا بيضاوين فارغتين. بدتا كأنهما تلمعان وكأن اهداب الجفنين لاتزال ترف. شاهد روسو ذلك محبوس الأنفاس، فكأن اللون يمكن أن يعود في آية لحظة إلى الشفتين، وتنفتح العينان ويبتسم الفم. إنها مجرد لعبة أيها الفتيان. لقد كانت فكرة حمقاء. شاهد روسو بعد ذلك أن دماغ القتيل الصربي قد تساقط لأن مؤخرة الجمجمة قد قصت تماماً، فاستقر على الأرض وكأنه في وضعه الطبيعي، دون أن ينفصل الجلد والشعر عنه. حمل ذلك إلى ذهن روسو صورة جوزة هند سقطت على حجر فتحطمت. أما أن الصربي لم يكن يرتدي خوذته عندما اصيب أو أنها لم توفر له حماية ذات فائدة. كانت هناك هرة صغيرة تأكل من تلك المادة الرمادية والزهرية، تضربها ببرثنها وتلعقها.

رفعت الهرة عينيها إلى الرجال الثلاثة عندما اصبحوا على مقربة منها ثم ابتعدت مسرعة كأنها في حالة لعب. الأرجح أنها تعيش في المنزل، ولعل هؤلاء الرجال كانوا يلقون إليها بفضلات طعامهم عندما كانوا يسيطرون على خط الخنادق هذا. امتلأ روسو بشعور يدفعه إلى ان يدوس هذا الحيوان بقدمه. إلى أن يقتله. لكنه ما لبث أن شعر بالندم. إنها أيضاً، مثل كل كائن حي آخر في ساريبفو، يكاد يقضي عليها الجوع.

كانت الجثث منتفخة قليلاً على رغم البرد. وبدت مستلقية في مجموعات، فكأن الموتى يتجمعون بعضهم إلى بعض طلباً للرفقة والاستئناس. والواقع هو أن الرجال الإحياء يميلون إلى التكتل جماعات بعضهم جنب بعض عندما يتعرضون لإطلاق النار، وهي ردة فعل طبيعية، لكنها قتالة عادة.

ولا شك في أن إبقاء الرجال متباعدين تفصل بين الواحد منهم والآخر مسافة معقولة، خاصة اثناء الانسحاب أو التقهقر، يحتاج إلى نوع من التدريب لا يتوفر لأي جيش من تلك الجيوش المتقاتلة في البوسنة.

وإذا ارتفعت درجات الحرارة في وقت لاحق فستنتفخ الجثث بشدة مما يؤدي إلى جعل بزات هؤلاء القتلى تضيق وإلى دفع جيوبها بقوة إلى الخارج بما من شأنه أن يجعل الأوراق المالية والمناديل ورسائل الحب تسقط منها، في ما يشكل مشاهد أخرى كريهة تثير الأسى والاشمئزاز إضافة إلى البشاعة الأساسية المتمثلة في تحلل واهتراء من كانوا قبلاً بشراً سوياً؛ آباء وابناء وإخوة وعشاقاً.

وقد بدأت هذه البقايا بالامتزاج بالتراب الذي هي جزء منه، سوائل الجسم تسيل في الأرض المشبعة بالماء والثلج الذائب. التراب إلى التراب يعود والطين إلى الطين.

«لسنا سوى صديد يتحرك على ساقين» قال الشرطي لنفسه. لا قيمة كبيرة لنا ونحن أحياء؛ وفي الموت نحن تعفن وفساد. ليس هناك من مخلوق مدمر قدر ما نحن عليه في الحياة، ولا رائحة كريهة بقدر رائحتنا عند الموت.

اصبح لوكا أكثر حذراً، واخذت عيناه تتفحصان الأرض أمامهم. كان يبحث عن ألغام مضادة للأفراد، تلك الألغام البلاستيكية الصغيرة التي تطيح قدم الإنسان فتنتزعها انتزاعاً تاماً تنقصف معه العظام وتبقى الأعصاب والأوردة والشرايين والأنسجة معلقة. أخذ ضابط الشرطة يزداد تنبهاً للأصوات التي تحدثها أقدامهم؛ تحدث صريراً وهي تغرق في الثلج وطقطقة وتصدعاً في ألواح الجليد التي تشكلت فوق البرك الصغيرة القذرة، وما يشبه أصوات الامتصاص في الوحل الرخو. كان إطلاق النار يدوي ويسكت مثل عواصف الأمطار، ومن خلاله سمع روسو صوت طائرة «هيركيوليس» للشحن مغادرة سارايفو والطيار يدفع بالطائرة في صعود حاد سعياً منه إلى أن تحقق ارتفاعاً ـ وسلامة ـ بأسرع ما يمكن، وهو يشعر بالارتياح للخروج منها إلى دياره، إلى المنزل ووجبة بفتاك وبيض وجعة، وحمام بماء ساخن وملاءات نظيفة، إلى الأمان والسلامة والمعجبين الكثر يغرقون في أحاديث التباهي بأخبار شخص آخر من مختلسي النظر إلى حرب تدور في الخارج.

ترك روسو رجل العصابات وصديقه الألماني الحميم يسيران في المقدمة؛ إنه تصرف معقول، فهما يعرفان ما يقومان به أفضل منه، وهو أيضاً نتيجة حب الذات، لإنه كان خائفاً. إنه دائماً خائف، وهذا الشعور هو حالة دائمة عند الجنود في ساحة المعركة. لكن سكان سارايفو المدنيين اضطروا إلى أن يتعلموا كيف يعيشون مع خوفهم، لا في المعارك المتقطعة التي تستمر فترات قصيرة، بل طوال الوقت، ودائماً. لم يكن هناك «مدنيون» غير محاربين، ولا مناطق خلفية.

والصرب الذين يملكون القدرة على توجيه ضربات بعيدة المدى، درجوا على الرد على هجمات الجيش البوسني بضرب مواقع مدنية. كل متر من الأرض جرى الاستيلاء عليه في بستان التفاح هذا سيكون ثمنه مجموعة قذائف مدفعية أو قنابل هاون تسقط وراءهم في سوق أو شارع أو مجموعة بيوت أو مبان سكنية. الزوجات والأخوات والبنات يدفعن بالدم ثمن كل ما كان أزواجهن وإخوتهن وآباؤهن يحققونه في ساحة القتال. كانت المعادلة الصربية تتخذ الشكل التالي: إذا قاومتمونا نقتل عائلاتكم ونمحو منازلكم ونميتكم جوعاً. والخوف، شأنه شأن الألم، أمر يمكن السيطرة عليه عادة، لكن هناك أوقاتاً ـ وهذا وأحد منها ـ يبلغ فيها رعب روسو ورغبته في الحياة وإدراكه للخطر، درجة عالية من الحدة تقتضي جهداً واعياً متعمداً للسيطرة على نفسه. أحس برغبة في التثاؤب، والتبول، شعر بغثيان وبحاجة إلى التقيؤ والتغوط في الوقت ذاته، فكأن جسمه بكامله كان يقول إنه يريد التخلص من كل ما ليس أساسياً مما يحمله. خاطب نفسه قائلاً «تحمل، فليس هناك من وضع يستمر إلى الابد.» تحرك روسو واضعاً قدميه على الآثار التي خلفتها قدماً الألماني في الوحل. ما شاهده من الأقدام والسيقان الكثيرة جداً التي بترتها الألغام، يحتم عليه أن يكون حذراً.

كان الكابتن هارت يشرح لفليت موقع قوات الصرب ويقول إنهم على بعد ٦٠٠ متر إلى الخلف، وخطوطهم على الجهة الأخرى للجبل. في هذا الصباح عينه مروا عبر مواقع للصرب في ناقلة الجند الأوكرانية المدرعة، لكن فليت لم يستطع أن يرى أي شيء بشكل معقول من مكان جلوسه في ما بدا له انبوب معجون أسنان معدني ضخم يسير على عجلات. أما عن القوات الحكومية فقد قال الاوسترلي إنها في خنادقها على مسافة نحو ٤٠٠ متر أمامهم، أي مباشرة إلى الجانب الآخر من القمة التي يقفان عليها، وعلى المنحدر الأمامي للجبل الحاد في انحداره. وقد حاولوا باذلين جهودا مضنية التسلق إلى أعلى لكن النيران

الصربية الكثيفة كانت تردهم على أعقابهم. ونزل المقاتلون الصرب إلى تحت محاولين أخراج المسلمين من مواقعهم لكن هؤلاء صمدوا فيها وصدوا هجمات الصرب. إذن فالبيت الكرواتي الصغير بشجرات التين قربه وشرفته التي يقف عليها الأجنبيان الآن وفي يد كل منهما تنكة بيرة/ جعة/ ، يقع تماماً بين الجانبين في منطقة عازلة.

ذلك العلم الأزرق الممزق الذي كان يرفرف فوق السطح القرميدي، هو وحده الذي حفظ هذا البيت الصغير وحال دون أن يجعله الطرفان ركاما وكومة من الحطام. والأكيد أن مقاتلي الطرفين يرونه بوضوح. وخطر لفليت أنه لهذا السبب تستمر هذه الرصاصات تئز وتئن وهي تعبر فوقهما. إنهم يحاولون أن يصيبونا لمجرد التسلية. خلال ثاني جولة وثالث جولة لهما في شرب البيرة بدا أن الرصاص المتطاير حولهما قد ازداد عدده.

وبينما كان فليت يستمع إلى النقيب دون أن تغفل عينه المتعبة عن المنحدرات المعشبة الخضراء التي تقع تحت المنزل، ويضع تنكة البيرة الثالثة على فمه ـ المعدن البارد على شفتيه، يمتص الرغوة متمتعاً، في شكل عام، بمشهد المناوشة التي بدات تدور تحت الجبل ـ بدا له ان العالم أخذ يتفكك. . لم يتفكك ويتهاوى فحسب، بل إنه انشق عند قدمي فليت. وبدا أن الشرفة التي وقف عليها الصحافي أخذت تلتوي. القى بصفيحة الجعة أو بالأحرى تركها تفلت من قبضة يده، لكنها قررت البقاء حيث هي. يا للغرابة، قال لنفسه. والواقع هو أن تنكة البيرة كانت ترافقه، كانا كلاهما يطيران في الهواء. بدا فليت في شكل أفقي، قدماه حيث كان رأسه. لم يكن هناك ما يمكنه ان يتمسك به فقد حل الهواء محل الدرابزون.

بدا له أنه مستمر في السقوط إلى ما نهاية. شاهد السماء الزرقاء، وشعر بالتماع نور الشمس على وجهه دون أن يضايقه ذلك، لكن ما

أصابه بهلع أشد من أي أمر آخر كان منظر سحابة من القرميد تنفصل عن السطح في حركة بطيئة وتنقذف إلى أعلى مثل العديد من أوراق الشجر، ثم تبدأ بالتساقط نحوه مثل شلال. أحس بأنه يسقط هو وهذه الأشياء معاً. خرجت البيرة من الصفيحة في اندفاعة طويلة، كأنها جدول يسير ويسير.

لم يشعر فليت بالخوف أطلاقاً. شعر بإنه في حال من الانفصال، من التجرد.

ارتسمت ابتسامة حرج على وجهه، وحلت محلها نظرة من سيطرت عليه المفاجأة، نظرة تبريرية. خطر له أن ذلك لا بد من أن يكون زلزالاً من النوع الأشد عنفاً. شيئاً قوياً جداً تجاوز حدود الميزان الذي يسجل الاضطرابات الطبيعية.

أحس بهدير في أذنيه، وتهيأ له أن الهواء يرتعش معه، يطنّ، صوت اندفاع مستمر مثل نهر كأنه يهز العالم باسره. كان يدوي عبر أسنانه، ورأسه يضج معه. فتح فمه لاهثاً. بحق الله توقف.

مازال طافياً، ما زال يسقط.

كانت قراميد السطح لا تزال منقذفة كأنها الصحون التي تطلق عليها النار في ناد للرماية. شعر بالشظايا، بقطع صغيرة متناثرة من الآجر تصيب ثيابه. أحس فليت بإنه يصطدم باشياء آخرى. كان في وضع أفقي يتحرك ببطء خيالي، أو هكذا بدا له الأمر، ينساب وسط كومة من التجهيزات العسكرية التي بدورها بدت محمولة جواً وتنفجر فوقه مثل موجة: أحذية وزجاجات، مماشط رصاص، كمامات واقية من الغاز ومعاطف.

وعندما توقف ذلك في النهاية كانت أذنا فليت لا تزالان تطنان وتضجان. كان مستلقياً على ظهره. رست بعض الأشياء على صدره:

لحوم معلبة، بسكويت وشوكولاته، قطع زيتية اللون من قماش القنب، قمصان «تي شيرتس» وقطع كبيرة من الصابون الرمادي، ورأسه وسط بركة من البيرة التي كان يشربها قبل ثانية أو ثانيتين فقط.

بدا الأمر طويلاً كأنه استغرق عمراً كاملاً.

الفصل الحادي عشر

«ستخرج الحقيقة إلى النور فلا يمكن إخفاء الجريمة طويلاً»

وليام شكسبير «تاجر البندقية.»

سمع فليت صوتاً يناديه باسمه. وقف على قدميه مترنحاً ووضع يده على تلك الرطوبة الدافئة ثم نظر إلى أصابعه، وضعها أمام وجهه وشمها. كانت جعة لا دماً. لقد سرت من عنقه نزولاً إلى مقدمة جسمه. مد يده الثانية فلمست اصابعه الجدار البارد الابيض اللون وثبّت وقفته قبل أن يرفع قدمه ويضعها بعناية أمام الأخرى مسروراً ومندهشاً لتأكده من أن الأرض كانت ثابتة.

في الخارج، أمام البيت، كان النقيب هارت يناديه وهو طوال الوقت ينظر إلى أعلى، إلى السطح أو ماتبقى منه، وكأنه رب منزل سيطر عليه القلق بعد عاصفة ضربت منزله.

بعد لحظات أخذ ذهن فليت يصفو فاستطاع أن يدرك ما جرى. نظر بعينين نصف مغمضتين إلى السقف. عوارض السقف الخشبية سليمة في معظمها، لكن القرميد الذي كان يغطيها اختفى. وغطتها عوضاً عنه الآن طبقة من الشظايا الطينية. شرح له هارت الأمر قائلاً إن الصرب أطلقوا صلية بعد صلية من بطارية كاملة من راجحات للصواريخ ضخمة ومتعددة الافواه من نوع أوكران نصبت على مقربة، في منحدر

التل خلف المنزل، والواقع هو أنهم قاموا بنشر الراجمات هناك بينما كان الأجنبيان يتمتعان بالمنظر ويفتحان أول صفيحتي بيرة وهما يراقبان الجنود الدمى ينزفون دماً في الوادي الواقع تحتهما.

أدار الاوكراني الآن محرك ناقلة الجند فأصدرت صوتاً كالسعال مطلقة موجات زرقاء متتابعة من دخان العادم إلى الجو الهادىء في فترة بعد الظهر هذه. كانت الظلال قد أخذت تزداد طولاً بسرعة بينما شرعت الشمس بالمغيب. أما سارايفو نفسها فقد أصبحت غارقة في الظل. كان فليت مرتدياً ثياباً داخلية تحفظ الحرارة، وجوارب سميكة من تلك التي ترتدى في التزلج وقميصين وكنزة «بلوفر» صوفية وسترة مقاومة للرصاص وسترة عادية وقفازين، ومع ذلك فقد كان يشعر بالبرد يسري تحت ثيابه.

ـ «حان وقت الذهاب» قال هارت مشعلاً سيكارة أخرى. ولم يظهر عليه ما إذا كان هذا الوابل من الصواريخ قد جعله يصاب بدوار أو اهتزاز. تبعه فليت في خنوع. نظر إليه الأوكرانيون بابتسامات عريضة على وجوههم متوقعين من الضيف أداء مسليا آخر. لكن فليت وضع قدمه على أحد الإطارات الضخمة ورفع نفسه إلى أعلى على رغم الضجيج المدوي في رأسه الذي استمر متتابعا مثل ضربات قوية، وجلس على سطح ناقلة الجند قرب هارت. وعندما وصل إلى مكان جلوسه أدرك متأخراً أنه سيصعب عليه أن يشعر بالراحة، فهناك كثير من الفتحات والأطراف الحادة والنتوءات، وسيكون الطقس بارداً جداً عند هبوطهم الجبل. لكن فليت اختار الرطوبة والبرد مفضلاً ذلك على الذل المتمثل بدفعه إلى تلك الآلة الغريبة وحشره فيها. وذكّر نفسه بأنه موجود هناك لتغطية ما يجري وأن هذا يعني استعمال عينيه لا حصر نفسه في هذا الحرم المشكوك في مناعته، علبة الصفيح الروسية هذه. سحب قلنسوة سترته ووضعها على رأسه وشد السترة حول وسطه. أصدرت ناقلة الجند المدرعة صوتا شديدا أحدثه بدال السرعة، ورجعت

ببطء إلى الوراء ثم استدارت عائدة.

بعد أن اجتازا مسافة لا تزيد على ١٠٠ متر أشار هارت إلى ناحية، وعندما تلفت فليت شاهد الأسلحة التي سببت له هذا القدر الكبير من الكرب؛ *راجمات الصواريخ* الشبيهة بمجموعات أنابيب آلة أورغن موسيقية ركبت على متون نحو ١٢ سيارة شحن وقد غطاها أفراد طواقمها بقماش من القنب. كانت الصواريخ منصوبة في حقل مكشوف ومصوبة إلى أعلى، إلى القمة حيث يقوم البيت الصغير. وكانت سيارات الشحن موقفة في خط يذكر بمشهد من افلام دعاية سوفيتية. لم تكن هناك حركة، ويبدو انِ أفراد طواقم راجمات الصواريخ انتشروا بين الاشجار أو في مقصورات سيارات الشحن يعدون العدة لكي يمضوا الليل. رفع فليت ياقة سترته، ودفن الجزء السفلي من وجهه داخل السترة. كان الخدر الناتج عن البرد قد تملك خديه.

شاهد روسو الجميع وقد تجمدوا في مكانهم عندما اندلع وابل الصواريخ. تسمروا في امكنتهم ويدوا في لحظة من اللحظات كأنهم صورة على لوح سلبي لفيلم تصوير؛ فالنور الصادرعن الانفجارات يصنع من الوجوه والاطراف «كليشيه» بخلفية سوداء. بدأ ذلك بقصف مدفعي، المدافع تدوي إلى الجنوب الشرقي والقذائف تمر فوقهم مثل اسراب البط، والاصوات التي تصدرها اقواس المقذوفات بدت لاذني ضابط شرطة التحري مثل ضربات خفق الاجنجة. ثم اعقبت أصوات القصف المدفعي، دمدمة واندفاع هستيريان للصواريخ وأحداً بعد آخر. عشرات منها، وكل وأحد منها كأنه عملاق يتنحنح بقوة في هدير عميق طنان.

ومضات أطلاق نيران هذه الاسلحة والالتماعات المذهلة لسقوط مقذوفاتها كانت متتابعة وقد تداخل بعضها في بعض فبدت مثل حبال انوار سريعة في «ديسكوتيك.» كشفت هذه الأنوار عن مقاتل كرواتي

يرسم اشارة الصليب ثم حينا آخر عن مقاتل مسلم رفع كفيه أمام صدره في تضرع إلى الله، متمتما باسم النّبي محمد متبعا اسمه بالصلاة والسلام عليه. كان لوكا يقف قرب روسو. «إنها المدينة القديمة تتعرض للقصف» قال لوكا. إنه الثمن الذي يدفع لقاء هذه الامتار القليلة من الوحل واشجار التفاح. دية القتلى، ثمن الدم.

جلس الجنود بهدوء في خنادقهم وتحصيناتهم، ينتظرون، يقولون في أنفسهم، اننا نحن الجنود. اضربونا بحق الله، افعلوا ما في وسعكم. اقتلونا، شوهونا، لكن ابقوا على عائلاتنا. بالنسبة إلى هؤلاء الجنود، كان من الأفضل ان تكون المدينة على بعد ألف ميل. كان من الأفضل لو أنها بعيدة عن البصر والسمع، بعيدة عن الفكر. لكنهم بدلاً من ذلك يسمعون عذابها ويشاهدونه. أدى هذا إلى جعل الخدمة في خط الجبهة أشد سوءا وصعوبة. ولا شك في أن الدافع إلى أن يغادر الجنود مواقعهم ويسرعوا إلى منازلهم ليؤكدوا لأنفسهم أن أفراد عائلاتهم لا يزالون أحياء، يكاد يكون أمراً لا يقاوم. والصرب يأملون بأن يكون فعلاً كذلك.

وبدأت مدافع الهاون تعمل. أفراد طواقمها الصرب مدربون تدريبا حسناً، كانوا يجعلون قنابل الهاون تسقط إلى الأمام ثم تتحرك إلى خلف، يتلاعبون باعصاب المدافعين، يفتشون عنهم، يبحثون عن حفرهم وتحصيناتهم. كانت الانفجارات تبتعد ثم تعود. وقد يلعن الواحد منهم حواسه، وقد لا يلام إذا مزق أذنيه بيديه كي لا يضطر إلى سماع صوت الموت هذا يلعب معه ومع رفقائه. لا يمكن الاختباء من قنبلة هاون خاصة إذا كانت من العيار الكبير. احس روسو بالتوتر يشتد حوله.

النظرات السريعة التي ألقاها على الرجال في الظلمة أخبرته بما ارتسم على وجوههم مما يشعرون به؛ كانت عيونهم كأنها ترتد ببصرها

إلى داخلهم، يتأكلهم الغضب العميق الذي تشعر بها الكائنات الحية التي يحبسها سجانوها الساديون في أقفاص وينخسونها بمهاميز بصورة تفوق القدرة على التحمل. هو نفسه يمتلئ بهذا الشعور ويخاف منه. إنه غضب شديد العمق والكثافة، جرى تقطيره وكررّ وتخمّر وأنضج لزمن طويل وسط القذارة والجوع والأرق والألم والخسارة، فنتج عن ذلك في النهاية شيء لا يشبه العناصر التي يتكون منها، هو الحقد ولذته القاسية.

كلهم هناك شربوا كثيراً وباستمرار من هذه الكأس. إنه، قال روسو في نفسه، المادة الخام التي يصنع منها القتل الجماعي، وهي معدية وغالباً ما تكون مميتة لمن تؤثر فيهم.

دفعه لوكا يحثه على التحرك. بدا له أن مغادرتهم المكان في هذا الوقت امر على قدر من الغرابة. ولو قرر لوكا أن عليهم أن يمضوا الليل في مكانهم لكان وافق على ذلك مع كل ما فيه من إزعاج لا شك فيه. كان دوره طوال النهار دوراً سلبياً، كأنه راكب مسافر، متفرج، أو أشبه بجمهور أسير لمفهوم لوكا البدائي للعالم ونظرته إليه، ومن هنا فهو فرد في حاشيته لا يحق له التذمر ولا حول له ولا طول، وهو الآن يترك وراءه أماناً نسبياً يوفره هذا الموقع المحصن إلى عالم في الخارج يلفه ضباب غسقي وانفجارات ضخمة يرتجُ لها الدماغ، وتفجرات ضوئية شديدة اللمعان شبيهة بعاصفة كهربائية صيفية. قبل لحظة كانوا في الظلمة، في الدفء الذي تشيعه أجساد عديدة لم تعرف الاغتسال منذ مدة، وقد تجمعت بعضها قرب بعض، وبعد لحظة ثانية انطلقوا إلى السيارة في حركات هي بين الزحف والركض. كان الجو شديد البرودة، وسقوط القذائف والصواريخ متواصل يصم الآذان.

أي يوم هو هذا، أهو اليوم الثاني له بعد عودته؟ لم يكن روسو متأكدا. الوقت هنا يعني شيئاً آخر مختلفا عما يعنيه في سائر الأمكنة.

الوقت هنا هو ذاك الذي يقع بين صوت أطلاق القذيفة وصوت سقوطها، بين أشعال سيكارة وثانية، بين وجبة طعام وأخرى. الوقت هو ما يحدث للإنسان إلى أن يجد الفرار في النوم ومن النوم حتى محنة الاستيقاظ.

وفقا لساعة يده كان الوقت يقارب الثانية بعد الظهر. كان هناك وهج أحمر فوق المرسيدس، فالنار المستعرة التي تلتهم المنازل انعكست على الجهة السفلى من سحابة قريبة من الأرض فاضاءت وجوههم داخل السيارة: خد لوكا وآثار الندوب فيه وفكه المعوج وعينيه السوداوين الملتمعتين المركزتين على الطريق أمامهم، والألماني ذا الشباب الريان، المنحني إلى أمام بين مقعدي السيارة التي لا تزال تحمل رائحة الجلد الجديد وسلاحه في يده وقرطه الذهبي يلتمع في أذنه عاكساً أنوار مدينة تموت في بطء.

بعد ساعة من الزمن كان فليت قد عاد إلى غرفته العفنة في الفندق وشرع يعمل بجهد على موضوع سياسي طلبه منه محرر الأخبار الخارجية في صحيفته لينشر في القسم السفلي من الصفحة الأولى.

طلب الرجل ٣٠٠٠ كلمة، ولم يكن يحدث دائماً إن تعرض الصفحة الأولى، حتى القسم السفلي منها، على فليت رغم شهرته. يجب أن يكون الموضوع جيداً، قال لنفسه، فقاعة الأخبار في الصحيفة هناك في واشنطن مليئة بأشخاص يترصدون أمثاله بسكاكينهم المشحوذة ليعملوها فيهم.

لن يكون الأمر سهلاً، لكن الويسكي السكوتلندية تساعده.

الصرب يقاتلون المسلمين والكروات، والكروات يقاتلون الصرب والمسلمين، والمسلمون يقاتلون الصرب والكروات وبعضهم بعضاً.

وهناك مع ذلك، قوات نظامية كرواتية تساعد كروات البوسنة في

حربهم مع الجيش البوسني الذي يشكل المسلمون غالبيته والذين هم رسمياً، أي الكروات، في حلف معه ضد الصرب.

قام فليت، الجالس بطريقة غير مريحة على كرسي بلا ظهر أو ذراعين أمام منضدة الزينة في غرفته في الفندق، بتركيز نظره على الشاشة الخضراء لجهاز الكومبيوتر المحمول الذي يستعمله. كانت هناك فوق الطاولة مرآة مثبتة في الجدار وفيها شق جعل زجاجها منجماً. حاول إلا ينظر إلى صورته في المرآة وقد بدت مشققة ممزقة، أي باختصار بدت تشبه ما يشعر به شبهاً كبيراً.

أحس المراسل بحاجة طارئة ملحة إلى رفقة.

كان هناك كرواتيون ومسلمون وصربيون لا يدينون بالولاء لأحد سوى أنفسهم.

لقد نبتت طبقة كاملة من الاستغلاليين المستفيدين من الحرب، ومن مصلحة هؤلاء أن تطول هذه الهمجية لا أن تتوقف. ما الذي يعنيه كل ذلك؟ قد تبدو الأمور أكثر وضوحا له إذا خرج وتناول كأسا من الشراب وبعض الطعام. لعله بعد ذلك يستطيع أن يشرح هذا المأزق أو هذه «الخبيصة» والفوضى البلقانية لبائع حليب في مدينة كنساس بطريقة من شأنها أن تجعله يرغب في قراءة ذلك.

رفقة انثوية بشكل خاص.

التناقض الظاهري الأول: أعمال الاغاثة ذات الصفة الإنسانية حالت دون موت كثير من الناس جوعاً، لكنها أبقت على الحرب مستمرة.

التناقض الظاهري الثاني: الصرب ضايقوا قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام، ومع ذلك فقد كانوا هم ـ لا المسلمون ـ من أرادوا أن تبقي المنظمة الدولية جنودها في البوسنة.

التناقض الظاهري الثالث: وقع المسلمون على خطة لتقسيم البوسنة مع إنهم لا ينوون قبولها في أي حال من الأحوال.

حك فليت صدغيه بيديه. إنه لتناقض تجاوز حدود فهمه. تناول جرعة من الزجاجة النصفية القريبة من جهاز الكومبيوتر. وهذه الحرب ليست حرباً حقيقية. الحرب الحقيقية صناعة ذات تعبئة كاملة تأتي لتعكس القوة الأميركية في الخارج، ولتسديد ضربة شديدة إلى غبي مسكين ذي لغة مختلفة أو شكل أذنين مختلف أو أي أمر آخر، وبأدنى ثمن يتكبده المكلف دافع الضرائب. إنها تتعلق بأسعار السلع والأسواق وأصوات الناخبين.

هذا هو نوع من الحروب التي يمكن فهمها.

وهل السياسات الدولية إذن غير تلك القرصنة التي تسير بموجب القواعد التي وضعها القراصنة أنفسهم؟

تناول فليت جرعة أخرى حركها في فمه قبل أن يبتلعها.

أما هذه، فهي حرب من القرون الوسطى. هنا يعرف الأعداء بعضهم بعضاً معرفة حميمة. إنها حرب شخصية لعينة. الأسلحة الحادة الماضية هي المفضلة. إنها حرب من بيت إلى بيت، بين شارع وشارع آخر وقرية وقرية أخرى. أصبح الأصدقاء وندماء الشراب القدامى يتذابحون، ويغتصب بعضهم زوجات البعض الآخر وبناته، وكل ذلك باسم التاريخ وباسم الدين. المنتصر يحصل على كل شيء، والمنكسر يجر نفسه باضطراب إلى الأفول، ينمي شعوره بضرورة الانتقام، إلى أن يأتي دوره للقيام بذلك.

وقد انتظر الصرب ٦٠٠ سنة.

بدأ فليت يضرب بأصابعه برفق على لوحة حروف جهاز الكومبيوتر.

الصرب، الذين يعتبرون وعلى نطاق واسع، معتدين، يعتبرون أنفسهم ضحاياً.

المسلمون، الذين ينظر إليهم بشكل عام على إنهم ضحايا عدوان، يرون إنهم المنتصرون في النهاية.

انطفأت الأضواء.

الانفجارات أوحت إلى الصحافي بشخص يرمي زجاجات على رصيف المشاة في الشارع من حيث طريقة انطلاقها وفرقعتها وتحولها إلى شظايا. لكن سقوط هذه القذائف خارج الفندق مباشرة، شكل أزهاراً ضخمة من اللهب. بدا لفليت أن أذنيه تجيشان بموجات من الضغط. وكانت الطاولة تهتز تحت وطأة الانفجارات.

ارتمى الصحافي على الأرض، إنها ردة فعل اختلط فيها الرعب بمفعول ما شربه.

زحف عبر السجادة إلى السرير، وبينما استمر منبطحاً على الأرض وهو يطلق قهقهة خفيفة، سحب من تحت السرير سترته الواقية من الرصاص وارتداها ثم وضع خوذته على رأسه. ومن أسفل السترة الواقية أخرج قطعة لدنة بشكل لسان يطلق عليها الصحافيون اسم حامية ملتقى الفخذين.

الخصيتان والدماغ. أكثر أجزاء الإنسان أهمية.

لديه كثير من الوقت لإرسال موضوعه لكن ما يحتاج إليه هو فرصة للاسترخاء وإراحة أعصابه.

في الخارج كانت المدينة تفرقع وتتوهج بفعل عشرات الحرائق. شرب ما في الزجاجة وهو لايزال جالساً على الأرض.

إذا حالفه حسن الطالع فستكون حانة «راغوسا» على استعداد لاستقباله. وهناك دائماً «بابلز»، الملهى الليلي الوحيد في المدينة لما بعد ذلك.

هناك الكثير مما يقال عن أية حرب مهما كان نوعها، خاصة إذا كانت حرب آخرين. من هذه الأمور انك لن تكون مضطراً للتفكير في الفواتير المستحقة ولا في الإيجار، والشراب يضاف إلى النفقات.

شعر بأنه أصبح أفضل مما كان عليه قبلاً.

رد روسو ما تبقى من الستائر إلى الوراء في الجانب القريب من المكتب؛ ولم تعد هناك حاجة إلى ان يهتم بالنوافذ الأخرى المواجهة له لأن معظمها مغلق. بدأ الأمر له شبيهاً بالعوم فوق سحابة من الالعاب النارية هنا في الأعلى، أو بالتحليق في مركبة فضائية عبر حقل من النيازك النارية الدائرة. رصاص خطاط أحمر يتدفق أفقياً عبر ناحية المبنى التي هو فيها وعلى مسافة قريبة جداً منه إلى درجة جعلته يشعر بأنه يستطيع الانحناء إلى الأمام ولمسه بيده. وكان هناك أيضاً رصاص خطاط أخضر اللون في الجهة الأخرى يسير في الاتجاه المعاكس. عثر على نصف زجاجة من «البوربون» في قعر درج مكتبه المعدني القبيح الشكل، فجلس في الكرسي الدوار ووضع حذاءيه الطويلين الموحلين على المكتب - ولتذهب التقارير والملفات إلى الجحيم - وأسند ظهره إلى الوراء واستغرق في مشاهدة العرض الليلي. شرب دون إسراف. أثرت الويسكي في ضابط الشرطة بسرعة.

أحب الطريقة التي جعلته بها يسترخي وأبعدت عنه الأوجاع، فشعر بضباب النسيان اللذيذ يزحف مرتفعا إلى أعلى ليهدهد ذهنه برفق. كان ذا دربة وخبرة في الحفاظ على التوازن الذي ينشده، إنه منطقة ما تقع بين الصحو والسكر، ليس أكثر مما يجب لكنه أيضاً ليس أقل مما ينبغي ولا هو ياتي متأخراً جداً فيترك المجال للواقع ليلتهم ما يواجهه ويعود إليه محرقاً كالسائل الحمضي. كان يطفو، خدرا، حرا، وبدون خوف.

ومن خلال تبادل أطلاق نار مذهل وغير عادي عبر سطوح

المباني، تنبه روسو إلى أن هناك شخصا يجلس إلى جانبه قريباً جداً منه إلى درجة إنه كان يستطيع أن يسمع صوت تنفسه لولا أصوات تساقط القذائف ودوي الانفجارات والفرقعة وأزيز الرصاص وأصوات التحطم، في الظلام خارج النوافذ. للوهلة الأولى أبعد عن ذهنه ذلك الشكل البشري الذي أعتقد أنه لمحه من خلال الذبذبات الناتجة عن تعاقب النور والظلام. لا، لا. إنك سكران. كاد يطلق ضحكة مدوية. تناول جرعة كبيرة أخرى، لكن ها هو الشكل يظهر من جديد. شعر ببرودة تسري في ظهره وأحس بقشعريرة، بوخز خفيف في شعر رأسه وكأنه ينتصب. هبطت يده إلى المسدس ليتناوله من الحزام الذي لم يعد الآن على وسطه.

ـ «هل تسمح؟»

كان هذا كل ما قالته. فقط «هل تسمح؟» وفي لهجة كأنها تأتي في نطاق محادثة؛ خفيفة لطيفة. سؤال طرح بطريقة تجعله لا يحتاج إلى جواب، لا يحتاج إلى موافقة. تناولت الزجاجة هي أيضاً، أخذتها بلطف من يده ولم تكلف نفسها عناء مسح فوهتها قبل أن تضعها على فمها وتشرب. رفعتها إلى أعلى ثم أنزلتها. هكذا هي، هادئة جدا ولطيفة جداً وعلى درجة كبيرة من الأنوثة. لكن قليلاً من الناس يعرف ان وراء ذلك كله عنادا اشبه بصلابة الدروع المرنة ذات الزرد.

ذهل روسو. لم تصدر عنه كلمة أو نأمة، ولم يستطع ان يقرر ما إذا كان عليه الوقوف أو الجلوس.

«يجب أن نتحدث»، قالت بعد لحظة اواثنتين. جاء كلامها حازماً كأنها أرادت أن تقول «أعرف أنك كنت تتحاشاني لكن عليك الآن ان تواجه الأمور.» كره روسو نبرة الصوت هذه اذ كانت تنم عن رعاية ذات سمات «ابوية.» تناول الزجاجة. لقد أوشكت أن تفرغ، وهو يريد المحافظة، إلى أبعد مدة ممكنة، على حالته الذهنية اللذيذة الغمامية المتفلتة

من الارتباط بالواقع. آخر ما يرغب فيه روسو الآن هو أن يضطر إلى التفكير بصفاء.

ومضات الأنوار المنعكسة من نيران الأسلحة الكبيرة والصغيرة جعلته يراها بمزيد من الوضوح الآن. لا بد من أن تانيا انتظرته هنا مدة لا يعلم طولها إلا الله.

وبينما كان يغمغم محدثاً نفسه وهو يشرب كانت جالسة هناك تستمع وتراقب. رأى أنها تجلس في شكل مستقيم، خصرها الرفيع وظهرها الدقيق يرتفعان عمودياً، وعنقها «الإوزي» الجميل متحرر من شعرها الطويل الذي ضفرته بعناية ورفعته إلى أعلى. إنها ترتدي نوعاً من البلوفر الواسع المزين بالرسوم، تحت سترة دون كمين وبنطلون من سراويل التزلج. كانت تنظر نحوه بوجهها الذي بدا له شاحباً من خلال موجات النور المتتابعة. يداها على المكتب أمامها فوق «البيريه» التي ترتديها عادة، وعيناها مركزتان عليه؛ رزينتين يقظتين. «أرحب بذلك»، سمع نفسه يقول، «فنحن لا نتحدث كما ينبغي لنا.» كان وقع صوته مفاجئاً، فيه غلظ وسماكة، نوع من الإعاقة، فكأن حنجرته منقبضة ضيقة مثل إنسان مصاب ببرد وزكام. ومع أن روسو ليس مصابا بذلك فقد تناول جرعة أخرى وأغلق الزجاجة ثم وضعها في حضنه. لا شك عنده في أنها شربت من الويسكي لا لأنها تحبها أو في حاجة إليها؛ لقد فعلت ذلك لتحول دون أن يشرب كثيرا منها أو لأن رائحتها تفوح منه بقوة فخطر لها أنها إذا شربت منها هي نفسها لن تعود تضايقها رائحة الشراب المنبعثة مع أنفاسه. إن تصرفات كهذه خليقة بتانيا وطريقة تفكيرها.

«نعم، علينا ان نتكلم» قال وهو يومئ برأسه موافقاً. يا يسوع، أنا ثمل أكثر مما كنت أعتقد. حملته هذه الفكرة للحظة إلى بستان التفاح، وجعلته يشعر بدوار. دفع كرسيه إلى أمام وجلس مستقيما.

ـ «هل أنت على مايرام؟»

«نعم. طبعاً. أعني لا. طبعا لا»

«بابا المسكين» قالت بهدؤ.

ـ «أنا بخير. حقيقة. كل ما في الأمر أنني تعب»

يا لجهنم اللعينة. إذا استمرت على هذا المنوال فسأجد نفسي مجهشاً في البكاء.

تمالك نفسك. غير الجو بسرعة.

ـ «أأكيد هذا؟»

«أكيد»، صوت أجش الآن. صوت رجل غاضب. «وماذا عنك؟»

ـ «آه. أنا بخير.» الصوت الناعم الهادئ نفسه. صوت يجعلك تتعلق به.

تستريح، تستسلم إليه.

وظهرت كرة نارية صفراء كبيرة كأنها تعبر طافية ببطء وصمت. أضاءت طبقة المبنى هذه بكاملها، نور غريب متألق. خطر لروسو أن الأمر غريب اذ لم يحدث أي انفجار. لا بد من أن تكون هذه قنبلة ضوئية من تلك التي تحملها مظلات صغيرة. وبدت الظلمة، والكرة تبتعد عائدة بسرعة، أشد سواداً مما كانت عليه قبلاً. لم يعد يستطيع أن يرى تانيا إطلاقاً الآن.

«في نيتي منذ فترة، أن أتحدث إليك» قالت تانيا «الأمر ـ» أدرك روسو عند ذلك، في تلك اللحظة نفسها، أنه لم يفهم الأمور على حقيقتها. إنه أساء فهمها. كانت أكثر قلقا منه، كانت خائفة. خائفة مما هي على وشك أن تقوله، وربما كانت خائفة حتى منه.

كانت أيديهما على المكتب، لا يفصل بين أطراف أصابعه وأطراف

أصابعها أكثر من سنتيمتر واحد. وضع يديه على يديها. لم تجفل ولم تسحب يديها. جلسا هناك طوال دقائق، لا يتحركان ولا يتكلمان، ويبدا له أنهما يكادان لا يتنفسان.

- «حاولت»، بدأت كلامها ثم تلعثمت ولم تعرف كيف تكمل. استدارت يداها وأمسكتا بيديه.

- «حاولت ماذا؟»

- «ذلك النهار. لا بل كان ذلك أمس. عندما أخذتني وتلك - تلك المرأة - إلى المستشفى. نقلتنا بسيارتك. هذا ما أردت قوله.» - «المرأة - هل كتبت لها الحياة؟»

هزت تانيا كتفيها. لم تكن هزة لامبالاة، بل هزة تقول ان الإنسان يقوم بما يستطيعه، لكن الحياة لا تكتب للجميع دائماً.

- «أجل، أو هذا ما أعتقده. لم تكن إصابتها بليغة.»

- «حاولت أن تنذريني، أهذا هو الأمر؟»

- «نعم.»

التوازن وتمالك النفس تلاشيا، وارتخت كتفاها. مالت إلى الأمام وسحبت يديها من تحت يديه وزرعت مرفقيها في كومة الأوراق المتجمعة على مكتبه ثم دفنت وجهها في راحتي يديها وبقيت على هذه الحال لحظات قبل أن تعدل جلستها.

- «هل استطيع أن أحصل على جرعة أخرى؟»

«طبعاً» قال روسو وتناول الزجاجة من جديد.

- «هل تمانع؟»

- «لا. طبعا لا. اشربي.» ومع ذلك فقد كان لديه شيء من الممانعة. نظر إليها وهي تشرب ما تبقي في الزجاجة. ومما يدعو لأسف

ضابط الشرطة أنه شعر بصفاء في الذهن، الواقع أنه أصبح في حالة صحو تام من السكر.

- «هل صرت أفضل؟»

- «نعم، شكراً لك»

راقب الأضواء تتراقص على وجهها. كان على خطأ بشأن الويسكي أيضاً. لقد شربتها لأنها تحبها.

قالت تانيا «أنت خرجت مع لوكا اليوم»

- «الأمر ليس تماماً كما ذكرته»

- «أنت تعرف ما أعني»

- «أردت أن استجوبه. أراني مخبأه السري للسلع المسروقة، والواقع هو أنني ساعدته في تعبئتها في شاحنة. صدقي هذا أو لا تصدقيه، أما أنا فلست واثقاً من أنني استطيع تصديقه. بعد ذلك زرنا خطوط القتال. لقد أحدث في نفسي انطباعاً جيداً بصفاته القيادية وأعتقد أن ذلك هو الهدف الرئيسي لهذا التمرين. بل إنه عرض عليّ عملاً»

- «هل قبلته؟»

- «ما الذي تعتقدينه؟»

- «إن ذلك أفضل شيء تستطيع القيام به، من أجلك، ومن أجل سابينا. من أجلنا. لكنني أعرف أنك لم تقبل»

- «ما الذي تحاولين ان تقوليه لي؟»

- «لست أعرف من أين أبدأ»

- «من البداية، جربي البداية»

وهذا ما فعلته. بدأت بأن أعادت إلى الذاكرة كيف عثر عليها

روسو في رواق فندق جرى تحويله إلى مكان لإقامة اللاجئين. كانت تجلس القرفصاء تستعطي ما يمكنها الحصول عليه وتصد اهتمامات لا تريدها من مجموعات متنوعة من الذكور بعضهم لاجئون، وحتى رجال شرطة وجنود دوليون وصبيان في نحو نصف عمرها. أخذها روسو إلى بيته، وقامت سابينا بإطعامها، وعملا كلاهما على جعلها تنام. كانت هذه بداية لأمور وأشياء. الكوابيس استمرت تنتابها.. وذلك «الشيء» الذي كان يغشاها.. سواد يحل سريعاً جداً، دوامة تهدد بافتراسها. لم تكن تستطيع العثور على كلمات لوصف ذلك «الشيء.» كانت تستيقظ صارخة بهلع ، باكية، وعاجزة عن الشرح والوصف. كانت دائماً تعرف في اليوم الذي يسبق مجيء «الشيء» انه سيأتي. كانت تقول إنها كلما نظرت إلى يديها حدث أمر لهما. عندما ترفعهما أمام وجهها في ضوء النهار، كانتا تتورمان، ثم تصبحان أصغر مما هما، ثم تتورمان من جديد. عند ذلك تعرف أن «الشيء» سيزورها مرة أخرى، هذه الليلة بالذات، مهما حاولت أن تبقى مستيقظة.

كانا يضمانها إليهما، يعانقانها ويغذيانها بكل ما يتوفر لهما، وهو يكاد لا يكفي. ألبساها أفضل ما استطاعا تأمينه لها، وكان ذلك في كل حال كافياً لإخراجها إلى ضوء النهار من نفق الحزن والاشمئزاز من الذات، الاشمئزاز والقرف من كونها لا تزال حية بينما مات أفراد عائلتها. كانت ترى ما يحصل لسابينا، وللمدينة. حاولت الانخراط في الجيش لكن طلبها رفض، فسعت إلى العمل في المستشفيات. لوكا هو الذي وجهها نحو العمل مساعدة طبية. ولوكا هو الذي جعلها تخرج معه. كان يقلها بالسيارة بنفسه، يظهر أمام بابها مع باقة زهر في يده وابتسامة عريضة بلهاء على وجهه، وحراسه يتكلفون الابتسام في الردهة. وفجأة أخذ الجيران ينظرون إلى سابينا وروسو نظرة احترام جديدة. أخذها ليلعبا البولينغ، وإلى آخر دور السينما المتبقية في المدينة إلى أن أغلقت هذه أبوابها أيضاً. كانت ترافقه في جولاته الليلية المتأخرة

إلى «سماغلرز كافيه» حيث تمضي الوقت وهو يتناول شراباً أو يلعب الورق. أحب دائماً أن يعرضها على رفاقه متباهيا. كان يقول لهم انها ذات مستوى. وكانت تبقى عينيها واذنيها مفتوحة وتنقل كل ما تستطيع معرفته إلى روسو.

كانت سابينا وروسو يتجادلان في موضوع هذه العلاقة باستمرار وبصوت مرتفع.

«لماذا؟» سألها الآن.

ـ «لماذا؟، وبعد كل هذا الوقت، يا له من سؤال !»

ـ «أحببته. واتصور انك لا تزالين تحبينه»

«آه، إنك لأحمق» قالت بلطف ورقة.

ـ «لا تحبينه؟»

ـ «أتراك لا تعرف شيئاً عن النساء بعد كل هذا الوقت؟»

ـ «لا تجيبي عن سؤال بسؤال آخر»

ـ «لا. أنا لا أحبه»

ـ «إنه شديد الحرص عليك والاهتمام بك»

«أعرف. إنه يريد أن يتزوجني. وقد أعتقدت أنه كان سيطلب موافقتك اليوم»

ـ «حسناً. إذا لم تحبيه ـ تصحيح: إذا كنت لا تحبينه ـ فلماذا إذن ما زلت تخرجين معه؟ أرجو ألا يكون السبب أعتقادك أنني أحتاج إليك كي تراقبيه»

ـ «يقول الناس أن النساء خلقن للحب، لكن كم هو عدد الزيجات، عدد العلاقات التي تقوم على الحب؟ قليل جداً. معظم النساء

سيقنعن بأقل من ذلك. برجل لا يضرب زوجته، برجل عطوف يوفر لها منزلاً، برجل مسل لطيف، رجل تستطيع المرأة أن تفخر به، أن تعتبره قدوة، رجل يؤمن الطعام الذي يوضع على المائدة. هناك ألف سبب، والحب هو سبب واحد فقط منها.»

- «إنه سبب جيد جداً»

- «طبعاً. إنه السبب الأفضل، ويمكن أيضاً أن يكون الأسوأ»

- «أنت تفيضين بالمرارة والسخرية»

هزت تانيا كتفيها وقالت «لا. أنا واقعية. أنتم الرجال شديدو الرومانسية.

أولاد كبروا لكنهم لم يتخلوا عن أوهام الطفل. لا يزالون يتسلقون الأشجار ويلعبون بالدمى، لكن العابهم مميتة، والدمى هي حياة الآخرين»

- «لم تجيبي عن سؤالي بعد»

- «اتستجوبني يا حضرة مدير شرطة التحري؟»

هز روسو رأسه. شعر كأنهما طافيان. ملقيان في بحر عاصف على متن مركب غريب من «الهلوسة»، دون أفراد طاقم أو ربان. الأنوار التي تكتسح السقف والجدران وبعضها بعضاً تضفي عليهما جواً من الحركة، من التمايل من جهة إلى أخرى، من الانقذاف عن قمة موجة مزبدة إلى موجة أخرى.

- «إذا كنت لا تحبينه ـ»

قاطعته قائلة «احتجت إلى حماية. النساء عادة يحتجن إلى ذلك، وأنا احتجت إليها. كان لوكا جذابا بسبب هذه القوة لديه التي تجعله قادراً على الحماية. أنا استعملتها. لجأت إليها واحتميت بها. والآن أشعر

بأنك أنت الذي يحتاج إلى حماية. ولولا هذا الشعور الذي يكنه لي لكان قام بعمل ضدك. أنا أحميك. إنه يعرف كل شيء عن تحقيقاتك، ويعرف ذلك من أسابيع.»

ـ «ما الذي يعرفه؟»

ـ «يعرف أن وزارة الداخلية تلاحقه ـ أي بكلمات أخرى أنك أنت ودائرتك تلاحقانه.»

ـ «وفضلاً عن ذلك؟»

ـ «يعتقد أن تحركات القوات العسكرية حقيقية»

ـ «وهل تعتقدين أنت ذلك؟»

لم تجب.

أحنى روسو رأسه ونظر إلى يديه. لا شك في أن فاسيتش جعل لوكا على أطلاع على موضوع التحقيق. ما جرى لبوكوفاتش كان خطأ من لوكا. وربما كان خطأ مميتاً بالنسبة إلى فاسيتش أيضاً. أنتظر روسو كي تنحسر موجة من القصف تشبه الرعد والبرق جعلت كل شيء يبدو ساطعاً في زرقة كهربائية.

ـ «ألن تسألني ما إذا كنت قد نمت معه؟»

نظر إليها. لقد غلفت الظلمة وجهها من جديد.

ـ «أليس ذلك هو كل مافي الأمر؟»

ـ «تقولين انني أغار منه جنسياً؟»

ـ «ألست كذلك؟»

لم يحر جواباً. كان صوتها خفيفاً ناعما كالعسل، يستحيل أن يشعر المرء معه بالإهانة.

كان من المستحيل الشعور بشيء سوى بدافع إلى أن يلفها بذراعيه. كانت رغبته قوية إلى درجة أنها استحالت إلى ألم محرق، رغبة حادة تكاد تئن بصوت مدو.

- «ويرانستون فليت؟»

- «برانستون؟» ارتفع صوتها في استغراب.

- «نعم برانستون. ألم تكوني معه تلك الليلة؟ في سيارته اللعينة، خارج المبنى الذي نسكن فيه. الليلة الماضية.»

شعر بأنه أخذ يغضب من نفسه.

- «لقد خرجت معه لكنني لم اخرج معه الليلة الماضية.»

- «من أجل الحماية؟»

- «ليس هناك مايدعوك إلى ان تكون لاذعاً»

- «ونمت معه أيضاً من أجل الحماية؟»

- «هذا ليس خليقا بك»

- «بي؟» فاجأه ذلك الشعور القوي بالارتياح عندما علم أنها لم تكن الفتاة التي خرجت مع الصحافي الأميركي.

- «ألا تعرف، ألم تدرك طوال هذه المدة - هاتين السنتين اللتين عشنا خلالهما تحت سقف واحد أنك أنت الذي أحببته؟ وأنه لولا سابينا -»

- توقفي عن ذلك بحق المسيح.

- «لن أتوقف. ليس الآن. أردت أن تعرف. حسناً هذه هي الحقيقة التي طلبتها. آه أيها الأحمق. لقد أحببتني بدورك. أعرف أنك أحببتني. كنت أدعوك «أبي» و«بابا» لإنني عرفت أنني إذا لم أفعل...»

كان روسو قد وضع يديه على اذنيه لا ليبعد ذلك الدوي الرهيب في الخارج فقد تعود عليه، لكن لديه لعبة غولف خاصة به عليه التفكير فيها.

ـ «. . . لكن الآن بعد أن رحلت سابينا لم يعد هناك من حاجة إلى ذلك.»

«ما الذي قلته» سألها ثم عدّل جلسته في شكل مفاجئ.

ـ «قلت ان سابينا سافرت. ذهبت اليوم. هذا ما جئت أقوله لك ثم وصل بنا الحديث إلى هنا. لم أقصد ذلك بل كنت أنوي إبلاغك الخبر مباشرة، أنا آسفة جداً أنا ـ» وقف روسو فوقها وقبضتاه مطبقتان وأسنانه تصرّ وهو لا يدري ما إذا كان يريد أن يضرب الفتاة التي أمامه أو الهرب من الغرفة إلى الليل في الخارج.

ـ «أخبريني، أخبريني بسرعة»

قالت تانيا إن «المهابرات» /المخابرات/أي البوليس السري، ممثلة بضابط ورجلين مسلحين، قصدت شقتهم صباح اليوم الذي توجه فيه روسو إلى «المدينة الجديدة». ومن المحتمل أنهم انتظروه إلى أن غادر الشقة قبل قيامهم بخطوتهم. لم تكن تانيا هناك فقد أمضت الليلة في المستشفى العسكري. أضافت تقول إن من الممكن جداً أن يكون هذا من صنع لوكا. قد يكون هو الذي جعلهم يقومون بذلك، وربما كانو ممن يتلقون المال من لوكا. فهناك كثيرون من هذا الصنف. لم تفتح سابينا الباب إلا عندما عرّف أولئك المسؤولون الحكوميون بأنفسهم. أبلغوها أن الشقة هي الآن مصادرة بأمر حكومي صدر عن وزير لا تعرفه. الشقة مسجلة باسمها.

إنه اسم صربي. قال لها الضابط إنهم يستطيعون إسكان عائلتين مسلمتين مهجّرتين في شقتها التي تحتوي على غرفتي نوم، وان عليها ان

تغادر المكان. حاولت سابينا في البداية أن تواجه الأمر بتحدّ، وذكرت له ان زوجها هو مدير شرطة التحري (وهنا اكتفى رجل الاستخبارات بالسخر منها) فحاولت بعد ذلك أن تتوجه إلى شعوره الإنساني. قالت له ان لديهم لاجئة مسلمة تقيم معهم منذ مدة وانه ليس لديهم أي مكان آخر يتوجهون إليه، لكن ذلك لم يؤدّ إلى أية نتيجة. أما الأمر الرسمي بمصادرة الشقة فقد ثبّت إلى الباب بمسمار كي يستطيع الجميع قراءته. وغادر رجال الأمن المكان بعد أن قالوا ان لدى عائلة روسو مدة هي ٢٤ ساعة لإخلاء الشقة أو مواجهة الاعتقال بتهمة عرقلة الجهود الحربية. جلس روسو بتثاقل وعلى وجهه نظرة ذهول.

اضافت تانيا أن سابينا لم تضع أي وقت فكتبت بسرعة رسالة إلى روسو ووضعتها في ظرف ثم ختمته وتركته على سريرهما. وبعد ذلك ارتدت افضل رداء شتائي بقي عندها /وليس عندها سوى ثوبين / وحملت حقيبة صغيرة وضعت فيها كل مايهمها أخذه معها، ثم مشت في الثلج مسافة نحو ثلاثة كيلومترات إلى مقر لوكا حيث انتظرت مقابلة لوكا بصبر. أقرضها مبلغ ٣٥٠ ماركاً: انه الثمن الذي يدفع في السوق السوداء لقاء مقعد في سيارة أوتوبيس للصليب الأحمر، أي حافلة من عدة سيارات من هذا النوع تشكل قافلة للاجئين جرى تأخير انطلاقها عدة مرات وتقرر أخيراً أن تغادر المدينة في اليوم نفسه.

توقفت تانيا قليلاً. نظرت إلى ساعة يدها وقالت إنه يفترض أن تكون سابينا قد وصلت بسلام إلى المنطقة التي يسيطر عليها الصرب. وقد تكون الآن في بركو أو حتى في بانيا لوكا.

وقف روسو دافعا بكرسيه إلى الخلف.

ـ «كنت عند لوكا هذا الصباح ولو كانت زوجتي موجودة هناك، أو حتى لو كانت هناك قبلاً لكنت عرفت، لكان قال شيئا ما، لكنه لم يذكر الموضوع طوال النهار. رفعت تانيا نظرها إليه، ومدت يدها ولمست ذراعه.

كانت تلك الحركة، حركة قالت له كل شيء ـ إنها تعني الشفقة، وتعني الحب وقد نطقت بالصدق. لا شك في أن لوكا على علم بالمسألة، وقد يكون اكتفى بإعطاء المال لسابينا، أو أبقاها في غرفة الانتظار في مكتب آخر كي لا يلتقي الزوج والزوجة. إنه تصرف خليق بلوكا، وقد يكون هذا هو السبب الذي جعل لوكا يدعو ضابط الشرطة لمرافقته إلى ساحة القتال ـ لإبقائه بعيداً، وليعطي سابينا وقتاً كافياً للانضمام إلى القافلة. وهو يعرف أن روسّو لا يزال لديه من النفوذ ما يجعله قادراً على تغيير الأمر الرسمي، بل على إلغائه.

«لماذا؟» سألها. «أخبريني يا تانيا. لماذا؟»

أشاحت تانيا بوجهها بعيداً عنه. كانت تبكي، كانا، كلاهما، يبكيان.

ـ «لأنني لم أتزوجه. ولأنه يعتقد أنك تمنعني من أن أتزوجه، أراد أن يضعفك، أن يجعلك ترضخ. الجميع يرضخون، كما ترى، فلم لا ترضخ أنت؟ رفض السماح بقتلك لأنه يعرف أنني لن أقبله إذا حدث شيء لك، وعلى كل حال فقد يرتدّ الأمر عليه إذ ان رجالك أوفياء، وقتلك من شأنه أن يشعل حرباً أهلية في المدينة.

وقد سألني: ما الذي يجعل روسّو مختلفاً إلى هذا الحد اللعين؟ لدى لوكا كل امرأة أراد الحصول عليها، لكنه لم يحصل عليّ. وهو يضع كل شرطيّ ـ عملياً كل شرطيّ ـ في جيبه لكنه يريدك أنت، فاذا حصل عليك حصل عليّ. إنه يرى الأمور على هذا الشكل.»

ـ «ولذا فهو يدفع بزوجتي إلى الخروج من المدينة»

ـ «يعتقد أنه بهذه الطريقة يجعلك تضعف»

تنفست بحدة كأنها تشتمّ شيئاً ما، ثم مسحت أنفها بكمها مثل طفلة.

- «قد يكون على حق»

- «لا، إنه مخطئ. لست من هذا النوع. ولن تفعل ذلك أبداً.» كانت تتكلم بنقمة وغضب.

- «وأنت؟ هل ستضعفين؟»

- «لا، طالما أن الواحد منا للآخر.» قالت تانيا «لن أضعف الآن، فكل منا هو للآخر، اليس كذلك؟»

حدق روسو فيها. شعر بانه عاجز عن الكلام.

سيطر عليه شعور غريب بانه قد رفع إلى أعلى، نحو السقف. بدا له كأنه ينظر إلى أسفل، إلى تانيا وكأنها في قعر مهوى أحد المناجم. كيف حدث، تساءل بينه وبين نفسه، ان تانيا عرفت بأعطاء لوكا المال إلى سابينا؟ صفعه السؤال بقوة، فكأن أحداً سكب عليه سطلاً من المياه الجليدية. وشعر بإنه عاد من جديد إلى اليابسة.

- «إنك تكرهني الآن، اليس كذلك؟» قالت بصوت خفيض. وبدا أن وجهها يتفكك ويتهدم تحت وطأة المشاعر التي سيطرت عليها. وبدا أن جسدها تصلّب. ربما استطاعت رؤية الشك الصامت في عينيه، وفي طريقة انطباقة فمه.

- «أنا المذنبة في ذلك كله. تعتقد أنني دفعته إلى ذلك، وأنني أردت إزاحة سابينا من الدرب. هذا ليس صحيحاً. لكنني لا أستطيع لومك على كرهك لي.»

اطلقت صرخة قوية كعواء حيوان جعلت روسو يرتدّ إلى الوراء في دهشة واستغراب. كان الصوت عاصفا جامحا وليس فيه مايشبه تانيا التي يعرفها.

- «إنه خطأي» كررت القول. «كيف امكنني التفكير في أن الأمر سيكون غير ذلك؟ أن أحصل عليك، وأن أخسرك في اللحظة نفسها. إنه خطأي. نعم. رباه، اغفر لي. إنه خطأي.»

الفصـل الثاني عشر

«معظم النساء لسن شابّات بقدر ما مابوحي تبرّجهن»

ماكس بيربوهم «دفاع عن مستحضرات التجميل»

لا يستطيع روسّو أن يتذكر متى كانت آخر مرة رغب فيها بامرأة، المرة التي أحس فيها بتلك الرغبة الملحّة، لا في إمراة واحدة في شكل خاص، بل بذلك التهيّج الصرف الموجّه إلى النساء في صورة عامة.

في الماضي في أيام السلام، كان التهيّج وما ينسجه من خيال جنسي جامح، يأتيه باستمرار، كل ساعة، مرتين في الساعة، وأحياناً كل بضع دقائق، بل في بعض الأحايين باستمرار لساعات طويلة نهاراً أو ليلاً. لم يخطر في باله مرة أن يستغرب ذلك أو يتساءل عنه. واعتبر أن حال كل إنسان ـ أو على الأقل كل ذكر ـ تشبه حاله. ومنذ الفترة الانتقالية الحرجة تلك، أي من صبيّ إلى رجل، ارتبطت كل مناسبة، كل لحظة فراغ، بأفكار عما قبل الإتصال الجنسي وعنه نفسه، وعما بعده، وبألف شريكة من نسج الخيال، أو ربما بألف نسخة من المراة نفسها وذلك في كل مكان يمكن تصوره، في بركة سباحة، في كشك تليفون. في بهو أو على درج سلّم، على درابزون، على شرفة، في حمام، في غرفة نوم، على سطح مبنى، على أرض خشبية في غرفة، على سجادة، على طاولة، على كرسي. في سيارة. في البداية، أي في

مرحلة البلوغ، كان شكل اللباس وخطوطه وثنياته، على قدر من الأهمية مسأو تماماً لما يحويه، إذا لم يكن أكثر منه أهمية. في الدرجة الأولى، كانت النساء من النوع المعافى القويّ البنية وبملامح مرحة صحية وأسنان جيدة وخصر نحيل. وكنّ من الشقراوات عادة. وفي تلك المرحلة لم تكن صورتهن تأتيه إلا من خلال ذهن الرجل الطفل. كنّ دائماً في الظل، بشراً جزئيين ببعدين اثنين في أفضل الأحوال، ميكانيكيات التصرف ومطواعات عادة، ومسيطرات في بعض الأحيان، لكنهن دائماً دون شخصية. في مستهلّ مرحلة الرجولة بدأ ذلك يتغير، فاصبحن شابات ومتقدمات في السن، متزوجات، وعازبات أو مطلّقات، شاحبات أو داكنات البشرة، نحيلات أو قصيرات أو طويلات، مهذبات أو فظّات وممسوحات الصدور أو ممتلئات، عاريات أو نصف مرتديات ثيابهن، بلباس داخلي أو دونه. كان بوسع حركة أو نظرة أو عطر أو معصم دقيق أو صوت رائع أن تشعل النار.

وقد كرّس روسّو خلال فترة شبابه، قسماً كبيراً من الطاقة والوقت لتحقيق بعض هذه اللقاءات المتخيّلة. وأي قدر من النجاح كان يحققه، كان بدوره يعود ليغذّي المخيّلة كما لا بدّ له من أن يفعل. اكتشف أن الرغبة في الارضاء مفيدة. كان، في شكل تميّز به الشبان الصغار السنّ، يشعر بغيرة بالغة عند رؤية نساء لا يعرفهن ولا يمكنه الحصول عليهن. فكرة أن هناك شابات لن يعرفهن - يعرفهن بالمعنى الجسدي - بقيت تغيظه إلى أن بلغ الاستقرار النسبي والثقة بالنفس في أواخر العشرين من عمره، وقد بدا لروسو دائماً أن هناك أمراً غريباً في اعتبار الكنيسة الكاثوليكية النساء سلبيّات وجامدات واعتبار رغبة الرجل الجنسية خطراً يجب قمعه وتقليصه؛ بينما القرآن، على رغم كل القمع والقسوة الجاهلة اللذين ارتكبتهما اقلية باسمه، أقر نشاط المرأة الجنسي وشجع على اشباع الرغبة، لكنه سعى إلى تقييد سلوك المرأة وشهوتها كأنها هي، لا الرجل، من يهدد حسن سير نظام الأمور، ويبدو كل من

الموقفين كأنه انعكاس في المرآة لصورة الآخر.

كم هي الأمور مختلفة الأن عمّا كانت عليه، على الأقل بالنسبة إليه.

فالفكر والغريزة، كلاهما، تبخّرا بوصول روسو إلى عتبة خريف العمر وبنشوب الحرب؛ بسيطرة الجوع والخوف الدائمين، والرغبة الشديدة في النوم وفي الهرب؛ بعدم الاغتسال وبشعور الإنسان في النهاية بأنه قذر لارتدائه يوماً بعد يوم الثياب ذاتها المبقّعة والمشبعة بالعرق، وبشعور الإنسان بتدنّي تقييمه لنفسه؛ وبالجهد المضني الضروري لمجرّد التحمّل والبقاء ولتقبّل واقع هو أنه ليس هناك من خيار سوى التحمّل. ولا غرابة، والموت يتربص بالإنسان في كل منقلب، في أن كثيراً من الناس أنهوا حياتهم بأيديهم لشعور منهم بالذنب لانهم استمروا في الحياة طويلاً إلى هذا الوقت.

ووصل الأمر إلى حدّ أن مجرّد الفعل الجنسي فحسب، خالياً من أي مظهر حبّ أو عاطفة أو لطف أو عطاء، ومن جميع تلك الصفات الحضارية الأخرى، صار من شأنه أن يكون عملاً روتينياً شاقّاً أشدّ مما يمكن تحمّله. وحتى تلك القوة المحرّكة التي تنتجها المخيلة بدا أنها ماتت في مواجهة الأهوال والرعب. كان يعتقد، إلى هذا المساء، أنه وصل إلى المرحلة التي تجعل الإنسان لا يعود يعرف من أين يبدأ. وبدا أن الخطر الفائق الشدة وحده قادر، لفترة قصيرة، على إثارة الرغبة في التناسل. ومع ذلك فان المادة الكيميائية، أو مهما يكن اسم ذلك الدافع الذي يحرّك الرجال، كانت تندفع في أطرافه هذه الليلة وتنفجر في دماغه وتلهب جلده. تيّار من الطاقة يتجه بحدّة إلى ذلك الشخص المحاط بالظلمة الجالس قربه في مكتبه، يزيد في حدّته صوت حفيف ثوبها والانشكاف المفاجئ بفعل ومضات النور المتسارعة، لفمها وذقنها وأصابعها الطويلة واستدارة فخذها. الأنوار المتتابعة عبر الستائر الممزقة

رسمت خطوطا من الألوان على وجهها وثديها المشرئبّ: على رغبته الحبيسة وراء قضبان السجن، والمرأة الشبيهة بالزرافة تبدو متعرّجة افعوانية الشكل في ضوء النيران التي تلتهم عشرات المنازل. توقّف عقل روسو عن العمل إزاء دوار أحدثته فيه صور متتابعة لاستحواذه عليها الآن وهناك. فعلت الويسكي فعلها في أختراق آخر معقل من معاقل المنع المفروض على الذات. إنه انتصار من نوع رديء، لكنه انتصار لايزال يقاومه.

بقي الوجع يلازمه وهو يقود سيارته إلى منزله، وحتى وهو يصعد الدرج، وكان لايزال معه وهو يفتح الباب ويخطو إلى الداخل، يشقّ طريقه إلى الداخل في الظلام (كان يعرف المكان تماماً ويكاد لا يحتاج إلى النور). جعله ما كان فيه يشعر بالغضب والغيظ على رغم أنه لم يكن متأكداً من سبب ذلك، أهو غاضب على طبيعته ذاتها؟ على تانيا؟ كان وضعه سيئاً إلى درجة انه يكاد لا يستطيع السير بثبات.

ابنتي بالتبني.

وهل يهم هذا؟

جفّت الرغبة كليّاً وفجأة كما كانت قد جاءته وذلك لحظة وقع بصره على الظرف الذي وضعت فيه الرسالة. ظرف أبيض مستطيل الشكل من الورق الزهيد الثمن الذي أعيد تصنيعه ملقى على السرير ويحمل اسمه. فتحه بسرعة وأصابعه تتحسس لسان الظرف بارتباك. أما موضوع جنونه الموقّت فقد لحق به إلى هنا. وقفت تانيا في المدخل صامتة وقد لفّت ذراعيها حول صدرها بطريقة كأنها دفاع عن النفس بينما كان هو ينحني لالتقاط الظرف، ثم انتحت جانباً وهو يخرج من غرفة النوم. لم يفه أي منهما بكلمة. شعر بعينيها مركّزتين عليه. خرج إلى الشرفة. كان هناك من النور الناتج عن الحرائق والذي تعكسه من السحب المرقّعة إلى أسفل ما يكفي، بالجهد، لقراءة الملاحظة المكتوبة

بعجل وحروفها مائلة إلى جهة اليمين. رفع الرسالة وقرّبها من وجهه:

«يا أعزّ الناس. سامحني. ليس لديّ وقت للإسهاب. أخشى أننا قد نندم ونتحسّر عندما يتاح لنا متّسع من الوقت لذلك. لكنني أريدك أن تعرف وأن تصدّق أنني، على رغم ما حصل في الماضي وما قد يحصل في المستقبل، أحبك كثيراً. لقد أحبّ الواحد منا الآخرمن البداية على الرغم من كل شيء وكل الناس. على رغم عائلتي وعائلتك. ومع مرور الزمن صار ذلك الحب يزداد قوة. كان قوياً. على الأقلّ كان كذلك إلى ان خذلتك. أنا آسفة واشعر بكثير من الخجل. لقد كنت ضعيفة. ما أقوم به الأن هو الأفضل بالنسبة لكلينا. سأكون في مأمن، وسيخفف هذا من دواعي قلقك فقد كنت عبئا، لا تنكر. أجل كنت كذلك. كنت أقضي على ماشعرت به نحوي، بل انني اعتقدت أنك كرهتني قليلاً. لا تحتجّ، انها الحقيقة. عرفت أن هذا سيحدث في نهاية الأمر إذ لا بد من حدوثه. وقد يمكن اعتبار أنهم بعملهم هذا أسدوا إلينا خدمة كبيرة. كلّ ما عليك أن تقوم به الأن هو أن تبذل جهدك للبقاء على قيد الحياة. لا تجعل الكراهية تسيطر عليك، ولا تسع إلى الانتقام. ما أدين به للوكا أنا مسؤولة عنه. لست مديناً له بشيء. وعندما نلتقي من جديد ساكون أفضل. أحبك. كل ذلك سيمضي. تذكر أيضاً ان تانيا لا تستطيع أن تتمالك نفسها. لاتلمها، وإذا كان لا بدّ لك من لوم أحد، لمني أنا. محبتك الدائمة، سابينا.»

قرأ روسو الرسالة مرة ثانية، ثم دفع بها إلى جيب معطفه. إنك تقومين بالدور اللعين، دور البطلة، القديسة. شعر بغضب غير عقلاني مرير يتصاعد في نفسه على الرسالة وعلى اليد التي كتبتها وشعر فوراً بالخجل من نفسه بسببها. اللعنة. هذا ليس خليقاً بك، وبها. أخرج الرسالة المغضّنة من جيبه وقراها للمرة الثالثة وكأنها ستكشف شيئاً جديداً، شيئاً مختلفاً، ثم أعادها إلى جيبه. وودّ لو انه وقف هناك في الخارج فترة يستجمع فيها نفسه. احتاج إلى وقت ليتقبّل المسألة، ليجيلها

في فكره ليهضم ما فعلته، وكيف فعلته، وكيف كان الأمر بالنسبة إليها - لكنه لم يفعل ذلك لأن البرد كان شديداً جداً. ارتعش من البرد، لم تعد لديه مقاومة ولم يبق لديه أي احتاطيّ من الشحم الناتج عن رحلته إلى زغرب. ستكون سابينا الآن قد وصلت إلى ميتكوفيتش، أو إلى أبعد من ذلك. ستكون في أمان على أية حال. عاد روسو إلى الداخل عارفاً أن تانيا في الانتظار هناك. وجدها جالسة على السرير إلى الجهة التي ينام فيها، بذلك الهدوء وتلك السكينة اللذين يتّسم بهما المؤرّق اليقظ. لقد استعادت ذلك الامتلاك للنفس وتلك الثقة التي تتميز بها القطط ويجدهما مغريين ومبهمين جداً، وكأنّ لاشيء حدث. جلس إلى جانبها دون تلامس، ومع ذلك فقد حرص على إلا يبدو بعيداً وغير ودّي ولا حيميا بأكثر مما ينبغي. وأدرك أن الأمر لعبة من نوع ما، وربما لعبة طقوسية، مباراة، مباراة دون أي قواعد يعرفها. شعر بأنه مهما كان ذلك الأمر، ومهما كانت النهاية التي سيؤدّي إليها فأنها - لأسباب لم يستطع فهمها تماماً - هي اللاعب الأقوى بمراحل. لم يشأ أن يجرح مشاعرها بتجنّب الاتصال الجسدي، ولم يشأ أن يلمسها خشية أن يعيد هذا أضرام نيران رغبته. شعر بأنها تعرف ذلك، وبأنها مثل لاعب شطرنج قد سبقته بعدة خطوات.

ما الذي عنته سابينا بقولها ان تانيا لا تستطيع تمالك نفسها؟ وانه يجب عدم لومها؟ على ماذا؟. ومن بعض النواحي فقد أظهرت العاطفة المبتذلة التي انطوت عليها الرسالة، قدراً كبيراً من الرياء والمكر؛ فسابينا من خلال لوم نفسها، ومن خلال قيامها بدور مرتكب الخطيئة التائب وبتكويم الأخطاء على كاهلها، ضمنت أن روسو سيعتبر نفسه مديناً لها. لقد أدخلت إلى ذهنه عنصراً قوياً من الشك في تانيا، ومن الشعور بالذنب كذلك. وسيتحول ذلك إلى دمّل متقيّح هناك.

هل كان ذلك مدروساً؟ لا شك في ذلك.

لماذا يحاول دائماً أن يقوم بالعمل الصحيح حتى ولو كان بعيداً عن ناظريه؟

حلت المشكلة نفسها بنفسها، أو بتعبير آخر أكثر دقة فإنّ أخباراً أخرى غطّت عليها. كان لدى تانيا اشياء كثيرة أخرى تقولها له. نبأ سفر سابينا المفاجئ هو أسوأ نبأ حملته تانيا إلى روسو بعد عودته من جبهة القتال لكنه لم يكن كل شيء. فقد اعتقل ميسيتش واثنان أخران من لجنة «الصرب الموالين» أي كل من تبقى منها. وقد اعتقلهم العسكريون في ذلك الصباح نفسه، وربما جرى ذلك وقت توجّه رجال الأمن إلى شقة روسو. قالت له ان مكان وجود الطبيب ليس معروفاً (لم يظهر على روسو أي استغراب لذلك لكنه قال في نفسه انهم سينقلون الطبيب ليلاً ويضعونه في ثكنات مختلفة). أضافت تقول ان الأوامر بالاعتقال وقعها، على ما يبدو، وزير الدفاع نفسه. قالت انها علمت بمسألة الاعتقالات في المستشفى وسمعت الخبر من الممرضات المذهولات في قسم التوليد حيث كانت عادة تستجدي ضمادات ومواد طبيّة أخرى. وأخيراً قالت ان لوكا أسرّ إليها مساء اليوم السابق أن ماتبقّى من دائرة الشرطة سيحلّ ابتداء من منتصف ليل اليوم التالي، أي بعد ما يزيد قليلاً على ٢٤ ساعة. وكانت تلك المسألة هي التي جعلتها تحذّره بتلك الصورة المبطّنة عندما أوصلها مع المرأة التي أصيبت برصاص القنّاص إلى المستشفى. نظر إلى ساعته. ورجال الشرطة الباقون سيلحقون بالقوات المسلحة أو الشرطة العسكرية. أما الذين هم أكبر سناً من أن يلحقوا بأي من المجالين فسيجري ضمّهم إلى فرق الدفاع المدني، وهذا لايعني أكثر من حفلات دفن تجري باحترام، حيث يقومون بجمع جثث القتلى وينقلونها بعربات اليد، وينزع الأمعاء والمزق المتناثرة على الجدران بالرفوش. وكان المجلس الحربي الرئاسي قد أبلغ لوكا أن المدينة تعاني نقصاً حاداً في الجنود وأن المجلس أرسل أفضل الجنود النظاميين لديه لتعزيز الفيلقين الخامس والثالث وأنه يطلب منه

تقديم كل مقاتل قادر جسدياً يمكنه تقديمه.

يعني ذلك عملياً الأحكام العرفية.

هل وافق لوكا؟

قالت تانيا إنه وافق.

استلقى روسو على السرير وأغمض عينيه متعجباً من الطريقة التي يسير بها لوكا إلى الفخّ الذي نصب له وصمّم بشكل يتناسب مع شعور لوكا باهميته.

وبينما كانت تانيا لا تزال تتكلم قام بتغطية نفسه بملاءات السرير اتّقاءً لهواء الليل البارد.

توقّف فليت بينما كان في طريقه إلى المرآب لتناول كأسين من الشراب، ثم تناول كأسين أخريين في مشرب بهوالفندق أعقبهما بسرعة بكأسين «من أجل الطريق» كما درج زملاؤه على القول. وفي النهاية كان الصحافي شديد الترنّح بفعل الشراب وهو يخرج متمايلاً يكاد يتعثر في نزوله على الدرج اللولبي نحو المرآب الواقع تحت الأرض. وبصعوبة استطاع فليت، بعد أن بعج باب سيارة تابعة لصحافيين إيطاليين وإطار مرآة جانبية لإحدى سيارات اللاندروفر التابعة لهيئة الأذاعة البريطانية (بي. بي. سي)، أن يوجه سيارته المصفحة المحبوبة صعداً في الطريق الدائري ومنه إلى الشارع في الخارج. اعتبره زملاؤه مجنوناً لخروجه وأبلغوه ذلك. لكن كلامهم لم يؤدّ سوى إلى زيادة تصميمه على المضيّ في ما أراد وإضافة مزيد من الألق والشهرة إلى الاسطورة الحية وهو اللقب الذي أطلق عليه. لم يكن ما وجده واعداً جداً، فالقصف توقف تقريبا، لكن مباني المدينة كانت تلوح فوقه سوداء مهددة. كانت تفصل بينها طرق ثلجية مثل جدران واد ضخم. لم يستطيع التعرّف إلى المكان إلا بصعوبة. علامة الحياة الوحيدة، أو بالأحرى علامة الموت، تمثّلت

في الانفجارات الغريبة الصادرة عن الرصاص الخطاط بينما العيارات المضيئة تسير بتكاسل في خطّ منحن في قلب سماء الليل السوداء، والوهج المنبعث من منزل تلتهمه ألسنة النار. لم يكن هناك لافتات وعلامات شوارع يستطيع برؤيتها تعيين مكأنه، وإذا كان هناك بعض منها فليس ثمة نور يجعله يفهم منها شيئاً، وهو في الوقت نفسه لا يتجرّأ على إضاءة مصباحي السيارة الكبيرين. فتش لفترة من الوقت عن حانة «راغوسا» لكنه بعد أربعين دقيقة من الدوران غير المجدي في وسط المدينة تخلّى عن محاولة العثور عليها. ووجد نفسه بين فترة وأخرى يصعد بالسيارة الضخمة إلى رصيف شارع فينزلق القسم الخلفي من السيارة بشدة على طبقة الجليد التي تكسو الرصيف. كان الثلج شديد الكثافة والشوارع مجلّدة جداً إلى درجة أن الصحافي الذي تعتعه السكر لم يعد يستطيع التمييز بين الطريق والحاجزالحجري عند حافتها. إلا أن نوعا من الأحساس الغريزي بامكنة وجود مومسات سارايبفو، مقترنا بفعل أرادة متفوّق، استطاعا وحدهما اختراق حالة السكر التي كانت مسيطرة على فليت واتاحا له ان يعثر على ذلك النادي الليلي، وكأنه حمامة ضالّة تعود إلى بيتها. وعندما ظهر ذلك المكان للعيان قال فليت لنفسه انه أصبح في مأمن. انه في نهاية الأمر مواطن أميركي ولديه مكانة في صحيفته وأصدقاء في مقرّ رئاسة الدولة البوسنية.

لن يسبّب له أحد أي متاعب.

لم تكن هناك مصابيح نيون، والواقع أن فليت لم ير أية لافتة من أي نوع كان؛ كل ما شاهده هو مدخل وعشرات من الشبان والشابات الذين تجمعوا في الخارج على الرصيف الموحل المرصوف بالحجارة وقد انجذبوا كالفراشات خارجين من بيوتهم الباردة السيئة الإضاءة متّجهين نحو شعاع النور الوحيد الذي يعدهم بساعة أو ساعتين من النسيان، من الهرب.

نادي «بابلز» الليلي مجمع واسع يقع تحت الأرض، سلسلة من الطبقات التحتانية تربط بينها دهاليز، وتنتشر المرايا على جدرانها. كان يغصّ بمن هم وهنّ في بداية العشرين من العمر. عشرات منهم حول «البار» والمكان يكتظّ بهم على رغم أنه لم يكن بينهم سوى عدد قليل ممن يملكون من المال ما يمكّنهم من شراء شيء زهيد الثمن مثل كأس من عصير الفواكه. كان دخان السكاير كثيفاً إلى درجة تجعل عيني حتى المدمن على التدخين تدمعان. عند المدخل، كانت فتيات بدا أن أعمارهنّ لاتزيد على اثني عشر عاماً أو أربعة عشرعاما يقفن في وضع انتظار وظهورهن مسندة إلى الجدران المتّسخة المكسوّة بطبقة قرميدية صفراء، يتحدثن احاديث متقطعة الواحدة منهن مع الأخرى، وعيونهن تراقب القادمين الجدد وهن يقدّرن محتويات محافظهم ومدى رغباتهم وينفثن الدخان من سكاير يحصلن عليها بصعوبة؛ وجوه فتيّة مستديرة مطلية بمستحضرات التجميل في محاولة فجّة لتبدو الواحدة منهن أكبر من عمرها؛ ينتظرن من يستدعيهن لقاء ثمن يراوح، وفقا لما يطلب منهن، بين زجاجة كوكا كولا وبين علبة سكاير أو لوح شوكولاتة.

إنهنّ أطفال دون طفولة. أما محطّ اهتمام هذه المخلوقات الجديرة بالشفقة فهو أولئك الشبان في البزة العسكرية النظامية، المرتدون ثياب المعركة والذين لديهم مال ينفقونه هنا وهناك، شبان بوجوه طفولية وشعر قصير على الطريقة العسكرية، يحملون مسدساتهم على أوساطهم ولا يعرف الواحد منهم جبهة القتال حتى ولو داس على أرضها بقدميه خطأً، والذين لن يتوانى أهاليهم عن بذل أقصى ما يمكنهم كي لا يرسل أولادهم إليها.

أما فليت فكان ينظر إلى المكان على أساس ما هو عليه فعلاً أي كسوق للحم، إنه مكان قذر يقدم ما لديه لقاء المال، وهو أيضاً يروق له.

وقد سبق لفليت ان تذوّق ملذّات المواخير الملوّثة في أماكن أخرى ليست ذات طبيعة مختلفة عن هذا المكان: باتبونغ في بانكوك وإرميتا في مانيلا ونوادي منطقة وست آند في لندن. أما في سارايفو فإن الحصار أخذ يقلب النظام الخلقي والحياة العائلية وسائر الأمور رأسا على عقب. كانت عملية الفساد والتفكك حقيقية وملموسة. وقد فتن ذلك فليت. قال لنفسه ان نظاماً جديداً أخذ يظهر وانه هنا ليسجّل هذا الأمر.

قام بعملية استكشاف، اندفع بين الجمهور مستعملاً كتفيه لشق طريقه عبر هذهِ الكتلة البشرية بجيشانها وتوتّرها. كانت حلبة الرقص تغصّ بالناس شأنها شأن سائر أنحاء المكان، وقد تألّف القسم المحيط بالحلبة، كالعادة، من شبان تركزت نظراتهم على نساء يرقصن معاً بشكل تنقصه العفوية وسط الحلبة تحت ومضات الضوء المتسارعة. بعد ذلك خاض عملية انسحاب منظمة إلى «البار» واستقرّ هناك مقتطعا لنفسه مساحة عدة سنتيمترات من الفورمايكا. بوسعه من حيث هو الأن أن يشاهد خلف الساقيين اللذين يعملان على البار، هذا البحر من الوجوه. لم يكلّفه عثوره على ناديا، أو عثورها هي عليه، أكثر من ثمن ثلاث زجاجات من البيرة المحلية ونصف ساعة من الانتظار. كانت مع إحدى صديقاتها: وجه ضار حادّ شابّ ومسنّ في الوقت ذاته، تحت كومة من الشعر الأسود الأجعد غير المنظم، وفم أشبه بجرح قرمزي بشع. كان فليت يعرف من لغة الصرب والكروات ما يكفي لجعله يفهم بعد بضع دقائق أنه هو موضوع نقاشهما الحامي. بدا له انهما كانتا تتجادلان في أمر هو حصة من منهما سيكون. أعجبه ذلك وأثاره. ادعّت ناديا أن لها حقوقا سابقة تخوّلها امتلاك الأميركي. أخيراً استسلمت صديقتها واختفت في بحر الوجوه والأجساد المتوتّرة بعد أن حركت رأسها حركة حادة مفاجئة.

الموسيقى حادة تصم الأذان. وكان فليت قد طلب ثلاث كؤوس من الفودكا مع الكوكا كولا ودفع ثمنها. هزت ناديا كتفيها وابتسمت

ثم شربت كأس رفيقتها وكأسها صابّة الواحدة منهما تلو الأخرى في فمها كأنها تشرب ماء.

- «أنت، تعال» صرخت ناديا في أذن فليت.

انبعثت من شعرها رائحة فريز/فراولة/ تماماً كما كانت الحال تلك الليلة في السيارة.

-«إلى أين؟» سأل فليت الذي اضطر إلى وضع فمه قرب أذنها بينما كانت ذراعه اليمنى تطوّقها.

رددت بلغتها الإنكليزية الشديدة الركاكة «إلى منزلي. أنت تبقى معي. لا؟» شقّا طريقهما خارجين من النادي. سارت ناديا في المقدمة وكانت بين فينة وأخرى تنظر خلفها كأنها تتأكد من أنه يتبعها لا يعرقله شيء وأنه لم ينسلّ مبتعدا. أزداد عدد الناس كثيراً عما كان عليه عند وصول فليت إلى النادي الليلي، ولولا تلك القامة الممشوقة التي كانت أمامه تشقّ طريقها بالدفع والركل، لكان لا يزال محاصراً وسط تلك الكتلة من الناس الذين يتصببون عرقاً. أنه لإمر مرعب أن يفكر في ما يمكن أن تفعله قنبلة هاون واحدة من عيار ١٦٠ ملليمتراً بهذا الجمع. به هو. عندما أصبحا في الخارج، في الهواء البارد النقي وضعت معطفاً من الفرو الاصطناعي حول كتفيها.

«نمشي، نعم» قالت له ناديا وهي تجرّه وراءها بقوة.

- «وماذا عن منع التجول؟»

- «تبّا لمنع التجول. لا مشكلة. الشقة قريبة جداً. انت تعال.»

لم يكن فليت واثقاً مما إذا كانت رفيقته محترفة أو هاوية شديدة الحماسة. المحترفة هي، من بعض الوجوه، أقل خطراً. بدأ القلق يساوره، واستبدت به الحيرة والتردد عندما فكّر في مسالة ممارسة الجنس بشكل آمن. لم يكن يحمل أي واق ذكري فكلّها هناك في غرفته في

الفندق مخبّأة في حقيبته خشية أن يعثر عليها أحد، عاملة التنظيف مثلاً. جعله هذا يتذكّر روسو والمحاضرة التي ألقاها عليه الليلة السابقة قبل أن يقفز ضابط البوليس واقفا شاحب اللون مترنّحا، وينطلق خارجاً من مطعم الفندق كأنّ الشيطان نفسه في أعقابه.

انزلق فليت على الجليد وهو يضحك مثل مجنون. أثار ذلك عليهما زمجرة قطة انطلقت من عمق الظلام. شدّته ناديا إليها بقوة.

«أنت. تصرّف بشكل جيد» قالت آمرة. لم يكن متأكداً من معنى ذلك، ولم يكن ينوي التصرّف بشكل جيد، فرغبته في هذه المرأة تشتدّ دقيقة بعد أخرى. تمسّك الواحد منهما بالآخر يشدّه إلى أعلى، هو في حالة سكره وهي رغم حذائها ذي الكعبين العاليين تسعى جاهدة للاستمرار في شدّه إليها وجرّه على ذلك في شدّه إليها وجرّه على ذلك القسم الشديد التجلّد من الطريق. ولم تستطع ذراعاهما الحفاظ على توازنهما. ضحكات فليت تزداد ارتفاعاً وهي تطلق شتائم بالكرواتية ـ الصربية. فليت يصدر أصواتاً جنونية كنعيب البوم وناديا تشتم. كل ما عرفه أنها تشتمه.

كانا يسرعان في الظلام، وفي لحظة بدا كأن حركتهما قد شلّت.

ومضة نور قوية إلى درجة بدا معها كأنها صعقتهما. رفع فليت يده الطليقة ليحمي بها عينيه. قال لنفسه ان ذلك هو نوع من الأنوار الكشّافة، ثم أعتقد أنه المصباح الأمامي لسيارة عابرة. لكن الأمر كان أشبه بالتحديق في الشمس، كان النور يسفع عينيه سفعا، وهذا الشعاع الابيض يشلّهما كحشرتين مخوزقتين بدبوس أحد جامعي الحشرات. سمع صياحاً؛ هل هم يصرخون بي؟ تساءل مستغرباً غير قادر على التصديق. شعر بعد ذلك بأنه يدفع إلى جدار وبطريقة ليس فيها كثير من اللطف. أقدام سارت في اتجاهه بتثاقل ثم توقفت. احذية أخرى تتّجه نحوهما وهي تسحق الثلج خلال تحركها.

«دعني أذهب يا ابن الحرام» كانت الفتاة تقول صارخة. «أيها الفاشيون اولاد العاهرات.»

«أنا أميركي» قال فليت في صوت أراده أن يكون آمراً وذا سلطة إلى أبعد حدّ ممكن. «نوميناري! صحافة!»

رفع قامته ووقف منتصباً لتعزيز الإحساس بالأهمية. شعر بصفاء ذهن فجأة، بل برزانة واتزان. بحث في جيوبه عن بطاقة الأمم المتحدة التي تشهد بأنه صحافي والتي يحملها معه دائماً، لكنه لم يستطع أن يتذكر في أي جيب وضعها عندما غادر الفندق.

إلا أنهم لم يحفلوا بذلك. اليد التي كانت تبحث بعناية عن دليل على هوية صاحبها قبض عليها، ثم لويت في عنف ودفعت خلفه بقوة جعلته يستدير ويواجه الطريق التي جاء منها. حدث كل ذلك بسرعة كبيرة. رفعت الذراع بعد ذلك إلى أعلى ما يمكنها الارتفاع، إلى مستوى منتصف ظهره، واضطر إلى الوقوف منحنياً مستنداً إلى أصابع قدميه ليتجنّب الألم. قبض أحدهم على شعره الكثيف ثم دفع الرأس صادماً أنف فليت بما هو دون شك جدار قرميدي. كان صلباً وخشناً، وشعر فليت بان صوت إنسحاق خفيف صدر عن أنفه عند الاصطدام. إلا أن انتباهه صار مركزاً الآن على صوت آخر، ذلك الصوت المميّز نفسه؛ تلك الطقطقة وذلك الأنزلاق المعدنيين اللذين يصدران عن بندقية كلاشنيكوف الرشاشة عندما تصلى استعدادا لإطلاق النار. سال الدم إلى فمه. بدا مذاقه حاراً ومالحاً ومألوفاً.

صاحت ناديا مطلقة عليهم سيلاً من الشتائم البذيئة.

سمع فليت بوضوح صوت صفعة وصوت ضربة حادة اعقبهما عراك. هدأت ناديا للحظة وما لبث بعدها ان سمعها تتمتم تصفهم بأنهم «فروج.»

كانت يدا فليت قد دفعتا إلى اعلى، إلى ما فوق رأسه واسندتا إلى سطح حجارة القرميد الخشن. احس بان ساعة يده تفكّ وتسحب من معصم يده اليسرى المرفوعة.

إنها ساعة من نوع رولكس ثمنها ٣٠٠٠ دولار مانعة للماء حتى عمق مئة متر، لكنه لم يغص ولو مرّة واحدة حتى إلى عمق عشرة أمتار.

لم يحاول المقاومة.

لعنة الله عليهم.

إنهم، أياً كانوا، يفتشونه، يقلبون جيوبه ويلقون على الثلج إلى جانب قدميه بكل ما لا يثير اهتمامهم مما يجدونه فيها. أبقوا معكم الدولارات أيها الشبان واحتفظوا كذلك بالبطاقات البلاستيكية فهي تقدّم لكم الكثير في ساراييفو. إنما اتركوا لي بطاقتي الصحافية ومحفظتي الجلدية الانيقة. شعر بأيد تمتدّ نزولاً إلى فخذيه وإلى ساقيه. إذا أخذوا حذائي، قال في نفسه، فسأعرف أنه قضي عليّ: إنها علامة تدلّ على أنك لن تخرج من هنا حياً، مع أنهم يستطيعون دائماً أن يطلقوا النار عليه ثم يأخذوا حذاءه بعد ذلك. أخذ يقلّب هذه المسألة في ذهنه وهم يفتشونه. إذا أطلقت النار على رجل وهو منتعل حذاءه فالاحتمالات الغالبة هي أن يسيل دمه على الحذاء، كما أن انتزاعه من قدميه سيكون أكثر صعوبة. الاستنتاج النهائي، قال لنفسه، هو انتزاع حذاء الرجل وإطلاق النار عليه بعد ذلك...

إلا أنه، على الأقلّ، ارتدى ثياباً داخلية نظيفة هذا الصباح، فهو، بحق الجحيم، لا يريد أن يقوم مبتدئ غبيّ من موظفي وزارة الخارجية بشحن جثته إلى القنصلية الأميركية في زغرب وهي في ثياب داخلية قذرة، أو أن تتلقى أمه وأبوه جثة ابنهما وهو في هذه الثياب القذرة. لم يكن فليت متديّنا مرة في حياته، ومع ذلك فقد حاول أن يصلي. «يا

الله» تمتم في عدم ثقة بالنفس وعدم براعة في الكلمات «أخرجني بسلام من هنا ولن أعود إلى ذلك الملهى الليلي بعد الآن. لن ألتقط فتيات كما فعلت، لن أسكر ولن أقوم أبداً بتغطية هذه الحرب الرهيبة بعد الآن. إنني أعدك بذلك يا ربّ.»

لم يستطع فليت النوم بسبب البرد. كان يتململ في مكانه بعصبية، يغلبه النعاس لحظات، لكنه يفيق فجأة، يفرك ذراعيه وساقيه ثم يغفو إغفاءً خفيفاً لفترة قصيرة ليستفيق من جديد. لقد استقلّ بالزنزانة وحده، وربما كان ذلك امتيازاً أعطي له بصفته صحافياً أجنبياً. حاول أن يسند نفسه في الزاوية إلى قطعة الأثاث الوحيدة وهي كرسيّ بثلاث قوائم. لم يكن لديه أية بطانية أو فراش، وقد أخذوا منه حزامه ورباط حذائه. حملق وحملق لكنه لم يستطع أن يرى شيئاً.

بعد قليل استطاع تمييز نافذة من نوع ما، لكنها لم تكن أكبر من فوهة انبوب تصريف المياه المبتذلة وقد أقيمت في الجدار السميك جداً وراء صفين من القضبان الحديدية على ارتفاع كبير قرب السقف. تسرّب منها شعاع نور القمر مائيّاً شاحباً هزيلاً يكاد لا يكفي ليعلن وجوده للسجين. لم يستطع فليت رؤية شيء حتى يديه. الظلمة خانقة كأنها ملاءة تغطي رأس إنسان. تلمّس طريقه في الزنزانة مستعملاً يديه، وأخذ يقيسها بقدميه وهو يمشي جارّاً نفسه ملتصقا بالجدران كأنه رجل عجوز. طولها يبلغ خمس أقدام وعرضها أربع. صغيرة لا يزيد حجمها على حجم خزانة، وهواؤها ساكن بارد. كان هناك دلو في الزاوية (اكتشفه بعد أن كاد يسقط فوقه) أما الكرسي فهو في الزاوية المقابلة. تنبعث من الدلو رائحة كريهة، والحجر اللوحي الذي تتألف منه أرض الزنزانة مبلّل، والجدران أشبه بالجليد. وبدا أن البرد ينزّ سارياً منها إلى أي كتف يسندها فليت إليها. تساءل عما إذا كانت هناك جرذان.

لا أحد يعرف أنني هنا. لا أحد.

توّترت اذناه وارهف سمعه لالتقاط صوت. هل كان يتوهّم ذلك؟ صوت ماء شاذّ وغير منتظم. قطرات أو قرقرة خافتة. الدم الذي على وجهه جفّ وتحوّل إلى قشرة أخذ يلتقطها باصابعه اذ لم يكن لديه امر آخر يقوم به. شعر بانفه متورّما وشديد الحساسية.

لا شكّ في أن موعد موضوعه في الصفحة الأولى قد مرّ. سيشتمونه لكن ترى أيكلفون أنفسهم عناء الاتصال به؟

لم يكن لدى فليت إحساس بالوقت. قد تكون مرّت على وجوده هنا ثلاث دقائق أو ثلاث ساعات. وكي يمنع نفسه من أن يتجمّد أخذ يحرك جسمه قفزا إلى أعلى ثم انحناء إلى أسفل، ثم أخذ يتحسّس الجدران ليرى ما إذا كانت فيها أي ثغرات أو ثقوب. ألصق أذنيه بحجارة الزنزانة الباردة وأخذ يصيخ السمع. وبين فينة وأخرى كان يخيّل إليه إنه يسمع أصوات قطرات ماء خافتة جداً وغير منتظمة بشكل لم يتح له التأكّد من صحة ما تصوّر. ليس هناك ما يسمع. ترى هل يمكن للصمت أن يصمّ الآذان؟ حاول الغناء، بهدوء في البداية وبشيء من الحرج. وخطر له أنه إذا لم يكن يستطيع سماع جيرانه فهم أيضاً لا يستطيعون سماعه. بدأ بنشيد بلاده الوطني«الراية الموشّاة بالنجوم» وانتقل من بعده إلى أغان وأناشيد مختلفة إلى أن ملّ سماع صوته المسطّح، فحاول أن «يركض» محرّكا رجليه في مكانهما لكن ألم رأسه كان شديداً جداً، ومعدته شديدة الاضطراب بعد كل ذلك الشراب الذي احتساه. تحسّس الجدران باصابعه، يستكشف، ويقيس، ويستمع. إن قدرة الألم على جعل الإنسان يصحو ويتمالك قواه العقلية لأمر يلفت النظر. لاشيء.

سوف اموت هنا.

استفاق على صوت المفتاح في القفل يحتكّ بالحديد ثم يجد طريقه ويدور بخشونة، فكأنّ من يفتح الباب فاقد الصبر مستعجل. انفتح

الباب المؤدّي إلى الدهليز. وقف فليت بسرعة فشعر بدوران في رأسه.

ومن الغرابة بمكان أنه لم يشعر بكثير من الابتهاج بالإفراج عنه. كان رأسه يخفق كأن آلة لثقب الصخور تحفر فيه باستمرار، وطعم فمه كطعم القسم الداخلي لقفّاز ملاكم، ورجلاه خدرتان فقدتا الإحساس بسبب البرد. وعندما وصل إلى الباب حاول رفع ذراعيه إلى ما فوق رأسه لتحريك الدم فيهما لكنه شعر فوراً بأنه سيتقيأ إذا قام بأية حركة. انتظره الحارس محدّقاً في هذا الأجنبي. وبصمت قام حارس آخر، غير حليق، وهو ينفث دخان سيكارة، بتسليمه حزامه وشريط حذائه وبطاقته الصحافية وحتى بطاقات الائتمان والمال الذي كان يحمله نقداً. لكن ساعة اليد لم تكن بين ما أعادوه إليه، وقع فليت وثيقة الأفراج عنه، وبعد نغمات متنافرة من أصوات اقفال تفتح ومزاليج ترفع، تركوا الصحافي الذي يعاني من ذيول سكرته يخرج إلى نور الصباح الكئيب وضحكاتهم تلاحقه بينما هو يستند إلى جدار السجن ليمنع نفسه من الانزلاق والسقوط.

كانت ناديا هناك تنتظره على الرصيف وهي تضرب بعصبية الأرض الجليدية بحذائها ذي الكعب العالي الذي يشبه الخنجر محدثة نغماً ايقاعياً متوتراً. لم يعرفها في البداية إذ لم يكن قد رآها قبل الأن في أي جو يشبه ضوء النهار. ست عشرة تتجه إلى الستين قال في سريرته. بدا تبرّجها شبيهاً بقناع قاس انزاح عن مكانه، صباغ أهدابها وحاجبيها لطخات غير واضحة، وأحمر الشفاه شبه ممحوّ عن شفتيها. كانت لا تزال ترتدي ثوبها الشبيه بجلد فهد أسود، لكن بنطلونها الضيق تمزّق لتكشف دوائره عن فخذ شاحبة. عيناها البنّيتان تتفحصانه بعناية كما يتفحّص جزار عجلاً معدّاً للذبح.

بدا له أنهم أبقوها هناك طوال الليل أيضاً.

حاول فليت أن يبتسم. قال ذهنه «مرحباً» دون أن يصدر أي

صوت مفهوم عن فمه الجاف الكريه الطعم. يا الله. كان يشعر بأنه سحب من الموت. وربما كان الموت في النهاية راحة مباركة.

«نحن نذهب. نعم» قالت في ما بدا أقرب إلى الأمر منه إلى السؤال.

«نذهب؟» شعر بأنه غبي.

ـ «إلى شقتي. الآن. نعم، برانستون»

أطبقت عليه آخذة ذراعه بين يديها الأثنتين كأنه سيهرب. كلّ ما يريد القيام به هو الاستلقاء.

«لا» قال. «أنام». شعر فليت بأنه إذا تكلم مرة أخرى فان دماغه سيخرج من رأسه ويتسرّب من أذنيه. سار مترنّحا مثل شخص يسير على أصابع قدمين محطّمة.

عليّ أن أكون حذراً.

«لا مشكلة. تنام: قالت وهي تبتسم مشجعة. ويبدو أنها اعتقدت أنه يعتذر عن عدم قدرته على ممارسة الجنس.

«لا. عليّ أن أعمل. أن أكتب» ورسم بأصابعه حركة من يضرب على آلة كاتبة. «أذهب إلى فندقي.»

«إلى شقتي» قالت مصرّة.

«لا. ليس الأن» وضرب بأصابعه على معصمه حيث كانت الساعة. وحتى هذه الحركة كانت كافية لإرسال موجة ألم إلى داخل رأسه.

أفلتت ناديا ذراعه وبقيت ساكنة دون حراك. أعتقد للحظة أنها تخلت عن إصرارها على أن يذهب إلى شقتها.

«في الحقيقة، عليّ أن أذهب» قال محاولاً الابتسام، لكنها لم تكن

ابتسامة حقيقية بل كانت أقرب إلى ابتسامة خداع متكلّفة. أنا آسف أضاف ربما في مرة أخرى، أليس كذلك؟»

بصقت عند سماعها كلامه، عند قدميه. وأصاب بعض لعابها رأس حذائه. جاشت أمعاء فليت في نوبة غثيان إثر ذلك. ـ «أيها اللوطي اللعين!»

نظر فليت حواليه بحرج وقد شلّه الذهول، ليس لأن هناك أحداً يراهما أو يسمعهما بل لرعبه من أن يراه أحد زملائه واقفا خارج السجن مع هذه المرأة الأقرب إلى الشيطان. أراد الابتعاد ومحو ذلك كله من ذاكرته.

دفع فليت بيديه إلى جيوبه مفتشا ثم سحب أوراق النقد المجعّدة التي ردّوها له.

«انظري» قال بهزّة من كتفيه. بهذا يستطيع على الأقل أن يعرف ما إذا كانت من اللواتي يقبضن مالاً.

ـ «ترين ـ؟»

لا شكّ في أنها نظرت ورأت، فبعد أن دفع بقبضة من المال نحوها ملوّحا لها كي تأخذها خطت نحوه بسرعة، ولما أصبحت قريبة جداً منه انحنت قليلاً ثم ارتفعت يدها قوية من الكتف. احسّ بالصفعة مثل صدمة كهربائية على وجهه، جعلت رأسه يرتدّ بقوة إلى الوراء وحوّلت خده إلى لون أحمر وأحس بما يشبه الحريق فيه. وبدا له أن الصفعة صعقت نصف وجهه صعقا، فرفع أصابعه إليه يتفحصه. وشعر بأن ركبتيه ستنهاران تحته. رغب في التقيّوء وإخراج ذلك البحر من المشروب الحمضي. بدت المباني على جانبي الطريق كأنها تميل بصورة جنونية إلى جهة ثم تعود إلى الجهة الأخرى. كان الأمر أشبه بدوار البحر.

غادرت ناديا المكان ورأسها مرتفع وكعبا حذائها العاليان يضربان الرصيف المبلّل ضرباً متتابعاً.

كانت عدة أوراق مالية من فئة عشر ماركات تتمايل في بركة ماء صغيرة. أراد التقاطها لكنه لم يستطع الانحناء بما يكفي خشية أن يسرع الرصيف إلى ملاقاته.

بدأ أنف فليت ينزف من جديد. أحس بطعم الدم داخل أنفه. قال لنفسه انه كان عليه أن يعرف أن هؤلاء الهاويات المفعمات بالحماسة لهنّ كبرياؤهنّ.

اليوم الثالث

الفصل الثالث عشر

«... فيحاربون كلّ واحد اخاه...»

أشعيا ٢: ١٩

فتح روسو عينيه. ضوء فترة ما قبل الفجر الرمادي القاسي جعلهما تؤلمانه ألماً شديداً، لكن لم تكن لديه رغبة في أن يعود إلى الاستغراق في النوم بل انه على العكس من ذلك شعر بأنه يقظ صافي الذهن. فبطريقة من الطرق أدّى نومه العميق الذي بدا كأنه خال من الأحلام، إلى تطهّره من متاعبه وإلي تهدئته. شعر بما يشعر به شخص يتناول حبة مسكّنة للالم لوقف وجع ضرسه وقد ذهب الوجع بعد ذلك ولم يبق منه إلا ذكرى باهتة. إذا كان قد جرى أطلاق نار خلال الليل فلا شكّ في أن دويّه لم يكن قويّاً إلى درجة توقظه من النوم. تلك الحاجة الملحّة التي شعر بها نحو تانيا وذلك الوخز المحزن في الوجدان بسبب سابينا، والشكوك التي ساورته فجعلته يتصور أن هناك، بطريقة ما، أموراً تجري لجعله يبدو في صورة الأحمق - هذه المشاعر العنيفة كلّها بدت كأنها مشاعر شخص آخر غيره. أنقلب روسّو على ظهره. أعرف ما عليّ أن أقوم به. مدّ ذراعه دافعاً يده عبر الملاءات فأحسّ بها تصبح باردة عند ابتعاد أصابعه عن جسده. لم يكن هناك أحد في الجهة الأخرى. كان روسو وحده. لا بدّ من أن تانيا قد ذهبت إلى المستشفى. أحس بذلك الشعور اللذيذ الذي يشعر به من هو بطبعه

متوحد عندما يصبح وحيداً. مدّ رجليه موسّعا منطقته. سيطر عليه شعور جنوني من السعادة وبأنه معافى كلياً. لست في حاجة إلى أن أبرّر مشاعري لنفسي.

ووجد روسو في نفسه قدراً كافياً من الجسارة جعله يحاول الاغتسال على دفعات. قنينتا كوكا كولا بلاستيكيتان كبيرتان قصّتا وركّبت الواحدة منهما بالأخرى ربطتا الميزاب الذي يمتد على طرف سطح الشرفة ببرميل ضخم مضلع. تناول دلواً بلاستيكياً أصفر اللون من المطبخ ووضعه تحت الصنبور. الماء ينزل بصعوبة لأن معظمه تجمّد. عليه الانتظار.

عندما عاد روسو أخيراً إلى الداخل مع الدلو المعبأ بالماء إلى ثلاثة أرباعه، كانت الشمس قد أخذت تبزغ وتضيء السماء إلى جهة الشرق.

آخر جوربين وثياب داخلية نظيفة. شدّها إلى وجهه يشمّ رائحة الصابون ورائحة دخان نار الحطب، قبل أن يضعها إلى جانب المنشفة. ترى هل سيعيش مدة يصبح فيها بحاجة إلى أن يغير ثيابه مرة أخرى؟ وضع الدلو قرب الحمام وهو يلهث بسبب ما بذله من جهد. وعلى حافة الحمام نفسه وضع لوحاً من الصابون وكوبا بلاستيكيا كبيراً. خلع ثيابه بسرعة وخطأ إلى داخل الحمام وجلس القرفصاء فيه محاذراً أن تلمس خصيتاه بورسلان أرض الحمام البارد كالجليد، ومحاولاً تجاهل البرد الذي يخترق قدميه العاريتين. كانت هناك، حوله، أدوات وكماليات من الحياة المنزلية من أيام السلام، من أيام روتين ماذّي غير متساوق: مناشف اليدين، ثلاث فراش للأسنان في الإناء الخزفي الأصفر الخاص بها، صحن الصابون المزيّن برسوم أرانب، زجاجات الشامبو ومكيّف الشعر النمساوية الصنع، زجاجات أصغر حجماً تحتوي على مستحضرات تجميل وعطور انثوية غامضة، بساط الحمام الصوفي بلونه الأزرق السماوي، وفرشاة المرحاض يرتفع مقبضها من حافظتها المصنوعة من البلاستيك.

هكذا ماتت بوكوفاتش، في حمام مثل هذا، محاطة بتوافه الحياة العادية.

رفع الدلو بيده فوق الحافّة ووضعه أمامه مباشرة. غرف الماء منه بكوب وسكبه بسرعة على ظهره وهو يلهث، ثم أخذ في شبه هياج يملأه ويسكبه على جسمه مرة بعد مرة، على ذراعيه وصدره ورقبته وملتقى فخذيه. وقف روسو وبلّل يديه ثم التقط لوح الصابون وأخذ يفرك جسمه به فيحوّله إلى رغوة ويركّز اهتمامه بشكل خاص على رقبته وبطنه وتحت إبطيه، وقدميه. عمل كالمسعور وهو يلهث ويشهق تحت وقع الماء البارد. أخيراً بلّل شعره وفركه بالصابون. استعمل نصف ما في الدلو، أما البقية فهي لإزالة رغوة الصابون. آلمه رأسه بسبب البرد وهو يفركه بالصابون ثم يغسله بالماء. خرج من الحمام بحذر وسحب المنشفة وأخذ يفرك جسمه بها بخفّة وهو يشاهد جلده يحمرّ لونه بتضافر البرد وهذه الطريقة في التجفيف. أما تحته، في قعر الحمام فقد كان هناك جدول صغير من القذارة الرمادية اللون يأخذ طريقه إلى انبوب الصرف. لقد أمضى ليلته الأخيرة في المكان الذي كان منزله لسنوات كثيرة تفوق قدرته على التذكّر، ومع ذلك فكلّ ما يستطيع التفكير فيه هو جثة ممزقة لمدمنة هيروين.

تبدو الأمور مثل الأيام الماضية، بل تكاد تكون كذلك.

الآثاث المحطّم دفع إلى أقصى طرف قاعة رجال التحرّي، أما سائر المقاعد والمكاتب فقد نظّمت في صفوف مرتّبة مواجهة لزاوية روسّو. الهرج والمرج وجلبة الأصوات، ومنظر الناس يتحركون في غير انتظام، الضباب الرقيق المتنقل الناتج عن دخان السكاير، وتناثر الأقداح البلاستيكية التي كان يسكب فيها البراندي عوضا عن القهوة كما تدلّ الرائحة الزكية المنتشرة في الغرفة، وانفجارات الضحك، وكثرة دفاتر الكتابة، والشتائم المرحة والمسدسات المحمولة في بيوتها الجلدية -

والقعقعة العامة لقاعة حوادث وهي في حالة عمل - ذلك كله هو الذي جعل روسو يتذكر أياماً أفضل. وكما في الأيام الماضية، فقد خفّت الضوضاء كثيراً عندما تحرك سائراً الهوينا بينهم وانتقل إلى مقدمة القاعة ثم استدار مسنداً ظهره إلى حافة المكتب الرئيسي. وانتظر بينما كانوا يستديرون نحوه وينهون مداولاتهم الصغيرة ويتركون الثرثرات جانباً ويلتقطون أمتعتهم ويخفون زجاجات الشراب ويدفع الواحد منهم الآخر برفق، ويستعيرون أقلاماً ويخرجون دفاتر الملاحظات من الجيوب. حضر الرئيس - انتبهوا! إنهم ينظرون إليه الآن، يرون شعره الذي لا يزال مبللاً وقد مشّط بعناية، ويلاحظون على وجهه آثار حلاقة صعبة للذقن وتلك القطعة الصغيرة المأخوذة من منديل ورقي والملصقة حيث جرح نفسه بشفرة الحلاقة الكليلة، كما يلاحظون القميص النظيف. انتظر، وقد ارتسم على وجهه تعبير ينمّ عن الصبر بل عن الرزانة، مرسلاً بصره إلى ما فوق رؤوسهم فلا يرى إلا ما يريد أن يراه، إلى أن ساد صمت مطبق.

- «من يرغب في تولّي الردّ على الاتصالات التليفونية؟»

جاء الجواب ضحكاً من الجميع، فتولّي أمر ذلك الفيض من الاتصالات التليفونية في أية عملية تحقيق كبيرة كان الأمر الذي يكره أي فريق عمل القيام به أكثر من أي مهمة أخرى.

- «إنه سؤال جدّي. ولانه ليست هناك خطوط أو لان هناك عدداً قليلاً جداً منها، فهذا يعني زيادة في التنقل وزيادة كبيرة في الأوراق. زلاتا؟ فلاديميز؟» قال روسو ذلك ونظر إليهما. كان الاثنان جالسين متجاورين إلى الجهة اليمنى. كانا قد تلقيا التعليمات الضرورية وهما الأن يعرفان ما يتوقعانه. زلاتا المهذارة، وفلاد النيّق الشديد الحساسية متناسبان، يكمل الواحد منهما الآخر إنها «جانبية» التفكير وهومنهجي.

«ستتوليان سجل الأحداث، وتساعدان زملاءكما في مذكراتهم

وتقاريرهم.» أحنيا رأسيهما معاً بطاعة وتحسّس بالواجب. تساءل روسو بينه وبين نفسه عما إذا كانا يدركان إلى أي مدى سيغرقان في العمل بعد بضع ساعات.

وقف مدير شرطة التحرّي ويداه في جيبي بنطلونه، وخطا بضع خطوات نحو الجدار الخلفي، إلى لوح الكتابة الأبيض الكبير. تحرّك ببطء مستمتعاً بجو التوتّر المتزايد ومدركا أنهم يراقبونه عن كثب ويسترشدون به. التقط روسو قلماً مكسواً باللباد وبضربات سريعة كأنه يشهر سكينا بيده، كتب اسم القتيلة على اللوح بحروف كبيرة وبلون أحمر كالدم: زيليكا بوكوفاتش.

«ستحبون ذلك» قال. توقّف لحظة ليرى وقع قوله عليهم مجيلاً نظره في الوجوه التي شكّلت نصف دائرة حوله. كان يدرك أن عليه أن يعوّض بالعمل الشاقّ عما يواجهه من نقص في الأفراد والسيارات والاتصالات التليفونية، وفي الوقت الضيّق المتاح له. والعمل الشاق يتوقّف على مدى تنفيذهم تعليماته. وأدرك وهو ينظر إليهم الآن أن أمامه، في أفضل الأحوال، مدة ثماني ساعات قبل أن يبدأوا بالذبول نتيجة الإرهاق. أربع ساعات من العمل الشاق في هذه المدينة تساوي العمل طوال ثلاثة أيام أو أربعة في أيام السلام. سيكون ما عليهم القيام به إذن مساويا لعمل اسبوع لقلة الطعام وانعدام النوم. سيقودهم الآن ويدفعهم دفعاً بعد ذلك، سيتملّقهم ويتزلّف إليهم ويتنمّر عليهم إلى ان يتخلّوا عنه. لكن لا بدّ لكل من يفكر في المسألة من أن يتوصل إلى نتيجة هي ان ما يقترحه، ما يحمّلهم أياه، أمر يكاد يكون ميؤوسا منه.

قال مشيراً إلى الاسم الذي كتبه «ضحية جريمة القتل.» ثم كتب اسما آخر هو دوسان وأضاف انه «زوج القتيلة السابق.»

تكلم بثقة بالنفس وبتباه كأنّه ساحر يعلن حيلة جديدة من حيله بعد أخرى.

واجه روسو حلقة رجال البوليس المحيطة به مرة أخرى قائلاً «بوكوفاتش - صربية، طبيبة أسنان، وجدت ميتة، والافتراض هو انها أغرقت في مغطس حمام في شقة في نوفوغراد.» وهنا طرقت سمعه ضحكة مكتومة، وغمغمة بشتيمة وتبادل همس محموم.

استمرّ في كلامه«وقت الوفاة: ما يصل إلى ثمان وأربعين ساعة قبل اكتشاف الجثة.»

أعاد روسو القلم إلى مكانه. حان الآن وقت إعلان الحقيقة.

- «ليس لدينا تقريرعن تشريح الجثة، بل ليس لدينا الجثة نفسها.» سيطر صمت مطبق على الغرفة. كانت نظراتهم جميعاً مركّزة على وجهه، وهم ينتظرون ليروا ما إذا كان سيتلعثم ويتردد، إذا كان الخوف سيظهر عليه.

أضاف «مكان وجود دوسان غير معروف.» سرت تحركات وتململات بين عدد منهم. إنه «يراهم» يفكرون، يقولون لانفسهم ان هذه هي نقطة بداية، خيط واضح يمكن التمسّك به والانطلاق منه والتحقيق فيه. ترى أيعلمون. هل خطر لهم في بال أن زميلهم شرطيّ التحرّي الذي تلقّى المكالة في هذه المسألة قد فرّ، تخلّى عن موقعه؟

- «كانت القتيلة عضواً في لجنة تتالف من أشخاص أطلق عليهم «الصرب الموالون» أو ربما أطلقوا هم هذا الاسم على أنفسهم. ويعتقد قال مشددا على كلمة يعتقد «أن ثلاثة آخرين من أعضاء اللجنة قد أعتقلتهم المؤسسة العسكرية. ولا نعرف مكان وجودهم.» ضحك أحدهم عند ذلك ضحكة نصف مكبوتة، ولم يستطع روسو أن يرى من هو.

- «تقع الشقة في مبنى ضخم يضمّ شققاً عديدة ويطلق عليه، للأسف، لقب منزل القردة. وأنا واثق من أن بعضكم على الأقل،

يعرف موقعه وسبب أطلاق هذا الاسم عليه. وعليّ أيضاً أن أذكر لكم انه يخضع لسلطة ما يسمى القوات الخاصة، وانكم لن تحصلوا منهم على الكثير.» لمح روسو بطرف عينه سالكو وطاهر يتبادلان النظرات.

«كانت بوكوفاتش مخبرة تزودنا بمعلومات، وكانت مدمنة مخدّرات أيضاً» قال روسو وصمت لحظة لكي يفهموا هذه المعلومات فهماً جيداً، وهو يراقب بعض رجاله يكتبون في دفاتر ملاحظاتهم بحدّة.

- «لقد وقع عراك. أنا شخصياً أظنّ أن الضحية قضت خنقاً، لكن في الوقت ذاته قد تكون هذه مجرد نظرية. كان هناك كثير من الخدوش والكدمات وكثير من الدم. ويبدو أن الذين ارتكبوا ذلك قد عادوا إلى مسرح الجريمة للبحث عن شيء، شيء اخفقوا في العثور عليه. لقد جرى تفتيش المكان بدقّة ونقلت الجثة منه.»

- «الذين ارتكبوا ذلك؟» لم يستطع روسو تحديد صاحب الصوت.

- «نعم الذين. هناك أكثر من شخص واحد.»

- «وهل من شهود؟» كان ذلك الصوت الأجشّ صوت مراد، شرطي التحري المعينّ حديثاً.

- «واحد»

- «هل يستطيع، أو هل تستطيع، التعرّف إلى القتلة؟» كان مراد شديد الطموح وقد أمضى سنوات في درس علم الأمراض وأسبابها، وفي قراءة دراسات في علم الاجتماع عن العقل الإجرامي، من خلال منحة دراسية من الدولة. ولم يخطر له في بال أن حرباً ستوقف تحرّكه إلى أعلى.

- «أعتقد ذلك.»

عاد مراد يقول «وهذه الشقة، هل كانت تسكن فيها؟»

ـ «لا. لا أعتقد ذلك.»

وقف روسو مبتعداً عن المكتب الذي كان يستند إليه.

«ليس لدينا كثير من الوقت» قال وهو يتجه إليهم سائراً وسط صفوف المكاتب متيحاً لهم أن يروه عن كثب وأن يشعروا بمدى ثقته بنفسه.

«كم من الوقت؟» قال أنيل رافعاً إلى أعلى يده اليمنى التي تنقصها أربع أصابع كأنه تلميذ يطرح أسئلة في غرفة الدرس.

ـ «إلى منتصف الليل»

واضاف روسو يقول «هل من أسئلة أخرى قبل أن نبدأ؟» كانوا صامتين، يتوقون إلى البدء بالعمل.

ـ «هناك بعض المسائل الأدارية. لدينا ثلاث سيارات وخزاناتها مملؤة بالبترول.

أما الاحتياطيّ فهو قليل جداً. ولذا فعليكم إلا تهدروا أية نقطة منه. سمير ـ أين أنت؟ حسناً، أستطيع رؤيتك الأن ـ أنت مسؤول عن النقليات.»

كان سمير يعاني من قرحة شديدة وأسهال دائم. والواقع انه من المفترض الا يقوم مفتش التحرّي هذا بأي عمل، لكنّ له من الاعتبار والقدرة على فرض الاحترام ومن حسن الإدراك العام، ما يجعله يحول دون وقوع خلافات بينهم على السيارات. كانو قد بدأوا جمع حاجياتهم عندما قال روسو «آه. كدت انسى الأخبار السارة.»

اضطر روسو إلى رفع صوته وسط ذاك الهرج و المرج. «سيجري أطعامنا من خلال بادرة لطف من العاملين في مطبخ/ فندق/ هوليداي إنّ.» أعقب ذلك تهليل صاحب «ولكنه لن يكون كثيراً. يخنة للغداء ويخنة للعشاء ويخنة للافطار.»

ـ«جرذان أو أرانب أيها الرئيس؟» هتف أنيل.

ـ «وما الفرق؟ أن لها كلها الحجم نفسه هذه الأيام.»

كان التحدّث إليهم والقيام بالدور المنوط به أمراً شبيهاً بأداء على المسرح.

إنه دور يؤدّى وقد يكون الأخير والأكثر أهمية في تاريخ روسو المهني. لكن ليس هناك من تلقين هذه المرة ولا إضاءة ولا شيء مما يستعان به في الإخراج المسرحي، فنبرة صوته وطريقة تحريك يديه وكيف يتنقل، كل ذلك بعث بسلسلة من الرسائل إلى تلك اللوحة من الرجال والنساء المحيطين به في شكل نصف دائرة. إنهم، عند تقييم أمر ما، أشدّ النقاد شكا وتشاؤما وتهكّما، ولا يسهل خداعهم فهم يستطيعون تبينّ أية خطوة كاذبة وأية إشارة تنمّ عن عدم ثقة بالنفس، كما يستطيعون التمييز بين الصوت الهادئ المتروّي وذاك الذي ينتج عن أفراط في ضبط النفس، وفضح الجهود الكاذبة التي تسعى إلى رفع الكلفة إلى أبعد مما ينبغي وإلى العودة إلى شكليات لم تعد تعني شيئاً الآن. إنهم دارسو الطبيعة البشرية، وقد تلقّوا دروسهم في شوارع المدينة القاسية التي لا تعرف الرحمة. كان عليه أن يزيل عنهم التوتر ويجعلهم يشعرون بالاسترخاء وأن يبعد تلك الحدة عن ضحكاتهم، أن يرص صفوفهم ويدفعهم إلى أن يتولوا أدواراً يقومون بها. عليه أن يجعلهم يشعرون بأن هناك من يريدهم وأن هناك حاجة إليهم، ان يجعلهم بطريقة أو أخرى يعودون إلى العمل كفريق.

نحن قادرون على يكون لنا تأثير وعلى أن نحدث تغييراً، فنحن على حق. كان وهو يتحدث يجري حساباته، يحصي، يفصّل في الأعداد ويقسمها ويعيد تنظيمها، يحدّق فيهم، يربط بين وجوه يكاد لا يتذكرها وسيرة أصحابها ساعياً إلى التمييز بين اصحاب الفعل واصحاب الفكر، بين المتوانين والنشيطين وبين النفوس التي تتّسم بالميل إلى العمل

الجماعي وتلك ذات الطبيعة الفردية التي تأبى الاندماج، بين الشكّاك والمثالي وبين من يخوض في الوحول وبين رجل الفكر؛ كان يفعل ذلك محاولا ربط وجوههم المدارة نحوه بما يتذكّره عن أدائهم وبما تحمله ملفّات سيرهم التي أكلها الغبار في طبقة المبنى حيث مكتبه.

تسعة عشر شخصاً، وست عشرة ساعة وثلاث سيارات.

لقد تغيب ستة اشخاص، بل سبعة إذا أضفنا إليهم فاسيتش.

إنها عملية خداع كبيرة، وعليه أن يجعلها تنجح.

وقد رسمت على الشكل التالي: زلاتة وفلاديمير مسؤولان عن سجل الأحداث ويهتمان بسير أعمال التحقيق؛ أما أضخم رجلي دورية، دافور ومنير اللذان يرتديان البزة الرسمية والطامحان إلى أن يصبحا تحرّيين، فيقفان ووجهاهما يوحيان بجو من الشراسة، عند الباب مسلّحين ببندقيتي كلاشنيكوف رشاشتين مع أمشاط ذخيرة إضافية وقاذفتي قذائف صاروخية. سمير اللطيف الشاحب اللون يتولى أمر وسائل النقل وتنظيم استعمالها. أما الذين يتعذر كبحهم، أي انيل وبوريس وطاهر وسالكو وزوران وفييلكو فيشكلون ثلاث مجموعات لتفقد المدافن والبحث عن جثة المرأة.

بقي هناك سبعة.

فاطمة وراتيمير يزوران المستوصف، وأنتي ونيناد يقصدان مكتب السجلات والمحاضر إذا كان لا يزال قائما.

التحريان درينا واندريه، والاثنان صربيان، يتوليان أمر الصربيين الذين يحتمل إنهم يعرفون شيئا. سيتسللان إلى منزل القردة خفية وهما أعزلان من السلاح ودون أن يلفتا الأنظار إليهما أو يجعلاً أحداً يعرف أنهما شرطيان.

أما هو، روسو، فسيزور محمود والصغيرة نور.

وسيجتمعون لتناول طعام الغداء وبعد ذلك يعيد تقسيمهم من جديد كما يعيد توزيع العمل عليهم، ويقود شخصياً عملية القبض على من يجب اعتقالهم. لقد رسم الخطة بعناية لكنه لن يطلعهم عليها إلا إذا كان عليه أن يفعل ذلك. لم يكشف لاحد عما أبقاه سراً في صدره، فليس في استطاعته أن يثق بأحد في هذا الشأن.

- «أيها الرئيس؟»

رفع روسو عينيه عن الأوراق التي أمامه.

- «أنا وبوريس» قال انيل هازّا كتفيه النحيلتين بعصبية وهو يدلف متثاقلاً ناقلاً ثقل جسده من قدم إلى أخرى. ترى هل هو مستاء من نفسه بسبب حفلة المخدرات والكحول صباح اليوم السابق؟ وعندما رفع روسو رأسه وحدق في وجه انيل بدا كأن هذا قد أجفل. أما بوريس شريك انيل فلم يحاول أن يقحم نفسه في الأمر مباشرة بالدخول إلى المكتب بل اكتفى بالنظر إليهما عبر الحاجز الزجاجي.

«أنا وبوريس» قال أنيل مرة أخرى وهو ينظف حنجرته متنحنحاً «ذهبنا إلى منزل فاسيتش كما طلبت منا أن نفعل»

- «نعم؟»

- «لم يكن أحد هناك أيها الرئيس»

- «وماذا بعد؟»

«سألنا الجيران» قال أنيل وقد أدار رأسه إلى الخلف ملقياً نظرة على بوريس كأنه يطلب مساعدته، لكن بوريس لم يحاول التقدم إليهما بل بقي في مكانه.

- «أكمل حديثك»

- «قالوا إنه ترك المكان هو وزوجته صباح أمس، في وقت مبكر

جداً. لقد خرجا من المنزل معاً ـ إنه منزل صغير من طبقتين ـ وركبا سيارة انطلقت بهما. لم يستطع الجيران أن يتذكروا الوقت تماماً لكنهم شاهدوهما يغادران المكان يحملان أكياساً وحقيبة، وذلك بين الساعة السادسة والساعة السابعة»

ـ «هل قالوا لكما إلى أين ذهبا؟

ـ «لا أيها الرئيس»

ـ «وما لديكما غير ذلك؟»

هز أنيل كتفيه ونظر إلى بعيد.

ـ «هيا. أخبرني»

ـ «يبدو أنهم، أعني الجيران، يعتقدون أن لمغادرتهما المنزل علاقة بلوكا.

ـ «حسناً. كم هو عدد الجيران هؤلاء؟»

ـ «اثنان. بعنوانين مختلفين»

ـ «هل دوّنتما إفادتيهما؟»

ـ «نعم»

ـ «ما الذي قاله الجاران عن لوكا؟»

مرة أخرى تلك النظرة السريعة من فوق الكتف إلى بوريس.

قال أنيل وهو يحرك كتفيه «إنه ساعدهما في الخروج من المدينة»

ـ «هل هناك من أمر أكثر تحديداً ودقة؟ ماذا عن السيارة؟»

ليست هناك معلومات عن لوحة أرقام السيارة. وقد ألقينا نظرة على المكان.»

- «لقد اقتحمتماه»

- «وجدنا نافذة مفتوحة»

- «لاشكّ في ذلك، وماذا بعد؟»

- «يبدو أنهما لم يحملاً معهما الكثير، لكنهما كانا مستعجلين، فالثياب متناثرة هنا وهناك، وثمة حقيبة مملوءة بالأمتعة تركت قرب المدخل، وهناك طعام على المائدة.

هذه الأمور تعني أن وراءها أناساً كانوا في غاية الاستعجال.»

- «هل قال الجاران شيئاً عن علاقة لوكا بفاسيتش؟»

حرك أنيل رأسه بالايجاب.

-«أكيد؟»

-«الواقع إنه كان هناك الكلام المألوف عن أن لوكا يضع رجال الشرطة في جيبه...»

- «هل ذكرتما شيئاً عن زيارتكما هذه لأحد؟»

- «لا أيها الرئيس فقد طلبت منا الا نفعل»

- «استمرّا في ذلك، واحرصا على أن يبقي شريكك فمه الكبير مغلقاً، فلا أريد الإساءة إلى معنويات الرجال»

- «حسنا. أيها الرئيس -»

- «نعم؟»

«لا تدع ذلك يحزّ في نفسك كثيراً، لقد كان دائماً شرطياً غير مستقيم، كنا دائماً نعرف ذلك.»

قرر روسو إلا يردّ على هذا.

سألهما «انتما ذاهبان إلى المدافن الان، اليس كذلك؟»

ـ«طبعاً»

ـ «تعرفان عما ستبحثان والأسئلة التي يجب أن تسألاها؟»

ـ «طبعاً»

ـ «استمرا في عملكما.»

وبينما كان أنيل يسير مع بوريس مجتازين قاعة رجال التحري وأقدامهم تطحن قطع الزجاج المتناثرة على السجادة دعاهما روسو طالباً إليهما العودة. انتظر مدير شرطة التحري إلى أن أصبحا كلاهما داخل مكتبه هذه المرة.

ـ «لا حفلات اليوم. هل هذا واضح؟»

«مفهوم أيها الرئيس» قال بوريس ملقيا نظرة سريعة على أنيل.

ـ «لا شيء من تلك الأعشاب المخدّرة القذرة، ولا كحول أيضاً. هل سمعتماني؟»

ـ «حسنا أيها الرئيس، ما من مشكلة»

ـ«أرجو ذلك، من أجل مصلحتكما. أنا أعتمد عليكما فالأمر مهم جداً ولا يحتمل أي عبث. مفهوم؟»

«مفهوم» أجاب بوريس وهو يقف على رجله الاصطناعية وقفة بدا جسمه فيها على شيء من الانحناء.

«مفهوم» قال أنيل رافعاً، في تحية، يده اليمنى التي لا أصابع فيها سوى الابهام.

شعر روسو بأنه بذل كل ما في وسعه حالياً.

قال فليت وهو يغلق باب السيارة «جئت بالبترول.» وبدت سيارة

البوغو كأنها تميل ميلانا تحت وطأة ثقل فليت. ثم أضاف «ثلاث صفائح. آسف لأنني تأخرت...»

- «لا بأس. وشكرا على هذه الكمية الإضافية من البترول فقد تتوقف الأمور عليها»

- «لقد واجهت بعض المشكلات»

- «سمعت بذلك»

- «سمعت بذلك؟»

- «أكيد. فقد احتجزتك الشرطة العسكرية في سجن مدني. ألا تتذكر؟»

«لم تكن لديّ فكرة عن المكان الذي كنت فيه ولا عمن هم. لقد استولوا على ساعتي الرولكس.» كان فليت يتحدث بصوت إنسان حزين مظلوم مبعداً نظره عن روسو، وقد بدا عليه اهتمام مفاجئ بالمنظرالذي يظهرمن خلال زجاجة نافذة السيارة وهو في مقعده قرب السائق. أدرك روسو أنه يشعر بالحرج.

قال له «أخشى ألا أستطيع مساعدتك هناك، وفي مسألة الساعة بشكل خاص.»

لم تكن لدى فليت رغبة في متابعة الموضوع فغيّر الحديث. من حسن حظه انه لايزال حيا. حاول روسو ألا يظهر عليه أنه ينظر إلى وجه فليت، لكنه لم يستطع إلا أن يلاحظ ذلك التورّم الشديد في أنف الصحافي وكدمة على أحد خديه تحت عينه اليسرى مباشرة. بدا لون وجهه رمادياً. لعل ذلك نتج عن إسرافه في الشرب الليلة الماضية.

- «حسنا، ما هو الخبر؟»

- «هذا أمر تقرره أنت»

- «قصدت أن أقول ما المسألة؟ ما الذي يجري؟

- «انه تحقيق في جريمة؟»

«وما الجديد في الأمر؟» قال فليت ثم أضاف «هناك جثث في كل انحاء هذا المكان اللعين، فما الذي يجعل هذه ذات أهمية خاصة؟»

إقناع فليت بهذه الخدعة قد يكون الجزء الأهم في خطة روسو. كان الصحافي في وضع جعله شديد الغضب، فهو يشعر بألم في راسه، وأنفه وكرامته مجروحان بسبب المغامرات الفاشلة في الليلة الماضية. عدّل روسو خطته، وعزم على ألا يطلعه على كل شيء الآن، وسيقوم عوضاً عن ذلك بإعطائه ما يكفي للإبقاء على اهتمامه، ما يكفي لجعله يجمع القطع التي اختارها روسو ويدخلها بعضها ببعض.

كانا يتجهان إلى زقاق القناص

قال فليت عابساً «لم علينا أن نستعمل سيارتك؟»

- «لأن سيارتك تلفت الانظار اكثر مما ينبغي»

- «هؤلاء الأشخاص المتشرون في الجبال فوقنا لا يمكن خداعهم»

«لست اتحدث عنهم» قال روسو وقد حرك رأسه بإتجاه الإحراج ومواقع مدفعية الصرب. «أنا أتكلم عن المكان الذي نقصده الان.»

أخبر روسو فليت عن الجثة، وكيف جرى العثور عليها في الحمام، وعن اختفائها، وعن حالة الشقة السكنية، وعضوية المرأة القتيل في لجنة الصرب، واعتقال ميسيتش وزملائه، الأمر الذي لم تؤكده المؤسسة العسكرية حتى الأن. لم يذكر فاسيتش، ولم يقل شيئاً عن مغادرة سابينا المدينة وطريقة مساعدة لوكا لها على المغادرة بإعطائها «قرضاً» بالعملة الصعبة. وأغفل الحديث عن الجولة التي قام بها مع لوكا في اليوم السابق إلى مستودع البضائع ثم إلى جبهة القتال في «إيلديزا» و«ستوب»، وقررّ ألا يذكر شيئاً عن التحذير الذي حملته إليه

ابنته بالتبني وقولها إنه سيجري حلّ قوة الشرطة في غضون ساعات.

انها خدعة دون شك.

لم يكن روسو يعرف ذلك لكنه افترضه افتراضاً. وزير الداخلية المسؤول عن القانون والنظام، وروسو مسؤول أمامه ويرفع تقاريره إليه، يريد ابعاد رجال لوكا السفّاكين من الشوارع. ووزير الدفاع المسؤول عن الدفاع عن دولة البوسنة المستقلة الآخذة بالتقلّص في وجه الخطر الخارجي، لديه أسبابه الخاصة لمناقشة لوكا الحساب: غضب جمهور المؤسسة العسكرية، ضباطاً وجنوداً، بسبب استغلال الناس وجني الأرباح الفاحشة بطرق مفضوحة، وبسبب حالة التسيّب الأمني في عاصمتهم. ويريد الجيش أيضاً الإمساك بموارد لوكا أي الرجال والموارد وإلا فكيف يمكن أن يفسر روسو المناورات العسكرية ومناشدة رجال لوكا الانتقال إلى الخطوط الأمامية، وتأكيد أمر لا يمكن دونه أن ينصاع لوكا اليهم هو أن قوة البوليس المدني ستحلّ وستدمج في جيش الحكومة؟

لم يذكر روسو شيئاً من هذا لفليت.

لوكا جائع إلى السلطة. رأى لوكا فرصا كبيرة تنفتح أمامه. أراد اكتساب الشرعية. طالب بأن يكون له مكان مع من يجلسون إلى رأس الطاولة.

كان خطأه أنه قتل بوكوفاتش.

- «إذن، فانت فعلاً تريد القضاء عليه؟»

- «على من؟»

- «لوكا. تريد أن تقص جناحي الرجل الذي يعتقد كثيرمن الناس إنه فعلاً أنقذ سارايبقو وسنة ١٩٩٢. هل تعتقد حقيقة أنك تستطيع فعل ذلك دون ان تدفع الثمن؟»

ـ «وأي نوع من المدن ستكون هذه المدينة إذا لم نفعل ذلك؟»

صمت فليت لحظة ثم قال «هل فقدت رغبتك في الحياة، حضرة المدير؟»

ـ «لا، اطلاقاً»

ـ «الديه كثير من الأصدقاء.»

تبادلا النظر. فليت يشدّ بذراعيه على صدره طلباً للدفء وهو جالس في المقعد قرب السائق، ومدير البوليس ممسك بمقود السيارة وقد انحنى إلى أمام ليركز انتباهه على الطريق. رأى روسو في عيني فليت في تلك اللحظة النظرة نفسها التي كان قد رآها في عيني الصحافي الأميركي عندما زحف على أرض مكتب مدير البوليس: ومضة خوف، نظرة هلع وعدم فهم، رعب حيوان يجري دفعه دفعا نحو المسلخ.

ـ «هل أصبت بالجنون كما جن الجميع؟»

ـ «ليس هناك ما تخشاه يا برانستون، فدورك دور مراقب. انك تقوم بعملك، ولست اطلب منك أكثر من ذلك.»

يعرف روسو أن هذا كذب فهو يطلب منه أكثر من دوره بكثير.

ـ «كنت أعتقد أنك شديد التعقل. لم تقوم بذلك؟»

فتح فليت دفتر ملاحظاته وأخذ يسحب غطاء قلمه. كان مطبق الفكين يصر على أسنانه. إنها الطريقة التي يتصرف بها بعض الناس عندما يكونون خائفين... إنهم يغضبون.

لكنه كان يسعى وراء الخبر، تماماً كما توقع روسو أنه سيفعل.

فكَر مدير شرطة التحري ملياً وبعناية قبل أن يجيب فليت. مرة أخرى خالجه شعور بالتعاطف، ذلك الشعور المنتصر خلال عمليات

التحقيق والذي يختصر بالقول «هذا يؤلمني أكثر مما يؤلمك» يصدر عن رجل التحري عندما ينجح أخيراً في جعل المشتبه به ينهار، وهو يضع أمامه أفادة مطبوعة بالة كاتبة ويجمع، في ما يكاد يكون رقّة وحناناً، أصابع السجين المرهق الممانعة المتجمدة، حول القلم مشيراً إلى المكان الذي عليه أن يوقِع اسمه فيه. والأمر نفسه يتكرر دائماً، تقال الكلمات بطريقة مهدئة مسكِنة: ساعد نفسك. سهِل أمورك. وقِع وسنأتيك بوجبة من الطعام الساخن، وقع فتصبح قادراً على أن ترى أولادك. وقِع فيسمح لك بالنوم. وقِع نأتك ببطانية. انك تحرم هؤلاء الناس مما هم في أشد الحاجة إليه وبعد ذلك تعرضه عليهم كأنه تنازل منك.

على روسو الآن بعد أن استحوذ على فليت أن يحذر من أن يعود فيخسره.

قال روسو أخيراً «برانستون. أنت أميركي. انك تعرف أكثر مني معنى حكم القانون.»

قالت تانيا لنفسها ان النهار يتجه إلى أن يكون نهاراً جميلاً تماماً، أحد الأيام التي تمثل جلال الشتاء. كثير من هؤلاء الناس الذين يحدقون في الفضاء لن يعيشوا لينعموا بالطقس الأكثر دفئاً الذي سيحل بعد شهر. لكن حتى هؤلاء يستطيعون أن يهربوا من إنشغالاتهم الموحشة الكئيبة ليتفرجوا على السحب الكبيرة المنتشرة كالزغب تسوقها الرياح عبر التلال. أما الذي جعل هذا اليوم ذا أهمية خاصة بالنسبة إلى أهالي ساراييفو وهم يرسلون النظر بحذر من خلال النوافذ والأبواب، فهو ذلك الهدوء الهائل المطبق. كانت درجة الحرارة أدنى كثيراً من مستوى درجة التجلد، ومع ذلك فهو سيكون واحداً من تلك النهارات التي تجعل الأمهات يندمن على منع أولادهن، الذين سيطر عليهم الملل، من اللعب خارجاً في مداخل الملاجئ الموقتة التي لا تحصى والتي أقيمت في الطبقات السفلى من المباني والكاراجات/ المرائب/ الواقعة تحت الأرض.

قال أحدهم مرة، أو لعله كتب ـ ولم تستطع تانيا أن تتذكر من هو ـ أن موت إنسان هو شأن يخص الباقين على قيد الحياة أكثر مما يخصه هو. كم ينطبق ذلك على سارايفو حيث صار دفن الموتى يشكل خطراً كبيراً على الإحياء إلى درجة أن القتلى في هذه الأيام غالباً ما يدفنون حيث يسقطون: في حدائق منازلهم أو في زقاق موحل، أو في قطعة أرض مليئة بالأعشاب والنباتات. عرفت تانيا كثيراً من هذه الأماكن كانت القبور قليلة العمق، حفرت على عجل في الأرض الباردة المشبعة بالماء لتقليص أخطار الأمراض التي يمكن أن تنتج عن الجثث التي تركت في الأيام الأولى من الحرب لتتهرأ وتتحلل حيث هي لأن رصاص القنص المسيطر شل حركة الناس. وقد التهمت أقساماً من هذه الجثث مجموعات من الكلاب الشاردة التي طردها أصحابها من منازلهم لعجزهم عن أطعامها، وسرعان ما صارت مسعورة بسبب انتشار الجوع والرعب الذي تولده انفجارات القذائف المدفعية. وحتى في هذه الأيام كان البرد والمطر والجليد يؤدي أحياناً إلى إزاحة التربة أو تقليصها أو إزالتها لتنكشف عن بقايا الجثث الرهيبة، ولتنتشر في محيط كل مدفن مجهول رائحة الاهتراء النتنة.

تسلقت تانيا التلة لتصل إلى «مدافن الأسد» للقيام بمهمتها بصفتها مساعدة طبية احتياطية، وتجاوزت عشرات المشيعين الذين أرتدى معظمهم السواد بينما كانوا يصعدون مجهدين في الطريق نفسه. لم يكن أحد منهم يتكلم، فالكلام يحتاج إلى كثير من الجهد. كانت هذه المدافن في يوم من الأيام تقتصر في مساحتها على منحدر هادئ معشوشب تنتشر فوقه أغصان متطاولة لأيكة سنديان عند طرف المدينة الشمالي الشرقي. في أيام السلام كان من الصعب تصور مكان الطف من هذا المكان يترك فيه الإنسان عظامه القديمة. أما الأن فهو يضيق بالموتى. وهذا الجيش الأبكم القابع تحت الارض، تقدم من خلال العرض الدائم الذي يقوم به صفاً صفاً، وتكاثر وتضخم متجاوزاً السور ذا الدرابزون

الحديدي المرتفع، وامتد عابرا الشارع مندفعاً من جديد بعناد وقوة مجتاحاً ستاد/ ملعب/ كرة القدم الأولمبي، لان حصاد الموت اليومي يطلب بإطراد مساحات جديدة من الارض لجنوده ذوي الأبدان الصقيعية والأقدام اليابسة ليتهرأوا في عمق التراب. إنه صراع غير متكافئ. ليس في الأمر لعبة رياضية. ثمة منتصر واحد فقط: الموت.

هناك، حيث عبرت تانيا المدخل الاعلى، موقع فيلق الشهداء المسلمين: صفوف مرتبة من شواهد القبور التي تتخذ اشكال أكفان وتحمل أسماء الراحلين ومتى ولدوا وتواريخ سقوطهم قتلى. متقاعدون وأرامل وعرائس دون العشرين، ومرتفعات صغيرة ضمت جثث أطفال. كانوا جميعاً هناك. عائلات بكاملها مدفونة معاً (اذا كان تعبير معا يمكن أن ينطبق على حفرة ضيقة عمقها ست أقدام وعرضها ١٨ إنشاً).

نظرت تانيا إلى تحت، من جهة اليمين، فإذا هناك فرقة من الصلبان الصربية، صف فوق صف من الصرب، تشكل سرايا وجماعات وعائلات وشوارع وأحياء؛ وجميعهم أرداهم من يوصفون بأنهم أبناء عرقهم. وفوق، إلى الأعلى، على مسافة أقرب إلى حيث تقف تانيا، كانت الصلبان ذات اللون الأسود الصارخ على قبور الكاثوليك، أي كرواتيي المدينة، تحتشد مندفعة إلى أسفل في آخر هجوم للموت.

وفوق ذلك كله ترتفع رائحة التحلل، رائحة الموت المميزة.

إنه مكان واسع مكشوف مجرد من كل ما يمكن الاحتماء به. وقد استعملت الأرض المعشوشبة، كل قدم مربعة متوفرة منها، من أجل القبور. أما أشجار السنديان والكستناء فقد مزقتها الهجمات المدفعية منذ زمن، وما لبثت أن اقتلعت إفساحاً في المجال للإضافات الجديدة إلى قوائم الموت اليومية. أحست تانيا بأنها عارية.

شعورها الغريزي يقول بأن عليها أن تتكوم خلف قاعدة التمثال الحجرية التي يستند إليها الأسد نفسه، وهو كتلة نحتية قديمة لا يمكن

تمييز ملامحها اذ لم تعد تشبه أسداً أو أي كائن آخر. لكن الشابة عوضا عن ذلك اندفعت بين جمهور المشيعين وهي تشعر بشيء من الراحة وسط الأحياء، كتل اللحم البشري التي تتنفس حولها.

حفارو القبور، وهم رجال مسنون بوجوه بالية التهمتها الشمس والريح، وببشرة سمراء داكنة كالجلد، وقبعات مسطحة على رؤوسهم وأفواه خالية من الأسنان، كانوا يعملون بسرعة مشمرين أكمام قمصانهم عن سواعدهم، ويطلبون بإلحاح من العلماء - رجال الدين المسلمين - الإسراع في تلاوة صلواتهم.

جلس أفراد الجمهور القرفصاء فوق الوحل المتجمد بين القبور رافعين أكفهم بابتهال يتلون الفاتحة على أرواح آخر دفعة من قتلاهم. كانوا يحركون شفاههم. مرت الصلاة السريعة الشبيهة بالأنين، مثل الريح، مجتازة المكان. أما جثث الموتى الممددة على نعوش خشبية والملفوفة بأكفان بيضاء من القطن الرقيق، فقد رفعتها الأيدي بسرعة ودفعت دون أناة إلى داخل الحفر الفاغرة الأفواه. وبدون اية لحظة تردد أخذ حفارو القبور يهيلون التراب برفوشهم بسرعة واطراد على الجثث التي بلغ عددها ثماني.

ودمدم الجمهور «الله أكبر.»

فوقهم، على مكان آخر من التلة، ألقت امرأة كرواتية بنفسها على قبر كرواتي وسط الأزهار الذابلة، وهي تنوح وتهتف باسم ابنتها. زوج الابنة الذي سيطر عليه الشحوب والاضطراب وقف يحدق في الفراغ بنظرات جوفاء ووجه كوجوه الموتى. أما والد الراحلة فكان يبكي في نشيج يثير الشفقة. أشاحت تانيا ببصرها، فمنظر بكاء رجل ليس في سن الشباب هو منظر رهيب دائماً.

كانت تحدث نفسها قائلة ان الأمر ليس أكثر من عمل تقوم به وان من الضروري طرح العواطف جانبا، عندما سقطت أول قذيفة. كانت

تصدر عنها خشخشة كتلك التي يحدثها تحريك حصاة في علبة صفيح، قبل أن تسقط من الجو.

طرح الانفجار تانيا على الأرض. كانت تقف على قدميها وبعد لحظة اصبحت على الأرض.

سقطت على أحد جنبيها في الوحل فاندفعت مستجمعة نفسها للنهوض، وتفكيرها مركّز على الوصول إلى الجرحى في أسرع وقت ممكن لوقف النزف بالضمادات التي حصلت عليها من ميسيتش. أحست بأنها أصيبت بشيء في القسم الأدنى من جسمها إلى الجهة اليمنى، شيء مثل ضربة قاسية وحشية ادارتها بشكل لولبي وجعلتها تصدر صوت نخير نتيجة اندفاع الهواء بالقوة من داخلها. إنها منطرحة على الأرض من جديد، منبطحة على وجهها هذه المرة. سيطر عليها انزعاج وغضب. شعورها يشبه شعور من فاتته الحافلة/ الباص/ أومن زلت قدمه وتعثر بالرصيف، أو من لم يستطع حجز طاولة في مكان جيد في مطعمه المفضل.

كان الأمر محرجاً.

تراب بين أسنانها، ولسانها ينزف. بصقت تلك القذارة من فمها ومسحت ذقنها بكم سترتها. اللعنة! شعرت كأن سيارة قد صدمتها. استطاعت أن تنقلب على ظهرها واخذت تفتش عن الجرح. لقد أصبت. اللعنة!

الشيء الذي أصابها، كائناً ما كان، شق ثيابها منتزعاً القطن والصوف. لم يكن هناك ألم، ولا تدفق دماء. أحست بسريان موجة من القوة والسعادة.

أنا في خير. لم أصب بسؤ. شعرت بأنها تريد أن تضحك ابتهاجاً. مصابة

برضوض وكدمات لكن لا بأس، فهي مازالت حية.

حاولت تانيا أن تنهض. سمعت ما يشبه صوت تمتمة، أنين حيوان. حاولت ان تركز سمعها عليه فاكتشفت أنه يأتي من كل مكان حولها. الجمهور الذي ألقت بنفسها في وسطه طلباً للعزاء وللاحتماء به أصبح الآن منطرحاً حولها، وأدركت أن ذلك الصوت الغريب الحاد الذي يشبه الصرير أو احتكاك ثوب جلدي بالزجاج، إنما هو يتألف من مئة أنة وتأوهة وصرخة ألم ورعب.

إنهم يحتاجون إليها وعليها أن تذهب إليهم، فهذا هو سبب مجيئها إلى هنا.

ساعدوني. ساعدوني. إنها كلمات امرأة تتردد مرة بعد أخرى.

احتاجت تانيا إلى بعض الوقت، ربما إلى ثوان بدت لها مثل دهور، لتدرك أنها لم تكن سوى كلماتها هي. أخرسي. قالت لنفسها. توقف الصوت الضعيف الذي كان يخرج من فمها. أيتها البلهاء أنت لست بحاجة إلى مساعدة. انهضي. بذلت جهداً لاستعادة بعض السيطرة، السيطرة على نفسها وعلى أوصالها المرتعشة. هناك بخار يشبه الغمام أمام عينيها. هزت رأسها كي تستطيع الرؤية بجلاء. شاهدت أمامها رجلين يسحبان امرأة عبر الوحول. كانا يحملانها من رجليها وذراعيها وقد تدلى رأسها إلى خلف ووصل شعرها إلى الأرض، وتدلى فكها. بدت مثل غزال بقر بطنه يحمله صيادون. المنظر يشبه فيلما سينمائيا صامتاً بالأسود والأبيض، ليس حقيقياً بالفعل. لا يمكن أن يكون كذلك.

سقطت قذيفة أخرى. شعرت بها تانيا دون أن تسمعها، فقد جعلت أسنانها تصطك. إنها قنبلة هاون قالت تانيا بينها وبين نفسها. اللعنة، انها قريبة جداف. تستطيع أن تشم رائحة المواد المتفجرة. دفع الانفجار بعمود ضخم من التراب إلى أعلى. راقبت تانيا تلك القطع

المتناثرة من أشياء مختلفة ترتفع في الجو، تدور وتنفتل بشكل لولبي، ثم تبدأ بالسقوط بتكاسل. خطر لها أن المنظر جميل، إلى أن أدركت أن ذلك هو نثار بشري. قطع من ناس. أجزاء من ناس كانوا قد ماتوا ودفنوا. إنه أيضاً أجزاء من المشيعين الذين سينضمون بعد قليل إلى أحبائهم في ملعب كرة القدم. الموتى والذين في طريقهم إلى الموت.

الآن فقط انتبهت إلى الدم الذي لطخ بنطلون التزلج الذي كانت ترتديه. كانت ساقاه كلتاهما تلمعان وقد رطبهما الدم الحار.

يا رب السموات، هناك الكثير من الدم. لا بد من أنه دم شخص آخر. لا بد من ذلك.

لم تكن تشعر بالم. قالت تانيا لنفسها لن يكون سفري إلى مدفني طويلاً. كان أحدهم منحنياً فوقها ووجهه قريب من وجهها وهو يقول شيئا. حاولت أن تبتسم له. أرادت أن تعرف لم أخذ النور يخبو. قال لها الغريب شيئاً لكنها لم تستطع فهم كلماته.

رأت شفتيه تتحركان. كان ودياً جداً. وجهاهما يكادان يتلامسان. هل تعرفه؟ وجهه مألوف، لكن ذاكرتها اخذت تهرب مبتعدة دون أن تستطيع التشبث بها. أبهذا الشكل ينتهي كل شيء؟ هكذا؟ بهذه السرعة؟ أرجوك، أرجوك، ألا تدع ذلك يحصل الآن، إنه مبكر جداً. أهو شريان؟ يجب وقف النزف.

لم لا تستطيع أن تسمع ما يقوله؟

كانت قسمات وجه تانيا تتلوى في عاصفة ولولة صامتة من الرعب، لكنها لم تكن تعرف ذلك.

الفصل الرابع عشر

«خطوة واحدة فقط تفصل بين
التعصب والهمجية»

دنيس ديديرو

هناك، في مكان مرتفع يشرف على ساحة القتال، التفتت نور إلى والدها واضعة كف أحدى يديها فوق فمها وهمست شيئا في اذنه. أجابها محمود مغمغماً معا إدراكه أن ضيفيه قد يستاءان من ذلك. وكانت الطفلة بين فترة وأخرى تستريح في جلستها وتدير وجهها نحو فليت محدقة فيه. لم يكن واضحاً للصحافي مدى قوة نظرها، فربما كانت لا تستطيع رؤيته إلا بشكل ضبابي مع أن بضعة أقدام كانت تفصله عنها.

ـ «ما الذي يقولانه؟» سأل فليت روسو. كان الصحافي وضابط البوليس يجلسان جنباً إلى جنب على دعامة اسمنية تمتد على أرض ذلك المكان. وكان مضيفاهما في بعد نظر منهما، قد فككا صندوقا من الكرتون وفرشاه على الإسمنت لحماية أرداف ضيفيهما من البرد ولحماية ثيابهما من وقع السطح الإسمنتي الخشن. وجلس محمود وابنته قبالة الضيفين على ما يشبه مقعد الضيفين. هذا الأثاث البدائي ذكر فليت بأعمال التخييم. وزاد من شعوره بأنه في مكان يشبه الخيمة، العوارض الخشبية والآجر التي ترتفع بحدة إلى اعلى لتشكل قبة ناتئة فوق

رؤوسهم. كان بالإمكان رؤية السماء هنا وهناك من خلال ثقوب أحدثها إطلاق النار في السقف مما جعل حبالاً ضبابية من النور تخترق جهمة المكان.

- «إنهما يتحدثان عنك» أجابه ضابط الشرطة. ثم أضاف «نور فضولية. انها تسأل هل أنت أحد المشاهير مثل نجوم السينما ولاعبي كرة القدم الذين تسمع عنهم وتريد أن تعرف السبب الذي يجعل جميع الأجانب في سارايفو يبدون أغنياء.

ومحمود يقول لها انك لست ثرياً في بلدك، وكل ما في الأمر هو أنك تبدو غنيا لأن الحرب حولت كل بوسني شريف إلى فقير، وأن أصحاب عملكم أنتم الأجانب يقدمون لكم كل ما تحتاجون إليه للقيام بعملكم. كذلك تريد نور أن تعرف إذا كنت إنساناً صالحاً أو شريراً ومحمود يقول لها انه لا يعرف، لكن لا بد من أن فيك شيئاً من الخير كي تأتي إلى هنا في الأساس.»

ابتسم روسو ابتسامة عريضة. واحمرت عنق فليت وأذناه حرجاً.

- «والآن تسأل نور هل أنت متزوج، وتريد أن تعرف إذا كنت تنزف مثل سائر الناس عندما تصاب، وهل تموت كما يموتون.»

ظهر الذعر على فليت.

«عندما أصاب؟.. ليس إذا أصبت بل عندما أصاب؟ هل كان هذا هو سؤالها؟»

«نعم. ومحمود يقول لها إنك لست مختلفاً، انك بشري شأننا نحن الآخرين، لكنك تنعم بحماية أفضل في سيارة مصفحة وفي ثيابك الواقية من الرصاص وخوذتك. وهو لا يعرف ان كنت متزوجا لكنه لا يعتقد أنك متزوج فلو كنت كذلك ما جئت إلى هنا، فزوجتك ما كانت لتسمح لك بالمجيء.»

«لا أحب كثيراً أن أكون موضوع حديث»

«إنك قوي. الناس يتحدثون عنك دائماً. أنت أشبه بشخص من الفضاء الخارجي النسبة إليهم. صحتك جيدة، ولديك مال غير محدود، وتتناول وجبة من الطعام لمطهو كل يوم. ولديك نفوذ، وتستطيع أن تغادر البلاد ساعة تشاء. ربما كان عليك أن تدرس الصربية ـ الكرواتية بشكل كاف. . فلو فعلت لتوقفوا عن التحدث ذلك أمامك، لكنك لن تستطيع منعهم من التوقف عن هذه التساؤلات. ومهما يكن من أمر فمحمود، كما يبدو، ينظر نظرة رفق إلى طبيعتك القذرة. ألا توافقني الرأي؟»

ـ «لا أحب ذلك»

ـ «لا تكن لئيماً. حاول أن تكون مفيدا لاحد من الناس في حياتك.»

ـ «شكراً جزيلاً»

ـ «على الرحب والسعة»

ـ «هل استطيع أن أذكر اسم البنت في الخبر؟»

ـ «لا»

ـ «هل أستطيع أن أقول أنها بنت عمياء؟»

ـ «لا. إطلاقاً»

ـ «ما الذي استطيع أن أقوله إذن؟»

ـ «في الوقت الحالي أشر إليها على أنها رجل. رجل في منتصف العمر. أعط رجلك المزيف هذا أسماً وعملا مزيفين، وبحق الله أجعل الأمر يبدو واقعياً مقنعاً»

ـ «لكن هذا كذب!»

ـ «دون شك. أتريد أن تقول الحقيقة؟ عليك إذن أن تكذب قليلاً للوصول إليها. عليك حماية هذين الشخصين.»

ـ «لست متأكداً من أنني استطيع القيام بهذا الأمر»

ـ «ستقوم به. وإلا فإنني ساسجنك وأرمي بالمفتاح بعيداً ولن تحصل على هذا الخبر أو أي أخبار أخرى لزمن طويل. أتراك نسيت ما كنت تردده على مسمعي دائماً من أن المراسل الصحافي يساوي آخر خبر بعث به؟ متى أرسلت آخر خبر إلى صحيفتك يا برانستون؟ لا شك في أنك لم تفعل ذلك الليلة الماضية» هذه المرة أراد محمود أن يعرف عمّ يتحدثان. شرح روسو الأمر لمحمود فأرسل هذا ضحكة خافتة لفكرة قيام روسو بوضع المراسل الصحافي الأميركي الشهير وراء القضبان الحديدية. وانتظر كي يشرح محمود ما قالاه للفتاة. نزلت نور من مقعدها ثم مدت يداً مترددة ولمسته بها. مررتها على كتفه أولاً ثم تحسست وجهه بوقار بأصابعها مستكشفة قسماته، فمه وعينيه. فوجئ بهذا الاهتمام. حدث روسو نفسه قائلاً: كم هو قوي إدراك هذه الطفلة الحدسي الذي جعلها تعرف أنه يمكن اكتساب هذا الصحافي وجعله في صفك عندما يلمسه طفل. كان ذلك سحرا مدروسا ومن نوع انثوي، وشديد التأثير.

قالت نور لفليت بالصربية ـ الكرواتية «لا استطيع ان اراك بوضوح. لكنني اعرف انك لن تسبب لنا الأذى. انت لا ترغب في الاساءة إلى ابي أو اليَ، إليس كذلك؟»

قام روسو بالترجمة. وطلب فليت من روسو بصوت شديد الاختناق أن يشرح للأب والابنة أنه لن يقول أو يكتب ما من شأنه أن يعرضهما إلى مزيد من الخطر الذي يواجهانه إذا قررا أن يتكلما دون تردد. وبعد ذلك أرادت نور أن تعرف ما الذي أصاب وجه فليت ولم

هو متورم. أثار روسو ضحك محمود عندما رفض ترجمة السؤال أو جواب فليت عنه.

«ليلة في المدينة، أليس الأمر كذلك؟» قال محمود بصوت عال وهو يهتز طرباً على رغم نفور فليت الواضح. بدا فليت، لأسباب لم يستطع روسو ان يعرفها تماماً، كمن يريد أن يحدث انطباعاً جيداً في نفس ابنة السنوات التسع ونفس والدها.

كان روسو قد أخذ فليت إلى المبنى الضخم ذي الرقم ستة في منطقة الإنشاءات في «اليباسينو بوليي.» ولم يكن ذلك البرج مكشوفاً مثل الأبراج الأخرى ومن غير المرجح أن يكون موضع مراقبة شديدة من رجال لوكا. ترى أيعرفون هم أيضاً أن هذه المباني يرتبط بعضها ببعض بممرات تقع تحت الطنف التي يشن منها محمود حربه الفردية كقناص؟ انه لأمر محتمل ولكن لا بد من المحاولة.

وقد تجولا هناك صعداً إلى أن وصلا إلى السطح حيث التقاهما محمود وقادهما في طريق غير مباشرة عبر أروقة ودهاليز وفوق عشرات أنابيب المياه، فساروا يشقون طريقهم عبر خزانات الماء والمداخن ويجهدون على السلالم صعوداً ونزولاً إلى أن وصلوا في النهاية، وقد اتسخت ثيابهم بالسخام وجفت حناجرهم، إلى المبنى التاسع الذي يشرف على الخطوط الصربية وذلك كي يستطيع الصحافي الأميركي أن يقول في تقريره انه زار المبنى السكني الملقب بمنزل القردة حيث قتلت طبيبة الأسنان.

وقامت نور فخورة بنفسها بتحضير القهوة لضيفيها ـ ببنّ شحذته أو اقترضته أو سرقته ـ على موقدها الصغير، راوية قصتها للأميركي بينما كان هذا يدون ملاحظاته ومحمود يجلس مراقباً وروسو يقوم بالترجمة.

«هناك أمر آخر» قال محمود.

«ماذا؟» قال روسو النافذ الصبر الذي كان ينظر إلى ساعة يده باستمرار لرغبته في العودة إلى مقر قيادة البوليس.

«لم نذكر شيئاً عن هذا الأمر قبل الآن» أضاف محمود ناظراً إلى نور بسرعة. «لم نكن متأكدين ـ اعتقدنا. . .» قال في عجز واستسلام.

ـ «لا بأس في الأمر، ليس هناك من مشكلة»

ـ «إنه شيء وجدته نور في الشقة»

انتظرا بينما كان محمود يستخرج شيئين من مكان خفي داخل غرفة الآلات فوق أحد بيوت المصعد. لم يعد هناك من يقصد ذلك المكان الآن إذ لم تعد هناك طاقة كهربائية لتشغيل المصعد فانتفت الحاجة إلى أعمال الصيانة. مهما كان هذان الشيئان فقد لف أحدهما لفاً محكما بنسيج من البلاستيك الأسود ثبت بأربطة مطاطية عريضة. سارت نورخلف محمود حاملة الشيء الآخر، وهو علبة من الصفيح قديمة صدئة ودون غطاء، وقد بدت شبيهة بصفيحة مضلعة من صفائح الحليب المجفف التي توزعها وكالات الأمم المتحدة لكن صورة البقرة الحمراء وسط حقل أصفر إمحت عنها منذ زمن بعيد. تمسكت بها الفتاة بذراعيها وضمتها إليها كأن محتوياتها ثمينة جداً.

سألها روسو «أين كانت يانور؟»

ـ «كانت الرزمة وراء المرحاض. الحوض. . .»

قال محمود «تقصد الصهريج. كانت مثبتة عليه باوراق لاصقة.»

«لماذا بحثت في ذلك المكان؟»سأل روسو الفتاة.

ردت عليه ببساطة» لان الناس تخبيء اشياء هناك عادة. «وبدا الارتباك هذه المرة على محمود، فكأنها اعترفت بسرقة اشياء ثمينة من المنازل المهجورة وبأنه دربها على البحث في المخابيء المحتملة.

ـ «هل عدت إلى هناك؟»

أومأت نور برأسها إيجاباً.

سلم القناص الرزمة المغبرة إلى روسو وعاد هو وابنته إلى مقعديهما.

قال محمود«هيا افتحها»

في داخل ما بدا أنه كيس نفايات شفاف كان هناك كيس بلاستيكي آخر من السيلوفان الشفاف. ويبدا من حيث شكله ووزنه أنه يحتوي على كيلوغرامين من السكر. أما محتويات الرزمة فتشبه السكر من حيث شكلها وملمسها، لكن لون هذه المادة كان أسمر خفيفاً. قلبها روسو بين يديه كأنه يحاول تقدير وزنها.

«سكر أسمر. كان هذا ما اعتقدناه عندما شاهدناها. اعتبرت نور هذه الرزمة غنيمة قيمة، وكذلك كان شعوري في البداية. ولهذا السبب عادت وجاءت بها إلى هنا.»

سأله روسو مستفهما «هل كانت ملفوفة بهذا الشكل؟»

ـ «تماماً»

ـ «وما الذي حدث بعد ذلك؟»

ـ «حسنا، لقد فتحتها من إحدى زواياها وأدخلت إصبعي ثم لعقته »

«وبعد ذلك؟» قال فليت متململاً وقد عيل صبره.

أجاب محمود «يسمونه السكر الأسمر، لكنه ليس من النوع الذي تحلي به الشاي في كوبك. إن قيمته في الشارع هنا في سارايبفو قد تكون ٦٠٠٠ مارك ألماني.

والحقيقة أنه لم تكن لدينا فكرة عن هذا الأمر.»

«سولفات المورفين» قال روسو.

- «صحيح. اسمع، لو كنا نعلم...»

قال روسو بلطف «إنه لأمر جيد أن نور لم تحاول تناول شيء منه.»

مد فليت يده فناوله روسو الرزمة بعناية: رازها محاولاً تقدير وزنها، وشمها ثم أعادها إليه.

«إنها المرحلة ما قبل الأخيرة من مراحل تحويل الافيون إلى هيروين» قال روسو، ثم أكمل «وهذا آخر ما ينبغي القيام به بالنسبة إلى مسألة شحن هذه المادة، إذ انها خفضت إلى نسبة واحد من أحد عشر من حجمها الأساسي. وهي الآن هيروين خام من درجة رفيعة. وإنتاج تلك المادة المكررة الناعمة البلورية البيضاء التي «يخففها» التجار في برلين أو لندن، أي تحويلها إلى مادة مغشوشة، لا يحتاج سوى إلى خطوة واحدة بسيطة جداً في وسع طالب كيمياء في مرحلة الدراسة الثانوية القيام بها.»

- «هل تقصد أن تقول أن هذه هي أعمال التهريب التي يقوم بها لوكا؟»

«لقد فهمت الأمر دفعة واحدة يا برانستون» أجابه روسو.

- «إلى أين يذهب ذلك؟»

- «إلى أوروبا الغربية، زوريخ، امستردام، بروكسل»

- «اللعنة !»

- «قم بعملية حسابية بنفسك: قد تباع هذه المادة في فيينا أو هامبورغ بسعر ٣٠٠ دولار أميركي الأونصة أي ٤٨٠٠ دولار للباوند(الرطل الإنكليزي)»

«يعني ذلك ١٠٥٠٠ دولار أميركي للكيلوغرام» قاطعه فليت.

ـ «الكيلوان اللذان احملهما يمكن أيضاً تخفيفهما أو مزجهما عدة مرات ـ نحن الأن ننظر هنا إلى ما قد تبلغ قيمته ١٠٠٠٠٠ دولار أميركي وربما أكثر من ذلك بكثير.»

اطلق محمود صفيراً معرباً عن دهشته.

دمدم فليت قائلاً «مبلغ يدفع إلى ارتكاب جريمة قتل.»

قال محمود «لا بد من أن هذا هو ما كانوا يفتشون عنه في الشقة. لكن نور وصلت إليه قبلهم.» ووضع ذراعه حول كتفيها الهزيلتين وشدها إليه قائلاً «فتاتي الشجاعة»

شجاعة، ربما كانت كذلك، قال روسو في سريرته، لكنها مجازفة متهورة دون شك. فهؤلاء السفاكون ما كانوا ليترددوا في قتلها من أجل جزء بسيط مما تحويه تلك الرزمة. كل ما في الأمر الآن أنها كانت محظوظة.

وقال روسو «يسمون ذلك مصنع مغطس الحمام. كل ما تحتاج إليه هو مغطس وعدد من الأنابيب والأواني، وقماش من ذلك الذي يستعمل للف الأجبان، وبعض الماء النظيف من مكان ما. ماء المطر يفي بالغرض. أتصور ان لدي لوكا عدة مصانع من نوع مغطس الحمام هذا في أنحاء من المدينة. ويحتمل أن يكون نقلها من مكان إلى آخر، بل ربما كان لديه مصنع متنقل أو مصنعان من هذا النوع على متن سيارة شحن صغيرة بما يمكنه الانتقال إلى حيث يتوفر الماء. ومن شبه المستحيل ملاحقته».

«وماذا عن الصفيحة؟» سأل فليت.

حملتها نور إلى الرجلين. نظرا إلى داخلها. كانت مليئة بالمحاقن(ابر الحقن) التي تستعمل لما تحت الجلد ومعظمها ذو شقوق أو محطم، بالإضافة إلى إبر مستعملة.

قال محمود «نجدها على درج السلالم، خاصة المبنى التاسع، وكذلك في الخارج على الأرض. إنهم الفتيان والفتيات يستعملونها في الليل غالباً. نحن نجمع الإبر والحقن لأن وجودها ملقاة على الأرض يشكل خطراً.

هز روسو الصفيحة ثم وضعها على الأرض قرب قدميه.

جلست نور على ركبة والدها وطوقته بذراعيها. قال محمود «والآن أنت تعرف السبب الذي جعلنا نرغب في الكلام. إنهم يحولون شباننا وشاباتنا إلى مدمنين، ولمواجهة كلفة هذا الإدمان يجري بيع النفس إلى جنود الأمم المتحدة ـ وهنا عمل إضافي آخر للوكا» كان روسو يقلب الرزمة بين يديه كمن يفتش عن الزاوية التي سحب محمود العينة منها.

«يا لعنة الله ! الأمر صحيح» قال فليت ثم سأل «هل أستطيع أن اذوقها؟»

حدق روسو فيه. فأسرع فليت إلى القول «كي اتأكد مما إذا كانت المادة أصلية غير زائفة»

ـ «ثق بكلامي. إنها أصلية.»

حمل عدد من الندل الغداء من مطابخ الفندق في خلقينين كبيرين من الألومنيوم، ورفعوهما بمساعدة ثلاثة من رجال البوليس إلى القسم الخلفي من سيارة شحن صغيرة (بيك أب) محطمة كانت قد سارت في حركة عكسية إلى أن وصلت مؤخرتها إلى الباب الخلفي. الهدف الرئيسي من وجود رجال البوليس الثلاثة هنا ببزاتهم الرسمية كان حماية غداء زملائهم من خلال ردع جمهور من الشحادين والمجانين وأنواع من الذين سببت لهم القذائف اضطرابات نفسية، والذين درجت العادة على أن يتجمعوا خارج الفندق في أوقات تناول الطعام أملاً بأن يبحثوا في صناديق القمامة عن الفضلات. بعد ذلك نقل الخلقينان دون أية مشكلة إلى مقرقيادة الشرطة، فسارت البيك أب في طريق منحدر إلى ظلمة

الكهف الكبير الواقع تحت الأرض والذي يستعمل موقفاً للسيارات وملجأ في الوقت نفسه.

أرسل روسو رجاله إلى تحت على دفعات، أربعة في كل دفعة، لتسلم طعامهم ونقله في أي نوع من الأواني يتوفر لهم: بضعة صحون مكسورة وأكواز وأكواب بلاستيكية و«مزادة» الجيش القديمة التي تستعمل لحفظ الماء أو سوائل أخرى، بل أن زهرية مزخرفة استعملت لهذه الغاية. كان الإتيان بحصة روسو من نصيب زلاتا بعد أن عثر له بعضهم على سلطانية فخارية للحساء وملعقة من التنك.

وقد أعطي كل واحد منهم نصف رغيف من الخبز التفه المذاق وتفاحتين ذابلتين. إنها مناسبة مهمة. توقف العمل نهائياً وتجمع الشرطيون في مجموعات صغيرة ليأكلوا معاً. جلس بعضهم على درج السلم، ووقف آخرون في ممرات أو قاموا بإزاحة ما كان على مكاتبهم. لم يكن يدر كلام كثير. كان هؤلاء الناس شديدي الانكباب على تناول طعامهم. وتداولت الأيدي بحذر وعناية قطعة من جريدة احتوت على ملح وبهار. بقي فليت بعيداً عن الأضواء رافضاً أن يأكل - فقد ذكره محمود وابنته بأنه، على خلاف هؤلاء، يتناول وجبتين من الطعام كل يوم تضاف إليهما كل الطيبات التي يرسلها إليه مسؤولو تحرير جريدته بطريقة منتظمة كل أسبوعين.

لم يشأ أن يبدو جشعاً. وعلى كل حال فقد كان لايزال بشعر بالبؤس بسبب معاناته الليلة الماضية. وعوضاً عن ذلك فانه جلس يشاهدهم كيف يمسحون صحونهم بالخبز بحرص شديد لتصبح نظيفة تماماً، ويلتهمون التفاح كلياً دون أن يبقوا على ذرة منه، ويشاهد عيونهم تلتمع بعد أن شموا رائحة القهوة. زلاتا وسمير ساعدا في توزيعها. لم تكن هناك فناجين تكفيهم ولذلك فقد تناوبوا على ما توفر منها، فكان الذين يشربون قهوتهم يسلمون فناجينهم كي تشطف وتستعمل في جولة

تالية. وشعر فليت بسرور وهو يتنقل في قاعة رجال التحري لأن أحداً لم يسأله عما أصاب وجهه وانفه، مع أن أنيل وجه إلى الأميركي نظرة عارف ماكر بينما كان الأخير يسلم الرقيب فنجانه من القهوة.

لم يعكر جو المرح سوى حادث واحد. فبعيد وصول الطعام وما ان شرعت أول دفعة من رجال التحري الجائعين بإدخال الملاعق المعبأة بالمرق السميك والبطاطس المائع إلى الأفواه، حتى سمعت أصوات إطلاق قذائف.. انفجارات صواعق القذائف أولاً، تبعتها قعقعة قصيرة ثم ما بدا أمراً عادياً لا أذى منه كأنه عاصفة رعد صيفي بعيدة. بدا أن مصدر الصوت هو طرف المدينة الشمالي، ولم يقل أحد منهم كلمة. بعد دقيقة أو نحو ذلك سمعوا أصوات صفارات سيارات إسعاف وأبواق سيارات تلعلع في الشوارع في عويل يشتد ثم يخبو بينما تمر هذه السيارات بهم، ثم يشتد ويخفت من جديد وهي تسرع عائدة إلى مستشفيات المدينة بعد دقائق قليلة. شاهد فليت ملعقة روسو تتوقف حركتها وذقنه ترتفع إلى أعلى وعينيه تومضان، تجتازان الغرفة بنظراتهما إلى جهة بعيدة وكأنه يحاول أن يرى الحدث نفسه عبر الجدران والسطوح الممزقة في المباني المجاورة. وبدا أن كل شخص منهم قد تجمد وهو ينتظر وينتظر. وعندما لم تعد القذائف تسقط استؤنفت القعقعة والصلصلة الناتجة عن تناول الطعام، وتبخر التوتر الذي ساد الجو فكأن شيئاً لم يحدث. وبدت وجوههم كأنها تقول. لم تسقط هنا لم يحدث شيء هنا. لم يحدث بعد.

عندما انتهى جو الهرج والمرج وقف روسو أمامهم من جديد. كان فليت يجلس في زاوية بعيدة وظهره مسند إلى الجدار وركبتاه مرتفعتان وقد أعد دفتر الملاحظات وآلة التسجيل. كان كل واحد منهم باستثناء روسو وفليت يدخن بشره وعصبية والذين لا سكاير لديهم يتسولونها ممن لديهم. تنقلت عيدان الكبريت المولعة من مكان إلى آخر وانخفضت الرؤوس وارتفع الدخان الأزرق إلى السقف الذي سقطت

عنه بعض لوحاته التزيينية. كانت فكرة أن عليهم أن يخشوا خطر التدخين على صحتهم فكرة تثير السخرية، فالخطر الجدي الوحيد على الصحة هو هناك في الخارج بفضل التشيتنيك.

«وعدتكم بتقرير عن سير التحقيق» قال روسو. وتابع كلامه «يبدو أننا استطعنا تحديد مكان وجود جثة المرأة بوكوفاتش. وستجري استعادتها في وقت لاحق بعد ظهر اليوم إذا سمح الوضع الأمني بذلك. لم تدفن الجثة بل ألقيت في أرض خلاء. وقد حاول بعضهم حرقها لكنهم لم يستعملوا ما يكفي من البترول لذلك، أو أن أمراً عكر عليهم عملهم فاضطروا إلى الانكفاء بسرعة.»

واندفع روسو إلى أعلى رافعاً نفسه عن المكتب الذي كان مستندا إليه، في حركة من شأنها أن تسهم في إبقاء اهتمامهم مركزاً إذ ان من شأن امتلاء المعدة بالطعام في هذا الوقت المبكر من النهار أن يجعل كثيراً منهم يشعر بالنعاس.

- «وقد اكتشفنا أيضاً موقع أربعمئة ليتر من حمض الأندريد الخليّ - المادة

الكيماوية التي تستعمل لتكرير الأفيون.

«والأمر الأهم هو أن لدينا إفادة من شاهدنا. وقد دونت الإفادة بخط اليد وسجلت على شريط تسجيل.

«وفضلاً عن ذلك فقد عثر في مسرح الجريمة على مخدرات تبلغ قيمتها عدة الوف من الماركات الألمانية»

«وما الذي علينا القيام به الآن؟» قال الشاب مراد مرة أخرى.

- «كنت سأتحدث عن ذلك الآن. لقد قمتم جميعا بعمل رائع. أنا فخور بكم. إن من شأن هذا التحقيق أن يعتبر في أي ظرف من الظروف عمل محترفين قادرين بكل ما في الكلمة من معنى. أحسنتم

عملاً.» وسار روسو فوصل إلى أول صف من الشرطيين - سمير ونيناد وأندريه وزلاتا وبوريس وأنيل - ثم استدار وعاد ببطء إلى مقعده عند طرف المكتب. لقد استحوذ على انتباههم. خيم على القاعة صمت مطبق.

«أننا - بفضلكم - على الطريق الآن. وقد نكون وصلنا إلى المرحلة الأكثر دقة.»

وتساءل روسو بينه وبين نفسه.. ترى كم منهم يعرف ما هي الخطوة التالية أو لديه إحساس بها؟

أضاف «سيطلب من بعضكم أن ينال قسطاً من الراحة ويعود إلى هنا في وقت لاحق من هذه الليلة. بقاؤكم هنا لن يفيدكم بشيء، فإذا طلب منكم أن تحصلوا على قدر من الراحة فذاك لأن من المتوقع أن تعملوا ساعات عديدة لاحقاً. اعقلوا إذن وخذوا قسطاً من الراحة. هل تسمعونني؟»

حركوا أقدامهم ماسحين بها الأرض، وغمغموا يخاطب بعضهم بعضاً. قرر روسو أن ذلك هو نوع من الموافقة.

وقال «التعليمات الخاصة بمهماتكم الجديدة موجودة لدى سمير وأنيل. لا تجادلوهما. وإذا لم يعجبكم الأمر تعالوا إلي لنبحث فيه. هذا كل شيء أيها السيدات والسادة. أتمنى لكم حظاً سعيداً.»

جلسوا في سيارة روسو الصغيرة دون كلام طوال الطريق. كان بوريس يقود السيارة وروسو قربه. واستطاع أنيل وفليت بطريقة ما أن يحشرا نفسيهما في القسم الخلفي. جلسا منحنيين بشكل جعل ركبتي كل منهما تصلان إلى ذقنه. لم يكونا ليستطيعا ذلك دون ان ينحني واحد منهما إلى أمام والآخر إلى خلف. وكان فليت هو الوحيد الذي لا يحمل مسدساً أو بندقية كلاشنيكوف، لكن سترته المقاومة للرصاص،

بصفائحها الخزفية الثقيلة، تجعله من حيث الشكل والقدرة على التحرك أشبه بأحد مقاتلي العصور الوسطى. وخطر للمراسل الصحافي بينما كان يضع بطاريات جديدة في مسجلته أنه سمع صوت روسو يدندن مترنما وهم ينطلقون بسرعة نزولا في «زقاق القناص» ويلتفون شمالاً ثم يتجهون شرقاً. ومن ناحية أخرى فقد وجد صمت رفقائه غير العادي مثيراً لأعصابه، وأحس من جديد بأنه، كلياً، بين أيدي أناس آخرين وحياته تتوقف إلى حد بعيد على نزوات الصدف والحظ. إنه يكره الشعور بأن هناك عنفاً وشيكاً وبأنه لا يستطيع التحكم بمصيره.

لقد أخذ يتعود على هذا الشعور، لكن تعوده عليه لم يخفف من كرهه له. وقد جرى بصورة من الصور أن جميع من لهم علاقة بالمسالة افترضوا أنه هنا إلى أن تنتهي وأنه يرغب في أن يكون موجوداً خلال أحداثها، وهو الآن غير قادر على الإنسحاب. حدث نفسه قائلاً انه كان عليه أن يقول شيئاً لروسو قبل الآن بينما كانا يغادران مقر قيادة الشرطة وعندما كان الشرطيون يحشون أسلحتهم بالذخيرة ويتزودون بمماشط ذخائر احتياطية ويعدون القنابل اليدوية ويرتدون دروعاً مرتجلة أو صدرات واقية من الرصاص جرى «تحريرها» من جنود قوات حفظ السلام الدولية. بل إن بعضهم صافح آخرين. وتعانق أنيل وبوريس اللذان كانا يرتديان ثياب ميدان من تلك التي يرتديها جنود الجيش البوسني، وربت كل منهما على كتف الآخر. بدا الأمر بالنسبة إلى فليت ينطوي على شيء نهائي مروع.

وصل لوكا إلى مقر رئاسة الجمهورية بعيد ما يعتبره معظم الناس وقت الغداء، لكن عدد الذين يستطيعون من سكان ساراييفو القول انهم تناولوا ذلك اليوم ما يمكن أن يسمى وجبة طعام، قليل جداً.

وشوهد الشاب الطويل القامة يسحب نفسه بطريقة تعوزها الرشاقة من سيارته المرسيدس ثم يصعد، وهو يعرج، درج السلم وحيداً ويدير

رأسه إلى خلف رافعاً صوته بكلام ما، دافعاً نفسه إلى الأمام بمساعدة عصاه، إلى أن اختفى في الداخل بعد أن فتح له الباب على مصراعيه اثنان من أفراد الحرس الجمهوري.

طريقة تصرف لوكا تتميز بجو من الفظاظة وبما يجعله يبدو كأنه منشغل عمن حوله بأمور أخرى. بدت تحركاته عصبية دون اصطبار، فكأنه يعاقب نفسه من خلال طريقته في تحريك عصاه دافعاً بجسمه المعوج إلى أمام. الجنديان الضخمان أحنيا رأسيهما الحليقين للوكا عندما وصل إلى درجة السلم الأخيرة. لم يقل شيئاً رداً على ذلك. لم يكونا مضطرين إلى تأدية التحية له فهو لم يكن يرتدي ثياباً عسكرية، كما انه لم يلق عليهما ولو نظرة سريعة. ليس مضطراً إلى ذلك فهما ليسا من رجاله، وهو في كل حال يكره أن يعترف بفضل أحد عليه حتى ولو كانت الخدمة التي يسديها إليه بسيطة مثل فتح باب له. وبعد ان تجاوز الجنديين انسحب هذان عائدين إلى الوراء ووجهاهما إلى الشارع ثم أغلقا الأبواب وراءهما.

مرت خمس عشرة دقيقة أو نحو ذلك. اشتدت برودة الطقس وبدا أن السماء تقترب من الأرض، كأنها تضغط على التلال المحيطة بالمدينة مطبقة عليها. خرج الحارس المسلح الذي رافق لوكا من السيارة، وتمطى ثم اخذ يضرب قدميه بالأرض لتحريك الدم في عروقه، ثم نفخ على أصابعه وسار متمهلاً إلى سيارة المواكبة الأوبل السوداء اللون. صرخ مخاطباً من في داخلها فانفتح باب خلفي بقوة فدخل إلى السيارة منضماً إلى الآخرين، وقد صار العدد أربعة الآن، ثم انغلق باب السيارة وقبع هؤلاء الرجال في انتظار طويل. كانوا متعودين على الأمر الذي لم يعد كريها بالنسبة إليهم، فهناك في فترة بعد ظهر يوم ماطر في سارايفو أمور أسوأ بكثيرمن أن يجلسوا معاً على جلد أصلي في سيارة مدفأة يدخنون ويلعبون الورق ويتحدثون في السياسة وعن النساء أو الاثنين معا. أداروا راديو السيارة واختاروا محطة إيطالية تبث الموسيقى.

بعد نحو عشرين دقيقة من دخول لوكا إلى المقر الرئاسي فتحت ابواب المدخل الخشبية مماجعل المسلحين الأربعة في سيارة الأوبل يجفلون ويجلسون منتصبين، لكنهم عادوا إلى الاسترخاء عندما شاهدوا جنودا بوسنيين، وليس - كما كانوا يخشون - قائدهم ملوحا بعصاه في غضب.

بدا أحد الجنود، وقد وضع يديه على وركيه، كمن يشتم الهواء ناظراً إلى السماء متفحصاً الأجواء والطقس. وما لبث أن أخذ يتحرك بتثاقل متجهاً إلى السيارة. وكان رفقاؤه الجنود الآخرون ينظرون إليه في سيره المتمهل عندما أخذت عصفة ريح مفاجئة تضرب أولى رقائق الثلج التي أخذت تتساقط، فتبعدها وتوزعها.

كان داخل السيارة يعبق بدخان السكاير وحرارة الأجساد. شاهد ركابها الرجل ذا الثوب العسكري يقترب منهم ولكنهم لم يستطيعوا أن يروا بوضوح الوجه الذي ترتفع فوقه قلنسوة «البيريه» العسكرية. توقف الجندي وقرع زجاج نافذة السائق ببراجم يده بحدة. بعد ذلك استقام من انحناءته وخطا خطوة مبتعداً عن السيارة مديراً لها ظهره في انتظار أن يقوموا بإنزال زجاج النافذة. كانت خطواته حيية غير واثقة ومسدسه في قرابه الجلدي المشدود إلى وسطه، ولم يكن في تصرفاته ما يمكن أن يوحي بأنه قد يشكل خطرا. وعندما أنزل زجاج النافذة استدار ثم انحنى فوقه من جديد. ظنوا أنه قد يكون بحاجة إلى سيكارة أو أنه سيطلب منهم إيقاف السيارة بعيداً عن مقر الرئاسة، على الجانب الآخر من الجادة. هكذا يفعل جنود الحرس الجمهوري دائماً، يعرضون عضلاتهم مظهرين لرجال لوكا أنهم أسياد هذا المكان. لكن تصرف هذا الجندي كان ودياً إلى درجة.

«مرحباً أيها الشبان». قال وعيناه تتفرسان في الأربعة الذين أسندوا أسلحتهم إلى مقاعدهم. «كيف حالنا اليوم؟» أضاف. وقبل أن يستطيع أحد منهم الأجابة كانت قبضة الجندي قد اقتحمت النافذة واصبحت

أمام وجه السائق مباشرة، لا تبعد سنتيمتراً عن أنف الرجل. كانت في هذه القبضة قنبلة يدوية بدت من خلال أصابعه مستديرة استدارة بيضة ملساء، بمعدنها الرمادي اللماع الذي خطت عليه حروف حمراء. أما يده الثانية، اليسرى، فقد لوحت بدبوس الأمان الذي بدا جلياً أنه انتزع من القنبلة، وألقت به عبر فتحة النافذة إلى داخل السيارة فسقط على قدمي السائق. لم يتحرك السائق. القاء دبوس الأمان بهذه الصورة لا يحمل أي التباس: كل ما على الجندي أن يفعله هو ان يفتح قبضة يده كي تسقط القنبلة الجاهزة للانفجار، أما على ارض السيارة قرب قدمي السائق، أو في حضنه وعند ذلك تنفجر. لقد فهموا جميعا معنى ذلك وما يمكن أن يحدث. كانت قنبلة انشطارية حديثة وليست مثل تلك القديمة النموذج ٣٦ الذي يعود إلى الحرب العالمية الثانية. فهذا النموذج القديم من القنابل اليدوية موجود بين مخزون الجنود المشاة في انحاء العالم منذ عقود ولا يزال يستعمل على نطاق واسع في البلقان. لكنه لم يكن أداة كاملة، فالقنبلة منه نادراً ما تشظت بطريقة صحيحة. فالجزء الأشد فتكا منها هو قاعدتها المعدنية لا غلافها المصنوع من الحديد المسبوك وهوعمل تزييني أكثر منه عملاً فعالاً.

أما هذه فهي اختراع يدل على حذق وبراعة، سلاح مختلف تماماً عن غيره. فهو يحتوي على نابض مضغوط جداً من الصلب الذي لا يصدأ يلتف حول القسم المركزي من المادة الشديدة الانفجار والتي تتضمن الوفا من الشظايا الصغيرة المسطحة الحادة مثل شفرات الحلاقة. عند تفجير القنبلة تندفع بقوة سحابة من القطع الفولاذية الصغيرة الشبيهة بالحراشف. وقد صممت هذه القنبلة لإحداث إعاقات وتشويه أكثر مما صممت للقتل استناداً إلى مبدأ رهيب حافل بالمرارة والسخرية لكنه في الوقت نفسه عملي من حيث نتائجه الا وهو أن رفع رجل جريح ونقله إلى مكان آمن يحتاج إلى رجلين مما يعني عملياً إخراج ثلاثة جنود من ساحة القتال، أما القتيل فيمكن تركه في مكانه.

قنبلة تتسم بشدة الأذى، ومن هذه المسافة وداخل هذا المجال الضيق في سيارة الأوبل، كان واضحاً جداً أن الأربعة كلهم سيموتون، ويتحولون إلى قطع ممزقة، ولن تكون هناك أية طريقة لوقف النزف ولا أي مجال لهم للزحف أو الإختباء من الانفجار.

ولن ينسى هؤلاء كم كان صوت الرجل هادئاً يتسم بالثقة بالنفس بل بالاسترخاء، وأن الجندي - إذا كان جندياً فعلاً - كان يبتسم باستمرار.

- «صاعق من فئة الثواني الأربع أيها الشبان، وبعد ذلك سيفتح لكم ثقب شرج جديد.» وكان الجندي يضع شارة رقيب ولديه أيضاً ذلك النوع من الأصوات: الصوت الأبوي. حرك قبضة يده اليمنى بشكل متمايل ليتأكد من أنهم فهموا أن القنبلة اليدوية الانشطارية مجهزة بصاعق من فئة الثواني الأربع، وأربع ثوان ليست وقتاً كافياً للقيام بأي شيء مهم. ولو كان الصاعق من فئة الثواني السبع فلربما شكل ذلك فرقاً كبيراً. يستطيع إنسان خائف على حياته أن يركض مسافة طويلة في سبع ثوان.

كل ما على الرجل ذي البزة العسكرية أن يفعله كي يفجرهم ويرسلهم إلى العالم الآخر هو أن يرخي أصابعه ويدع القنبلة اليدوية تسقط. في استطاعته الابتعاد عنها واثقاً من أن الصفائح المدرعة في سيارة الأوبل ستحميه من وابل الشفر الفولاذية.

«لا نريد أي متاعب» قال لهم. واضاف «كل ما نريده هو السيارة. وليس هناك ما يدعو إلى أن يصاب أحد منكم بأذى. افعلوا ما أقوله لكم وستكونون في منازلكم بسرعة.»

كان ذلك نوعا من الكذب الذي يرغب في تصديقه انسان يواجه حتفه. اقترب رفيقا الجندي من السيارة. وقف أحدهما أمام غطاء محرك السيارة مواجها زجاجها الأمامي وبندقيته مشدودة إلى صدره وماسورتها

مصوبة في اتجاههم، أما الآخر فبقي على مبعدة إلى أحد جانبي مؤخرة سيارة المرسيدس وبندقيته الهجومية على خصره مصوبة إلى زجاج السيارة الخلفي.

تساقط الثلج كثيفاً وبسرعة، باقات كبيرة من الريش الأبيض تمس السيارة مساً رفيقاً وتستقر على سطحها وعلى زجاجها الأمامي. وتتجمع على كتفي الجندي. أزال الثلج عن وجهه لكن نظرته بقيت على ثباتها واستمرت الابتسامة في مكانها من ذلك الوجه.

«أنت.» وتركزت نظرات الجندي على وجه الشاب الجالس في الزاوية البعيدة من المقعد الخلفي. وقال له «أرني يديك. ببطء. حسناً. ضعهما على مسند الرأس أمامك. تماماً. والأن أنت أيها الشاب الطيب.» وتحولت العينان إلى الجهة الأمامية، وقال «أنتما كلاكما. ضعا أيديكما على لوحة أجهزة القياس أمامكما. ببطء. أجل كذلك. فليمد كل منكما ذراعيه بشكل مستقيم.»

وهنا قام الرجلان الآخران المرتديان ثياب الجيش بفتح بابي طرف السيارة الآخر مصوبين ماسورتي بندقيتيهما إلى أقرب رجال لوكا إليهما.

ـ «أخرجا أنتما الاثنان. أبقيا أيديكما حيث نستطيع رؤيتها. اركعا على ركبكما. نعم هكذا. أديرا وجهيكما إلى الأسفل وليباعد كل منكما ما بين رجليه. بسرعة.»

واستعمل الجنديان أحذيتهما العسكرية يركلان بها سيقان أسيريهما ليجعلا كلاً منهما يبعد رجله عن الأخرى، ثم انحنيا فوقهما يفتشانهما.

كان روسو يسجل الوقت الذي استغرقته العملية.

وعندما أصبح رجال لوكا الأربعة جميعهم ممددين على الأرض مبسوطي الأيدي والأرجل أطلق الضابط تنهدة وبدا عليه الارتياح. لقد راهن ـ بنجاح كما دلت النتيجة ـ على أن لوكا سيكون غارقاً جداً في

أفكاره عند وصوله إلى مقر رئاسة الجمهورية بعد أن استدعي إلى اجتماع طارئ للمجلس الحربي الوزاري، إلى درجة إنه لن يلاحظ عدم وجود سيارات أخرى أمام المقر وأن مفارز الجيش حل محلها رجال شرطة. كانت هناك سيارات وسائقون وحراس ممن يرافقونها عادة لكنها، بناءً على أوامر روسو، اوقفت جميعها بعيداً عن الأنظار وحول ركابها إلى المدخل الخلفي. كان لا بد من ذلك للحيلولة دون اندلاع إطلاق نار وسط الشخصيات المهمة التي تأتي إلى المقر الرئاسي أو تخرج منه.

«ثمان وثلاثون ثانية» قال روسو.

فرد أنيل قائلاً «لابأس» أجابه روسو «كنا قد قمنا بذلك في اثنتين وعشرين ثانية» فقال أنيل «كان ذلك في التدريب أيها الرئيس لكن هذا أمر حقيقي» هؤلاء الرجال هم رجال أنيل وهو الذي قام بتدريبهم.

«والآن؟» سأل فليت.

«سنفتش السيارتين» قال روسو. وأضاف بهدوء «ضعوا الأسلحة في صندوق السيارة ودعوا هؤلاء الفتيان يركضون إلى منازلهم بعد أن تتحققوا من هوياتهم ـ»

ـ «ندعهم يرحلون؟»

ـ «طبعاً إلا إذا عثرنا في السيارتين على ما يفرض علينا اعتقالهم. وباستثناء ذلك فليس هناك ما يجعلني احتجزهم. إنهم أولاد.»

ـ «سيخبرون الجميع»

ـ «وما المانع، ففي كل حال سينتشر الخبر في المدينة خلال ساعة أو ساعتين»

ـ «للوكا أصدقاء في المحكمة» قال فليت. وأضاف «سيقولون انك أنت شخصيا جلبت المخدرات إلى سارايفو وانك دسستها في الشقة التي عثر فيها على جثة المرأة، وانك أوقعت لوكا في مكيدة وان فاسيتش هو كبش المحرقة»

غرق روسو في صمت.

كان مع أنيل هاتف نقال. رفعه إلى أذنه وأخذ يتمتم متكلماً.

«إنه دورنا على المسرح الآن» قال روسو وهويفتح باب السيارة الأمامي ويسحب نفسه عن المقعد المجاور لمقعد السائق. وخرج أنيل بجهد من المقعد الخلفي الواقع وراء بوريس.

قال فليت وقد غشيت صوته نبرة هلع «وماذا أفعل أنا؟»

«تستطيع البقاء هنا مع بوريس ومشاهدة ما يجري أو مرافقتنا لرؤية لوكا» قال روسو ذلك وهو يسير مع أنيل في الممر المرصوف الممتد إلى طرف الحديقة المواجهة لمقر الرئاسة لينضم إلى رجال الشرطة الآخرين المرتدين ثياب الميدان التي يرتديها الجيش.

قال بوريس بانكليزيته المكسرة «ماذا تريد؟ اميركا؟ هاه؟ انني اشعر بالبرد. تبقى ـ تذهب، لا فرق عندي. المهم ان تغلق هذا الباب اللعين بسرعة.»

تردد فليت. انها فرصة مهمة جدا. يجب ألا تفوته. عليه ان يرى وجه لوكا، ويسجل ردود فعله. وتساءل عما اذا كانوا سيكبلون يدي لوكا بالاصفاد، وما اذا كان سيقاوم وهل سيضربونه لمجرد التلذذ بضربه. اللعنة! انه خبر حافل بالألوان مهما حدث ومهما كانت نتائجه.

اندفع خارجا من السيارة متجاوزا بوريس وانطلق ينزلق على حصى الشارع الرطبة والثلج يداعب وجهه. تعالت خلفه ضحكة بوريس وهويقول له«أيها الأجنبي اللعين. تريد ان تموت. أليس كذلك؟»

جلس روسو في مقعد السائق وبندقية الكلاشنيكوف قربه على المقعد الأمامي لسيارة المرسيدس، وجلس أنيل وفليت في قسمها الخلفي. وبعد ان فتش الجنود سائق لوكا وحراسه الثلاثة، ساقوا الأربعة

امامهم إلى حديقة تقع عبر الشارع وجعلوهم يجلسون القرفصاء تحت الأشجار مديرين وجوههم بعيدا عن مقر الرئاسة. واستولى مراد ونيناد على سيارة الأوبل. لم يعد هناك ما يفعلونه سوى انتظار خروج لوكا من مقر الرئاسة.

«وما العمل اذا خرج من الباب الخلفي؟» سأل فليت.

«لن يفعل ذلك، لقد تدبرنا الأمر» أجاب روسو وهو ينظر إلى آثار الأقدام، وكل تلك العلامات التي أحدثها في الثلج العراك الذي دار حول السيارتين. بدا ذلك مثل ساحة قتال صغيرة. كان يأمل بألا يخرج لوكا قبل أن يقوم الثلج المتساقط بتغطية هذه الآثار.

«كيف يجري انتقال المخدرات» قال فليت مستفهماً وهو يشغل آلة التسجيل خلسة.

أجاب روسو دون أن يحول نظره عن المقر الرئاسي «تأتي المواد عبر «سبليت» وهو مرفأ كبير لتهريب المخدرات منذ سنوات. في الواقع إنه مرفأ شكل أكبر نقطة دخول في أوروبا خلال حقبة حكم تيتو. ولهذا السبب تجد هذا العدد الكبير من المدمنين هناك؛ ستة عشر ألفاً وفق تقديرات البوليس المحلي. ولهذا السبب انتشرت الجريمة بهذه الصورة السيئة في منطقة الساحل. لقد أفسدنا شعبنا.»

- «كنت هناك في الأسبوع الماضي؟»

- «نعم»

- «إذن فلم تزر والدتك؟»

- «لقد زرتها فعلاً. كنت أنهي مسائل غير منجزة على الساحل مع الشرطة الكرواتية. لديها كثير من المستمسكات على لوكا»

- «وما الذي يفعله لوكا بهذ السكر الأسمر؟»

-«يبيعه»

- «إلى من؟»

- «إلى الصرب»

- «الصرب!»

- «ويرسل صعداً في الدانوب»

- «ومع من يتعامل؟»

- «مع أناس على شاكلته لكنهم في الجانب الآخر»

- «ومن أين يحصل على المخدرات؟»

- «من مزرعة السمك»

- «تعني مزرعة سمك الترويت؟ الواقعة بين «فيتيز» و«غورنيي فاكوف؟»

- «تماماً»

- «أي من الأشخاص الذين ندعوهم «عصابة رأس السمكة؟»

- «نعم»

- «وهل هم من الصرب؟»

- «إنهم من كل الفئات، من الصرب والمسلمين والكروات. وهذا ما يسمى اقتصاد حرب.»

- «وكيف يدخل المخدرات إلى البلاد؟»

- «بالطريقة نفسها التي يدخل بها سكايره. لقد وقعت كرواتيا اتفاقاً مع البوسنة ينص على دفع الرسوم الجمركية فقط عند الدخول إلى كرواتيا. تصل هذه المواد في مستوعب من الشرق الأوسط أو كراتشي

مثلاً ويجري إدخالها مباشرة إلى مستودع حجز في «سبليت» ومن هناك تنقل مباشرة دون مزيد من الشكليات الرسمية إلى مستودع آخر يقع ضمن الحدود البوسنية مباشرة. نقل سهل على امتداد الطريق.» ارتفع صوت رنين من تليفون أنيل.

«أيها الرئيس، إنه في الطريق إلى هنا» قال أنيل.

سحب روسو بندقية الكلاشنيكوف إليه. وضع أنيل يده المعطوبة على مزلاج باب السيارة مستعداً للقفز إلى الخارج. كانت الأبواب الخشبية تفتح فعلا، وعاد جنديا الحرس الجمهوري إلى الظهور فوقف أحدهما إلى اليمين والآخر إلى اليسار. إلا أنهما كانا من رجال روسو وقد تنكرا بثياب الحرس الجمهوري. بدا خلفهما لوكا بجسمه المنحني. خرج من الباب وهو يعرج وأخذ، دون أن يتوقف، يشق طريقه بحذر نازلاً على درجات السلم التي غطاها الثلج ببساط أبيض. يغرس عصاه في الثلج ثم يلقي برجله المعطوبة المتيبسة وراءها قبل أن يلقي بثقله عليها. كان ذلك يجري ببطء.

«إنه لا يستطيع أن يرانا إطلاقاً» دمدم أنيل.

«ألم يكن رجاله يقدمون له المساعدة في مثل هذه الحال؟» سأل فليت. ولم يتلق المراسل الصحافي أي جواب.

كان روسو منحنياً إلى الأمام. لم يعتمد على الطقس أصلاً، لكن الثلج ساعدهم دون شك. ولا بد من أن السيارتين بدتا للوكا من حيث كان يتحرك، مغلفتين بالأبيض الذي حجب عنه أيضاً رؤية ركابهما. فتح ضابط البوليس باب السيارة سنتيمترات قليلة وحذا أنيل حذوه مستعملاً قدمه لابقاء الباب منفتحاً نحو ربع انفتاحة كأن مسلحي لوكا انتبهوا فجأة، ومتأخرين، إلى وجود زعيمهم.

«فلننطلق» قال روسو.

أصبح روسو وأنيل خارج السيارة، وفي لحظة صار أنيل وراء لوكا وروسو إلى جانبه. تلقت عصا رجل العصابات ركلة أطاحتها بعيداً. شاهدها فليت تدور منقلبة فوق البساط الثلجي. وجرى حمل لوكا ودفع إلى مقدمة السيارة وأسند إليها. دفع أنيل بفوهة مسدسه إلى أذن لوكا مما جعل الأخير يضغط بوجهه المشوه على الثلج الذي يغطي دهان السيارة الرمادي. ثبتت ذراعا لوكا خلفه وسرعان ما كبلت يداه.

رأى فليت من حيث كان جالساً ومضة استغراب ومفاجأة. ترى أكان ذلك ألماً؟ وقامت يدان أخريبان - يدا روسو - بتفتيش لوكا بسرعة وانتزعتا من قراب جلدي داخل سترته مسدساً آليا من نوع بيريتا ثم ألقتا به إلى القسم الخلفي من السيارة حيث سقط على المقعد قرب فليت، وما لبثت ان الحقت به مدية جيب. وفي نهاية التفتيش سحب روسو مسدساً صغيراً من جيب جلدي لصيق بكاحل ساق لوكا المتيبسة.

بدا على رجلي البوليس إنهما يعرفان أين يفتشان وعمّا يفتشان.

بعد ذلك قاما بنقل لوكا في عملية تراوح بين حمله حملاً وجره جراً، إلى باب السيارة المفتوح ودفعاه إلى المقعد الأمامي قرب السائق. وضع أنيل يده ذات الأصبع الواحد فوق رأس لوكا ليحول دون ارتطامه بالسيارة. كاد فليت يشعر بالرثاء للوكا. هناك شيء فيه أثار شفقته، فكأن وضعه كسجين جعل حجمه يتضاءل. بدا لعيني فليت كأنه قد تقلص حجماً ومنزلة فلم يعد يصح فيه القول الشائع «يملأ ثيابه.»

ترك روسو السجين في عهدة أنيل للحظة ودار حول مقدم السيارة ثم جلس وراء عجلة القيادة من جديد، والتفت إلى لوكا يراقبه. أغلق أنيل باب لوكا بقوة وانسل إلى القسم الخلفي من السيارة، وراء السجين. افسح له فليت في المجال منتقلا إلى الطرف الآخر خلف مقعد السائق حيث جلس روسو.

تكلم لوكا للمرة الأولى.

صاح مزمجراً «اذهبوا إلى الجحيم»

تلا روس عليه حقوقه.

ولم يعد فليت في وقت لاحق يستطيع تذكر عشر كلمات مما قاله روسو مع أنه انتبه بدقة إلى كلمات مدير البوليس «الطقوسية.» ومما تذكره قوله «بتهمة قتل طبيبة الأسنان زيبلكو بوكوفاتش عن سابق تصور وتصميم...»

جلس أنيل منحنياً إلى الأمام وفوهة مسدس لوكا الخاص تضغط الآن على عنق صاحب المسدس، على مؤخرة أذنه مباشرة. بدا وجه أنيل مثل قناع يجسد التركيز الغاضب. استطاع فليت من مكانه أن يرى شعر أنيل وقد جعله العرق المتصبب يلتصق بجبهته. كان الرقيب يمسك بالمسدس بيده اليسرى وسبابتها على الزناد وقد أسند رسغ يده هذه بما تبقى له من يده اليمنى. وببطء شديد بدا مقلقاً جداً لفليت المتوتر الأعصاب، أدار روسو محرك سيارة المرسيدس، وسارت تتبعها سيارة الأوبل مباشرة وعجلاتها ترسل صريراً وهي تطحن الثلج الذي سقط حديثاً.

وبينما كانت السيارتان تتحركان منطلقتين إلى جادة «مارسالا تيتيو» (الماريشال تيتو) استدار فليت نحو النافذة التي إلى جانبه فراى رجال لوكا يسيرون متعثرين خارجين من الحديقة هاربين مبتعدين عن الأشجار وانظارهم مركزة أمامهم دون أن ينظروا خلفهم أو يتجرأوا على تحويل أعينهم إلى أية جهة أخرى. إنهم دون شك يكادون لا يصدقون أنهم لا يزالون على قيد الحياة، ويتوقعون في خوف، حتى الآن خلال هربهم، تلك الرصاصة الأخيرة التي تستقر في العمود الفقري. ففي نهاية الأمر، هذه هي الطريقة التي تجري بها الأمور في عالمهم، وهو عالم يسعى روسو، هنا والآن، إلى تفكيكه قبل أن يسحقهم جميعاً.

الفصل الخامس عشر

شموع حمراء لعيد الميلاد لا تزال توحي بأجواء البهجة مركزة في قناني جعة أو فودكا فارغة، شموع عبادة وصلوات، مستديرة ممتلئة امتلاء مطرانها المتغيب، أخذت من غرفة الاجتماعات في الكاتدرائية التي مزقتها القذائف ـ وباختصار، شموع من كل الأصناف والمواصفات، محفرة ومتماوجة في مواجهة الضوء، تجعل قاعة رجال التحري تتوهج وتلقي بظلال ضخمة تضطرب وتترجرج على الجدران والسقف.

إنها فترة متأخرة من بعد الظهر وقد حل الظلام في ذلك القسم من المدينة ورافقه سكون لا يعكره سوى هسيس الثلج يضرب ما تبقى من النوافذ وتمتمة وشخير عرضيين يصدران بين آن وآخر عن شرطيين غلبهم النعاس فاغفوا وأسلحتهم قربهم تلمع ملساء صقيلة ومشبعة بالزيت في النور غير المستقر والموزع في شكل غير متساو. أحذية عسكرية وفرش لفيفة وبطانيات واكداس من الصحف القديمة وثياب ـ إنها كوم صغيرة من المقتنيات الشخصية تحدد المنطقة التي اقتطعها كل رجل رجل أو امرأة منهم لنفسه من أجل الراحة والحرية الشخصية والحصول على الدفء.

كانوا قد تناولوا طعامهم وشاهدوا السجين عندما جيء به ورأوه يؤخذ إلى طبقة المبنى الواقعة تحت الأرض ورأوا رجليه تكبلان بالحديد

كما شاهدوه يقيد بسلاسل حديدية إلى جدار القفص أو تلك الحجيرة التي أطلقوا عليها اسم «الدبابة»، وقدموا نصائحهم إلى أول أربعة شرطيين سيتولون حراسة الأسير. بعد ذلك شربوا لا نخباً واحداً بل عدة انخاب احتفالاً بيوم عمل ناجح وتحدثوا بأصوات جشَاء، وأخيراً افترق كل شخص منهم عن الآخر بحثاً عن أمكنة جافة في أرض القاعة بعيداً عن النوافذ والجدران الخارجية. وانصرف كل واحد أو واحدة منهم إلى افكاره أو أفكارها، وفي نهاية الأمر إلى نوم يشوبه القلق والتوتر، قبل أن يحين وقت أيقاظ كل منهم ليقوم بدوره في الحراسة والمراقبة. اما سجينهم المميز القابع في زنزانته في الطبقة الواقعة تحت الأرض فقد طالب بفظاظة بعصاه الطبية التي يتوكأ عليها، فجاءه الرد، بالشدة نفسها، بأنه لن يكون في حاجة إليها عندما يتدلى من طرف حبل المشنقة. عند ذلك شتمهم لوكا وأقسم أنه سينتقم، ثم سيطر عليه الصمت وجثم على فراشه المبقع المصنوع من وبر الخيل وقد أدار ظهره لآسريه. وتجاهل بازدراء الطعام والماء اللذين حملوهما إليه، وفي نهاية الأمر نام ووجهه إلى الجدار، حيث قيد رسغ أحدى يديه إلى القضبان الحديدية، وقدماه واصفادهما تبرز من تحت بطانية عسكرية رمادية اللون.

وفوق، كان روسو يتمشى ببطء وعصبية ويطفئ معظم نقاط الضؤ الصغيرة ليوفرها. من يدري؟ قد تدعو الحاجة إليها من جديد. سار بحذر فوق النائمين، ووصل أخيراً إلى مكتبه والقى بنفسه على كرسيه بارتياح وسعادة. جلس أنيل في مواجهته وقد دفع كرسيه إلى أمام، ورأسه على ساعديه وساعداه على المكتب، وبين الاثنين قنينة نصفية من المارسكينو - أي التشيري براندي (براندي الكرز).

كانت الساعة الخامسة من بعد الظهر لكنها بدت في هذا الجو الكئيب وبعد هذا النشاط المحموم كأنها منتصف الليل. هناك شيء جديد بين هذه الفوضى من الأوراق. لم يكن يبدو جديداً بقدر ما بدا

غريباً، صندوق خشبي بغطاء ثِبت بواسطة مفصلات ويحتوي على ما بدا جهاز تليفون تقليدياً، لكنه أخضر اللون ذو مقبض ناتئ من أحد جوانبه وسلك سميك يتدلى منه إلى الأرض ويجري خارجاً من الباب في طرف الغرفة. إنه خط عسكري أرضي قام بمده عسكريون من سلاح الإشارة في الجيش البوسني وربطوه، كما قالوا، بمركز توزيع الاتصالات العسكري المحلي القائم في ما تبقى من محطة سكك الحديد في المدينة.

«وماذا نفعل الآن؟» غمغم أنيل وهو يضع كم سترته فوق فمه.

«ننتظر» أجاب روسو

- «ننتظر ماذا؟»

«الأوامر»

- «هراء. لن يصنعوا مني جندياً. وقد أعطوا فرصتهم ليصنعوا مني بطلاً.»

- «لقد قمت بعمل جيد اليوم أيها الرقيب التحري»

-«هل فعلت ذلك حقاً؟»

ارتفع رأس أنيل عن المكتب. دفع كرسيه إلى خلف وارتفعت يده من جيب فوق صدره إلى وجهه. اشتعل عود ثقاب كاشفاً عن قسمات الرقيب - عظمتي الوجنتين العريضتين، والأنف المسطح والشعر الأشعث. امتص أنيل السيجارة مستنشقاً الدخان بقوة، ثم نفخه فخرج مثل تيار يرتفع نحو السقف. وعندما أطفأ عود الثقاب بإبهامه غرق ما حوله في الظلام من جديد.

- «سيجارة أيها الرئيس؟»

- «لا. شكراً»

سمع روسو أنيل يصب مزيداً من البراندي في كأسه.

ـ «حسناً يا أنيل. ما من ندم أو أعادة نظر في الأمر؟ لقد عرفت لوكا جيداً، كنتما كلاكما من أوائل الذين حملوا السلاح. ألم تشعر ولو بقليل من الاضطراب هناك عندما قبضنا عليه؟»

ـ «لست ممن يشعرون بذلك أيها الرئيس. إنه مصاص دماء. لم يكن يدافع عن المدينة سنة ١٩٩٢، كان يدافع عن عمله، عن أعمال التهريب والإيذاء والقتل والابتزاز. كان يلتهمنا أحياء، من الداخل، وكان علينا أن نتولى أمره قبل سنتين أو ثلاث.»

وهنا اهتز الصندوق الموضوع على المكتب بلحن حاد.

ـ «روسو»

ظل في انتظار بينما كان عامل التليفون المحلي يوصله بمكتب الوزير.

ـ «حضرة المدير؟»

ـ «نعم حضرة الوزير»

ـ «هل وفقتم بصديقنا المشترك وأصبح في مكان آمن؟»

ـ «تماماً حضرة الوزير»

ـ «لن يسكتوا عن ذلك أو يقفوا مكتوفي الأيدي يا روسو»

ـ «من تعني؟»

ـ «جماعته»

ـ «لقد دارت العجلة بنجاح حضرة الوزير. أغلقنا مقر قيادته وجرى توزيع كل رجاله على خطوط القتال. لن تكون هناك متاعب، وبحلول الصباح سيكونون خاضعين لأوامر الجيش»

ـ«هل عثرتم على القتيلة؟»

ـ ما بقي منها

ـ«واحدة من جماعتكم، كما أعتقد؟»

«إنها مخبرة، تزودنا بمعلومات»

ـ«هل كنت تعرفها؟»

ـ «شخصياً، لا. قابلتها مرة واحدة، في البداية»

ـ«هل كان لها سجل سوابق؟»

ـ «لم تكن لديها سوابق. كانت تبيع كميات قليلة من الأدوية لتمويل حاجتها من المخدرات. مارس رجال لوكا ضغوطاً عليها. شجعها رجالي على المضي في علاقتها بهم مقابل إعطائها حصانة تحميها من الملاحقة»

ـ «لم يكن أمامها خيار آخر، أليس كذلك؟»

ـ «إنها الطريقة المتبعة»

ـ «إنه حكم بالاعدام ياروسو»

ـ «إنه عمل بوليسي أيها الوزير. اكتشف لوكا أنها أعدت قوائم بالأدوية التي تحتاج إليها مستشفيات المدينة وأوصلتها عبر لجنة الصرب الموالين إلى الأمم المتحدة.

ولوكا كان في حاجة إلى مواد كيماوية لتكرير كميات كبيرة من الهيروين لترسل إلى مدن أوروبية. كانت أعماله آخذة بالاتساع. تستطيع أن تقول أنه كان هناك تعاون»

ـ «وأنتم تعاونتم وسرتم بهذه الخطة؟»

ـ «رفضت الأمم المتحدة التعاون. شعرت بأن هناك أمراً مريباً.

فقمنا نحن بسد الثغرة وقدمنا الوسيلة، أي المواد الكيماوية الضرورية؟»

- «وما هوالخلل الذي طرأ؟»

- «أعتقد لوكا أنها أخذت ترفض التفاهم معه»

- «وهل كان الأمر كذلك فعلاً؟»

- «أجل. نعتقد أنها صارت ذات طموح»

- «ولذا قتلها. هل تأكدتم من وجوده في مسرح الجريمة؟»

- «نعم»

- «وهل لديكم شاهد؟»

- «لقد أخذنا إفادته اليوم»

- «وهل هناك من أمر آخر يجدر بي أن أعرفه؟»

- «عثرنا على هيروين في البيت الآمن حيث كان للمرأة بوكوفاتش مصنع في مغطس الحمام تمد من خلاله المدمنين المحليين بالمخدر»

- «لديك قضية جيدة في هذه يا روسو. لكنني لا أراهن على أنها ستصل إلى المحكمة طالما أن الحرب قائمة»

-«سؤال حضرة الوزير»

- «تفضل»

- «ميسيتش ورفقاؤه الصربيون - ما الذي جرى؟»

- «حجز وقائي، إلى ان ينتهي أمر لوكا إذ انني لم أشأ أن يتعرض ميسيتش والآخرون من أبناء طائفته إلى أعمال انتقامية. وأعتقد أن الجيش أطلق سراحهم بعد ظهر اليوم.»

- «وما الذي سيحدث لجماعتي؟»

ـ«هذا الأمر هو موضع درس يا روسو. إذا تولى العسكريون المسؤولية عن القانون والنظام، فلن يكون هناك، في نظري، سبب يحول دون بقاء فريق عملك موحداً. كن واثقاً من أنني سأقاتل من أجل ذلك.»

ـ «هفالا. /شكراً/.

ـ «نيما نا سيمو»/على الرحب والسعة/.

أعاد روسو السماعة إلى مكانها وأغلق الصندوق. أصدر أنيل حكمه الذي لا لبس فيه ـ تجشأ بصوت مرتفع.

ـ «تناول كأساً من الشراب أيها الرئيس فانت تبدو محتاجاً إليه»

ـ«إنني فعلاً محتاج إليه يا أنيل»

ـ «لم تأت على ذكر فاسيتش»

«فلنبق الأمر داخل العائلة، ألا توافقني الرأي؟»

ـ لقد خان المرأة»

ملأ أنيل كأسيهما. رفعا الكأسين، ونظر كل منهما إلى الآخر عبر حافة إطار كأسه وشربا ما فيهما دفعة واحدة. ويدا لروسو أن السائل أشعل ناراً في حلقه، ناراً حارقة امتدت نزولاً إلى معدته. ملأ أنيل الكأسين من جديد وأعادا الكرة فوراً. لم يكن الأمر سيئاً. قال روسو لنفسه انه بعد الكأس الثالثة لن يعود يشعر بشيء. كان ذلك الشعور الرائع بالخدر، والضباب المفقد للإحساس قد أخذا يتسربان إلى داخل دماغه.

«عرفت بوكوفاتش معرفة وثيقة؟» سأله روسو.

ـ «كانت جيدة إلى ان تداعت وانهارت. كانت روحاً طيبة حنونا. وشجاعة. عالجت أسناني ورفضت أن تأخذ أجراً. لقد عالجت أسنان

عشرات من الناس مجاناً، ولا شك في أنها أنقذت أسنان عشرات الأولاد. قبل أن تحصل على المورفين لم يكن هناك أي بنج. تستطيع أن تتصور الوضع. استعملت أداة يدوية وعملت في ضوء الشموع على كرسي مطبخ. اعتمدت طريقة جعل الكرسي تميل إلى أن يستند ظهرها إلى الجدار. وكانت من ثم تقبض على رأسك فتضعه تحت ذراعها كي لا تستطيع أن تقاومها. درجت على اعطاء الأولاد مسحوق الطبشور على أنه مهدئ، ونصف حبة ديسبيرين إذا كان حظهم حسناً جداً.»

ـ «كان الأمر مؤلماً؟»

«أجل مؤلماً جداً» قال أنيل. وأضاف «كنت مضطراً إلى أن تعود مرة تلو أخرى إذ لم يكن هناك حشوات للأضراس. كان من الممكن شراء حشوة موقتة بسعر خمسة وسبعين ماركا للواحدة. أود أن أعرف من يملك هذا القدر من المال. أتعرف أمراً؟ أعتقد أنها كانت تستعمل المال الذي تحصل عليه من المخدرات لشراء هذه الحشوات. أنه لأمر غريب، أليس كذلك، ان تسهم في جعل الناس مدمنين وتلبي حاجتهم إلى المخدرات كي تشتري بثمنها حشوات تنقذ بها أسنانهم اللعينة؟

لهذا السبب قتلت ـ كانت تنقذ اسنان الأطفال.» وضحك أنيل وهو يهز رأسه مستغرباً الطبيعة البشرية.

أطل مراد برأسه وكتفيه من الباب.

ـ «هل لي بكلمة معك أيها الرقيب؟»

استأذن أنيل من روسو واجتمع إلى الشرطي الآخر وأخذا يتداولان قرب درج السلم، والظلام الشديد يخفيهما عن عيني روسو. أسند روسو ظهره إلى المقعد وتمطى بجسمه ثم أغمض عينيه.

ـ «أيها الرئيس؟»

عاد أنيل وها هو منحن على المكتب والقلق ظاهر على وجهه. كان

الرقيب يحمل ورقة في يده. أخذها روسو منه، ثم قام روسو بتقريب الشمعة منه. اضطر روسو إلى جعل الورقة قريبة من اللهب ليتمكن من قراءة الأسطر التي فيها والتي عرف أنها مكتوبة بخط ميسيتش.

«عزيزي المدير. أطلقوا سراحنا هذا الصباح. أوصلونا جميعاً إلى المستشفى عندما سمعوا نبأ قصف المدافن. وحتى الآن، أي وقت الغداء، تلقينا أربعة عشر قتيلاً وثلاثة وعشرين جريحا. أخشى ألا تكتب الحياة لعدد منهم. إنه يوم سيء آخر.

أكاد أسمعك تقول إننا شهدنا أياماً أسوأ منه، وأنت محق دون شك. أما بالنسبة إلينا، فقد اعتنى بنا الجنود بشكل جيد جداً، إذا أخذنا الظروف بعين الاعتبار. وعلى كل حال، هذه هي المرة الأولى، منذ عودتي إلى المستشفى، التي توفر لي فيها وقت لابعث لك بهذه الرسالة. حاولت الاتصال تليفونيا. لا جدوى. أعرف أنك مشغول جداً. لقد اخبروني. آمل بأن تصلك هذه الرسالة بسرعة. إنها تانيا. هي بخير، وحالتها مستقرة، لكنها أصيبت بجروح واضطررت إلى إجراء عملية جراحية لها.

تعال إلى المستشفى بأسرع ما تستطيع. أكره أن أحمل إليك أخباراً سيئة أخرى.

صديقك المخلص ميسيتش.»

«أرجو تقديم شكري إلى من أحضر هذه الرسالة» قال روسو دون أن يخاطب شخصاً معيناً.

- «أيها الرئيس -»

كان روسو قد وقف وأخذ يدور حول مكتبه وهو يخطو بحذر متحاشياً حذاء أنيل، بعد ذلك أصبح في المدخل، رأى جمهور الشرطيين الذي لا شكل له - مجرد ظل أكثر سواداً وأكثر كثافة من سائر الظلال

في الغرفة - ينشق إلى قسمين عندما أقترب منه مفسحاً في المجال له وهو يتلمس طريقه بيديه، ورؤوس أصابعه تبحث عن أطراف المكاتب وأعاليها، ويتجه نحو ذلك الضوء الخافت المستطيل الشكل. إنه يشعر بأن عيونهم مركزة عليه.

لقد عرفوا.

- «أيها الرئيس ـ»

سار بينهم وتجاوزهم. لم يأخذ معه معطفه ولا سترته الواقية من الرصاص. أمل بأن يكون ظلام المكان شديداً يحول بينهم وبين رؤية وجهه. اللعنة! قال لنفسه إنه التعب والكحول، وما معنى أن تكون هناك أصابة أخرى؟ ستعيش. الم يقل ميستش ذلك. لقد أعطيت فرصة أخرى، أليس كذلك؟ وهذا أكثر مما حصل عليه كثير من الناس في هذه المدينة الفاجرة الغبية. ألم يحذرها؟ تخيَل بوكوفانش، ما تبقى منها في مغطس الحمام، وآثار الحقن. أغلق روسو عينيه لكن صورة المغطس الملطخ ببقع الدم في «منزل القردة» لم تغادرهما. لكن هذه المرة كان لبوكوفانش وجه تانيا.

عندما وصل إلى الشارع توقف للحظة، مسح وجهه بطرف كمه وبدأ السير نزولا.

أعتقد إنه سمع وقع أقدام خلفه وصوتاً يناديه باسمه. لم يركض. قال لنفسه أن المستشفى ليس بعيداً. وما لبث أن بدأ يركض.

كان فليت يعرف أن الموضوع موضوع جيد بل إنه أحد أفضل موضوعاته. محرر الشؤون الخارجية بالوكالة في صحيفته اتصل به تليفونياً عبر القمر الاصطناعي (الساتل) بعد دقائق من إرساله الموضوع إلى واشنطن، ولهجة أهالي بروكلين تثب مرتفعة إلى قمر جنوب الأطلسي الاصطناعي للاتصالات ثم تندفع نزولاً إلى جهاز فليت

التليفوني وهي لا تزال تفور باهتمام مسرف كاذب وقلق على فليت. يعرف فليت أن الحسد يلتهمه. إنه يتأكلهم جميعاً.

ليس أحب على قلب ذلك السافل من أن يراني أخفق.

موضوعه سينشرعلى الصفحة الأولى دون شك. لقد قال الرجل ذلك. وقد ينشر في النصف الأعلى من الصفحة إذا لم يحدث شيء يخرجه من هناك في الطبعات اللاحقة. وقال فليت لنفسه إن الرجل سيبذل قصارى جهده ليجد هذا «الشيء.»

لكن طبعة العاصمة هي المهمة، وفليت يعرف ذلك. المهم هو الطبعة التي تبلغ ٢٣٤٠٠٠ نسخة والتي تصل إلى شوارع العاصمة في ساعات الصباح الأولى بتوقيت المناطق الشرقية. وسأله محرر الأخبار الخارجية بالوكالة إذا كان يستطيع أن يتبع الموضوع الإخباري بموضوع آخر يحمل تفاصيل جديدة و«الواناً» كإجراء مقابلة مع مهرب مخدرات مثلاً، أو تغيير مصدر الخبر كأن يصدر عن مكان خطر يتطلب شجاعة يقع، مثلاً، على طريق تهريب المخدرات؟

بعد المكالمة الهاتفية أخذت اصابع فليت تتابع الطرق الثانوية على خريطته: نقطة التفتيش التي أقامها البوليس الصربي في «ايليدزا» يستغرق الوصول إليها عشرين دقيقة وربما أكثر من ذلك إذا كان لا بد له من تناول كأس مع رجال البوليس ذوي البزات الزرق بينما يقومون بالتدقيق في جواز سفره؛ الوصول إلى مفترق «فيزوكو» قرب معسكر الكتيبة الكندية يحتاج إلى مدة ساعة إذا حالفه الحظ؛ وتقع كاكاني ومحطتها لتوليد الطاقة بالفحم الحجري وحاميتها الفرنسية، على مسافة تحتاج إلى عشرين دقيقة أخرى، ومن بعدها نصف ساعة تقريباً قبل الإتجاه شمالاً عند طرف الجسر حيث كانت تقوم نقطة تفتيش للجيش البوسني، قبل «زينيكا»، وأخيراً الدقائق الأربعون الأشد سوءاً ـ تلك الطريق المسطحة

المستقيمة التي تمر عبر «وادي لاسفا» الخصيب وصولاً إلى «فيتيز» قاعدة الوحدة العسكرية البريطانية.

ساعتان ونصف الساعة، ويكاد الظلام يحل وهو لم ينطلق بعد.

سيقولون إنه مجنون ليقود سيارته وحيداً في الليل.

أخذ يفكر في سائر أمور هذه الرحلة خلال نزوله على درج سلم الفندق وهو يشق طريقه بجهد حاملاً حقيبته وجهاز الكومبيوتر النقال. من فيتيز، في الصباح، سيحتاج إلى خمس عشرة دقيقة ليصل إلى مفترق طرق «ترافنيك»، والاتجاه شمالاً ـ غرباً إلى «غرونيي فاكوف».

ذلك القسم من الرحلة هو الأشد سوءاً: فالطريق غير المعبدة تخترق التلال مع سد عال إلى اليمين والنهر الذي يمر بين الأشجار إلى اليسار. على الجهتين أشجار وشجيرات كثيفة يستطيع جيش أن يختبئ فيها، ولعله مختبئ هناك. والطريق هذه مملوءة بالحفر. في الصيف تصبح الأشجار القائمة على الجانبين بيضاء بفعل الغبار الذي تثيره قوافل مساعدات الأمم المتحدة التي تذرع الطريق آتية من الساحل وعائدة إليه؛ وفي الشتاء تتحول الطريق إلى أرض سبخة بسبب سيارات الشحن الثقيلة الحمولة. إنها منطقة تصلح لنصب المكامن، فمزرعة السمك نفسها ليست أكثر من مجموعة مبان مهجورة متداعية، والبرك الاصطناعية فيها تغص بأسماك الترويت التي لم يتجرأ أحد على المخاطرة بالاقتراب منها بما يتيح له مجالاً للصيد، إذا سيكون على المرء أن يترك سيارته إلى جانب الطريق ويشق طريقه عبر الأشجار والشجيرات ويزحف هابطاً الجرف ليصل إلى النهر.

إنه مكان مثالي للخارجين على القانون الذين يتاجرون بكل شيء، من البترول والسكاير إلى المخدرات، وحتى البشر.

وبسبب الثلج، ستكون حالة الطرق مروعة. وإذا حالفه الحظ

فسيعود إلى فيتيز لتناول الغداء في اليوم التالي ويصل إلى سارايبفو بحلول الليل ويكون لديه وقت طويل لإرسال موضوعه.

في «إيليدزا» أخذ الصرب جواز سفره وفتشوا سيارته، وكما توقع، أصروا على أن يتناول معهم كأساً ويقبل منهم سيكارة يدخنها؛ أجلسه رجال البوليس شبه العسكري الصربي في موقعهم المحصن إلى جانب موقد غاز موقت حصلوا على وقوده من خلال وصلهم أنبوباً بخط أنابيب رئيسي للغاز، وهي طريقة متبعة أدت إلى موت عدد كبير من الناس احتراقاً. ثم قدموا إليه كأس «راكيبا.» وخلال جلوسه هناك براحة مبتسماً لمضيفيه سمع، بل إنه في الواقع شعر بدوي قصف مدفعي. خرجوا من المكان ليلقوا نظرة على ما يجري. كان الومض الأحمر يتتابع في ظلام الليل. شعروا جميعاً بالانفجارات وكأنها تحت أقدامهم. أصرَ فليت عند ذلك على مغادرتهم وهو يخشى أن يكون ذلك هو الحدث الكبير الذي يتوقعه الجميع وأن يكون قد فاته. لن يتاح له التأكد بشكل أو آخر قبل أن يصل إلى فيتيز ويتحدث إلى قوات الأمم المتحدة هناك.

«هل تريد العودة إلى سارايبفو الآن أيها الأميركي؟» سأله أحد الصرب بينما كان يدير محرك سيارته.

هز فليت رأسه نفياً، وضحك مضيفوه الصرب.

بدا الأمر كأن جيش المتمردين بكامله، وكل ذلك العدد الكبيرمن المدافع الصربية المنتشرة بشكل واسع ومنظم وجميع مدافع الهاون وراجمات الصواريخ، كانت تنتظر اللحظة التي خرج فيها روسو متعثراً إلى الشارع المغطى بالثلج وبدأ ركضه البطيء، لتفتح وابل نيرانها. انعطفت الطريق منحنية إلى جهة اليمين حيث ألتقت بها طريقان فرعيتان، وبعد ذلك وعلى مسافة قصيرة اخترق ذلك القسم العريض من الطريق الإسفلتي ساحة صغيرة تقع إلى جانب مرتفع ما لبث أن انحدر

وانتهى إلى عدة أزقة تؤدي إلى سوق «باسكاريسيا» القديمة التي حولت الآن إلى منطقة للمشاة مع أنه ليس هناك كثير ممن هم على درجة من التهور تجعلهم يستعملونها. في البداية كان هناك إلى يمين ضابط البوليس مباشرة، وهو يهبط المرتفع، منازل ومتاجر وإلى يساره منطقة مدافن إسلامية قديمة صغيرة، وشواهد القبور الحجرية المحفورة ترتفع فوق الثلج مثل حراس من الأشباح يراقبونه وهو يتقدم بطريقة غريبة. أمامه مباشرة وفوقه خيم جبل تريبيفيتش المهيب الباهت اللون، وبدت الغابات سوداء مقابل الصخور البيضاء ذات الثغرات والشقوق والحجارة المتراكمة، ومنحدرات الجبل تطل من بين سطوح المنازل عبر الجسر ثم تختفي داخل السحابة السوداء القليلة الارتفاع. إذا كان لدى الصرب اجهزة للرؤية الليلية ـ وجميع الناس يقولون أنها متوفرة لهم ـ فهم الآن يراقبون تحركه الاخرق نزولاً عبر ساحة «كارسيا»، وربما كانوا يتجادلون في من الذي سيطلق عليه النار. استمر روسو في السير. لم يكن لديه مجال للاختيار. أول ما حدث هو أن ضابط البوليس تنبه إلى الرصاص الذي كان يئز وهو يتجاوزه بسرعة ويمر أمامه، ومعظمه على مستوى ركبتيه وفخذيه. أوحت الرصاصات له بالجراد. لم يكن يستطيع رؤيتها فعلاً في الظلام لكنه كان يسمع صوت أزيزها، تعقبه عن بعد أصوات مكتومة هي أصوات إطلاقها من الأسلحة. إنهم يطلقون النار علي هذه المرة دون شك.

بب ـ بب ـ بب

هي الآن أكثر قرباً.

إنهم يحددون مدى الرماية، وربما كانوا يطلقون النار من «مراكوزا» و«بستريك»، من «أوبالاً» أي ضفة النهر البعيدة التي يسيطر عليها الصرب.

التصق بالجدران كأنه يعانقها وهو يحرص على التحرك بمزيد من

السرعة، لكنه كان ينزلق ويتحرك كالأفعى على حصى الرصيف المتنافرة الأحجام. ومر رصاص خطاط فوقه وحوله من جميع الجهات ومنه رصاص قادم أيضاً يضخُ يراعاته النارية القتالة المصنوعة من الصلب مباشرة وبسرعة. ثم سمع روسو من مكان قريب جداً يكاد يكون إلى جنبه مباشرة أصوات قنابل هاون ذاهبة تمر من فوق الجدار المجاور، تطلق من فناء منزل أحدهم أو من حديقته. كان ذلك قريباً جداً منه إلى درجة أنه كان يسمع آلة إطلاق النار تضرب قواعد قنابل الهاون عند إلقاء هذه القنابل واحدة تلو أخرى في أنابيب المدافع وهي تصدر أصواتاً مثل صلصلة احتكاك المعادن، قبل أن يسمع صوت انطلاقها الشبيه بالصوت الذي تحدثه سدادة الفلين عند فتح زجاجة شمبانيا. وصل روسو إلى طرف الساحة الصغيرة وهي امتداد ثلجي يلمع في الظلام وقد ارتدَت المتاجر متباعدة عنها من الجهة اليمنى، بعد أن أصبح الجسر وجدار المدافن وراءه ولم يبق أمامه سوى جبل تريبيفيتش يرتفع بحجمه الضخم مثل جدار مرعب. أدرك روسو انه يقف الآن وجهاً لوجه أمام الثلج. إنه لا يستطيع العودة وليس في وسعه البقاء حيث هو. وإذا اتبع الطريق فستدفع به إلى الساحة وتحمله إلى اسفل فتعبر به الجسر إلى خطوط الصرب على الضفة المقابلة. إلى يمينه يلتقي بالساحة طريق آخر بخطوط قطاره الكهربائي المعلقة ومكتب قطع التذاكر العثماني الجميل المنظر وبغرفة الانتظار وهي مستطيل أسود اللون يقوم في الوسط.

ركض روسو في هذا الإتجاه مندفعاً إلى العراء والثلج يتساقط خفيفاً وقصبتا ساقيه باردتان من البلل والثلج يعلق بكاحليه ويمتصه حذاؤه. أراد أن يجتاز الساحة ويندفع إلى داخل متاهة الممرات والأزقة في الحي القديم ويشق طريقه بتعرج من جدار إلى جدار ومن بيت إلى بيت إلى أن يستطيع العثور تدريجياً على طريق المستشفى.

شاهد تساقط قنابل الهاون في القسم الآخر من المدينة وسمع

أصوات انفجارها، توهج برتقالي نابض وسقوط غير قوي الوقع في تتابع زمني مدروس بدا أن مسرحه قريب من «بوستاريتشي.» وعند وصوله إلى المبنى الخشبي في وسط الساحة أنارت الجو سلسلة من ومضات القذائف المدفعية لم تقتصر على إضاءة صخور منحدرات «تريبيفيتش» وحدها بل شملت جميع الجبال الأخرى المحيطة بالعاصمة. أصبحت السماء، عندما فتح الصرب نيران مدافعهم، تتشظى كهربائيا بالوان مختلفة من الأزرق والذهبي تومض كأنها عرض انوار الشفق القطبي الشمالي. ولجزء من اللحظة اختفت الأصوات كلياً، وبعدها لم يعد يسمع سوى ما يشبه صيحات ذعر غريبة مشؤومة تطنُ وتصطفق فوق رأس روسو بينما أخذت القذائف تتساقط على أهدافها آتية من كل الزوايا وبكل المسارات المنحنية المعروفة للمقذوفات في عملية قصف مفتوحة للجميع. وبشعور غريزي، اندفع قائد الشرطة إلى الأرض راكعاً على ركبة واحدة لحظة بدا العالم حوله كأنه أخذ يقفز ويثور منفجراً في نوبة من التشنجات الهائلة.

كان يركض ويستنشق الهواء عبر فمه المفتوح ورائحة الحريق في منخريه، ومن حوله تتساقط قطع من المباني وتطشُ في الثلج؛ طبقة من نثار الحطام ومن الغبار تغطي رأسه وثيابه. عاد الثلج يتساقط من جديد، لكن بدا في هذه المرة أن الطقس أصبح تحت رحمة الحرب، لا العكس. تخلى روسو عن كل أشكال الحذر وعن كل محاولات الاحتماء. ما الفائدة؟ كانت الشوارع أنهاراً من اللهب تغلي مرتفعة في سماء الليل، والحجارة وقطع الجص تتساقط بغزارة، والمداخل والنوافذ تعجُ بالسنة النار المترجرجة المضطربة. وبينما كان يتحرك بشكل منحرف، انزلاقاً وقفزاً عبر جادة الماريشال تيتو شاهد أمامه أحد المتاجر الكبيرة المتعددة الأجنحة وقد اعملت النار فيه ألسنتها المميتة. وبدا له ان هذا المتجر أصيب بعدة صواريخ أو قذائف بشكل متتابع، وانطلقت من الداخل موجة من اللهب بدت له نارها اقرب إلى السوائل وهي

تتقدم لولبيا وتلتف وتدور حول الجدران والسقف. أحس روسو بهواء حار يلفح ظهره. الأبراج وجيزان الدعم الفولاذية الضخمة التي كانت تشكل هيكل المبنى اندفعت إلى الخارج كأنها عيدان ثقاب متوهجة تنطلق في سماء الليل. ووسط وابل هائل من الشرارت، سقط المبنى كله، بعضه فوق بعض سقوطاً مسطحاً، طبقة فوق طبقة. وأحس روسو بحرارة ذلك الانفجار الداخلي تلفح وجهه.

أصبح روسو أكثر قرباً الآن وهو يصعد ويتسلق ويزحف على أربع أحياناً، ويرقص كأنه مخبول عبر تقاطعات طرق أنارها ومض الانفجارات فبدت كأنها في ضوء النهار. لا بدَ من أن هذه هي «هرغيتشا» قال روسو لنفسه. هناك حدائق ومنازل فردية خاصة أقيمت في أماكن بعيدة عن الشارع. أخذت المدافع تغير أهدافها الآن ناشرة على المدينة ستاراً متنقلاً من الدمار. شاهد أمامه منزلاً صغيراً، منزلاً متواضعاً ذا طبقة واحدة على غرار منازل جبال الألب وأمامه قطعة أرض مسيجة، ورجلاً يشبهه، يشبهه إلى درجة بعيدة، يرفع إليه بسرعة طفلاً بدا أنه صبي في السابعة أو الثامنة من العمر. لا بد من أنهما كانا يجرفان الثلج من أمام المنزل أو يحركان جسديهما الباردين، ثم ألقيا بنفسيهما على الأرض آملين بأن يعبر هذا الجحيم بسرعة، وعندما لم يمرَ ويتجاوزهما، غيّرا رأيهما وقررا الاندفاع هاربين.

حمل الرجل الولد، يشده إليه كأنه كرة قدم وذراعه اليمنى ملتفة حوله، وركض نحو الباب المفتوح. كانت هناك امرأة تقف على العتبة وذراعاها ممدودتان أمامها. خيِل إليه أنها كانت تتوسل إليهما وتحثُهما على الإسراع، لكن روسو لم يستطع أن يسمع أية كلمة مما تقوله بسبب دوي الانفجارات وهدير نيران الحرائق.

وصل الرجل والولد إلى حيث كانت واقفة.

وتهيّأ لروسو أنه سمع أصواتهم.

- «أسرعا أيها الحبيبان !»

- «أماه!»

كانوا هناك للحظة. على الدرج. الثلاثة معاً والمرأة تشدهما إلى الداخل، ذراعها حول زوجها والأخرى تحتضن الولد وتشده إليها عندما وصلت إليهما القذائف فمزقت البيت ارباً، رفعته وضربته بومضة هائله كما تضرب موجة صخرة من الصخور فتغمرها وترتفع فوقها مثل الرشاش، لكن الموجة هنا كانت لهبا ابيض والرشاش كان حامضاً فوسفورياً. نظر روسو وحدق ملياً، لكن البيت كان قد اختفى كليا كما اختفوا هم.

وجد قائد الشرطة نفسه في الهواء، اخذت يداه وقدماه تتحركان بسرعة محمومة.

لقد اندفع نحو ٢٠٠ متر عبر الشارع وكأن يد مارد حملته ثم تركته.

وهناك وجده أفراد طاقم سيارة الاسعاف، راكعاً على يديه وركبتيه في منتصف الطريق وعلى مسافة لا تزيد على ستين متراً من مداخل المستشفى، ورأسه يترجح من جهه إلى جهة وهو يدمدم محدثاً نفسه، باكياً، وثيابه التي سفعتها النار تحولت إلى مزق معلقة على جسمه ونصف شعره قد أشيط وامتلأ وجهه وذراعاه وركبتاه بجروح وخدوش، لكنه سلم مع كل ذلك. الطريق الاسفلتية حول روسو ذابت وتحولت إلى بحيرة صغيرة. أول شيء قالوه عندما أدخلوه إلى سيارة الإسعاف مع امرأتين أصيبتا بحروق شديدة ومع قدم طفل عثروا عليها على أفريز أحدى النوافذ، هو أنه نجا بأعجوبة فلم يعلق بها مثل حشرة على ورقة مصمَغة تستعمل لقتل الذباب. أضافوا أن هناك آخرين لم يكونوا على هذا القدر من حسن الحظ فاحترقوا كالمشاعل عندما وصلت إليهم عاصفة النار.

حاول روسو بصعوبة إبقاء نظره بعيداً عن جدعة ما بقي من ساق تانيا اليسرى المبتورة. كانت الساق مضمدة بنظافة وإتقان شديدين، وقد لفت قطعة الثوب البيضاء النظيفة حول طرفها بخبرة فبدت مثل رزمة. وعوضا عن الأقواس والخيطان كان هناك دبوس أمان كبير براق يمسك بها ويبقيها في مكانها بثبات. ولم يكن هناك أي دم ينزّ من خلالها. لقد قام ميسيتش بعمل ينمّ عن قدرة. وصعب على روسو أن يمنع نفسه من النظر إلى حيث انتهت الساق أي ما فوق الركبة. واضطر إلى أرغام عينيه على الابتعاد عنها. وبدا له أن فيها بعض الشبه بساق خروف لفت بنسيج قطني خفيف. قال له ميسيتش وهو يثرثر قرب السرير مثل الأطفال أن هناك أملاً بالنسبة إلى الساق الثانية. وبدا واضحاً لروسو أن الطبيب الجراح كان في حالة ابعد من حالة الإرهاق، فقد كانت له تلك النظرة المنهارة، النظرة غير القادرة على التركيز والتي تنتج عن التعب الشديد. أضاف ميسيتش يقول دون اهتمام كبير كأنه يتحدث عن الطقس، إن الخطر الذي يخشاه هو الغنغرينا. وزاد على ذلك قوله أن روسو يعرف الظروف التي أجروا فيها العملية الجراحية، يعرفها تماماً، وقد شاهد مثلها في السابق وليس ثمة حاجة إلى أن يخبره عنها. . وليس لديهم أجهزة اشعة اكس/ اشعة سينية/. توقف ميسيتش قليلاً ثم قال إنه يقصد غنغرينا الغاز في صورة خاصة فهي الأشد فتكا. بعد التشيتنيك إسهال مزمن وقرح شديدة. . هوه . . هوه. . هوه. . أضاف ميستش محاولاً تخفيف الواقع.

نظر روسو إلى وجهها. بيضاء لا اثر للون فيها. شاحبة مثل غطاء الوسادة.

ابتسمت له لكنها كانت أضعف من ان تستطيع رفع رأسها. تناول يدها المنهكة.

أحس بها تشده نحوها بضعف.

«اقترب» قالت له. «اقترب أيضاً»

انحنى فوقها. احس برأسه يدور.

ـ «هل يحاول الصرب الاستيلاء على المدينة؟»

أجابها «لا أعتقد أنهم يحاولون ذلك. إنه العقاب المألوف ينزلونه بنا. لديهم القوة النارية لكن ليس لديهم الرجال، ونحن عندنا الرجال وليست لدينا القوة النارية، ولذا فهم يحاولون تدمير ما لا يستطيعون الحصول عليه» ـ «ألم أقل أنكم أنتم الرجال أشبه بأولاد خطرين؟»

ـ «بلى، قلت ذلك»

ـ «ورجال لوكا؟»

ـ «في خطوط القتال، لقد جندوا في الجيش»

ـ «إذن فقد كان الأمر خدعة، كل تحركات القوات تلك. خدعة لدفع رجال لوكا إلى جبهة القتال. لقد أبليت بلاء حسناً» رد عليها روسو قائلاً «وقد قمت أنت بدورك. لا تتكلمي الآن. اخلدي إلى الراحة»

ـ «قل لي إن سارايفو لا تزال حية. قل لي إن هذه ليست النهاية وليس هذا ثمن جعل رجل عصابات يمثل أمام العدالة»

«ولا حتى بداية النهاية» أجابها روسو.

قالت له «عدني بأمر واحد وبعد ذلك أنام»

ـ «ما هو؟»

قالت «لا تكره»

«أنا لا أكره» رد روسو وقد فوجئ.

ـ «لا تكره التشيتنيك، ولا أباك»

- «مضت سنوات على موته»

- «لقد كرهته حياً وأنت الآن تكره نفسك لأنك ابنه. تصالح مع ذاتك وحقق سلامك الداخلي. الحياة قصيرة جداً. أرجوك. هلا فعلت ذلك؟»

أحنى روسو رأسه موافقاً.

- «هناك أمران اثنان. عدني بأمرين»

- «ما هو الثاني؟»

- «قبلني. بلطف. على فمي»

فعل ذلك. كان نفسها جافا تفوح منه رائحة المطهرات. وفيما هو يتراجع تمسكت بذراعه. قالت «أشعر بالأسف لبرانستون. خرجنا معاً لكنني لم أكن لطيفة جداً معه. كانت رفقته جيدة.. أردت أن أشرح»

- «ألم تحبيه؟»

- «لا. لم أحبه»

«ثم أخذت الأحداث تجري» قال روسو.

- «اكتشف أنني كنت أقابل لوكا. أبلغه أصدقاؤه ذلك. لم يصدقهم في البداية، كان مخلصاً جداً. ثم قدموا له صورة لنا معاً في جزيرة هفار»

- «واكتشف لوكا أنك كنت تقابلين فليت»

- «نعم»

- «ولم يكن في وسعك أن تخبري برانستون أنك تقابلين لوكا لأن ذلك كان في نطاق عملك معي ولم تستطيعي إبلاغ لوكا انك تخرجين مع برانستون...»

أحنت رأسها موافقة.

- «وما الذي حدث بعد ذلك؟»

- «أخذ رجال لوكا يراقبون برانستون فسيطرعليه الخوف. فتشوا غرفته. كانوا يقفون خارجها ويلاحقونه في الشارع»

- «أكملي»

- «وأخيراً فجّروا سيارته. لوكا غيور بشكل جنوني»

- «كان فليت في حالة رعب. هذا صحيح. لكنه لم يقل لي أنهم نسفوا سيارته»

- «طبعاً، لم يكن ليخبرك ذلك. أخذ يكثر من شرب الكحول واخذ يعاشر...»

«البغايا» قال روسو.

- «أنا آسفة. إنها غلطتي»

- «ليس هذا صحيحا، فقد قمت بعمل رائع في مسألة لوكا»

«هل كنت تعرف المرأة؟» سالت تانيا ويدها ممسكة بأصابع روسو بقوة وبشكل يكاد يوجع.

- «لا»

- «أنا عرفتها. لقد عالجت أسناني»

تراخت يد تانيا وبدات كأنها غير قادرة تماماً على أبقاء عينيها السوداوين مفتوحتين.

«أنا بخير» قالت. «أنا فعلاً بخير» أضافت في همس. «آسفة جداً علي أن أنام. يجب أن أنام»

ونامت وهي تبتسم، أو هكذا خيل إليه.

في هذه الأثناء كان القصف المدفعي مستعراً. لم يكن دوي القصف هو الطاغي بل الطريقة التي كانت الجدران والأرض تردد بها هذا الدوي، إذ بدا الأمر شبيهاً بزلزال خفيف أو بسلسلة من الارتجافات جعلت كل شيء غير مثبت بقوة أو غير مشدود بشكل كاف، يقفز وينزلق ويسقط وتصدر عنه خشخشة. زجاجات الماء انقلبت على الأرض وتحطمت، «نونيات» الأسرّة سقطت عن الخزائن محدثة قعقعة، وتراقصت الملاعق على الأرض، بل ان الأسرّة نفسها كانت تهتز ويصدر صرير عنها. بدا كل ذلك شبيهاً بهجوم تشنه أرواح شريرة أو بركوب متن عاصفة بحرية. العاملون في المستشفى يمدون أيديهم ليتمسكوا بالجدران المطلية بدهان مائي أصفر اللون، ويسيرون متقوسي السيقان مبعدين القدم عن الأخرى بحذر وعناية مثل بحارة سفينة «ترولة» وسط أمواج عالية.

ميسيتش لا يزال يتكلم جالساً على طرف سرير تانيا، ولسبب غير معروف، متجاوزاً روسو ببصره، محدقا في ظلمة الرواق. نزلاء المستشفى جميعا، أي أولئك الذين لم تكن تجرى لهم عمليات جراحية، كانوا في الممرات ممددين في الظلام ورأس الواحد منهم قرب قدمي الآخر، صارخين من الألم، مستنجدين معولين، وبعضهم، خاصة الأولاد، ينشجون طالبين أهاليهم، خائفين من العتمة، من الآلم، من دوي المدافع المتتابع يهتز له المكان. إنه بحر من الأطراف البشرية الدائمة الحركة تحت تلك الأقمشة البيضاء الشبيهة بالأكفان. قال ميسيتش ان هذا المكان هو الأكثر أماناً لبعده عن الجدران الخارجية. ذوو الأصابات الأقل خطراً من الآخرين مددوا على الأرض إذ لم يكن هناك ما يكفي من الأسرة ومن الحمّالات. وانتشرت رائحة الدم والبول بقوة في الجو الرطب.

قال له ميستيش ان تانيا كانت حسنة الحظ. نعم. وجدوها تجر نفسها على الطريق - «كراليا توميسلافا» - التي تقع تحت المدافن،

وإحدى ساقيها تكاد تكون مفصولة عنها. كانت تانيا تقبض عليها بإحكام وتشدها إليها كأنها تعتقد أن بإمكان الأطباء أن يخيطوها ويعيدوها إلى حالتها السابقة. لو جرى الأمر في لندن أو باريس فلربما كانوا حاولوا ذلك. أما هنا فلا. ليس ثمة وقت كاف فقد كانت الدماء تغطيها. وضعوها في القسم الخلفي من سيارة ڤان مع آخرين هم جميعاً حالات ميؤوس منها، لكنها استمرت ترفع رأسها مغمغمة باسم الطبيب. ميسيتش. ميستش. وتعود بعد ذلك فتغرق في دمها. وعند وصولهم إلى المستشفى أعلنوا وفاتها. عندما خرج ميسيتش ورآها قالوا له أنها توفيت نزفا. انحنى فوقها ووضع إصبعين على حلقها. لم يكن هناك أي نبض. كان بإمكانه أن يقسم يميناً انها توقفت عن التنفس، لكن بما أنها كانت بين أوائل الواصلين، ولأن أحد المساعدين سحب ميسيتش من ذراعه قائلاً له ان جريحة وصلت الآن وإنها تصرخ مرددة اسمه فقد توجه الطبيب إلى الفناء الأمامي فرآهم يسحبونها من سيارة الفان وساعدهم في حملها إلى الداخل ونقلها مباشرة إلى غرفة العمليات الجراحية حيث أنعشها فعادت إلى الوعي ثم أجرى لها عملية نقل دم ضخمة. يعلم الله أنهم كانوا بحاجة إلى دم. وقال إنه مع ذلك أعادها إلى الحياة. كانت الجروح تملأ رأسها وفي جسمها عشرات من القطع المعدنية. ولو تأخر وصولها دقيقتين ووصلت مع العدد الأكبر من المصابين لكانوا بذلوا أقصى ما يستطيعون لجعلها ترتاح فأعطوها حقنة تخفف عنها الألم قليلاً وتركوها تموت. أتدرك، قال الطبيب للتحري، طبعاً أنت تدرك. كدت لا أعرفها بسبب الدماء. وتنهد ثم قال نعم أيها المدير، دقائق قليلة وكنت تركتها تموت. حسناً هذا ليس صحيحاً تماماً لأنها، تقنياً، كانت ميتة، كنت إذن تركت الأمور كما هي. لاخيار هناك، كما ترى. وهز كتفيه استهجاناً. لقد ترك عدداً كبيراً من الناس اليوم ليموتوا. أما ساق الفتاة، فقد انتظر ميسيتش أطول مدة ممكنة قبل أن يبترها. لكن لم يكن هناك جدوى، قال لروسو وهولا يزال يحدق

في الرواق المظلم. لا جدوى. كنت مضطراً. أردت أن انقذ الساق. أكبر قسم أستطيع إنقاذه منها يا ابني العزيز. وفجأة أدرك روسو أن ميسيتش كان يبكي وأن الدموع تنهمر على وجهه. لا جدوى، قال الطبيب مرة أخرى. تحتاج تانيا إلى عناية مناسبة، في الخارج، عبر البحار. ستفقد الساق الثانية إذا بقيت هنا. انتزع ميسيتش نظارتيه عن عينيه ومسحهما بكم معطفه الذي أصبح القسم الأمامي منه يابسا كلوح الخشب نتيجة الدم المتخثر. لا جدوى. وبدا كأن هاتين الكلمتين مطرقة تضرب دماغ ضابط البوليس. لا جدوى. لا جدوى.

اليوم الرابع

الفصل السادس عشر

«المشهد الأخير دام، مهما كان سائر المسرحية رائعاً.
يلقون التراب فوق رأسك وينتهي الأمر إلى الأبد.»

بليز باسكال «أفكار»

سيارة مصفحة، عربة بشعة ذات ستة إطارات مطاطية ضخمة ذكّرت روسو بشكل الصرصار (على رغم الطلاء الأبيض والعلم المثلث الشكل لفوج مشاة فرنسي الذي يرتفع من هوائي للراديو)، أعادت روسو عبر الطريق التي قدم منها قبل أربعة أيام. انطلقت بسرعة في زقاق القناص، وأمام واجهة الفندق التي نخرها الرصاص والقذائف، ثم انحرفت وسط دخان الليلة الماضية. وكانت تثب فوق سكة القطار الكهربائي مجتازة ما كان قبلاً نقطة التفتيش التي كان يقف عليها محمود والتي أصبحت الآن كومة من الرماد لا تزال النار مشتعلة في داخلها، واتجهت إلى مبنى البريد والاتصالات السلكية واللاسلكية. بدا الأمر مثل مشاهدة فيلم سينمائي يدار بسرعة بصورة عكسية ويكاد يكون هزلياً مضحكاً، أو مثل «أوراق الحظ» في لعبة «المونوبولي.» ماذا تقول؟ اذهب إلى السجن. لاتمرّ. وغير ذلك.

الجنديان الفرنسيان اللذان جاءا لمواكبته هذا الصباح كانا صبورين، وبدا عليهما الملل بينما كان نيناد الجدّي ذو النظارتين يوقظه بطريقة ليستْ شديدة النعومة.

- «أيها المدير»

هزّه نيناد بشدة.

- «أيها الرئيس»

خرج روسو من بين بطانياته المفروشة على ارض مكتبه وجلس متأوهاً. أحسّ بتيبّس في كل أنحاء جسمه. نظر إلى ساعته، إنها الحادية عشرة صباحاً. ساعتا نوم في ٢٤ ساعة.

إنهما عسكريان محترفان، وقد لاحظ ذلك من رأسيهما الحليقين وثيابهما العسكرية الرثة التى حال لونها لأنها غسلت مرات عديدة، ومن عيني كل منهما غير المباليتين، ومن طريقة تصرفهما برباطة جأش وعدم استعجال. ولكونهما كذلك، فهما متعودان على الانتظار. فالجندية، في نهاية الأمر هي إلى حد بعيد، تعلُم الانتظار، وتتخلل هذا التعلُم أحداث قصيرة من النشاط الجسدي المكثف. ينبغي القيام بالأمرين دون سؤال ودون اللجوء إلى التفسير والتبرير. والد روسو كان يستطيع فهم صفة التنبُه الفيزيائي الغريبة هذه المقرونة بالاستسلام. وعندما رفع روسو نفسه إلى أعلى مستنداً إلى مكتبه ثم أعلن أنه أصبح على استعداد، إعطياه سترة واقية من الرصاص. هكذا تقضي القواعد المتبعة. وما الذي يريدونه منه؟ الجنرال يطلبه. الاستفهامات الأخرى التي صدرت عن شرطيين من زملاء روسو لم تلق جواباً سوى هزة كتف فرنسية وتقديم سيكارة للمستفهم. قال أحد العسكريين لروسو «إذا لم نتأخر ووصلنا في الوقت المناسب، فانك على الأقل، ستحصل على افطار محترم.»

قبل أن يغادر روسو المكان نزل مترنحاً إلى الطبقة التي تقع تحت الأرض ليتفقد سجينه. وجده متجهماً صامتاً. أخذ لوكا يسخر وعيناه واطباقة فمه تنضح بالعداء. قال حراسه أنه تناول طعامه وشرب كوباً كبيراً من القهوة وقبل سيكارة. بل إنه «شخر» بكلمات شكر.

بعد ذلك بدقائق كان روسو يخرج من القسم الخلفي لناقلة الجند «البانهارد».

جرى إرشاده إلى الطريق فسلكها صعداً بارتقاء بضع درجات، ثم سار بمحاذاة السواتر المصنوعة من الأكياس المعبأة رملاً، وعبر ابواب مبنى البريد الزجاجية الضخمة مروراً بجنود مشاة البحرية الفرنسيين الذين يحرسون المكان. «فوالا!» - إنه الإفطار: بيض وكرواسان (هلاليات) وقهوة ساخنة.

وقف في الصف وقد أذهله المنظر والرائحة، وأخذ يراقب من هم أمامه في الصف ليرى كيف يخدمون أنفسهم بأنفسهم. لا شك في أن عالمنا يبدو قذراً وحقيراً جداً لهؤلاء الأجانب، قال روسو لنفسه. لا شك في أنهم يعتبروننا حيوانات تعيش وسط روثها وأقذارها. لا بدّ من أنه يصعب عليهم فهم مدى السرعة التي تستطيع بها مجموعة مؤتلفة من الحرب والجوع والفقر أن تخضع شعباً فتنقله من القرن العشرين بما فيه من آلات فيديو وتسجيل وغسالات صحون وسيارات وعطلات تمضى في بلدان أجنبية، وتحول الواحد منه إلى إنسان «نياندرتالي» يعيش دون اغتسال في كهف من الكهوف وهو راغب ومستعد دائما لسحق دماغ جاره من أجل حفنة من الحبوب.

- «هل صرت أفضل؟» جرى شخص يرتدي ثياب ميدان داكنة ترتديها قوات حلف شمال الأطلسي بمحاذاة المقعد الخشبي الطويل الذي يجلس عليه ثم جلس في مواجهته. رجل عملاق أحمر الشعر أزرق العينين، طوى أصابع يديه الممتلئتين بالنمش على كوب كبير من القهوة السوداء. بدا ذلك لروسو تصرفاً على قدر هائل من الرضا الذاتي، وشعر، للحظة، بغضب شديد غير منطقي على البزّة العسكرية.

- «أنا الرائد -»

«روسو» ردّ ضابط التحري الذي لم يستطع في الواقع أن يميز اسم

الرجل، فقد كان أجنبياً جداً وغامضاً.

عليه أن يقف ويمد يده، لكن تناوله طعاماً بهذا الشكل الجيد ليس أمراً يحدث كل يوم في سارايفو. لقد أدرك فجأة كم هو جائع بينما كان يجرف البيض والنقانق والبندورة/ الطماطم/ والقهوة الساخنة الطازجة والأرغفة الساخنة مع علب صغيرة من الزبدة والمربى، إلى الصينية، ويضعها إلى جانب سكاكين وشوك بلاستيكية وأكياس صغيرة معبأة بالسكر والملح. فكّر في شعبه واكتشف أيضاً كم هم جائعون جميعاً، دائماً وطوال الوقت، تسكنهم شهوة أكّالة دائمة.

بدا روسو كالأخرق وهو يحاول بعصبية تدبّر أمر هذه الكومة وتقرير ما الذي يبدأ بأكله، وفي سعيه إلى ترتيب كومة الأطعمة. واستمر يضرب بهذا وذاك من المواد فتندلق على الطاولة وعلى الأرض أحياناً، فكأن أحداً سيأتي ويأخذ كل ذلك منه أو يطالبه بدفع ثمنه بعملة لا يمكنه الحصول عليها. وفي النهاية ملأ روسو فمه ببقايا الكرواسونة الأخيرة، ماسحاً المربّى عن أصابعه بمنديل ورقي، ثم بعد أن فقد صبره على محاولاته التزام آداب المائدة، رمى بالمنديل أرضاً وأخذ يلعق أصابعه.

ـ «اعذرني فقد ـ.» لم يكن هذا شعور روسو الفعلي. لم يكن متأسفا. وإذا كان قد شعر بشيء إطلاقاً فبالغيظ من الطريقة التي يعيش بها هؤلاء السياح.

ـ «لا عليك، أيها المدير»

وبينما كان روسو يشرب قهوته، أخبره الرائد أنه ضابط ارتباط، وهذا يعني أنه يتعامل مع القوات المحلية، ومعنى هذا بالنسبة إليه أنه يتعامل مع قوات صرب البوسنة في قطاع سارايفو. وبما أن روسو على وشك الاجتماع إلى قائد القوات الدولية، فقد كلِف أن يضعه في الصورة ويشرح له الأوضاع قبل هذا لاجتماع. أجاب روسو قائلاً

بفظاظة إن الصراحة التامة توجب عليه القول أن هتمامه بإعادة ملء كوبه بالقهوة يفوق اهتمامه بصورة الأمم المتحدة. وعسى إلا عتبر هذا إهانة. لا إهانة في الأمر، جاء الجواب.

ـ «هل تعرف شخصاً يدعى برانستون فليت؟»

«إنه صحافيُنا الأميركي المقيم» أجاب روسو.

ـ «هل تعرفه شخصياً أم من خلال كونه شخصية شهيرة؟»

ـ «معرفتي تشمل الناحيتين أيها الرائد. أعتقد أن باستطاعتك القول إننا أصدقاء تقريباً. إننا نشترك في كره العنف وفي الخوف منه.»

ـ «ها تعرف أين هو الآن؟»

ـ «رأيته أمس. غادر مكتبي عائداً إلى فندقه ليبعث بموضوع إلى صحيفته. لماذا تسأل؟»

«لقد اختطف» قال الرائد، ثم أضاف «احتجز رهينة.»

رأس الجنرال كبير يرتفع على جسم صغير، ووجهه طويل واذناه ضخمتان.

حملت كل كتف من كتفيه شارة رتبته المؤلفة من هراوتين متقاطعتين وما بدا تاجاً لعيني روسو.

«إنه لكرم منك» قال الجنرال وهو ينهض عن كرسيه ويلتفّ حول مكتبه ليتقدم من روسو ويصافحه. كرم؟ كرم؟ ومرت عبسة على وجه روسو.

ـ «مدير الشرطة روسو، ألست مصيباً؟ تفضل بالجلوس. لا أعتقد أنك سترفض فنجان قهوة أو كوب شاي. أليس كذلك؟ لقد قيل لي إنك تناولت افطارك، ليس سيئاً. أليس هذا صحيحاً؟ أنا أحب الفواكه الطازجة في شكل خاص، ألا تحبها؟» وبدا أن الجنرال مكبٌّ على طرح

سؤال تال قبل أن يكون روسو أجاب عن السؤال الأول. بالنسبة إلى روسو، لم يكن ترحيب الجنرال الحار به وأسئلته ـ التي لا يتطلَب أي منها جواباً ـ أكثر من ستار من الدخان يخفي دوره غير الفعال، وانحياز ضباط دوليين من أمثاله إلى الصرب المنظّمين ذوي البزّات النظامية وذلك المظهر الخادع من الحفاظ على الشكليات العسكرية.

ـ «قيل لي إن والدتك بريطانية، أصحيح هذا؟»، طرح الجنرال السؤال بشكل يوحي بالثقة والعلاقة الوثيقة، وقد مال إلى الأمام كأن بينهما أموراً مشتركة.

أحنى روسو رأسه موافقاً بصمت.

«هذا في الواقع يجعلك واحداً منا، أليس كذلك؟» قال الرائد بابتهاج.

لا شكّ في ذلك. ترى هل يعرفون أمر والده أيضاً؟

ـ «كيف كانت الحال معك الليلة الماضية؟»

فتح روسو فمه، لكن الجنرال كان يهرول بقوة نحو مجال آخر أكثر أماناً.

ـ «تحدثت محطات الإذاعة عن سقوط ثمانية قتلى. إنه لعدد قليل جداً بالنسبة إلى ضراوة الهجوم. أعتقد أن الجميع كانوا محتمين بطريقة أو أخرى. ما الذي في رأيك أدى إلى ذلك؟»

ـ «أنا ـ»

ـ «بصراحة، نحن في وضع عسير جداً، أيها القائد. ولا شك في أنه من الصعب عليكم إدراك ذلك إدراكاً كاملاً. إنكم تشاهدون العذاب والآلام حولكم طوال الوقت.

إنه لأمر مروع! أما نحن فكلُ ما نستطيع فعله هو أن نراقب

ونرفع التقارير. هذا ما نفعله. ما زلنا ننتظر إعطاءنا انتداباً جديداً، لكن في الوقت ذاته لا يبدو أن أحداً يستطيع التوصل إلى اتفاق على كيفية دفع كلفة وجودنا هنا.» وابتسم لروسو كأن الأمر طرفة يضحكان لها، لكن روسو كان قد تخلّى عن محاولة الإجابة وصار منجذباً إلى حالة استكانة أقرب إلى السبات نتيجة هذا «المونولوغ»، والإفطار الذي تناوله لدى قوات الأمم المتحدة.

وضع الرائد كوباً كبيراً من القهوة أمام روسو كان ثالث كوب لمدير الشرطة.

ـ «هل أعرض شريط الفيديو على حضرة المدير يا سيدي؟»

ـ «فكرة حسنة أيها الميجر»

«فلنبدأ» قال الجنرال.

أدخل الرائد كاسيت الفيديو في الآلة الموضوعة في الزاوية.

كان ذلك فليت دون شك، وقد جلس بشكل مستقيم على غير عادته، كأن أحداً يكزه في ظهره. لم يكن هناك أي صوت فالخاطفون لا يثقون به كي يسمحوا له بالكلام. ظهر فليت في الشريط وهو يرفع نسخة من طبعة اليوم السابق لصحيفة «أوسلوبودينيي.» ابتسم ابتسامة قصيرة. طرفت عيناه. ارتفعت إحدى يديه من حضنه ورفعت شعره عن وجهه. تحركت شفتا الأسير. شريط الفيديو هو من قياس ثمانية ملليمترات، وبدا أن الألوان قد بهتت قليلاً خاصة اللون الأحمر في قميصه الأميركي وهو من نوع «تي شيرت.» لا بد من أن هذا الشريط هو نسخة من عدة نسخ. وستكون أحداها أمامهم الآن في واشنطن. رأى روسو أن فليت بدا متعباً، لكن لم يكن هناك ما يشير إلى أنه لقي معاملة سيئة. انتهى الشريط وأصبحت الشاشة فارغة.

طلب روسو أن يعاد عرض الشريط مرة أخرى.

- «هناك بيان مرفق بالشريط حضرة المدير»

قرأ روسو البيان الذي طبع بآلة كاتبة. بيان قصير. طالب الخاطفون بالإفراج عن لوكا لقاء إطلاق سراح فليت. كان هناك مهلة قصوى هي ظهر اليوم التالي وتهديد يلفُه الإبهام يقول «المسؤولية الكاملة عما يحدث للأميركي تقع كلياً على عاتق مجرم الحرب روسو رئيس شرطة التحري المزعوم الذي أخفى الأدلة وزرع مكانها أدلة كاذبة وزيّف التهم ودفع بمخبرة الشرطة السيدة بوكوفاتش إلى حتفها.»

التفت الرائد إلى روسو وقال «لقد ذهبنا إلى الفندق وتفحصنا الأشياء العائدة إليه.»

«كان عليكم أن تتركوا ذلك لنا» رد روسو. وأضاف «إنها مسألة مدنية.»

بدا الميجر/الرائد/ في حالة عدم ارتياح، والتفت إلى الجنرال ساعياً إلى الحصول على دعم منه لكن الأخير كان يرسل نظره عبر النافذة مستغرقا في حالة تأمل.

- «الإفراج عن لوكا ليس وارداً.»

إذن أنا الأن مجرم حرب ولست ابن مجرم حرب، قال روسو في نفسه.

«آه. بلا ريب» اندفع الجنرال قائلاً بصوت بدا أبعد ما يكون عن الاقتناع. وتابع قوله«لكن صدر واشنطن أخذ يضيق.»

رد روسو عليه بعناية فقال «آمل بأن تفهم عندما أقول إن قلق واشنطن على حياة أحد الأميركيين ليس شأنا رئيسياً في كفاحنا. إنكم لا تدافعون عنا ولا تسمحون لنا بأن نقوم نحن بذلك. ويجب ألا تستغربوا ألا نشارككم غضبكم لأن أحد الأجانب أصبح ضحية. وهو ليس ضحية حتى الآن.»

«طبعاً أيها الشاب العزيز» قال الجنرال وهو يبتسم لروسو ابتسامة خالية من الملاطفة وروح المرح. «لقد قال لي وزيرك الكلام نفسه تقريباً، إنما بشكل أطول.»

أخرج الجنرال قطعة ورق هي رسالة بالتليكس مخططة باللون الزهري في أحد جوانبها السفلى. وقال «لفليت موضوع صدر في الصفحة الأولى من جريدته صباح اليوم» كبير شرطيي سارايفو يطيح رئيس مافيا. «وقد ورد فيه اسم مدير الشرطة. هل تريد قراءتها؟» هزّ روسو رأسه نفياً.

تابع الجنرال قوله «يبدو ان فليت كان متوجها إلى «فيتيز» الليلة الماضية وقد أعلم صحيفته أنه متجه عبر «مزرعة السمك» إلى قاعدتنا في «غرونيي فاكوف» لكن لم تره أية دورية من دورياتنا. وقد صدرت إليهم الأوامر بالبقاء متيقظين»

- «وسيارته؟»

هز الرائد رأسه دلالة على عدم معرفته شيئاً عنها.

- «وشريط الفيديو؟»

- «سلّم إلى مقر قيادتنا في «كيسيلياك» صباح اليوم التالي، أعطاه أحدهم إلى جنود دانمركيين كانوا في مهماتهم عند المدخل الرئيسي»

- «من يحتجزه؟»

-«عناصر متمردة»

- «هذا كلام مراوغ للأمم المتحدة للحديث عن أعمال صربية لا تستطيعون القيام إزاءها بشيء، أو لا تودون القيام بشيء، ولا يعترفون هم بالقيام بها»

نكس الرائد بصره وركزه على مكتب الجنرال كأن حالة افتتان بهذا

المكتب قد سيطرت عليه فجأة.

قال الجنرال بمرح «نعتقد إنه كان في الأمر ما يسميه الفرنسيون «faux barrage» أي نقطة تفتيش كاذبة» بل ربما كان هناك نقطتا تفتيش اثنتان من هذا النوع، وليس هذا غير مألوف. تتوقف عند حاجز التفتيش الأول حيث يدققون في هويتك ويتأكدون مما إذا كان معك مرافق أو إذا كنت مسلحاً، ثم يتصلون باللاسلكي بالحاجز الثاني ويعطونه رقم لوحة تسجيل سيارتك، وعندما تفتح باب سيارتك أو تنزل زجاج النافذة لتكلمهم يسحبونك من السيارة دون صعوبة»

«الانفصاليون وحدهم منظّمون بهذا القدر الكبير» قال روسو وهو لا يتوقع جواباً.

أضاف «ما الذي تريدني أن أقوم به؟»

تبادل الجنرال والرائد النظرات.

«تصوَرنا أنه قد تكون لديك فكرة عن كيفية معالجة الأمر» أجابه الجنرال، ثم أضاف قوله «وكذلك كان اعتقاد وزيرك. كان هذا الرجل صديقك، أليس كذلك؟»

- «ما الذي يجعلك تعتقد أنهم يقبلون إن يأخذوني؟»

لم ينظر الجنرال إلى روسو وهو يردُ على كلامه.

- «لم يكن لوكا مفيداً لهم إلا عندما كان يديرعمليات التهريب والابتزاز هنا.

كان نجاحه نجاحا لهم. وسواء بالنسبة إليهم الآن أن يكون في السجن أو خارج المدينة، فلم تعد للوكا قيمة عندهم الآن. المسألة كما أتصور هي مسألة إنقاذ ماء الوجه، مسألة الشرف بين اللصوص وما شابه ذلك. وفي ما يتعلق بفليت فلا بدَ من أنهم الآن غدوا مدركين

أنهم سيتعرضون لضغوط شديدة إلى أن يطلقوا سراحه، بل إن أسيادهم الصرب أنفسهم في بلغراد لا يريدون أغضاب واشنطن. صديقك فليت ليس شيئاً يسهل امتلاكه، إنه ملكية حارة جداً ومحرقة»

مشى الجنرال نحو النافذة.

يعرف روسو الجواب. لكنه أراد أن يسمعه منهم. لقد قام جنود حفظ السلام بدرس المسألة في العمق، وهناك ضابط ارتباط صربي بوسني، قريباً منهم في المبنى، فوقهم قليلاً أو تحتهم قليلاً.

قال الجنرال «سيحاولون أن يجروا مقايضة: الإفراج عنك مقابل الإفراج عن عدد من أفراد جماعتهم المحتجزين هنا بصفة مجرمين أو سجناء حرب»

أجابه روسو «سيصابون بخيبة أمل عندما يكتشفون مدى ضآلة عدد ما يساويه كرواتي من ساراييفو من هؤلاء الصربيين»

«أعتقد أن اسم روسو يعني شيئاً في هذه النواحي. فأبوك ـ» وهنا تردد الجنرال ساعيا إلى وسيلة للتغلب على الحرج الذي سيطر عليه، لكنه لم يجد وسيلة.

تابع الجنرال كلامه بعد ذلك «هناك هذا الأمر، مسألة والدك، وهو كله من الماضي. لكنك أكبر ضابط شرطة هنا، والقبض عليك يعطيهم هيبة واحتراماً. وقد يسلمونك للسلطات الصربية ليكون لهم الفضل في ذلك ويكسبوا شيئاً من الاحترام.

أليس هذا ما يسعى إليه الخارجون على القانون.. أن يكونوا مقبولين؟»

لا شك في أنهم يعرفون ما يريدونه مني، قال روسو لنفسه. بالنسبة إلى الأمم المتحدة أنا لست أكثر من مشكلة إدارية، وبالأحرى فإن فليت هو المشكلة، وقد توصلوا إلى أفضل طريقة يمكن أن تخطر

لهم لحل هذه المشكلة وأغلاق الملف، كما كنت فعلته أنا تماماً لو كنت مكانهم.

مضى روسو يحدث نفسه قائلاً إن «صربيا»، والمناطق التي يحتلها الصرب في البوسنة لا يمكن أن يتحرك العمل فيها دون السوق السوداء. فلتوقُف الأعمال في قطاعي الصناعة والزراعة، وكون ٦٠ في المئة من القوة العاملة عاطلة عن العمل، تحولت المخدرات إلى أهم وسيلة غير شرعية لكل من يحتاج إلى عملة صعبة لدفع ثمن الوقود المهرب. مبالغ طائلة من الأموال النقدية لقدر كبير من الوقود - للدبابات والطائرات وسيارات الشحن وللتدفئة وللطبخ. ومن شأن اعتقال لوكا أن يكلفهم غالياً. كان الجنرال ومساعده ينظرون إلى روسو منتظرين جوابه.

- «ألديكم ماء ساخن؟» سأل روسو. «أرغب في أن اغتسل اغتسالاً حقيقياً.. بل في حمام إذا كان هذا ممكناً - بينما أفكر في الأمر. وسأرحب جداً ببعض الثياب النظيفة أيضاً.»

قاد أنيل سيارة مدير الشرطة، إذ رفض روسو أية مواكبة من قوات الأمم المتحدة وحتى وجودها؛ وقد أصر على ذلك فتطوّع أنيل لتولي القيادة. وقف إطلاق النار المحلي الذي أجرى مفاوضات بشأنه ضابط ارتباط دولي عملاق أحمر الشعر، يبدأ، وفقاً لما اتفق عليه، في الساعة الثانية بعد الظهر ويستمر ثلاثين دقيقة. وستجري عملية التبادل على أحد الجسور القائمة فوق نهر «مالياكا» في المدينة، جنوبي الحي العثماني مباشرة. وقد اختاروا لها يوماً مشمساً براقاً. إنه يوم جيد للتزلج على الثلج قال أنيل. وافق روسو على ذلك قائلاً أنه طقس مثالي.

فجأة ساد الجو بينهما صمت مطبق لم تقطعه سوى كلمات قليلة بينما كانت سيارة اليوغو تسير وإطاراتها ترتطم بالحصى الكبيرة التي

رصف بها الشارع، وتمر قرب مسجد «باسكارسيا» ثم تخفف سرعتها مجتازة شارع «استشيلوك» المهجور الذي لم يستطع الثلج أن يخفي تماماً ما تراكم فيه من الحطام نتيجة فعل القذائف في مبانيه. كانا يسيران في موازاة النهر. لم يكن هناك أي شخص يبدو للعيان، ما من سيارة أو عابر سبيل. خفف أنيل السرعة الآن لتعادل سرعة المشي، وأشار روسو بيده إلى الجدران العالية التي حجبت بقايا ما كان في السابق مبنى البلدية اللافت للانظار بطرزه المغربي الزائف إلى أن هدمه التشيتنيك وسووه بالأرض.

«قف» قال له.

- «هل اخترت أنت هذا المكان أم هم الذين اختاروه؟»

«هم اختاروه» أجابه روسو.

دمدم أنيل معبراً عن غضبه.

كانا على بعد بضعة أمتار من المكان الذي تلقى فيه فرديناند أرشيدوق النمسا السيئ الحظ رصاصة خلال زيارة رسمية له عام ١٩١٤ إلى المدينة. وقد سبق ذلك إلقاء قنبلة على موكبه. وجرى تغيير طريق الموكب لكن السيارة التي كانت في المقدمة انعطفت في الاتجاه الخطأ؛ وسارت سيارة الزوجين الملكيين ليصبحا في مرمى نار مسدس القاتل، مما أدى إلى حشد ضخم للجيوش ما لبث أن تحول إلى الحرب العالمية الأولى. لم يبد على المكان ما يشير إلى أنه موقع على قدر غير عادي من الشر، ومع ذلك فربما كان أحد أشد أماكن المدينة خطراً وانكشافاً لنيران الأسلحة.

يعرف روسو أن هناك لوحة وضعت حيث أردي الأرشيدوق؛ وقد وقف روسو نفسه هناك في أيام شبابه يحاول تصوُر ذلك المشهد، وقف حيث كان الأرشيدوق وحيث كان القاتل ساعيا إلى إحياء الحدث

الذي قرأ عنه في صفحات كتبه المدرسية الباهتة.

الساعة الثانية وعشر دقائق وأمامه خمس دقائق. جلس الشرطيان، أحدهما قرب الآخر، ينتظران. محرك السيارة يدور وأنيل يدخن بغضب. قال أنيل عابساً «ليس عليك أن تقوم بذلك. نستطيع العودة من حيث أتينا ولن يقول أحد عنك كلمة سؤ بسبب هذا الأمر أو يفكر فيك بسؤ. لسنا مدينين للأميركيين بشيء.» كان أنيل متوتراً غاضباً.

- «لا أقوم بذلك من أجل الأميركيين يا أنيل»

- «من أجل ماذا إذن؟»

- «من أجلي أنا. فغداً عندما يجلون الدفعة التالية من المرضى والمصابين على متن طائرة الصليب الأحمر، ستكون تانيا هناك. وسيكون محمود وابنته نور هناك أيضاً. أريدك أن تكون موجوداً مع اثنين من الرجال للتأكد من أنهم سيفون بوعدهم.»

- «تقوم بذلك من أجلهم؟»

- «ومن أجل برانستون أيضاً، فأنا من أوقعه في هذه الورطة»

صاح أنيل مزمجراً «فليت؟ لقد أوقع ابن الزانية نفسه في ذلك. الولد اللعين يرغب في الحصول على جائزة بوليتزر القذرة، لكنك لن تكون موجوداً لتصفق له عندما يتسلمها.»

حافظ روسو على صبره.

- «إنه أحد شهودنا يا أنيل، فهو يستطيع تأكيد شهادة نور. وبدونه لا قضية لنا. شهادة نور لا يمكن أن تثبت وحدها في المحكمة وأنت تعرف ذلك.

- «هناك بوكوفاتش، أو ما تبقى منها. وهناك الوزير، هل أخبرتك؟ ولدينا حتى بصمات أصابع لوكا في الشقة.»

- «كان الوزير يفكر في طرق أخرى»

- «تعني أنه أراد عملاً مباشراً، أن يقضي على لوكا؟»

- «كان رأيي أن الأمر سيشكل ورطة وفوضى شديدتين. طلب مني أجمع أدلة على تورط لوكا في تجارة المخدرات. وحرص على أن تكون عملية نقل القوات من مواقع إلى أخرى خلال الشتاء عملاً يستأثر بالانتباه، وعلى التأكد من جعل لوكا يدع رجاله يبتعدون عنه مما يقلص مستوى حمايته وامنه الشخصي. وقد أراد بعد ذلك اقتحام مركزه. لكن عند مقتل بوكوفاتش مدد المهلة المعطاة لي يومين في ما يمكنك وصفه بأنه علاوة غير متوقعة»

- «إذن فقد ماتت في قضية جيدة»

- «لقد ماتت في رعب وألم. نحن سببنا لها ذلك»

- «كانت قصبة مكسورة، شخصاً ضعيفاً لا يعتمد عليه أيها الرئيس»

- «زوجتي كانت مدمنة كحول يا أنيل. ما الفرق بين مدمنة الكحول ومدمنة المخدرات؟ الاثنتان ضحيتان، لكن روح زوجتي لم تكن محطمة، وليس هناك ما يدفعني إلى الاعتقاد أن طبيبة الأسنان كانت تختلف عنها. كانت جائعة معظم الوقت، ويشلُها الرعب طوال الوقت، وتلك المادة المخدرة إغراء اقوى من أن يقاوم. لقد علقت وقمنا نحن بإغلاق باب الخروج في وجهها. إنني ألوم نفسي على ما جرى لكلتيهما.»

- «لم نكن نحن من قتل المخبرة، لوكا هو الذي قتلها. وأولاد العاهرات هؤلاء -» قال أنيل وأدار وجهه بعنف نحو ضفة النهر الأخرى وقد ارتسم على الوجه عبوس وغضب.

التفت روسو إلى أنيل.

ـ «حان وقت ذهابي. عندما أخرج من السيارة أرجع بها إلى الوراء. فوراً ثم اتجه عائداً من حيث أتيت. لا تنتظر. إذا تسكعت هنا فستكون نتيجة ذلك سيئة بالنسبة إلي. كثير من الناس هناك يرغبون في أن تنتهي هذه المسألة بشكل سيىء.»

ثلاث دقائق.

ـ «يؤسفني أمر ابنتك ـ»

«ابنتي بالتبني» رد روسو عليه مصححاً قوله.

ـ «ابنتك بالتبني. لقد قامت بعمل جيد بالتقرب إلى لوكا»

ـ «لم تفعل ذلك من أجلنا»

ـ «ما الذي تعنيه بقولك هذا؟»

ـ «لقد قامت بذلك لتحميني وتحمي زوجتي»

ـ «ولهذا السبب لم يتعرض لك؟»

هز روسو رأسه موافقاً.

ـ «قامت بدور مزدوج. إنه لشيء غريب يا أنيل، أن يكون الأمر الوحيد الذي حاول لوكا أن يقوم به بشكل صحيح هو الأمر الذي قضى عليه في النهاية، أعني إحساسه السليم بكيفية التصرف تصرفا صحيحاً مع تانيا»

لم يتابع أنيل كلامه. لم يرد أن يفهم. ليس الآن. لقد قام بدور السائق لأنه أراد أن يقنع روسو بالتخلي عن المغامرة كلها، لكنه الآن لم يعد واثقاً من ذلك.

فشهادة فليت مسألة حيوية لتثبيت تهمة القتل على لوكا. وسعادة نور وتانيا في المستقبل، وربما سابينا.. كل ذلك يتوقف على إجراء عملية التبادل بنجاح.

عرف روسو الآن، كما كان يعرف طوال الوقت أن أنيل لا يستطيع أن يجادل في هذه المسألة. يجب أن تمضي عملية التبادل قدماً.

«آه، كدت أنسى» قال أنيل ملقياً ورقته الرابحة وهو يعلم أنها الآن لن تكون كافية.

«عثرنا على فاسيتش، أو بالأحرى فان رجال الأمم المتحدة عثروا عليه، بل على ما بقي منه. هناك في «باتشيتشي» في الطريق إلى «ستوب»، تعرف ذلك الجسر هناك، مصاباً بالرصاص في مؤخرة رأسه وملقى في خندق إلى جانب الطريق. وكذلك كان حال زوجته»

ـ «وكيف نعرف أن الجثتين جثتاهما؟»

ـ «شخص سمين. كم شخصاً سميناً هناك الآن؟ قبعة تيرولية. وشارة البوليس لا تزال في جيبه»

ـ «يا للمسكين، لا شك في أنهم قالوا له إنهم يسلكون طريقا مختلفة إلى المطار...»

قال أنيل «انظر. معي زجاجة هنا. خطر لي أنك قد ترغب في كأس من أجل الطريق»

كان أنيل يبذل جهده.

ـ «لا شكراً»

ـ «أمتأكد من ذلك؟»

ـ «نعم»

دقيقتان. خرج روسو من السيارة ودفع بابها فانغلق، وانحنى فجعل وجهه في مستوى النافذة المفتوحة وقال «سررت بالعمل معك أيها المفتش»

ـ «مفتش؟»

ـ «سألني الوزير عن أفضل رجل لتولي المركز، مركزي. كل ما عليك القيام به هو الأقلاع عن تدخين تلك العشبة الضارة. وإذا قرروا في يوم من الأيام إدخالكم في القوات المسلحة، فمن شأن مركزك الجديد أن يعطيك رتبة ضابط.»

لم ينتظر جواباً بل استدار وبدأ يسير نحو الزاوية. سمع أنيل يضع بدال السرعة في الاتجاه الخلفي ويبدأ بتحريك السيارة فتتراجع إلى الوراء ببطء.

لم تكن المسافة طويلة، وقد وفر الجدار شيئاً من الحماية لروسو مع أنه مهدم في بعض اقسامه.

دع تفكيرك يتركز على كرات الغولف. لكن المشكلة هي أنه هو ورقة العشب الخضراء الوحيدة التي تظهر للعيان في هذا القسم من الطريق اليوم والجميع يعرف ذلك.

دقيقة وأحدة.

لم يبق هناك الكثيرمن فندق «أوراسيا»، ومع ذلك فقد كان في انتظاره هناك جندي بوسني دون العشرين من العمر يرتدي قبعة من الفراء من الطرز الروسي لذي يغطي الأذنين. أومأ الجندي إليه من خلال ثغرة كبيرة في الجدار الخلفي طالباً منه التقدم، واخذ يقوده داخل المبنى المدمر الذي ترشح منه المياه. بدا له المكان نوعا من الملاهي الليلية، أو قاعة طعام، لانتشار المرايا الدخانية اللون على جدرانه وسقفه. اجتازاه عبر ممر ثم صعدا على درجات سلم، ومن هناك باب ثم غرفة أخرى ثم ممر آخر. كان الوحل منتشراً في كل مكان، وقدما روسو تعبران فوق أغلفة فارغة لعيارات نارية.

بعد دخول باب ثالث وجد روسو نفسه داخل ما بدا له حجرة مؤونة واسعة لكنها ملعب لتيارات الهواء، واستطاع أن يرى منها تقاطع

الطرق الذي يقع قبل «جسر برينسيب.»

كان هناك جنديان أخران، جلس أحدهما في مقعد سيارة بلاستيكي رمادي اللون حشر في إحدى الزوايا وأحيط بأكياس الرمل، وأدار ظهره إلى الجسر، لكنه كان يستعمل سلسلة من المرايا لمراقبة التقاطع والجسر نفسه والسوق المقامة في أرض مكشوفة والتي هي الآن في أيدي المتمردين.

نهض الجندي من كرسيه وأشار إلى روسو طالباً إليه أن يجلس مكانه. وبصمت، قدم الجندي سيكارة إلى روسو. هز روسو رأسه معلناً عدم رغبته، وابتسم ثم جلس.

كانت هناك ثغرة في الجدار وقد دعمت بأكياس الرمل، ومن خلال ذلك مد أحدهم مرآة ربطت إلى أنابيب معدنية لتطل إلى الخارج في شكل زاوية. كان في وسع روسو الجالس في المقعد يراقب انعكاس صور المرآة هذه على مرآة أخرى كبيرة أمامه بدت كأنها قسم من منضدة تزيين كانت لأحدهم، أن يحصل على منظر كامل وشامل للمنطقة دون أن يعرض نفسه لنيران العدو.

- «كم نبعد عنهم؟»

- «عشرين متراً إلى الجسر حيث ترى الدرابزون، ثم خمسة وثلاثين متراً لاجتياز الجسر نفسه، وربما هناك عشرون متراً أيضاً لتصل إليهم.»

كان الجنود ينظرون إليه مترقبين.

- «فلننطلق»، قال واندفع واقفا. اخذوه إلى الباب الجانبي.

لم يكن مرة في حياته أكثر شعوراً ببعده عن دور البطل مما هو الآن.

قال له الجندي المسوؤل عن العملية «سنراقبك. سنبقى نكلمك إلى ان تصل إلى الجسر وعندها عليك الاتكال على نفسك. سر ببطء لكن

بثبات. لا تركض. لا تتوقف.

عندما تشاهد الرجل الآخر لا تتوقف لتتحدث إليه، لا تقل شيئاً بل استمر في السير.

وسيكونون قد أبلغوه التعليمات نفسها. لن يفيدكما أن تتوقفا لتدخنا وتتبادلا الكلمات.

واضح؟ نستطيع أن نسمع كل شيء ونرى كل شيء، وهم يستطيعون ذلك أيضاً.»

ومد الجندي يده ووضعها على كتف روسو.

- «اسمع. يجري كثير من عمليات تبادل الأسرى والأقارب على هذا الجسر. يجري ذلك دائماً، وتنجح هذه العمليات معظم الأحيان. إنكم لا تسمعون إلا بتلك التي يحدث فيها ما يخالف المتفق عليه فلا تنجح. تذكّر أن لديك كثيراً من الوقت. هدئ من روعك عندما تخرج إلى هناك»

- «شكراً.» إنهم يرون انه في حالة من التوتر العصبي. لا بد من أن الجميع يعانون من هذه الحال قبل العبور. يا لهم من مساكين بؤساء.

الساعة الثانية والدقيقة الخامسة عشرة. لقد حان الوقت.

خطا إلى الخارج بارتباك، وكاد يلوي ركبته لأن رصيف الشارع ينزلق بعيداً بعض البعد عن المدخل. كان الثلج هشّا فغرقت قدماه بضعة سنتيمترات فيه لأن أحداً لم يضع رجله هناك منذ آخر سقوط للثلج.

«الديك علم أبيض؟» سأله أحد الجنود.

«لا» أجابه روسو.

- «إخلع قميصك»

- «ماذا؟»

- «إخلع قميصك اللعين»

وقف في مكانه، وترك سترته تسقط وخلع كنزته البلوفر ثم فك أزرار قميصه وخلع قميصه الداخلي. القميص الداخلي يفي بالغرض. كان أبيض جرى تنظيفه في الصباح السابق.

آه، يا يسوع. هل أفسد الأمر؟

أعاد روسو كل شيء إلى ما كان عليه. ساعته تشير إلى الثانية والدقيقة السادسة عشرة.

«الآن إرفعه. سر وإرفع ذراعك.»

خرج إلى وسط الطريق حاملا القميص القطني الداخلي بيده اليسرى. بدأ يسير قدما. كانت هناك أشجارَ زان ودردار تحيط به من الجانبين والسماء الزرقاء تطل من بين أغصانها. مع بياض الثلج الذي يحيط به من كل جانب، وأصوات قرقرة الماء، بدا كل شيء جميلاً جداً. أحس بتوق إلى أن يتوقف قليلاً للاستراحة، إلى أن يجلس على الجسر ويتمتع برؤية الماء يجري، ويتظاهر بأنه لا يرى ما أحدثته الحرب من أضرار وأذى.

وصل إلى الدرابزون، ولاحظ كيف بدأت الأرض تحت قدميه بالارتفاع قليلاً قليلاً وهو يسير صعداً على الجسر. في تلك اللحظة شاهد شخصاً يسير متجها إلى ناحيته. في البداية لم ير سوى رأسه وكتفيه، وما لبث أن رآه كله. كان ذلك فليت حاملاً علما أبيض مرتجلاً صنع من غطاء وسادة وربط إلى عصا، معقوداً عقدة واحدة.

كان الأميركي يحمل أيضاً كيساً بيده الأخرى. واستطاع روسو أن يميز على ظهر فليت المستوعب المستطيل الأسود الذي يستعمله لنقل

«اللابتوب»، أي جهاز الكمبيوتر النقال الذي يستعمله.

الساعة الثانية وسبع عشرة دقيقة. شعر روسو بألم في كتفه فنقل قميصه الداخلي إلى يده اليمنى.

التقى الرجلان عند منتصف الجسر تقريباً، فلم يلتفت أي منهما إلى الآخر ولم ينظر إليه ولو نظرة عابرة سريعة. لم يجرؤ أي من الاثنين على ذلك بل نظر كل منهما أمامه مباشرة وساراً متيبسين كأنهما في جنازة شخص ما. جنازة روسو.

لم تصدر عن أي منهما اية كلمة.

ستجرى محاكمة صورية مسرحية وستكون الإدانة والحكم قراراً متخذاً سلفاً.

ستجري محاكمة اسم روسو، لا محاكمتي أنا.

أبقى روسو بصره مرتفعاً، أبقاه على منحدرات الجبال أمامه، وعلى اشجار التنوب المغطاة بالأبيض والسماء الزرقاء المتألقة بصورة تبدو غير معقولة. كان الهواء الذي يلفح خديه منعشاً ونقياً جداً وبارداً جداً. قال في نفسه: رائع أن تكون خارج البيت أو العمل. هناك في ذلك المكان كنت اتوقف لتناول «تشيفابيتشي» من أحد أكشاك الطعام. كنا دائماً نهمين أيام الشباب. لم نكن نشبع في تلك الأيام، كنا في حالة أكل دائم.

الساعة الثانية والدقيقة الثامنة عشرة. بقي هناك اثنتا عشرة دقيقة.

أو ربما رصاصة واحدة فقط، قال لنفسه. ودون أي مراسم. يجري دفعه ليركع على ركبتيه في الثلج فيحسّ بالرطوبة تخترق قماش بنطلونه. وعلى غرار ما حدث لماسيتش. ماسورة باردة تضغط على مؤخرة أذنه، ونظرة خاطفة من ذلك الجنرال الصربي الذي يراقب ما يجري من سيارته الدافئة وهو يدخن سيكارة.

إنه يودُ أن يشهد موت أحد أفراد عائلة روسو.

توقّف عن ذلك.

قال لنفسه على الأقل هناك مرة واحدة صمد فيها وقف إطلاق النار. إنه وقف إطلاق النار الخاص بي. إنها حياتي. وأنا من يقرر تقديمها. ليس في وسعهم أن يقولوا لي كيف أفعل ذلك أو أين أفعله أو متى. إنها آخر شيء، والشيء الوحيد الذي عليّ، في نهاية الأمر، أن أردّه. رأى أمامه منظر الناس الذين ينتظرونه.

بدا خط تجمعهم أسود إزاء الثلج. كانوا في انتظاره بتكاسل عند أحد المداخل وأيديهم في جيوبهم. بدوا له مثل الآخرين؛ مهزولين محدودبين ويذقون لم تحلق. بنادقهم تتدلى من على إكتافهم والسكاير في أفواههم. عمال مزارع، جنود على غير رغبة منهم. ينتظرون بعدم اكتراث. لا يهمهم إذا مات الآن وفي ذلك المكان.

أحس برعدة الخوف تسري فيه. بدا الأمر مثل ابتلاع الثلج. كان مرتعباً طوال الوقت ومن البداية لكن رعشة الخوف تملكته عندما شاهد العدو وجهاً لوجه. ارفع بصرك قال لنفسه، لا تنظر إلى جلاديك. وإذا كان عليك أن تموت فمت وأنت تنظر إلى المدينة لا إلى وجوههم، فانها ستبقى موجودة بعد أن نذهب جميعاً، نحن وهم. ما الذي يقوله الكتاب المقدس عن خطايا الآباء والأجداد؟ لم يستطع روسو تذكر القول بدقة، لكنه يضع حدا للأمر هنا، الآن. بالنسبة إليه لن تكون هناك سبعة اجيال من صنف والده. العربة تتوقف هنا، على حد تعبير فليت.

كان آخر صوت في أذنَي روسو عندما وصل إلى نهاية الجسر وبدأ يجتاز الساحة هو صوت انسحاق صفحة الثلج النقية ببطء واطراد تحت وطأة حذائه. بدا ذلك شبيهاً بشق قشرة خبز طازج جداً ما زال حاراً إثر خروجه من الفرن. قال لنفسه إنه لن يكون هناك يوم أروع من اليوم لمسيرة مثل هذه.

فهرس

THE MONKEY HOUSE

رواية
NOVEL

منزل القِرَدة

جون فولرتون

في عالم مدينة تموت بالنار والجوع... يتحكم بها القتل الوحشي الذي حصد الألوف وحوّل ساراييفو الجميلة إلى شبه مقبرة كبيرة... ما أهمية أن يخاطر رجل أمن كبير بحياته وحياة من حوله في مواجهة مع كبرى ميليشيات المدينة وإشدها ضراوة لكشف قتلة امرأة ضعيفة لا شأن لها... وما معنى السعي إلى تحقيق العدالة في عالم رهيب كهذا...؟

يقول البروفسور انتوني اولكوت انه لم يعد متاحاً لنا كما كان في روايات من سبق فولرتون في هذا النوع من الكتابة الأدبية أن نتمتع بترف يتمثل بطرح سؤال هو «من فعل ذلك؟»... فتصوير فولرتون لساراييفو يذكرنا بشكل شديد القسوة بأنه قد يكون علينا... كي نحقق العدالة في هذا العالم حولنا... ان نجيب أولاً عن سؤال هو: «من يهتم؟».

ISBN 9953 - 36 - 059 - 6

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي،
هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨/٧٥٢٣٠٨